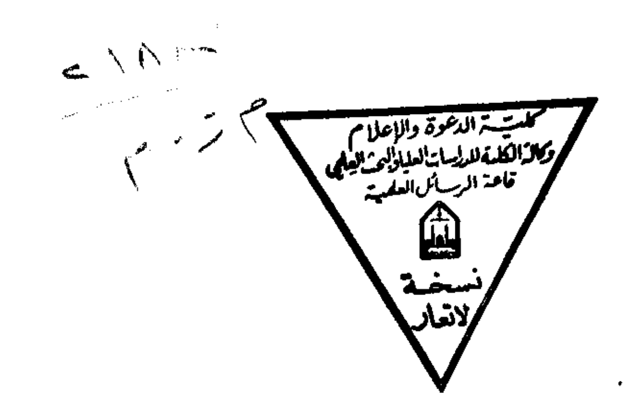
المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الدراسات العليا
المعهد العالي للدعوة الإسلامية



المنهج الإسلامي لبناء المسلم المعاصر

رسالة لنيل درجة الماجستير من
المعهد العالي للدعوة الإسلامية



إعداد الطالب
زكريا عابدين عثمان محمد

إشراف الدكتور
محمد صالح محي الدين

العام الجامعي ١٤٠٢-١٤٠٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

" الباب الأول "

المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة ..

مقدمة الرسالة :

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وبعد ، فان من نعم الله الكثيرة علينا ، أن هيأ لنا الظروف لنكون طلابا بالمعهد العالي للدعوة الاسلامية بالرياض ، ونتصل بأساتذة أجلاء ، نأخذ من علمهم ، ونقتدي بهم في الأخلاق والسلوك ، ونسير على منهج سلفنا الصالح . وحيث وفقني الله تعالى واخترت التخصص في قسم الدعوة والاحتساب ، وانتهت الدراسة التمهيدية بهذا القسم ، كان لزاما عليّ أن أقدم بحثا متكاملا في موضوع من المواضيع المتعلقة بالدعوة أو الحسبة ، وقد وقع اختياري على موضوع رجوت أن أبذل جهدي الممكن ، وأنفع به نفسي واخواني المسلمين ـ وهذا الموضوع هو :

المنهج الاسلامي لبناء المسلم المعاصر .

(أ) أهمية الموضوع وسبب اختياره :

ان الأمة المسلمة لها هوية متميزة ، وذلك أنها أمة عقيدة ودعوة وهذه الهوية هي التي تحدد مهمتها ورسالتها . فمهمتها اذن هي المحافظة على هذه العقيدة نقية صافية في القلوب والتقيد بها قدر الامكان ، وابلاغها لكافة الناس هادفة من ورائها اخراج الناس من الظلمات الى النور ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن عبادة العباد الى عبادة الله تعالى وحده .

والقرآن الكريم جاء ومن أهدافه تربية جيل من الناس يتحمل أمانة التبليغ ، تبليغ الرسالة الخاتمة ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الى البشرية كلها ، جاء ليربيهم تربية سوية توافق الفطرة البشرية وتتواءم مع النفس الانسانية ، يربيه قلبا وروحا ، وجسدا وعقلا ، وخلقا وسلوكا ، ويسمو ويتدرج به حتى يحيله قرآنا متحركا ،

تاسيا برسول الهدى صلى الله عليه وسلم .

ثم جاء ليصنع من أمة القرآن (أمة عزيزة أبية لا تذل ولا تضعف ، ولاتهن ولاتجبن، تجاهد أعداء الله وأعداء الانسانية ، وتحقق خلافة الله على الأرض كما أمر الله .

وقد وعى الجيل المثالي من المسلمين تلك المهمة وهذه الأهداف ، وعلموا أن المسلم هو من استسلم لأحكام الله كلها تحقيقا لقول الله تعالى : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) [1] ، وفهموا الاسلام فهما شاملا كاملا سليما بحيث ماكان يخطر على بال أحدهم أن تكون هناك قضية يحتكم فيها لغيرالله ، أو أن هناك قضية ليس لله تعالى فيها حكم : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) [2] ، فكان تفاعلهم مع كل جزء من أجزاء الاسلام تفاعلا كاملا ، فحققوا بهذا المفهوم العبودية الكاملة لله تعالى في نفوسهم وعرفوا معنى : لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فالتزموا حدودها كما سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوه يفعلها ، وحرصوا على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم ، وتفاعلوا مع أخوة الايمان : (انما المؤمنون اخوة) [3] ، فكان ولاؤهم للمؤمنين من دون الكافرين ، وتفاعلوا مع فريضة الجهاد ، فانتشروا في الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف ، والنور بعد الظلام ، والهدى بعد الضلال ، فاستقبلتهم الأرض شرقيها وغربيها أحسن استقبال ، واقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين للأمم .

ثم كانت لهذه الأمة انفصالات عن هويتها الحقيقية ، أورثت خللا في ذاتيتها ، وفي أدائها لمهمتها المنوطة اليها وهي أمانة تبليغ الدعوة،فاضطربت في سيرها ، وصارت تابعة بعد أن كانت قائدة ، وبدا عليها الضعف والذلة والمسكنة بعد أن كانت قوية عزيزة يخشى جانبها الأعداء ، وافتتنت بمنهج أعدائها في التصور والحياة ، فصاحب ذلك انهزام داخلي ، وتقليد ومحاكاة في كل شيء ، وفقدان للثقة بالنفس، وكانت آثار

---

١ سورة النساء الآية ١٢٤
٢ سورة النحل الآية ٨٩
٣ سورة الحجرات الآية ١٠

ذلك كله ، أن تخلفت عن مواكبة العصر ، وأصبحت في الموءخرة بعد أن كانت في المقدمة .

ولكن رغم ما أصاب الأمة المسلمة من ضعف ، ورغم ضراوة خطط الأعداء في الكيد بها لابقائها بعيدة عن هويتها الأصيلة ، فان الحل مازال بأيدي المسلمين ، وسيظل كذلك مادام كتاب الله موجودا بينهم ، ومادامت تجربة الجيل القرآني الأول ماثلة وحيّة في النفوس .

ان أول سوءال يمكن أن يثور في نفس الموءمن المخلص الحريص على دينه : كيف السبيل لاعادة الشخصية الاسلامية لهذه الأمة ، لتوءدي رسالتها ومهمتها التي اختارها الله لها ؟!!

وأرد على هذا التساوءل بقولي : كيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون من عرب الجزيرة العربية أمة تحمل رسالة ، وتنشىء حضارة وتصنع تاريخا ، كأنه ضرب من الأساطير ؟!

وكيف خلقت رسالة الاسلام من الفرقة وحدة ، ومن الضعف قوة ، ومن الأمية علما ، ومن البداوة حضارة ، ومن الحفاة العراة خير أمة أخرجت للناس ؟!

ذلك سر هذا الدين ، ومنهجه – الذي لايدانيه منهج – في تقويم النفوس والأمم وأثر تطبيقه في الأفراد والجماعات .

ولابد لذلك من العودة الى الرسالة الخالدة ، والأخذ من معينها الذي لا ينضب لوضع الأسس والقواعد التي على أساسها تبنى الأفراد والجماعات والأمم .

والعناصر الأساسية لهذه الرسالة الخالدة في التربية والبناء هي : العقيدة والعبادة والأخلاق . فالعقيدة هي أصل الفطرة التي تنحرف بدونها الفطرة ، ولا سبيل الى تقويم الاعوجاج الا بالعودة الى العقيدة الصحيحة مرة أخرى .

والعبادة : هي الوسيلة للتربية الورحية ، وهي الوسيلة التي تصل العبد بخالقه . أما الأخلاق : فهي ترجمة تلك المعاني جميعها في واقع السلوك والحياة .

ان هدف هذا الدين هو اقامة مجتمع انساني نظيف ، نظيف العقيدة ، نظيف المشاعر والسلوك ، يبدأ بالفرد فيرده الى فطرته السليمة ، ويربي فيه الضمير المرهف الحساس ، ويروضه على الخلق الفاضل الكريم ، ويقيم الأسرة على المودة والفضل والرحمة ويتعهد النسل بالرعاية والتعهد حتى يشب عن الطوق ، ويكوّن المجتمع على الطهارة والحب والتكافل والعدل ، وعلى أساس الوفاء والحق .

وبناء الأفراد على هذا الوجه ، لايعني مفهومه المألوف ، فهو لا يقتصر على المسجد وأماكن الدرس والتعليم ، ولايختص بالعبادة دون السلوك والأخلاق الكريمة ، أو يهتم بالفرد وحده دون تقويم المجتمع ، أو يعنى العقيدة ويهمل العمل وتزكية النفس، انما يشمل كل هذه الجوانب مجتمعة .

وهذا ماحاولت بيانه وتوضيحه من خلال سطور هذه الرسالة .

(ب) مشكلات البحث :

أولا : ان أكثر مايواجه الباحث في موضوع معين هو ندرة المصادر التي تعالج البحث ، ولكن مشكلتي كانت في كثرة المراجع التي تعالج ذات المواضيع التي أدرجتها في مخطط بحثي واختلاف هذه المصادر في طرق علاجها للموضوع ، فكانت مهمتي عسيرة جدا ، حيث يتطلب البحث مني محاولة غربلة هذه المصادر - القديمة منها والحديثة - واستخراج مايتمشى مع منهج بحثي ، وقد أجهدت نفسي في ذلك كثيرا ، فكنت أقلب عشرات المصادر ، وأتصفح مئات الصفحات ، ولا أظفر منها بشىء يشفي غليلي ويتمشى مع ما أريد .

ثانيا : ان موضوع بحثي هو - المنهج الاسلامي لبناء المسلم المعاصر - وكل من يلقي نظرة على هذا العنوان ، يتبين لة أن الموضوع يشمل الاسلام كله ، فكل ماجاء في القرآن هو توجيهات للمسلم في مجال العقيدة والعبادة والأخلاق،

وتفاصيل الشريعة التي تتطلب علما وعملا ، ومادام الموضوع يشمل الاسلام كله فانه يمكن أن يعالج من زوايا مختلفة ، بحيث لو أعطي نفس الموضوع لعشرة من الباحثين لعالج كل منهم الموضوع من زاوية تختلف تماما عن الآخرين ، لذلك فان أكبر مشكلة واجهتني هي كيف أبدأ الموضوع ، وماهي أفضل الطرق لعلاج هذا الفصل أو ذاك ؟ وهل أضع اطارا عاما لمنهج البناء أم اختار أسلوبا معينا لبناء المسلم ، وأبذل جهدي لابراز تفاصيل ذلك الجزء ، وبعد تقليب للأمور ، استقر رأيي على معالجته بوضع الأسس التي يقوم عليها بناء المسلم في الاسلام ، والوسائل التي - أعتقد أنها - لو اتبعت يمكن أن تساعد في بلورة تلك الأسس والقواعد في مجال التصور والسلوك والواقع ، فان وفقت فمن الله تعالى ، وان كان غير ذلك فعزائي انني بذلت ما أملك من قدرة وطاقة .

(ج) مكان البحث من البحوث السابقة في الموضوع :

مادام المسلمون يتلقون توجيهاتهم وأوامرهم ونواهيهم من معين واحد - هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - فلن يختلف المسلم في أيّ زمان ومكان عن المسلم في زمان ومكان آخر من حيث التصور والاعتقاد والسلوك ، ولكن قد يختلف المسلمون في مستوى التزامهم وخشيتهم وتقواهم بقدر التفاوت الموجود بين الأفراد في التلقي والالتزام .

وحين أتحدث في موضوعي هذا عن المسلم المعاصر ، انما أقصد به ذلك المسلم العادي ، ولا أقصد ذلك المسلم الذي وعى دينه الوعي الحق ، ومارسه الممارسة العملية ، وعاشه كما ينبغي أن يعاش ، بل أقصد أولئك الملايين والملايين في هذا العالم الاسلامي أجمع ، الذين يحملون أسماء مسلمة ، ويحملون أحيانا نوايا حسنة ولكنهم منصرفون عن دينهم بسبب الجهل وسوء التوجيه ، وبسبب جهود أصحاب التيارات الفكرية والعقائدية المنحرفة المعاصرة التي لا تنفك تسعى جهدها لصرف المسلمين عن دينهم ، فالمسلم المعاصر بهذا المفهوم قد فقد ذاته وهويته ، فحاولت أن أتلمس الخطوط العريضة - التي لو اتبعت - يمكن أن تسهم في بناء شخصية مسلمة سوية وعلى أسس اسلامية صحيحة .

انني أعترف أنني لم آت بجديد في الموضوع ، ولم آكن أفكر في ذلك - ولكن شيئا واحدا كان يشغلني عند اختيار الموضوع وبعده ، وهو أن المسلم المعاصر قد فقد ذاته وهويته ولابد من تضافر الجهود لاعادة بنائه على آسس اسلامية سليمة لتمكينه من عبادة ربه على الوجه المشروع ، والوقوف أمام التيارات الفكرية المنحرفة ومكايد الأعداء ليتلمس طريقه وسط الظلام والضلال الى النور والهدى . وقد قصدت في علاج الموضوع على هذا النحو المعروض به الى شيئين :

الأول : محاولة جمع الشتات مما كتب في المواضيع الأساسية عن الاسلام في مكان واحد والتنبيه الى أهمية كل منها في بناء الشخصية السوية للمسلم .

الثاني : محاولة البيان - ومن خلال العرض - أن الاسلام الحنيف يتضمن منهجا فريدا في البناء والتربية ، وأن موضوعاته مترابطة،تكون عقدا متكاملاومترابطا ،فهو منهج وطريق صالح لبناء الأفراد والجماعات .

أما الخلل الذي قد يجده القارىء في هذا البحث في الأسلوب والاستدلال والعرض والصياغة ، فناتج في الأساس من قلة البضاعة التي بحوزتي ، ثم الى ضعف المقدرة ، وقلة الخبرة عند باحث مبتدىء مثلي ، ثم الى أهمية الموضوع المعروض للبحث وصعوبة التسلسل في ذكر حقائقه والربط بينها بصورة منسقة ومنسجمة .

(د) منهج البحث :

لقد بذلت وسعي ليكون هذا البحث موجزا قدر الامكان ، وخاليا من فضول الكلام ، جامعا في نفس الوقت لأهم أسس ووسائل وأساليب بناء الشخصية المسلمة لذا كان اهتمامي كثيرا وبالغا في بعض المواضيع ذات الأثر المباشر ، كالقاعدة الايمانية - عن غيرها من المواضيع التي تعتبر وسيلة من وسائل البناء غير المباشر .

وقد جمعت فيه كثيرا من المواضيع المتناثرة في الكتب والدراسات والأبحاث حول الأسس والوسائل والأساليب المباشرة وغير المباشرة المتعلقة بتكوين الشخصية

السوية ، وتطرقت خلالها الى بعض المسائل الفقهية - دون الدخول في تفصيلات وتفريعات الفقهاء - مع الاستعانة ببعض ماتوصل اليه العلماء من خلال تجاربهم في توجيه الانسان نحو السلوك الاسلامي .

وكان أكثر اعتمادي - بعد الله وبعد الأصلين النيرين كتاب الله وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - على المصادر الحديثة لقرب منهج مؤلفيها للنهج الذي انتهجته ، وقد حاولت - قدر الامكان - توحيد نسخ مصادر ومراجع البحث بالاعتماد على طبعة واحدة للكتاب ، ولم أعتمد على طبعتين مختلفتين كمصدر واحد الا نادرا حين يتعذر حصول نفس النسخة مرة أخرى .

ويتألف هذا البحث من مقدمة ، وثلاثة أبواب :

أما الباب الأول وموضوعه - المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة - فقسمته الى فصلين ، اقتصر الأول منهما على منهج البحث العلمي في الاسلام، وقد حاولت من خلال مباحثه اثبات أن المسلمين هم أول من أصلوا أصول وقواعد البحث العلمي على أساس الاستقراء والاستنباط والتجربة والمشاهدة وأن منهج بيكون الاستقرائي الذي بنى عليه الغرب منهجه العلمي أساسه منهج الأصوليين من العلماء المسلمين في الاستدلال ، وقصدت من ايراد هذا الفصل على النحو المذكور ، الى شحذ همم الشباب المسلم ، ليحذوا حذو الأولين من المثابرة والجد في البحث والتنقيب واستخلاص الحقائق ، ويكونوا روادا كما كان سلف هذه الأمة الخيرة .

وسرد الفصل الثاني منه تاريخ نشأة منهج البحث العلمي في الغرب وتطوره وقواعده وفق الرأي السائد عند الغربيين أنفسهم ، وفي المبحث الأخير منه حاولت تقويم بعض المفاهيم الخاطئة التي نشأت في الغرب من منطلق قواعد البحث العلمي الحديث ، وبينت وجه الخطأ وفق التصور الاسلامي لها وفي حدود قدراتي المتواضعة .

وفي الباب الثاني وعنوانه - قواعد بناء الفرد المسلم - بينت القواعد الأساسية التي يقوم عليها بناء الشخصية المسلمة وجعلته في ثلاثة فصول :

في الفصل الأول بينت أن الاسلام استسلام مطلق لألوهية الله وحده ، ثم انصياع لأوامره ونهيه وقضائه ، وأن هذا الاستسلام لايرتكز الا على يقين كامل في القلب ، ولا يعمر الايمان الحقيقي الا بعد الفهم الصحيح لتفاصيل هذا الايمان ، فاذا استقام الايمان على هذا النحو ، خاليا من كل مدخل من مداخل الشرك ، نقيا من الدرن والكدر، تحققت مظاهر الاستسلام كلها في كيان الانسان لأوامره ونواهيه وسائر أحكامه وتشريعاته ، ومثلت لأثر الايمان في الانسان بأمثلة حية من حياة سلفنا الصالح ، رجاء أن يقتدى بهم في تلك الأوجه وغيرها من الأمور المتعلقة بحياة الانسان .

والفصل الثاني منه جعلته تحت عنوان القاعدة التقليدية ، حاولت من خلاله بيان مفهوم العبادة في الاسلام وأهميتها والأسس الصحيحة للعبادة ، والوظائف الأساسية لها ، وكيف تساعد العبادة من خلال وظائفها في بناء الشخصية المسلمة .

أما الفصل الثالث فقد جعلته بعنوان القاعدة الأخلاقية ، وفيه بينت مفهوم الأخلاق الاسلامية وخصائصها ووسائل اكتسابها وتقويمها ، وفي المبحث الأخير منه بينت كيف يتم بناء المسلم من خلال تقويم أخلاقه ، وأفضل الوسائل المؤدية لذلك .

وبينت في الباب الثالث وعنوانه ، وسائل بناء شخصية المسلم — أهم الوسائل التي أعتقد أنها تساعد في ترجمة معاني العقيدة والعبادة والأخلاق الى واقع عملي معاش في السلوك والحياة . وقد تفرع هذا الباب الى خمسة فصول :

ذكرت في الفصل الأول وعنوانه — بناء الشخصية السوية من خلال الأسرة — كيف أن الأسرة وسيلة ضرورية وهامة من وسائل بناء شخصية المسلم . ووضحت من خلال مباحثه على مفهوم الزواج وأهدافه ، والحقوق الشرعية التي كفلها الاسلام للأبناء ، وكيف تساعد تلك الحقوق على ارساء قواعد النشأة السوية للطفل برعايته وحفظ حقوقه من جميع الجوانب من قبل أن يهل من بطن أمه ، ثم المسئولية الملقاة على عاتق الوالدين في رعاية الطفل وتنشئته وتعهده بالتربية والتوجيه حتى يشب عن الطوق .

وفي الفصل الثاني من هذا الباب ، وموضوعه البناء من خلال التربية والتعليم

بينت مفهوم التربية الاسلامية وأهدافها وفلسفتها ، ودور المدرسة الاسلامية في التربية والتعليم ، ومزالق التعليم المنهجي الحديث في العالم الاسلامي ، وكيفية علاجها ووضحت أن بناء الشخصية المسلمة السوية من خلال المدرسة يمكن أن يتم عن طريق الاهتمام بالمعلم اهتماما يليق بمكانته ومهنته ، وباعادة النظر في المناهج الدراسية والعناية بتعليم المرأة وفق التعاليم الاسلامية ، وضرورة التركيز والعمل على تعميق المفهوم الاسلامي في التربية والتعليم .

أما الفصل الثالث منه وعنوانه ، البناء من خلال المسجد ، فشرحت في مباحثه مفهوم المسجد ومكانته في الاسلام ، وكيف تعطل دور المسجد في المجتمع المسلم وأهمية احياء رسالة المسجد باعادة الحياة العلمية اليه ، ليقوم بدوره كاملا في توجيه كافة قطاعات المجتمع المسلم من الرجال والنساء والأطفال .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودوره في تقويم اعوجاج المسلم ورده الى الجادة ، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبر من أفضل الوسائل ايجابية في اصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه ، وبالتالي في اصلاح حال المسلمين عامة .

وذكرت في الفصل الأخير من هذا الباب ، وهو آخر فصول هذه الرسالة ، كيفية بناء الشخصية المسلمة السوية من خلال الدعوة الى الله ، وقسمته الى مباحث ، بينت من خلالها ضرورة العمل الجماعي في الدعوة الى الله ، وشرعية العمل الجماعي ومفهومه عند السلف ومفهومه الحديث ، والقواعد التي تحكم الجماعات التي تعمل في مجال الدعوة الى الله ، ومسئولية الداعي ووظيفته وأفضل المناهج لبناء الأفراد والجماعة والمزالق التي قد تعوق سبيل العمل الجماعي في الدعوة الى الله .

وختاما أرى لزاما عليّ أن أزجي الشكر موفورا للقائمين على أمر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، والمعهد العالي للدعوة الاسلامية ، الذين أتاحوا لي الفرصة للدراسة بهذا المعهد ، وتقديمهم العون المادي والأدبي بسخاء لجميع الدارسين به .

كما وأرجو أن توفق جهودهم في تنشئة جيل من الدعاة يحملون أمانة هذه الدعوة عن وعي وادراك لما يحاك حولها من كيد ومكر ، وادراك لظروف الحياة الحديثة ومتطلبات الدعوة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ أمتنا العربية والاسلامية .

ولايفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والعرفان لأستاذي الجليل الدكتور محمدصالح محي الدين المشرف على هذه الرسالة ، الذي منحني من وقته وراحته ولم يدخر في توجيهي وزملائي الذين أشرف على رسائلهم وسعا ، وكانت لتوجيهاته السديدة فائدة عظيمة في توجيه مسار البحث ، وربط موضوعاته قدر الامكان بموضوع الرسالة .

كما أشكر سائر الأخوة الذين أسدوا اليّ العون ، وجزى الله الجميع عني خير الجزاء ، وجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم انه نعم المولى ونعم النصير ، وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين .

الفصل الأول

منهج البحث العلمي في الاسلام

المبحث الأول : منهج القرآن في توجيه البحث عن الحقيقة :

أ) أهمية العقل وعناية القرآن به

يتصل الانسان – كما يبدو من تتبع آيات القرآن الكريم – بنوعين من حقائق الوجود [1] :

النوع الأول : حقائق تتصل بما يمكن أن يطلق عليه ، عالم الشهادة ، أخذا من التعبير القرآني ، وهو العالم المحسوس ، أو الكون ، أو الطبيعة ، أو ملكوت السموات والأرض .

النوع الثاني : حقائق تتعلق بما يمكن أن نطلق عليه : عالم الغيب ، ويشمل من الوجود مالا تصل اليه الحواس ، ولا يقع تحت التجربة ، ولا يدرك العقل حقيقته ولا تفاصيله .

والقرآن يدلنا على أن ثمّة وسيلتان يصل بهما الانسان الى معرفة حقائق الوجود والكون :

احداهما : العقل الذي خلقه تعالى فيه ، ليدرك به حقائق العالم المحسوس وان كان ادراكه لهذا العالم نفسه ناقصا غير كامل ، ومتقدما تقدما جزئيا – تحقيقا لقوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق) [2] .

أما الوسيلة الثانية لمعرفة حقائق الوجود فهي الوحي الى الأنبياء الذين هم صفوة مختارة من البشر ، خصهم الله بمعرفة الحقيقة الالهية ، وبمعرفة حقائق

---

١ انظر محمد المبارك ، نظام الاسلام – العقيدة والعبادة ص ٨٣–٨٤

٢ سورة فصّلت الآية ٥٣

العالم الغيبي ، غير المحسوس ، لكشفها لبني آدم وارشادهم اليها ، وتنمية الاستعدادات الروحية فيهم . فوظيفة الأنبياء والرسل اذا بالنسبة للعالم الغيبي ، كوظيفة العقل بالنسبة الى العالم المحسوس وهي الكشف عن حقائق الوجود [1] . وبما أن العقل هو الأداة التي يتحقق بها الانسان من صدق ادعاء النبوة ، فقد كان خطاب الأنبياء للناس ودعوتهم الى الايمان بنبوتهم عن طريق العقل وقناعته . وعلى هذا سيكون البحث مركزا على العقل باعتباره وسيلة الانسان لمعرفة حقائق الكون والوجود .

ومن مزايا القرآن الكثيرة ، مزية واضحة – يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين، لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا واضحا – تلك المزية هي التنبيه بالعقل، والتعويل عليه ، في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله [2] : "ففي كتب الأديان اشارات صريحة أو مضمونة الى العقل أو التمييز ،ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه ، لأنه مزلة العقائد ،وباب من أبواب الدعوى والانكار ...

"ولكن القرآن الكريم لايذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ، ولا تأتي الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها موكدة جازمة باللفظ والدلالة ، ولا تتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله ، وقبول الحجر عليه ، ولايأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي شرحها النفسانويين من أصحاب العلوم الحديثة ..... بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل مايتسع له الذهن الانساني" .

---

١ انظر نظام الاسلام – العقيدة والعبادة ص ٩٦

٢ عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة اسلامية ص ٨٢٩–٨٣٠ موسوعة بحوث علمية مج ٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ دار الكتاب العربي – بيروت .

والقرآن الكريم قد أقام دعوته على تكريم الانسان الذي ميّزه الله بالعقل دون سائر المخلوقات ، فهو لا يقبل أن ينضوي تحت لوائه أعمى أو مقلد ، ولا يرضى أن ينتسب اليه أحد الا بعد تفكير سليم ، بعيد عن سائر المؤثرات ، وينهى عن اتباع مالم يقم به علم يستند الى حجة سمعية أو رؤية بصرية أو براهين عقلية ، وهي طرق الاستدلال الممكنة للانسان، ووسيلتها الأساسية هي العقل .

(ب) توجيه القرآن العقل الى الكون :

نظر القرآن الكريم الى الكون ، بكل مافيه من سموات وأرضين ، وأفلاك وشموس ، ونبات ، وجبال ، وكائنات ، ووهاد ، وكائنات حية وانسان على أنه مخلوق الله تعالى، فهو لم يوجد نفسه ، ولم يكن نتيجة تطورات ، أو تغيرات طبيعية فيه ، وهو لم يوجد صدفة ، وانما خلقه الله ، وقصد ايجاده على هذا النحو المعيّن لهدف وغاية [1] .

ولكن القرآن الكريم لم يلق بهذه الحقيقة الى الناس مجردة عن الدليل ليؤمنوا به ، بل انتهج نهجا فريدا ، مهّد له بتحرير العقل من كل مايعوق تقدمه وأداء وظيفته - ذلك لأن العقل اذا تعطل انحسرت المعرفة ، وضمر العلم ، وحلت الخرافات والأوهام والتقليد ، فتسود الفوضى بدلا من النظام ، والضلال بدلا من الهدى والرشاد - ثم أورد مشاهد الطبيعة بأسلوب مثير يدعو الى التأمل والتدبر فيما خلق الله في هذا الكون، وارتباط الانسان بخالق الكون ، وبالهدف الأسمى من خلقه وهو عبادة الله وحده دون سواه من المخلوقات والأنداد .

يقول الله تعالى في القرآن الكريم : (ان في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [٢] .

---

١ انظر نظام الاسلام - عقيدة وعبادة ص ٣٨

٢ سورة البقرة آية ١٦٤

ويقول عز وجل : (وهو الذي يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا تعقلون) [١] .
ويقول جل وعلا : (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) [٢] .
وقال تعالى : (قال ربّ المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون) [٣] .
وقال سبحانه : (واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) [٤] .

باستعراض الآيات السابقة ، نرى أن القرآن الكريم وضع العقل وجها لوجه أمام حركة في الطبيعة ، تثير النفس ، وتدفعها الى التأمل والتصور ، والتخيل، وهذه الحركة تبدو في ثنائية الطبيعة ، في الليل والنهار ، في الشروق والغروب ، في الحياة والموت. فالقرآن يشد الانسان الى هذه الحركة ، ويدعوه الى تتبعها ، وفهم ماتنطوي عليه من أسرار الخلق والابداع [٥] .

انه يبدأ بعض الآيات بقوله تعالى : (ان في خلق السموات والأرض) ، والخلق هو الايجاد ، وايجاد السموات التي تحيط بالأرض على هذا الشكل الرائع من الجمال والدقة ، أمر جدير بالتأمل والدراسة العميقة ، ثم وجود الأرض وماعليها وارتباطها بما حولها من كواكب أيضا قضية تدفع الذهن الى التفكير العميق [٦] .

تأتي بعد ذلك ظاهرة أخرى وهي : (اختلاف الليل والنهار) ، واختلاف تعبر عن تلك الحركة الدورية اليومية ، حيث يجيء الليل خلف النهار ، ويجيء النهار خلف الليل، ليقف الانسان أمام عملية بالغة الدقة والنظام ، على مدار العام لايكاد الفلك في

---

١ سورة المؤمنون آية ٨٠
٢ سورة النحل آية ١٢
٣ سورة الشعراء آية ٢٨
٤ سورة الجاثية آية ٥
٥ انظر محمد علي الجوزو مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٥٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م مطبعة دار الميلايين بيروت .
٦ انظر المصدر السابق ص ٥٨

دورته يخطىء أو يخل ، بل هو منضبط ، ملتزم كل الالتزام ، منسق كل التنسيق، مستمر لا يتوقف [1] .

حقا ان القرآن ليس كتابا علميا ، يبحث في الكيمياء والفيزياء ، ويحلل نظريات العلم ، ولكنه يطرح القضايا الكلية ، ويجعل منها منطلقا للبحث والتقصي، لذلك نجد فيه بكثرة الآيات التي تتحدث عن (خلق السموات والأرض) ، وعن (اختلاف الليل والنهار) وبتعابير مختلفة وصور متعددة ، لأن (لانسان كل انسان يستطيع أن يتأمل هذه الظواهر لأنه يعيش معها وتعيش معه ، فأسلوب القرآن يتفق مع الفطرة الانسانية.

بعد أن بيّن القرآن الكريم الظواهر الطبيعية ومابينها من تضاد وتقابل وبرهن على قوة الخلق والابداع ، ووجه العقل البشري للتأمل والتدبر فيها ، للبحث عن حقيقة صانعها ، عرج الى برهان آخر من البراهين الدالة على قدرته على الخلق والتدبير وهو الحياة والموت.

ان ظاهرتي الحياة والموت تجري أحداثهما فوق كوكبنا الأرضي منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ، يولد الانسان ويموت ، وبين مولده ، وموته تاريخ الحياة الانسانية على هذه الأرض ، فالحياة ظاهرة تستحق التأمل ، والموت ظاهرة تستحق التأمل ، ولكن وجودهما معا هما أعظم معجزة تتحقق بالنسبة لاستمرار الجنس البشري ، ونموه وتكاثره. وهذه المعجزة هي في المعادلة نفسها ، وهي أن الانسان يحيا ويموت ، وحياته ضرورة حتمية ، وموته ضرورة حتمية ، وكلاهما حكمة وغاية في نفس الوقت [2] .

هاتان ظاهرتان جديرتان بالتأمل والدرس ، فما هي الحكمة من وجودهما على هذا الشكل ؟ وماهي الغاية ؟ وماهي القوة التي تقف وراء ذلك ؟ القرآن يجيب [3] : (وهو الذي يحي ويميت) ويختم الآية بهذا التساؤل [4] : (أفلا تعقلون) ؟ !

---

١ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٥٨

٢ انظر المصدر السابق ص ٦٠

٣ ، ٤ سورة المؤمنون الآية ٨٠

يواصل القرآن توضيح ظاهرتي الحياة والموت ، فيقدم لنا صورا من صور الاحياء والاماتة ، أو الاحياء بعد الاماتة ، لأن الظاهرتين غير قاصرتين على الانسان وحده ، بل هما القاعدة التي يندرج تحتها كل جنس من أجناس الأحياء وكل نوع من أنواعه ، سواء كان حيوانا أو نباتا ، وفيما يلي نستعرض بعض الآيات التي تتحدث عن ذلك ، وتختم بالفعل (تعقلون) :

(ب) ظاهرة الحياة النباتية وتوجيه العقل اليها :

لو أحصينا العناصر التي يذكرها القرآن في مجال الحديث عن الحياة النباتية لوجدناها تتألف مما يلي :

الأرض ، الماء ، الرياح ، السحاب ، القطع المتجاورات ، الجنات ، الزرع ، ثمرات النخيل والأعناب ، اختلاف الطعم والذوق مع اختلاف الأطعمة .

والملاحظة الأولى أنه ينسب الحياة والموت الى الأرض قال تعالى : (اعلموا ان الله يحي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون)[1] وهو يريد التنبيه الى ظاهرة انبات الزرع الأخضر من الأرض الجامدة ، فاذا الحياة تتمثل في تلك الألوان المختلفة من الشجر والثمر والخضرة . والحكمة التي ربما يريد القرآن أن يدفعنا للبحث عنها هي كيف انبت الجماد نباتا حيّا ، فالأرض هي أم النبات تحمله في بطنها بذرة ضئيلة أو نبتة صغيرة ، ثم تخرجه بعد ذلك زرعا مختلفا ألوانه ، أو شجرا باسقا ذا أشكال متغايرة وثمار متعددة ، وفوائد كثيرة[2] .

انما أصل الحياة في الأرض ، ليس تربة الأرض وحدها ، بل هنالك الماء ، والماء يكون بخارا ثم يتحول الى سحاب ، ثم تسير به الرياح ، ليسقط مطرا يسقي الأرض ، يسقي القطع المتجاورات والجنات . قال تعالى : (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، انّ في ذلك

٢- انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٠-٦١

١- سورة الحديد الآية ١٧.

لآيات لقوم يعقلون)[١] . فالماء واحد ، ورغم ذلك تتعدد الثمار والفواكه وأطعمتها ، والعرض القرآني لهذه الظاهرة لا يعمد الى التحليل الكيمائي ، ولكنه يدعو الى مراقبة الظاهرة كما هي في شكلها الطبيعي ، وكما يراها كل انسان عالما كان أو جاهلا ، ذلك أن تأمل الطبيعة فطريا لا يحتاج الى علم وتخصص[٢] .

ويختم القرآن هذه الآيات بنفس التعبير (آيات لقوم يعقلون) . وقال عز وجل : (واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)[٣] . أو يضيف القرآن الى آيات حرف اللام "لآيات" للتأكيد ، فيقول الله عز وجل : (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٤] . أو يأتي في صيغة المفرد "لآية" ، أو يأتي بتعبير فيه صيغة التنديد والتقريع بل أكثرهم لايعقلون) ،أو صيغة الاستفهام الانكاري (أفلا تعقلون) ؟!

يقول الله عز وجل : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون)[٥] وقال جل وعلا : (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل أكثرهم لايعقلون)[٦] وقال تعالى : (وهو الذي يحي ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)[٧] وبين التأكيد والتنديد والاستفهام الانكاري ، يشعرنا القرآن الكريم من خلال الآيات السابقة اننا أمام حركة فكرية تريد أن تشير الى شيء ما . انه يفتح كتاب الطبيعة أمام الانسان ليقرأ صفحاته ، ويوجه العقول والأبصار الى بدائع صنع الله فيه ، ويدعو الى التفكر في آياته ، واستكناه أسراره وفهم نظمه ونواميسه . لقد خلق الله كل شيء وسيّره وفق

---

١ سورة الرعد آية ٤
٢ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦١-٦٢
٣ سورة الجاثية آية ٥
٤ سورة الروم آية ٢٤
٥ سورة النحل آية ٦٧
٦ سورة العنكبوت آية ٦٣
٧ سورة المؤمنون آية ٨٠

قانون ثابت ، وهيأ الانسان لمعرفة هذا القانون ، فمهمة القرآن اذا هي أن يبعث على التفكير والبحث والدراسة ، وليس أن يقدم نظريات وفرضيات ووسائل النظر فيها ، ووضع القوانين على أساسها [١] .

ان حياة الأرض وموتها والماء الواحد ، واختلاف الألوان والثمرات ، كلها توحي لنا بأن القضية تطرح بأسلوب يقتضي الكثير من البحث والتقصي ، فاذا كان تأمل الطبيعة ودراسة أسرارها ودقائقها ، ودراسة مظاهر الحياة والموت والانسان والحيوان والنبات ، يلقي ضوءا كاشفا على الحقيقة ، فان العقل هو واسطة كشف الأدلة والبراهين لأن الذين يعقلون هم الذين يدركون هذه الحقائق ، فالعقل هنا هو أداة الفعل يعقل ، ودوره هو تتبع الظواهر وادراك العلائق التي تربط بينها ، واستنباط الحقائق [٢] .

يقول الامام الطبري في هذا المعنى : "فأما معنى قوله (لآيات) فانه علامات ودلالات على أن خالق ذلك كله ، ومنشئه اله واحد . "لقوم يعقلون" لمن عقل مواضع الحجج وفهم عن الله أدلته على وحدانيته ، فأعلم تعالى ذكره عباده بأن الأدلة والحجج انما وضعت معتبرا لذوي العقول والتمييز دون غيرهم من الخلق اذ كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي والمكلفين بالطاعة والعبادة ، ولهم الثواب وعليهم العقاب .." الى أن يقول مخاطبا المشركين : "فأخبرهم أن الههم هو الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم وتفرد لهم بها ثم قال : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ، ففي الذي عددت عليكم من نعمتي وتفردت لكم بأيادي دلالات ان كنتم تعقلون مواقع الحق والباطل والجود والانصاف ، وذلك أني لكم بالاحسان اليكم متفرد دون غيري ، وأنتم تجعلون لي في عبادتكم اياي أندادا" [٣] .

---

١ انظر محمد شديد منهج التربية في القرآن ص ١١٦ ونظام الاسلام – العقيدة والعبادة ص ٣٨–٣٩

٢ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٣

٣ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) التفسير ج ٢ ص ٣٩

والدليل بعد ذلك هو مجيء الآية الكريمة : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداد يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله) [١] .

فالامام الطبري اعتبر ذلك ردا على المشركين ، الذين يرفضون الايمان بالاله الواحد ويؤمنون بالأوثان والأصنام ، فالقرآن يبين لهم أن الأوثان لا تستطيع أن تخلق هذا الخلق المعجز ، وأنها أعجز من أن تقدم للانسان هذه النعم المختلفة التي يحتاج اليها في حياته ، ولايعقل ذلك الا من أدرك حقيقة هذه الأدلة والبراهين، فترك الشرك بالله ، وآمن بالله الخالق وحده دون غيره . ويتضح هذا المعنى بوضوح عندما نطالع الآية السابقة لطرح موضوع التفكر في خلق السموات والأرض وغيرها [٢] ... وهي قول الله تعالى : (والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم) [٣] .

(ج) توجيه القرآن العقل الى أصل الانسان ومراحل تطوره :

ومادام الحديث عن الحياة والموت ، ومظاهر الحياة الطبيعية ، فان أعظم موجود على الأرض هو الانسان ، وظاهرة وجوده جديرة بالاهتمام ، ذلك أن مراحل تطور وجوده بالغة التعقيد والتركيب ، ومن هنا فان القرآن يركز تركيزا كبيرا على تتبع ظاهرة وجود الانسان ومراحل نموه وتطوره .

انه يبدأ بأصل الخليقة – ومن وجهة النظر القرآنية – وهي خلق آدم من تراب ، وبعد آدم حواء ، ثم كانت النطفة هي الوسيلة لاستمرار النوع الانساني . ويسترسل القرآن في ذكر الأطوار التي تجتازها النطفة منذ بدء وجودها حتى الموت ، فهي تتحول الى علقة ، والعلقة تتحول الى مضغة ، ثم تخرج الى الوجود طفلا ينمو مع الأيام ليشتد عوده ، فيدخل في طور الرجولة ، ثم ينتقل الى الشيخوخة ، ومنها الى الموت، وبين هذه المراحل التي تقطعها النطفة ، أحداث ، فمن النطفة مالايستطيع أن يشق طريقه الى

---

١ سورة البقرة آية ١٦٥
٢ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٤
٣ سورة البقرة الآية ١٦٣

الحياة ، ومنها مالا يكمل طريق الحياة ، فيسقط في منتصفها ، ومنها مايبلغ أجله الذي كتب له [1] .

يقول الله تعالى : (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل، ولتبلغوا أجلا مسمى، ولعلكم تعقلون) [2] ثم يعقب الله تعالى على هذه الآية بالآيات التالية : (وهو الذي يحي ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يعرفون) [3] .

ان سياق الآيات السابقة تقرر أن الله هو الذي يحي ويميت وان قضية الخلق عنده لا تحتاج الا الى كلمة واحدة هي أن يقول للشيء "كن" فيكون ـ فأصل الانسان وتطور مراحل نموه وحياته وموته كلها تساق للبرهنة على وجهة النظر القرآنية بالنسبة للحياة والموت ، وهي أن الله هو الذي يحي ويميت ، وهذه الأدلة يحتج بها أمام قوم يجادلون في وجهة النظر هذه ، أي يرفضونها ولا يقرون بها ، وهوءلاء لا يمكن مخاطبتهم عن طريق التسليم بالايمان المطلق ، بل لابد أن تقدم اليهم الأدلة والبراهين التي تقنعهم عقليا ، من أجل ذلك كان ختام الآية الأولى هو (لعلكم تعقلون) أي لعلكم تدركون أسرار وجود الانسان وتعرفون تركيبه ، فتثوبوا الى الرشد وتوءمنوا بالله [4] .

ان العناصر التي يتكون منها تاريخ نشوء الانسان وتطوره هي من وجهة النظر القرآنية كالآتي : التراب ، آدم ، حواء ، النطفة ، العلقة ، المضغة ، الجنين، الطفل، الرجل ، الشيخوخة ، الموت ، البعث بعد الموت . وكل مرحلة من هذه المراحل تحتاج الى برهان أو دليل ، والقرآن يسوق ذلك في آيات متفرقة مستخدما الفعل "يعقلون" أو مافي معناه ونوضح هذا الزعم بالأمثلة :

---

١ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٥

٢ سورة غافر آية ٦٧

٣ سورة غافر آية ٦٨، ٦٩

٤ انظر سيد قطب في ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٠٩٥-٣٠٩٦ طبعة دار الشروق الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ بيروت ، ومفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٦ .

(١) خلق آدم من تراب ، والدليل على ذلك في القرآن أنه يتحول بعد الموت الى تراب ، فهو من الأرض خلق ، والى الأرض يعود ، أي يتحول الى العنصر الأساسي الذي وجد منه . يقول الله تعالى : (منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، وفيها نخرجكم تارة أخرى) [١] ويقول جل وعلا : (وهو الذي يحي ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار، أفلا يعقلون . بل قالوا مثل ماقال الأولون . قالوا أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون) [٢] قال ابن كثير : "وقوله (أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شئ ، وعز كل شئ ، وخضع له كل شئ ، ثم قال عن منكري البعث أنهم أشبهوا من قبلهم من المكذبين الذين يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم الى البلى - أي انكارهم وتكذيبهم لامكان اعادتهم الى الحياة بعد الموت" [٣] مع أن الاعجاز كله في الخلق الأول وليس في اعادة الخلق أو البعث كما يظن المكذبون .

(٢) ويبدو الاعجاب واضحا جليا في طور النطفة ، وفي مظاهر الحياة الانسانية ، وفي الطبيعية بين الرجل والمرأة ، ثم في تطور مراحل العمر لدى الانسان عامة ،وأدلة ذلك في القرآن لا تختلف عن المشاهد الحسية ، وتساق الأدلة هنا للكشف عن جوانب المعجزة اليومية التي نحياها جميعا ، وهي معجزة وجود الانسان وطريقة نشوئه وارتقائه وتطوره [٤] .

يقول الله عز وجل : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا) [٥] .

---

١ سورة طه الآية ٥٤-٥٥
٢ سورة المؤمنون الآية ٨٠،٨١،٨٢
٣ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم المجلد الثالث ص ٢٥٢ طبعة دار المعرفة بيروت سنة ١٩٦٩م
٤ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٧
٥ سورة النساء آية ١

وقال تعالى : (والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لايعلم بعد علم شيئا ، ان الله عليم قدير)[١].

وقال عز من قائل : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين)[٢] .

هناك من يعترض باسم العلم على وجهة النظر القرآنية ، وهي خلق آدم من تراب فيقول : ان أصل الانسان "مادة" وأنه وليد التفاعل الكيمائي ، ثم يستند قوم الى النظرية التي نسبت الى دارون[٣] في النشوء والارتقاء ، وخاصة أصحاب الفلسفة الماركسية الذين ينفون الخلق الأول[٤] .

وهوءلاء يتولى العلم نفسه الرد عليهم . ذلك بأن العلم لم يتعد المرحلة الوصفية بعد ، وأن الماركسيين أنفسهم تساءلوا عن أصل المادة أو ماهيتها، وكان الجواب: من العبث التساوءل عما هي[٥] .

يقول الكسيس كاريل : "وملاحظة الأشياء ، تمدنا فقط بأقل صور العلم شأنا، ونعني بها الصورة الوصفية ، فالعلم الوصفي يرتب الظواهر ، بيد أن العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغيير - أي القوانين الطبيعية - تظهر فقط عندما يصبح للعلم أكثر معنوية ..."[٦] ويقول بعد ذلك : "وواقع الأمر أن

---

١ سورة النحل آية ٧٠

٢ سورة الموءمنون آية ١٢،١٣،١٤

٣ هو شارلس روبرت دارون ، عالم الأحياء الانجليزي صاحب نظرية النشوء الشهيرة ، ولد عام ١٨٠٩م كان أبوه طبيبا ، وكان جده طبيبا ، وتعلم في جامعة ادنبره وجامعة كمبردج. اهتم بالتاريخ الطبيعي منذ صغره . وخرجت السفينة الشهيرة "بيجل" الى رحلتها العلمية عام ١٨٧١م وعادت عام ١٨٣٦ بعد أن لفت حول المعمورة ، وعليها دارون خبيرا للأحياء، وعاد بذخيرة علمية كبيرة كانت مصدرا لكثير من كتاباته. نشر كتابه الشهير (أصل الأجناس) عام١٨٣٩ وذاع اسمه في العالم العلمي بسببه. مات عام ١٨٨٢م . انظر مواقف حاسمة في تاريخ العلم تاليف جيمس كونانت ترجمة د.أحمد زكي ص ٧٩.

٤ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٨

٥ انظر حسني ناشان ، الماركسية في الفلسفة ص ٣٣ طبعة دار النشر للجميع بغداد .

٦ الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول ص ١٥ منشورات موءسسة المعارف بيروت .

جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري ، تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة .. فنحن لا نعرف حتى الآن الاجابة على أسئلة كثيرة مثل : كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكوّن المركب والأعضاء الموءقتة للخلية ؟ كيف تقرر الجينس الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟ كيف تنتظم الخلايا من تلقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع ، وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته ..." [١] .

وينتهي الكسيس كاريل الى القول : "فمن الواضح أن جميع ماحققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان مازال غير كاف ، وان معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية في الغالب" [٢] .

ليس هذا العرض لما جاء في كتاب "الانسان ذلك المجهول" محاولة للدفاع عن وجهة النظر القرآنية في قضية الخلق الأول ، ولكن لاثبات "أن العلم لايستطيع أن يوءكد وجهة نظره في أيّة نظرية افترضها عن وجود الانسان ، وبالتالي لا يستطيع أن ينفي ماجاء به القرآن . فلا النفي ولا الاثبات في هذا الجانب عن بدء الخليقة يملكه العلم حتى يومنا هذا . وعليه فالعقل البشري مستندا الى الايمان لايجد في وجهة النظر القرآنية مايريب" [٣] .

(٣) ثم تأتي قضية أخرى وهي الموت والبعث بعد الموت ، وهي قضية كانت ولاتزال موضع تساوءل : هل يبعث الانسان بعد الموت ؟ وبعد أن يتحول الى تراب ؟

---

١ الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول ص ١٧-١٨

٢ المصدر السابق ص ١٨

٣ مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٩-٧٠

كان هذا السؤال مطروحا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ جاءه العاص بن وائل وهو يحمل عظما حائلا ففتته ، فقال : يامحمد أيبعث هذا بعدما أرم؟ قال الرسول : "نعم ، يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات التي في آخر سورة يس" [١] يقول الله عز وجل : (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون) [٢] .

وخلاصة الموضوع : أن العاص بن وائل هذا ، تناسى أصل وجوده ، وهو النطفة وجاء يتساءل : من يحي العظام وهي بالية مهترئة ؟ والجواب في القرآن : ان الذي يحييها هو الذي أوجدها أول مرة ، لأنه العليم بسر خلقها وايجادها، والذي خلق أولا يخلق ثانيا. ثم يبرهن القرآن على ذلك في صورة من صور الطبيعة المشاهدة فيقول : الذي خلق لكم شجرا أخضرا ، تقطعونه ، فيتحول الى خشب يابس، فتوقدون منه نارا ، هي مراحل متعددة للتحول والتغيير ، من الخضرة الى اليباس ، الى طاقة جديدة هي النار . ثم ان الذي خلق هذه الأرض وخلق السموات من حولها قادر على أن يخلق مثل ماخلق في المرة الأولى . ان قدرته لا حدود لها : انه يقول للشئ : كن فيكون [٣] .

فالقرآن الكريم يريد أن يؤكد للانسان أنه اذا اعترف بعظمة الوجود ، اعترف بعظمة المسبب والموجد ، فاذا اعترف بذلك سهل عليه الايمان بالايجاد مرة ثانية، وهو البعث بعد الموت . وقد ذكر الارادة في سياق الآيات ليدل على أن كينونة

---

١ ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٥٨١

٢ سورة يس من الآية ٧٧ الى الآية ٨٣

٣ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٧٠-٧١

الوجود جاءت عن قصد وارادة من الله ، وهي تتلخص بأمره : كن [١] .

وخلاصة ذلك أن المنطق القرآني يلجأ الى الاقناع عن طريق المقارنة والمقابلة ليؤكد أن الشيء الذي حدث في الوجود "يمكن" حدوثه على نفس الصورة مرة أخرى ولو قلنا بالاستحالة لوجب استحالة وجوده الأول [٢] .

رابعا : توجيه القرآن العقل لاستخدام الحواس

فالكون بناء على ماتقدم من أوصاف : من سعة أفقه ، وتعدد أنواعه ، واستمرار حركته ، وتبدله ، وجريانه على سنن مطردة ، هو موضوع تأمل وتفكير ، وقد دعا القرآن الانسان الى التفكير فيه ، واستعمال حواسه ، لادراكه بالحس والعقل ادراكا أعمق [٣].

ولا شك أن الانسان جزء من هذا الكون ، ولكنه جزء له موقع خاص من بين أجزاء هذا الكون - فهو يمتاز عن سائر المخلوقات بما أوتي من حواس ، وعقل يجمع حواصل هذه الأشياء ، وينسقها ، ويصنفها ، فيصل الى كثير من حقائق الكون - لذلك كانت صلة الانسان بالكون صلة مزدوجة : صلة تدفع الانسان الى استثمار مافي الكون والانتفاع به واعتبار مافي الكون من نعم الله على الانسان ينتفع بها ويتمتع ، فالكون كله ذلول مسخر للانسان ، وصلة تأمل فكر في الكون والطبيعة والاهتداء بذلك الى خالقها وصانعها [٤] .

ونجمل منهج القرآن في الربط بين حواس الانسان وعقله في نقاط على الوجه التالي :

(١) الصورة الأولى لهذه العلاقة بين الحواس والعقل أثبتها القرآن عن طريق التنديد بالتقليد الأعمى ، والسير وراء ماورثه الأبناء على الآباء دون تفكير ارادي

---

١ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٧١.
٢ انظر نفس المصدر والصفحة
٣ انظر نظام الاسلام - عقيدة وعبادة ص ٤٤
٤ انظر المصدر السابق ص ٥٨-٥٩

يقول تعالى : (واذا قيل لهم اتبعوا ماآنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا) [1] حتى ولو كان هوءلاء الآباء على جهل فيما يعتقدون .

والقرآن يأتي بالاستفهام الذي يحمل معنى الاستغراب والتعجب : (أولو كان آباوءهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون) ؟؟! فنفى الفعل هنا معناه الجهل المطبق، لأن "شيئا" يدل الجهل بها ، على الجهل بالحقائق كلها .

ثم يضرب القرآن بالاستفهام على حال هوءلاء بأنهم كالبهائم تسمع صوت الراعي ولا تدري مايقول لها ، وان هوءلاء الكفار يسمعون دعوة الحق ولا يدركون مايقال لهم منهذه الدعوة شيئا ، فهم صمّ عن سماع الحق ، بكم لايستطيعون النطق به ، عمي عن روءية نوره والاهتداء بهديه . فهم اذا لا يعقلون [2] . يقول عز وجل : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بمالايسمع الا دعاء ونداء ، صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون) [3] فالكفار الذين يقلدون آباءهم ، قد عطلوا وسائل المعرفة عندهم ، ورفضوا أن تكون لهم ارادة الاختيار والتمييز ، فألغوا بذلك عقولهم كناية عن التبعية لما ورثوه عن آبائهم [4] .

كما أن التقليد يفيد التبعية والغاء الاختيار الشخصي ، فان عدم التقليد يفيد تحرر الارادة واثبات الرأي عن طريق الاختيار البعيد عن الاكراه ، وهذا المفهوم الأخير لا يتحقق الا اذا مارس الانسان دوره في البحث عن المعرفة ، وأدرك حقيقة مايريد أن يصل اليه ، وهذا دور العقل ، ودور العقلاء [5] .

(٢) ان القرآن يسقط عن هوءلاء المعطلين لحواسهم وعقولهم صفة الانسانية ، ويشبههم بالحيوانات كالدواب والأنعام ، ذلك انالميزة التي يمتاز بها الانسان عنالحيوان

---

١ سورة البقرة آية ١٧٠
٢ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٧٩
٣ سورة البقرة آية ١٧١
٤ انظر المصدر السابق ص ٨٠
٥ المصدر السابق نفس الصفحة

هي العقل ، فاذا ألغى هذه الميزة أو عطل أدواتها وهي الحواس استوى مع الحيوان غير العاقل وغير المدرك .

يقول الله تعالى : (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون) [١] .
وقال عز وجل : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) [٢] .

ان الحيوان كما نعلم يملك حاسة السمع والبصر ، ولكن ماقيمة وجودها وهي لا تستخدم في المعرفة العقلية ، كذلك الانسان الذي لايستخدم حواسه في الوصول الى المعرفة كالحيوان في عدم الاستفادة من هذه الحواس . وتظهر أهمية عمل العقل ، وعمل الحواس من قول الكفار أثناء العذاب في الآخرة قال تعالى مصورا هذا المشهد : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير) [٣] فربط السمع هنا بفعل العقل دل على أن سماع دعوة الايمان يقتضي فهم هذه الدعوة ، فاذا كان هناك سمع من غير عقل فانه لا قيمة له ، فقيمة عمل الحواس هو من قيمة ارتباطها بالعقل [٤] .

(٣) فاذا انتقلنا الى المجال الأوسع والأرحب للنظر والبصر ، رأينا القرآن الكريم يستخدمها بمعنى التأمل والتفكر ، والدرس والبحث والتعمق في فهم ظواهر الطبيعة : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) [٥] ؟ (قل انظروا ماذا في السموات) [٦] (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) [٧] كل هذه الآيات تشعرنا أن القرآن استند الى المشاهدة الحسية ، والى تتبع ظواهر الطبيعة في المعرفة ، وخاصة أن الرؤية تكون رؤية بالبصر والبصيرة معا .

---

١ سورة الأنفال الآية ٢٢
٢ سورة الفرقان الآية ٤٤
٣ سورة الملك الآية ١٠
٤ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٨٠-٨١
٥ سورة الذاريات الآية ٢١
٦ سورة يونس آية ١٠١
٧ سورة فصلت آية ٥٣

وخلاصة القول انه في معرض الكلام عن ظواهر الطبيعة ، وحوادث الكون في القرآن الكريم ترد كثير من الألفاظ الدالة على الحواس كالرؤية والنظر والبصر والسمع ، والألفاظ الدالة على التفكير والتأمل كلفظ : يعقلون ، ويتفكرون ، ويتدبرون ، ويوقنون، ويفقهون ، للتأكيد على ارتباط العقل الانساني بهذه الظواهر الطبيعية ، وأن دور الانسان هو اعمال أدوات الكشف والمعرفة كالبصر والسمع والعقل ، للكشف عن أسرار الكون والقوانين التي تقف وراء نظام الطبيعة ، والنواميس التي تحكم حياة الانسان ووجوده وأن يدرك ويوءمن بأن وراء هذه النواميس والقوانين قوة خارقة ذات ارادة فعالة تصنع المعجزات ، ومنها الكون والانسان والطبيعة .

وهذه النظرة التأملية والعقلية التي يدعو اليها القرآن الكريم – في النفس، والكون ، والطبيعة ... الخ – هي في الأساس نقطة البدء لتكوين المنهج العقلي التجريبي فيميدان العلوم الطبيعية ، لأن القرآن هو أول من نبّه بصورة جادة الى ضرورة استخدام الطاقة العقلية في البرهنة على حقائق الكون والحياة ، ولكن الانسان مازال يتخبط في الظلمات حيث انه لم يحدد هدفا معينا من وراء البحث عن الظواهر الطبيعية وسيظل هكذا مادام بعيدا عن أصل منهج القرآن في البحث عن الحقيقة ومقصده من ذلك .

المبحث الثاني

منهج المسلمين في تحقيق الخبر

أ - الاهتمام برواية الحديث :

لقد أنزل الله سبحانه الحكيم الكتاب هداية مبينة تضيء للناس سبيل النجاة في دنياهم وأخراهم ، وجعله معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، باهرة باقية الى يوم الدين ، ثم أعطاه السنة مفصلة للكتاب ، وشارحة له ، كما قال تعالى :

(وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) [١] وقال جل وعلا : (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) [٢] .

فبين القرآن لنا في هاتين الآيتين ، وفي آيات كثيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظيفته البيان لكتاب الله ، أو بعبارة أخرى أن موقع الحديث النبوي من القرآن هو موقع المبيّن من المبيَّن . وهذا البيان ليس قاصرا على مجرد التفسير بل له أوجه عديدة تجعل العمل بالقرآن في أركان أبنيته العظيمة مفتقرا الى السنّة لا يستغني عنها [٣] .

أخرج الخطيب [٤] أن عمران بن حصين رضي الله عنه كان جالسا ومعه أصحابه ، فقال رجل من القوم : لا تحدثونا الا بالقرآن قال فقال له : "أدنه" فدنا ، فقال : "أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك الى القرآن ، أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعا وصلاة العصر أربعا والمغرب ثلاثا تقرأ في اثنتين ؟! أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك الى القرآن أكنت تجد

---

١ سورة النحل الآية ٤٤

٢ سورة النحل الآية ٦٤

٣ انظر تفصيل بيان السنة للقرآن في كتاب السنة للامام محمد بن نصر المروزي ص ٦٨-٧٢ ، وانظر تلخيصها في كتاب التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي : ١:٥٥-٥٧ . ومنهج النقد في علوم الحديث د. نور الدين عتر ص ٢١-٢٢ .

٤ الخطيب البغدادي الكفاية في علم الرواية ص ١٥ ، ط المطبعة الهندية العربية بمباي (د. ت)

الطواف بالبيت سبعا ، والطواف بالصفا والمروة ؟" ثم قال : "أي قوم خذوا عنا ، فانكم والله ان لم تفعلوا لتضلن" .

ولقد تواترت الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم في وجوب الأخذ بهديه في كل شيء من الأمور : صغيرها وكبيرها وجليلها وحقيرها على منشط النفس ورضاها أو على كراهيتها واباثها ومخالفة هواها . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة" [1] .

لذلك عنيت الأمة الاسلامية بالحديث النبوي ، وبذلت من أجله أعظم الجهد ، وحاز حديث النبي صلى الله عليه وسلم من الوقاية والمحافظة مالم يكن قط لحديث نبي من الأنبياء . فقد نقل لنا الرواة أقوال الرسول في الشئون كلها العظيمة واليسيرة ، بل في الجزئيات التي قد يتوهم أنها ليست موضع اهتمام ، فنقلوا تفاصيل أحواله صلى الله عليه وسلم في طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وقعوده ، حتى ليدرك من يتتبع كتب السنة أنها ماتركت شيئا صدر عنه صلى الله عليه وسلم الا روته ونقلته [2] .

وكان من حرصهم على الحديث وتلهفهم له أن يجتهدوا في التوفيق بين مطالب حياتهم اليومية وبين التفرغ للعلم : عن عمر رضي الله عنه قال : "كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما ، وأنزل يوما ، فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، واذا نزل فعل مثل ذلك" [3] متفق عليه .

وقد امتزج حرصهم على تلقي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بمسئوليتهم على حفظ التراث النبوي فاستهانوا بكل ماقد يكلفهم هذا المنهج من عناء ، ومثال ذلك

---

١ رواة أبو داود ج ٤ ص ٢٠١ باب لزوم السنة ، والترمذي ج ٢ ص ٩٢ في باب العلم وقال حسن صحيح .
٢ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٤
٣ رواه البخاري ج١ ص ٢٥ باب التناوب في العلم ، واللفظ له ، ومسلم ج٤ ص ١٩١-١٩٤ باب الطلاق .

نجده في الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الذي رحل مسيرة شهر الى عبدالله بن أنيس في حديث واحد . فقد روى البخاري - رحمه الله - من طريق عبدالله بن محمد بن عقيل، انه سمع جابر بن عبدالله يقول : "بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتريت بعيرا ثم شددت رحلي ، فسرت اليه شهرا حتى قدمت الشام ، فاذا عبدالله بن أنيس ، فقلت للبواب ، قل له : جابر على الباب . فقال : ابن عبدالله ؟ فقلت : نعم . فخرج عبدالله بن أنيس ، فاعتنقني . فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فخشيت أن أموت، أو تموت قبل أن أسمعه" [١] فلما روى له الحديث [٢] استأذنه في روايته عنه ، لكي تزداد طرق رواية هذا الحديث عنده . ورحل أبو ايوب الأنصاري الى عقبة ابن عامر بمصر، فلما لقيه ، قال : حدثنا ماسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستر المسلم، لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك . فلما حدثه ركب أبو أيوب راحلته وانصرف عائدا الى المدينة وماحل رحله" [٣] .

فالرحلة في طلب العلم ،والتحقق من صحة رواية حديث معين ، بدآ في عهد الصحابة - رضوان الله عليهم - واستمرا في جيل التابعين عندما تفرق الصحابة في الأمصار. يقول التابعي الجليل ، سعيد بن المسيب : "ان كنت لأسير في طلب الحديث الواحد مسيرة الليالي والأيام" [٤] .

---

١ رواه البخاري ، الأدب المفرد باب المعانقة ص ٣٣٧ الطبعة السلفية الطبعة الثانية القاهرة عام ٧٩هـ .

٢ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يحشر الله الناس يوم القيامة عراة غزلا بهما . قلنا : مابهما قال : ليس معهم شيء . فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديّان ، لاينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة ، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة - يعني لا يدخل أهل الجنة الجنة ،وأهل النار النار الا بعد تصفية الحساب - قلت : وكيف ؟! وانما نأتي الله عراة بهما ؟! قال : بالحسنات والسيئات" - يعني القصاص يكون بالحسنات والسيئات .

٣ ابن عبدالبر جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٩٣-٩٤ طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٥م - ١٣٩٥هـ .

٤ نفس المصدر ص ٩٤

وقد ذكر شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ) أنه سمع أبا اسحاق يحدث عن عبدالله بن عطاء ابن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث : "من توضأ فأحسن الوضوء دخل من أيّ أبواب الجنة شاء" ، فسأله شعبة : سمعت عبدالله بن عطاء يحدث عن عقبة بن عامر؟! قال أبو اسحاق : سمعت عبدالله بن عطاء ، قال شعبة : عبدالله سمع من عقبة بن عامر؟! فقال أبو اسحاق : اسكت . فقال شعبة : لا أسكت . وكان مسعر بن كرام حاضرا ، فالتفت الى شعبة وقال : ياشعبة عبدالله بن عطاء حيّ بمكة . فخرج شعبة الى مكة فلقي عبدالله بن عطاء وسأله عن حديث الوضوء من رواه ؟ فأجاب : عقبة بن عامر ، فاستحلفه شعبة ،هل سمعت منه ؟! قال : لا ، حدثني سعد بن ابراهيم ، فمضى شعبة الى المدينة حيث لقي هناك سعدا ابن ابراهيم ، فسأله ، فأجاب : من عندكم خرج . حدثني زياد بن مخراق . فانحدر شعبة الى البصرة فلقي زياد بن مخراق وهو شاحب اللون ، وسخ الثياب كث الشعر ، فسأله فقال : حدثني شهر بن حوشب عن أبي ريحانة . فقال شعبة : هذا حديث صعد ثم نزل . دمروا عليه ، ليس له أصل [1] .

هذا الجهد الكبير ، والمشقة البالغة ، والسفر الطويل ، الغرض منه التحقق من صحة حديث واحد . وأمثال شعبة بن الحجاج كثيرون . وقد كان لظهور الوضع في الحديث ، وطلب الاسناد العالي [2] من طلاب الحديث أثر عظيم في تنشيط رحلات العلماء طلبا للحديث من مظانه ، وتدقيقا لمصادره ، وبحثا عن أصوله ، وتدقيقا عن رواته [3] .

---

١ أكرم ضياء العمري ، بحوث في تاريخ السنة المشرقة ص ١٣٦-١٣٧ نقلا عن ابن حبان : (معرفة المجروحين من المحدثين) مخطوط في اياصوفيا تحت رقم ٤٩٦ .

٢ هناك نوعان من الاسناد :

أ — اسناد عالي : وهو ماقرب رجال سنده من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب قلة عددهم اذا قيسوا بسند آخر يرد في ذلك الحديث نفسه بعدد كبير. (وهذا يفيد قوة السند وبالتالي قوة الحديث) .

ب — اسناد نازل : وهو ماقابل الاسناد العالي ، وهو الذي بعدت المسافة في اسناده . لمعرفة المزيد انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٣٥٨-٣٦٤ .

٣ انظر اكرم ضياء العمري المصدر السابق ص ١٣٦ .

فالعامل الأول في اخضاع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لمنهج علمي دقيق انما هو الحرص والمحافظة على المصدر الثاني من مصادر التشريع الاسلامي . ويرجع الفضل في بدء علم الرواية للحديث للصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، ذلك لأن الحديث النبوي في حياة المصطفى ، كان علما يسمع ويتلقف منه صلى الله عليه وسلم ، فلما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حدّث عنه الصحابة بما وعته صدورهم الحافظة ورووه للناس بغاية الحرص والعناية ، فصار الحديث علما يروى وينقل ، ووجد بذلك علم الحديث رواية. ثم وضع الصحابة للرواية قوانين تحقق ضبط العدل للحديث ، وتكلموا في الرجال كما سيأتي ، وذلك ليتميز المقبول - فيعمل به - من غير المقبول - ومن هنا كان آساس نشأة مصطلح الحديث [١] .

(ب) منهجهم في تحقيق الأخبار

(١) شروطهم لقبول الأحاديث وردها :

قسم المحدثون أبحاث هذه الشروط الى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : في الحديث المقبول .

القسم الثاني : في الحديث المردود .

(١) الحديث المقبول : أنواعه وشروطه :

آ - أنواع الحديث المقبول : ويشتمل هذه الأنواع من الحديث :

الحديث الصحيح ، الحديث الحسن ، الصحيح لغيره ، الحسن لغيره .

١- الحديث الصحيح : هوالحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط الى منتهاه ، ولا يكون شاذا ولا معللا [٢] .

---

١ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٥-٢٦

٢ انظر د. نورالدين عتر ، منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٤١-٢٤٢ الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ مطبعة دار الفكر بدمشق .

يلاحظ أن هذا التعريف اشتمل على الصفات التي يشترط توفرها في الحديث كي يكون صحيحا ، وهي خمس :

أ ـ الاتصال : ومعناه أن يكون كل واحد من رواة الحديث قد تلقاه ممن فوقه من الرواة ، وهكذا الى أن يبلغ التلقي قائله . فخرج بذلك المرسل والمنقطع بأي نوع من أنواع الانقطاع . فالحديث اذا لم يكن متصلا ، فمعناه انه سقط من سنده واسطة أو أكثر ، ويحتمل أن يكون الواسطة المحذوف ضعيفا ، فلايكون الحديث صحيحا [١] .

ب ـ العدالة في الرواة : وهي ركن هام في قبول الرواية ، لأنها الملكة التي تحث على التقوى ، وتحجز صاحبها عن المعاصي والكذب ومايخل بالمروءة ، فخرج بهذا الشرط الحديث الموضوع ، وماضعف لاتهام الراوي بالفسق والاخلال [٢] .

جـ ـ الضبط ومعناه أن يحفظ الراوي الحديث في صدره أو كتابه ، ثم يستحضره عند الأداء ، وهذا الشرط يستدعي عدم غفلته ، وعدم تساهله عند التحمل والأداء الى آخر الشروط التي يذكرها المحدثون في أبحاث الضبط وفي علوم الرواية [٣] .

د ـ عدم الشذوذ : والشذوذ هو مخالفة الراوي الثقة لمن هو أقوى منه ، لأنه اذا خالفه من هو أولى منه بقوة حفظ أو كثرة عدد كان مقدما عليه ، وكان المرجوح شاذا ،وتبين بشذوذه وقوع وهم في رواية هذا الحديث [٤] .

هـ ـ عدم الاعلال : ومعناه سلامة الحديث من علة تقدح في صحته ، أي خلوه من وصف خفي قادح في صحة الحديث ، والظاهر السلامة منه ، فخرج بهذا الحديث المعلل ، فلا يكون صحيحا [٥] .

---

١ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٤٢.
٢ انظر نفس المصدر ونفس المكان
٣ انظر نفس المصدر والصفحة .
٤ انظر نفس المصدر ونفس المكان .
٥ انظر نفس المصدر ص ٢٤٣ .

ووجه دلالة هذه الشروط الخمسة على صحة الحديث : أن العدالة والضبط يحققان أداء الحديث كما سمع من قائله ، واتصال السند على هذا الوصف في الرواة يمنع اختلال ذلك في أثناء السند ، وعدم الشذوذ يحقق ويؤكد ضبط هذا الحديث الذي نبحثه بعينه وأنه لم يدخله وهم ، وعدم الاعلال يدل على سلامته من القوادح الظاهرة ، فكان الحديث بذلك صحيحا لتوفر عامل النقل الصحيح واندفاع القوادح الظاهرة والخفية ، فيحكم له بالصحة بالاجماع [1] .

(٢) الحديث الحسن : ويسميه العلماء بالحسن لذاته ، وتعريفه : هو الحديث الذي اتصل سنده بنقل عدل خف ضبطه غير شاذ ولا معلل [2] .

وبموازنة هذا التعريف بتعريف الحديث الصحيح يلاحظ وجود تشابه كبير بينهما ، حيث اتفقا في سائر الشروط عدا مايتعلق بالضبط ، فالحديث الصحيح راويه تام الضبط ، وهو من أهل الحفظ والاتقان ، أما راوي الحديث الحسن فهو قد خف ضبطه .

وتتفاوت درجات ومراتب الحديث الحسن - عند المحدثين - كما تتفاوت مراتب الصحيح ، وذلك بحسب قرب راوي الحسن لذاته من الصحيح في ضبطه .

(٣) الصحيح لغيره : الصحيح الذي سبق تعريفه هو الذي بلغ درجة الصحة بنفسه دون أن يحتاج الى مايقويه ، ويسميه العلماء الصحيح لذاته ، أما الصحيح لغيره فهو الحديث الحسن لذاته اذا روي من وجه آخر أو أقوى منه بلفظه أو بمعناه ، فانه يقوي ويرتقي من درجة الحسن الى الصحيح ، ويسمى الصحيح لغيره [3] .

---

١ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٤٣.
٢ بتصرف يسير عن نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر ص ١٧ طبعة مصر .
٣ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٦٨ .

(٤) الحسن لغيره : وهوالذي ترقى الى درجة الحسن بالتقوية أيضا ، وهذا النوع هو المقصود في الأصل عند الامام الترمذي من قوله "حديث حسن" [١] .

وقد كشف الامام الترمذي النقاب عن هذا النوع من الحديث ، وأبان مقصده منه ، فقال يعرف الحسن في كتابه : "وماقلنا في كتابنا حديث حسن فانما أردنا به حسن اسناده عندنا : كل حديث يروى لا يكون في اسناده من يتهم بالكذب، ولايكون الحديث شاذا ، ويروى من غير وجه نحو ذاك ، فهو عندنا حديث حسن" [٢] .

(ب) أنواع الحديث المردود :

هناك أنواع كثيرة للحديث المردود ، وسيقصر عرض خمسة أنواع منها وهي : الحديث الضعيف ، والحديث المضعّف ، والمتروك والمطروح والموضوع . وهذه هي الأنواع الناشئة عن اختلال شروط القبول في الراوي بالطعن فيه .

١- الحديث الضعيف - وهو مافقد شرطا من شروط الحديث المقبول . وشروط الحديث المقبول ستة وهي العدالة (ولو لم يكن تاما) ، الاتصال ، فقد الشذوذ ، فقد العلة القادحة ، العاضد عن الاحتياج اليه [٣] .

وهذا الاصطلاح "ضعيف" لقب عام يشمل كل حديث مردود مهما كان سبب رده ، وانه بالتالي يتنوع أنواع كثيرة جدا ، وذلك اذا جعلنا اختلال كل شرط من شروط الحديث المقبول على حدة نوعا تحصل معنا ستة أنواع . ولا ريب أن التمييز الدقيق لمراتب الحديث الضعيف هدف عظيم يقصد اليه فن المصطلح ، فقد أخذ المحدثون بعين الاعتبار احتمال الاحتمال ، فمثلا في الحديث الضعيف بسبب فقد

---

١ انظر نفس المصدر ونفس المكان

٢ في آخر جامعه ج ٥ ص ٧٥٨ جامع الترمذي ط مصطفى البابي الحلبي . وانظر ابن رجب شرح علل جامع الترمذي ص ٣٤٠ طبع دمشق بتحقيق نور الدين عتر.

٣ السيوطي تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ص ١٠٥ الطبعة الأولى مصر . ومنهج النقد في علوم الحديث ص ٢٨٦ .

الاتصال ، فانه ضعف للجهالة بحال الواسطة المفقودة ، فيحتمل أن يكون من الثقات وأن يكون من الضعفاء ، وعلى فرض أنه ضعيف فانه يحتمل أن يكون أخطأ فيه أو حرفه ، فأخذوا باحتمال الاحتمال ،وجعلوا ذلك قادحا في قبول الحديث ، وذلك غاية ماتكون عليه الحيطة المنهجية في النقد العلمي الصحيح [١] .

٢- الحديث المضعف : وهوالذي لم يجمع على ضعفه ، بل ضعفه بعضهم وقواه آخرون : أما في المتن أو في السند . وهذا النوع أعلى مرتبة من الضعيف المجمع عليه [٢].

٣- الحديث المتروك : وهوالحديث الذي يرويه من يتهم بالكذب ، ولا يعرف ذلك الحديث الا من جهته ، ويكون مخالفا للقواعد ، وكذا من عرف بالكذب في كلامه وان لم يظهر منه وقوع ذلك في الحديث النبوي [٣] .

وهذا النوع يسمى متروكا ولم يسم موضوعا ، لأن مجرد الاتهام بالكذب لايسوّغ الحكم بالوضع وقد يطلق عليه بعض المحدثين المنكر [٤].

٤- المطروح : هو مانزل عن الضعيف وارتفع عن الموضوع [٥]. ولتقارب مابين المتروك وهذا النوع من الحديث المردود ، اعتبرهما بعض العلماء اسمان لقسم واحد. وهو ليس كذلك كما ذكره نور الدين عتر [٦] .

٥- الحديث الموضوع : أي الذي ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبا ، ليس له صلة حقيقية بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وليس هو بحديث لكنهم سموه حديثا بالنظر الى زعم راويه . وكثيرا مايكون اللفظ المزعوم من كلام الحكماء أو الأمثال أو من آثار الصحابة ينسبه الواضع الى النبي صلى الله عليه وسلم وقد

---

١ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٨٦-٢٨٨
٢ انظر طاهر بن صالح الجزائري توجيه النظر ص ٢٣٩
٣ انظر نزهة النظر شرح نخبة الفكر ص ٣٠ بتصرف يسير جدا . ومنهج النقد في علوم الحديث ص ٢٩٩
٤ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٩٩
٥ انظر الامام الذهبي ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٨٤ ط عيسى البابي الحلبي القاهرة
٦ انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٣٠١

يكون من نسج خياله وانشائه . والحديث المرفوع هو شر الأحاديث الموضوعة وأشدها خطرا وضررا على الدين وأهله [١] .

(٢) دراسة الأسانيد والحكم على الحديث :

١- المقصود "بدارسة الأسانيذ" دراسة سلسلة رجال الاسناد بالرجوع الى ترجمة كل منهم ، ومعرفة القوي والضعيف منهم بشكل عام ، ومعرفة أسباب القوة والضعف في كل منهم بشكل مفصل ، وكشف الاتصال [٢] أو الانقطاع [٣] بين رجال سلسلة الاسناد من معرفة مواليد الرواة ووفياتهم ومن معرفة تدليس [٤] بعض الرواة لا سيما اذا عنعنوا [٥] ، ومن الاطلاع على أقوال أئمة الجرح والتعديل [٦] في أن فلانا سمع من فلان ، أو فلانا لم يسمع من فلان . وبالغوض في خبايا الاسناد لاستخراج العلل الخفية التي لا تبدو لكل ناظر في ذلك السند ، وبمعرفة الصحابة والتابعين لتمييز المرسل [٧] من الموصول [٨] ، الموقوف [٩]

---

١ المصدر السابق ص ٣٠١-٣٠٢

٢ المتصل هو ما اتصل سنده مرفوعا أو موقوفا . والمرفوع ما أضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة . أما الموقوف فسيأتي بيانه .

٣ المنقطع هو مالم يتصل اسناده ، على أيّ وجه كان انقطاعه .

٤ المدلس : هو من يحدث عمن سمع منه مالم يسمع منه بصيغة توهم انه سمعه منه ، كأن يقول عن فلان ، أو قال فلان .

٥ أي اذا قالوا في أدائهم عن فلان ،ولم يصرحوا بالسماع أو التحديث . لأن بعض المدلسين يصرح بالسماع عن شيخه ومع ذلك يكشف له تدليس كحديث شعبة بن الحجاج المتقدم ذكره .

٦ الجرح عند المحدثين هو الطعن في راوي الحديث بما يسلب أو يخل بعدالته أو ضبطه . والتعديل عكسه ، وهو تزكية الراوي والحكم عليه بأنه عدل أو ضابط .

٧ المرسل : هو ماسقط من آخر اسناده من بعد التابعي . والتابعي هو من لقي الصحابي مسلما ومات على الاسلام . نزهة النظر ص ٤٣

٨ والموصول ،وهو ما اتصل سنده مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم أي ما اتصل سنده من أوله الى منتهاه وهو مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم .

٩ الموقوف هو ما أضيف الى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير .

من المقطوع [١] ، الى غير ذلك من الدراسة الدقيقة المبنية على العلم بأصول الجرح والتعديل ، ومعرفة الرواة التي تندرج تحتها علوم كثيرة ك "المتفق والمفترق" [٢] و "المتشابه" [٣] و "الكنى والألقاب" [٤] وغيرها .

٢- والمقصود بـ "الحكم على الحديث" أن نقرر النتيجة التي يتوصل اليها من خلال دراسة الاسناد مثلا : "هذا اسناد صحيح" أو "هذا اسناد ضعيف" أو "هذا اسناد موضوع" وذلك حسب قواعد دقيقة وأصول محددة ، لايستطيع تطبيقها بشكل جيد الا من تمرس في بحث الأسانيد مدة طويلة ، وعرف طريقة علماء المصطلح من تلك الممارسة الطويلة .

هذا بالنسبة للحكم في اسناد الحديث . أما الحكم على متن الحديث ، فانه يحتاج - زيادة الى ماتقدم - الى أمور أخرى مهمة ، مثل النظر في ذلك المتن هل فيه شذوذ [٥] أو علة قادحة [٦] ، أو هل روي هذا المتن باسناد آخر أو بأسانيد أخرى يمكن أن يتغير الحكم بسببها ؟ والحكم على متن الحديث ، كقولنا ، مثلا : "هذا حديث صحيح" أو "هذا حديث ضعيف " أصعب وأدق من الحكم على الاسناد وحده ، فلا يقوى عليه الا المتخصصون في هذا الفن الذين لهم اطلاع واسع على الأسانيد والمتون [٧] .

---

١ المقطوع هو ما أضيف الى التابعي أو من دونه من قول أو فعل .

٢ أن تتفق أسماء الرواة وأسماء آبائهم فصاعدا خطا ولفظا ، وتختلف أشخاصهم ومن ذلك أن تتفق أسماوءهم وكناهم .. ونحو ذلك

٣ أن تتفق أسماء الرواة لفظا وخطا ، وتختلف أسماء الآباء لفظا لا خطا أو بالعكس .

٤ المراد به البحث عن أسماء من اشتهروا بكناهم حتى نعرف الاسم غير المشهور لكل منهم ، والبحث عن ألقاب المحدثين ورواة الحديث لمعرفة ضبطها . وفائدته انه يوءدي الى معرفة الأشخاص المشهورين بالكنى والألقاب وتمييزهم عن بعضهم البعض .
لمزيد من التفصيل انظر - تدريب الراوي شرح تقريب النووي للسيوطي الطبعة الأولى القاهرة . وتيسير مصلح الحديث د. محمود الطحان مطبعة المدينة بالرياض - والباحث الحديث في اختصار علوم الحديث لابن كثير طبعة دار الفكر بيروت - ومنهج النقد في علوم الحديث د. نور الدين عتر طبعة دار الفكر .

٥ الشاذ: هو مارواه المقبول مخالفا لما هوأولى منه . والمقبول هو العدل الذي تم ضبطه ، أو العدل الذي خف ضبطه ، ومن هوأولى منه ، أي أرجح منه لمزيد ضبط أو كثرة عدد أو غيرذلك من وجوه الترجيحات انظر تيسير مصطلح الحديث د. محمود الطحان ص ١١٦-١١٧ .

٦ الحديث الذي فيه علة قادحة هو الحديث الذي اطلع فيه على علة تقدح في صحته مع أن الظاهر السلامة منها . انظر المصدر السابق ص ٩٨-٩٩ .

٧ انظر د. محمود الطحان أصول التخريج ودراسة الأسانيد ص ١٥٦-١٥٧ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ نشرته دار القرآن الكريم بيروت .

ويتألف كل حديث من الأحاديث الى قسمين هما السند [1] والمتن [2] ، ولا يتصور – في اصطلاح المحدثين – حديث الا وفيه هذان القسمان ، واما مانجده أحيانا من المتون الحديثية المجموعة في بعض المصنفات أو الأجزاء ، فهي أحاديث مجردة عن أسانيدها التي رويت تلك المتون بواسطتها ، وجردها بعض العلماء اختصارا وتسهيلا على المبتدئين والعوام.

الاسناد وأهميته :

والاسناد خصيصة فاضلة لهذه الأمة ، وليس للأمم السابقة هذه الخصيصة ، ولذلك ضاعت وحرفت كتبها السماوية ، كما ضاعت أخبار أنبيائها، وحل محلها كذب الدجالين وافتراءات المستغلين الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا [3] .

وتبرز قيمة الاسناد وأهميته في تعريف الواقف عليه برجاله الذين يتألف منهم الاسناد ، وذلك بالبحث عن حالهم في كتب تراجم الرواة ، كما تظهر أهميته في معرفة اتصاله من انقطاعه ، ولولا الاسناد ماعرفنا صحيح الأحاديث والأخبار من مكذوبها،ولتجرأ على اختلاقها كل مبتدع ومبطل ولصار الأمر كما قال ابن المبارك : "لولا الاسناد لقال من شاء ماشاء" [4] .

(٣) علم الجرح والتعديل :

ان البحث في الأسانيد ،يعتمد في الأصل على علم الجرح والتعديل وتاريخ الرواة للحكم على رجال الاسناد ، وبالتالي لمعرفة مرتبة الحديث ، لأنه لايمكن أبدا البدء بدراسة الأسانيد الا بعد معرفة قواعد الجرح والتعديل التي اعتمدها أئمة هذا الفن ، ومعرفة شروط الراوي المقبول ، وكيفية ثبوت عدالته وضبطه وما الى ذلك من الأمور المتعلقة بهذه

---

١ السند هو سلسلة الرواة الذين نقلوا الحديث واحدا عن الآخر حتى يبلغوا به قائله. انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ٣٤٤

٢ المتن هو ماينتهي اليه السند من الكلام . انظر منهج النقد في علوم الحديث ص ١٢١.

٣ انظر أصول التخريج ودراسة الأسانيذ ص ١٥٨

٤ أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ص ١٢ ، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص ٤١ .

المباحث ، لأنه لا يتصور أن يصل الباحث في الاسناد الى نتيجة ما مهما قرأ في كتب التراجم عن رواة هذا الاسناد ، اذا لم يكن عارفا من قبل قواعد الجرح والتعديل من أعلى مراتب التعديل ، الى أدنى مراتب الجرح [١] .

وقد أجمع أئمة الحديث والفقه على أنه يشترط فيمن يحتج بروايته شرطان أساسيان هما [٢] :

١- العدالة : ويعنون بها أن يكون الراوي ، مسلما ، بالغا ، عاقلا ، سليما من أسباب الفسق ، سليما من خوارم المروءة .

٢- والضبط : ويعنون به أن يكون الراوي غير سيء الحفظ ، ولا فاحش الغلط ، ولا مخالفا للثقات ، ولا كثير الأوهام ، ولا مغفلا .

ثم وضع علماء هذا الفن قواعد دقيقة لضبط جوانب هذا العلم ، وهذه القواعد عبارة عن ضوابط تمنع الشطط والمغالاة ، وتوجه المتتبع لهذا العلم الى معرفة كيفية الافادة منه بصورة صحيحة ، وركزت على بيان شروط توثيق الراوي ، ومعنى التعديل ومعنى الجرح ، ومتى يقبل الجرح دون ذكر السبب ، ومتى لا يقبل الا بذكر السبب ، ومتى يجوز الرواية عن أهل البدع ومتى لا يجوز ، وكيفية الخروج من الأحكام المتعارفة على الرجال كأن يعدلهم بعض النقاد ، ويجرحهم آخرون وتعارفوا على ألفاظ معينة للجرح والتعديل ووضعوا لها مراتب وأحكام يمكن للمتخصص في هذا الفن معرفة حال الراوي بمجرد النظر في ألفاظ الجرح والتعديل [٣] .

(٤) علم تاريخ رجال الحديث :

ويسمى هذا العلم بـ (تراجم الرجال وتاريخهم) وهو علم يبحث في رواة الحديث وتاريخهم وكل ما يتعلق بشئونهم ، ونشأتهم ، وشيوخهم ، وتلامذتهم ، ورحلاتهم ، ومن

---

١ انظر أصول التخريج ودراسة الأسانيد ص ١٥٩
٢ انظر علوم الحديث لابن الصلاح ص ٩٤
٣ انظر بحوث في تاريخ السنة ص ٦٥-٦٦

تلاقوا ، ومن لم يتلاقوا من أهل عصر واحد ، ومركزهم العلمي في عصرهم ، وعاداتهم وطباعهم وأخلاقهم وشهادة عارفيهم لهم ، أو عليهم ،وحصر جميع من تعرض لرواية السنة المشرفة ، ثم الكلام عن جميع مايتعلق بحياتهم خاصة مايتعلق بتوثيق الراوي وتجريحه [1].

ان الغرض الأساسي من علم تراجم الرجال وتاريخهم هو ذب الكذب عن السنة المشرفة ومعرفة حال رواة الحديث ، وتمييز القوي من الضعيف ، والصادق من الكاذب من الرواة . وذلك أن أعداء الاسلام لم يستطيعوا مقاومة الاسلام وأفكاره علنا ، فعمدوا الى طريقة خفية خبيثة في عداء الاسلام وهدم دعائمه ، آلا وهي استعمال الكذب والدس على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، بشكل أحاديث يختلقها ويضعها بعض الملحدين والزنادقة وغيرهم من الحاقدين على الاسلام ، فتنبه علماء الحديث الى هذا المكر الخبيث،فقاموا بتأليف المصنفات في تراجم الرجال ، فكشفوا فيها حال المدسوسين الوضاعين ، وتعروا أمام الناس بقبيح أفعالهم ، فاجتنب المسلمون مروياتهم ، وقتل بعض كبارهم على يد بعض خلفاء المسلمين ، وجعل الله كيدهم في نحورهم [2] .

وقد تفنن علماء المصطلح في تنويع هذه المصنفات ، وتقسيمها وتفريعها ، في مصنفات خاصة بمعرفة الصحابة ، الى كتب على نظام الطبقات ،ومن كتب مرتبة على الحروف الى كتب خاصة برجال البلدان ، ومن مؤلفات خاصة بالثقات أو الضعفاء ،الى مصنفات عامة لجميع الأنواع ، ومن كتب خاصة برجال بعض الحديث ، الى تصانيف في رجال عامة رواة الحديث ، ومن كتب الكنى والألقاب الى غيرها من المصنفات في كل باب [3] .

ثمّ ان مناهج المحدثين في نقد رجال الحديث كان لها أثر كبير في تطور ونمو نقد المصادر ، والتحري ببيان مكان ناقليها من الصدق والاتقان ، فقد أوضحت كتب مصطلح الحديث التي تبلورت فيها قواعد نقد الحديث طريقة الاستفادة من كتب تراجم

---

١ انظر محمد الصباغ الحديث النبوي ـ مصطلحه بلاغته ـ كتبه ص ١٩٢ وأصول التخريج ودراسة الأسانيد ص ١٦٨ .
٢ انظر أصول التخريج ودراسة الأسانيد ص ١٦٨
٣ انظر المصدر السابق نفس المكان

الرجال ، وبطبيعة الحال فان هذه القواعد وضعت خصيصا لنقد الحديث ، ولكن بسبب اشتغال كثير من المحدثين في التاريخ فان قواعد النقد هذه استعملت في علم التاريخ أيضا . وقد ساعد ذلك في أن كثيرا من الروايات التأريخية كانت تتصدرها الأسانيد كما هو الشأن في الأحاديث النبوية ، كما أن مقاييس المحدثين سرت الى علم التأريخ، فقد اشترطوا في المؤرخ مااشترطوه في رواة الحديث من العدالة والضبط ، وبذلك أمكن - الى حد ما - تطبيق قواعد نقد الحديث في الروايات التأريخية أيضا ، ولكن نظرا لأن الحديث تترتب عليه الأحكام الشرعية فقد رفض العلماء الاحتجاج بالأحاديث ذات الأسانيد المنقطعة في حين أنهم قبلوا ذلك في الروايات التأريخية . ولم يجدوا بأسا في استعمال صيغ التمريض في بيان طرق التحمل بالنسبة للروايات التأريخية. وهكذا ميز العلماء منذ فترة مبكرة بين الحقائق التأريخية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، بتمييز قواعد نقد الحديث عن قواعد قبول الأخبار التأريخية وسمحوا بعدم تطبيق قواعد نقد الحديث بنفس الدقة في نطاق التأريخ [1] .

---

١ انظر بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ١٣٠-١٣٢

المبحث الثالث

منهج المسلمين في الاستدلال

"القياس الأصولي"

(أ) منهجهم لتحقيق الادعاء :

الدعاوى منها ماهو مادي محسوس ، ومنها ماهو غيبي ، فما كان منها متعلقا بموجود مادي ، فان الاعتماد فيه يكون مبنيا على شواهد وبراهين من الحواس الخمس وهي مايسمى بالتعبير الحديث : التجربة والمشاهدة [1] .

أما ماكان منها متعلقا بالأمور الغيبية ، فقد فصل فيها القرآن الكريم والسنة المطهرة بحكم مبرم ، لأنه لا مطمع للعقل في الوصول اليها عن طريق التجربة والمشاهدة ، ولأن مانص عليه الكتاب والمتواتر من السنة نصا واضحا يدخل في باب المدركات اليقينية الموحى بها الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ووواجب المسلمين الوقوف عندها ، والتسليم بها دون اعتبار لموقف العقل تجاهها . وأما مالم يتعرض له الخبر المتواتر اليقيني بأيّ نص واضح وصريح فينحصر السبيل الى معرفة الحق فيه في النظر العقلي وحده [2].

وقد نشأ من هذا السبيل المنهج الذي اتخذه العلماء الأصوليون ،وسموه القياس الأصولي تمييزا له عن القياس الأرسطاليسي ، وهو المنهج الذي اتخذه علماء المنطق على عهد ارسطو وتلاميذه من بعده للبحث عن المعارف الفلسفية والعلمية [3] ، وسيأتي بيانه عند الكلام عن منهج البحث العلمي في الغرب .

أصل فكرة القياس أو التعليل عند المسلمين وتطوره :

يرى كثير من موءرخي علم الأصول أن أول محاولة لوضع مباحث الأصول كعلم ، انما نجدها عند الامام الشافعي ـ رحمه الله ـ وأنه لم يكن قبل هذا العهد ثمّة محاولات لوضع قواعد

١،٢ انظر محمد سعيد رمضان البوطي ، كبرى اليقينات الكونية ص ٤٠-٤٢ .
٣ انظر د. علي سامي النشار ، مناهج البحث عند مفكري الاسلام ص ٤٠ الطبعة الرابعة ١٩٧٨م طبعة دار المعارف القاهرة .

أصولية تحدد للفقيه الطريق الذي يجب أن يسلكه في استنباط الأحكام . ويستند هذا الرأي الى أن أقدم ماوصل الينا مكتوبا عن القواعد الأصولية ، هو كتاب الرسالة للامام الشافعي،الذي أظهر فيه براعته في وضع المنهج واحاطته الشاملة لجميع نواحي الأصول [1] . ولكن الثابت لدى الأصوليين أن القياس الأصولي بدأ قبل ذلك بكثير، ونظرا لأن التدوين لم يظهر الا متأخرا فقد نسب الى الامام الشافعي وضع قواعد علم الأصول، واستدلوا على ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا سئل عن حكم واقعة من الوقائع لا يكتفي في كثير من الأحيان ببيان الحكم للسائل ، وانما يعتمد على التنظير بشيء مماثل ليفهم السائل الجواب ، ويستقر في نفسه ، من ذلك مثلا مايروى أن عمربن الخطاب قبّل امرأته وهو صائم ثم جاء يسأل عن حكم هذا الفعل ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : أرأيت لم تمضمضت وأنت صائم ؟! فرد عمر – رضي الله عنه – بأنه لا بأس ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم فمه – أي حسبك هذا [2] .

ومن ذلك أيضا ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما "أن امرأة من جهينة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله : ان أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفحج عنها ؟ قال : نعم ، حجي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضية ؟ قالت : نعم . قال : اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء" [3] .

وقد سار الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – على هذا النهج فيما جد من الوقائع التي لم يجدوا فيها حكما مباشرا معلوما في نصوص القرآن والسنة ، وكانوا يردون الواقعة الى نظيرها مما كان حكمه معلوما لديهم : من ذلك استنادهم عند تنصيب أبي بكر – رضي الله عنه – بخلافة المسلمين ، بواقعة انابته للرسول صلى الله عليه وسلم في الصلاة عند مرضه الأخير صلى الله عليه وسلم – ، بقولهم رضيه رسول الله صلى الله

---

١ انظر مناهج البحث عن مفكري الاسلام ص ٦٦

٢ انظر محمد بن علي الشوكاني ، ارشاد الفحول الى تحقيق الحق على علم الأصول ص ٢٠٣ ط الحلبي القاهرة سنة ١٣٥٦هـ .

٣ رواه البخاري في صحيحه ،صحيح البخاري ج٢ ص ٢١٧–٢١٨ باب الحج والنذور عن الميت .

عليه وسلم لدينينا ، أفلا نرضاه لدنيانا ؟! . ومن ذلك ماحدث في مسألة قتل الجماعة بالواحد في زمن عمر [1] رضي الله عنه .

وقد استمر هذا النهج في عصر التابعين ، وتابعي التابعين ، الذين كانوا يقومون بالحاق واقعة لا نص على حكمها بواقعة ورد نص بحكمها ، في الحكم الذي ورد به النص لتساوي الواقعتين في علة هذا الحكم - والذي صار يعرف بالقياس في اصطلاح الأصوليين - فلما كان عصر الأئمة الأربعة - رضوان الله عليهم - ومن تلاهم تمت دراسة القياس باعتباره مصدرا من مصادر الأحكام الشرعية ، ووضعت له الشروط والضوابط التي تضمن جعله أساسا صالحا أمينا لاستنباط الأحكام الشرعية . وكان للامام الشافعي رحمه الله السبق بتحليل هذا المنهج وجعله في صورة منظمة ومتكاملة ، وأضاف اليه أبحاثا جديدة وتوسع في جمع المباحث الأصولية التي عرفت من قبل ،وأكمل بعضها ، وأقام فروع مذهبه على هذه الأصول ، وفي هذا يقول الامام الرازي : "كان الناس قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ، ولكن ماكان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة ، وفي كيفية معارضتها وترجيحها ، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع"[2]. فكان اتجاه الشافعي هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعني بالجزئيات والفروع ، بل كانت غايته ضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها [3] .

وقد استمرت رسالة الشافعي رحمه الله سنوات طويلة تسيطر على المناهج الأصولية ثم حدث تطور في منهج علم الأصول تحت تأثير حركة فكرية جديدة قوامها الأصوليون المتكلمون من الأشاعرة والمعتزلة فساد الحركة الفكرية بعامة منهجان لكل منهما طابعه الذي تميز به :

---

١ أبي اسحاق الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة ج ٣ ص ١١ طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة وبهامشه شرح الشيخ عبدالله وراز .

٢ الفخرالرازي ، مناقب الشافعي ص ٩٨ ومناهج البحث العلمي عند المسلمين ص ٦٨ .

٣ انظر مصطفى عبدالرزاق ، تمهيد تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٢٠ .

١- منهج الأصوليين الفقهاء .

٢- ومنهج الأصوليين المتكلمين .

أما منهج الأصوليين الفقهاء فقد تميزت كتابات رواده بمزج الأصول بالفقه وكثرة تفريع المسائل الفقهية الجزئية ، وذكر الأمثلة والشواهد ، وتأسيس المسائل الكلية العامة على النكت الفقهية ، ومن أبرز أئمة هذا المنهج الامام الشاطبي صاحب الموافقات (ت ٧٩٠هـ) ، وشهاب القرافي صاحب كتاب الذخيرة (ت ٦٨٠هـ) ، وابن حزم صاحب المحلى [١].

أما منهج الأصوليين المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة ،فقد كان محاولة عقلية تقوم على تجريد القواعد العامة من المسائل الفقهية ، والاستناد الى البرهنة النظرية والاستدلال العقلي ، وكان من نتائج ظهور هذا المنهج أن وضعت طرق البحث الكلامية القائمة على مدارك العقول ، طريق القياس الأصولي في صورة عقلية مجردة [٢] . ومن آئمة هذا المنهج القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ) ومن الأشاعرة أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) [٣] .

ولكن مباحث القياس الأصولي رغم اتجاهه العقلي المجرد ، استمر بمنأى عن التأثر بالمنطق اليوناني حتى جاء الامام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) فدعا الى مزج المنطق اليوناني بعلوم المسلمين في كتابه (المستصفى) حيث اشترط منطق ارسطو شرطا من شروط الاجتهاد وفرض كفاية على المسلمين [٤] . وقد واجه الامام الغزالي بسبب ذلك اعتراضات شديدة من الأصوليين والفقهاء مما دعا الغزالي الى تغيير فكرته عن المنطق ، وتبيين فساده ، وذم طريق المتكلمين ، وألف كتابه "شفاء العليل" انتهج فيه نهج المتقدمين من علماء أصول الفقه [٥] .

---

١ انظر مناهج البحث العلمي عند المسلمين ص ٧١

٢ انظر مناهج البحث العلمي عند المسلمين ص ٧٢

٣ انظر نفس المصدر ونفس المكان .

٤ انظر أبو حامد الغزالي ، المستصفى في علم الأصول مج ١ ص ٥٢-٥٤ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤هـ . طبعة دار احياء التراث العربي بيروت .

٥ انظر مناهج البحث العلمي عند المسلمين ص ٧٤ .

(ب) أصول منهجهم في الاستدلال :

كانت مناهج البحث العلمي التي استخدمها الأصوليون - علماء أصول الفقه وعلماء الكلام - متفقة في النظر الى جوهر القياس - قياس الغائب على الشاهد - ولكنهم اختلفوا في طريقة العرض ، وفي أن كلا من المنهجين يضيف عناصر لم يضفها علماء المنهج الآخر ،وقد اعترض علماء أصول الفقه على منهج علماء الكلام واضافاتهم ، كما حدث مع الامام الغزالي عند تأليفه كتابه "المستصفى" وسأقصر عرضي على آراء الأصوليين،علماء أصول الفقه .

التبس الأمر على بعض الباحثين الذين بحثوا أثر المنطق الارسطاليسي في العالم الاسلامي ، فأثبتوا مشابهة القياس الأصولي للتمثيل الأرسطاليسي ، وهي نتيجة غير صحيحة. حقا انهما يبدوان كأنهما من طبيعة واحدة اذ كليهما انتقال من جزئي الى جزئي، ولكن الحقيقة أن هذين الطريقين يختلفان أشد الاختلاف في جوهرهما ، وفي طريقة علاج أرسطو للتمثيل، وعرض المسلمين للقياس بالرغم من هذا التشابه الظاهري السالف الذكر[1].

ثم انه من الثابت أن المسلمين توصلوا الى فكرة القياس ،قبل أن ينقل اليهم المنطق الارسطاليسي بكثير . قاس فقهاء الصحابة ، وقاس فقهاء التابعين ، قبل أن يعرفوا المنطق اليوناني ، وقبل أن ينتقل الى العالم الاسلامي - والمعلوم أن المنطق اليوناني لم ينقل الى العالم الاسلامي بصورة جادة الا في صدر العصر العباسي .

أما أوجه الخلاف بين القياس الأصولي والتمثيل الارسطاليسي فيتلخص فيما يأتي :

أولا : ان الأصوليين - المتكلمين جميعا وكثير من علماء أصول الفقه - قبل عصر الغزالي اعتبروا القياس الأصولي - قياس الغائب على الشاهد - موصلا الى اليقين[2]. أما التمثيل الارسطاليسي فلا يفيد الا الظن[3] .

---

١ انظر المصدر نفسه ص ٩٠

٢ انظر السيوطي صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام ص ٢٣٢ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦م القاهرة ، تحقيق د. علي سامي النشار .

٣ انظر ابن تيمية الرد على المنطقيين ص ٢٠٣ طبعة بمباي سنة ١٩٤٧م - ومناهج البحث عند المسلمين ص ١٨٩-١٩٦ .

ثانيا : ان الأصوليين أرجعوا القياس الى نوع من الاستقراء العلمي الدقيق القائم على فكرتين أو قانونين :

الأول : فكرة العلية أو قانون العلية – وتتلخص في أن لكل معلول علة ، أي "أن الحكم ثبت في الأصل لعلة كذا" [١] فحكم التحريم في الخمر معلول بالاسكار .

الثاني : قانون الاطراد في وقوع الحوادث : وتفسيره أن العلة الواحدة اذا وجدت تحت ظروف متشابهة انتجت معلولا متشابها – "أي القطع بأن العلة – علة الأصل – موجودة في الفرع ، فاذا وجدت انتجت نفس المعلول . مثلا اذا وجدنا الاسكار في الخمر ، ووجدنا التحريم ، ثم وجدنا الاسكار في أيّ شراب آخر ، جزمنا بوجود التحريم فيه" [٢] . فهناك اذن نظام للأشياء واطراد في وقوع الحوادث .

فالمسلمون اذا أقاموا القياس الأصولي على نوع من الاستقراء العلمي باستخدام قانونين هما : قانون العلية – أي لكل معلوم علة – وقانون الاطراد في وقوع الحوادث ويمكن التعبير عن هذا بأن حوادث الطبيعة مطردة ، أو بأن الكون محكوم بقوانين عامة ، أو بأن العلة الواحدة تحدث تحت ظروف مماثلة نفس المعلول .

ويرى الأصوليون أنه لابد من طرق لاثبات العلة ، لأن العلة هي الصفات التي يستند عليها الحكم . وفي هذه الناحية ابتدعوا طرقا أو مسالك لاثبات العلة توازي طرق الاستقراء التي وضعها المحدثون لتحقيق نفس الغرض .

والقياس عند الأصوليين يقوم على أربعة أركان : الأصل ، والفرع ، والعلة والحكم ، الأصل هو ماتفرع عليه أو ماعرف بنفسه أو مابني عليه غيره . والفرع هو عكس الأصل ، أي أنه ماتفرع على غيره . والعلة هي الوصف الجامع بين الأصل والفرع . والحكم هو ثمرة

---

١ الزركشي ، البحر المحيط ج ٥ ص ١٢٥ ، ومناهج البحث العلمي عند علماء المسلمين ص ٩١ .
٢ نفس المصدرين ونفس المكانين .

القياس ، والمراد به ماثبت للفرع بعد ثبوت ثبوته للأصل [١] . ولمّا كانت الغاية من هذا المبحث اثبات أن القياس الأصولي هو نوع من أنواع الاستقراء العلمي الدقيق القائم على التجربة ، فلن نبحث فيما وضع الأصوليون للركنين الأولين - الأصل والفرع - من شروط، لأن هذه الشروط تعود في معظمها الى مسائل فقهية ، كما أن البحث في الحكم خارج عن نطاق بحثنا هذا ، اذ هو بحث كلامي بحت. بقيت "العلة" وسنقصر البحث فيها على قسمين: شروطها ومسالكها :

أولا : شروط العلة :

اشترط الأصوليون للعلة شروطا متعددة ، غير أنهم لا يتفقون على تلك الشروط جميعها بل يختلفون في بعضها ، وسنركز قدر الامكان على الشروط المتفق عليها :

١- أن تكون العلة وصفا منضبطا غير مضطرب [٢] ، أي أن يكون تأثيرها لحكمة مقصودة لا لحكمة مجردة لخفائها [٣] ، ويوجب هذا أن تكون ظاهرة جلية [٤] ، والا فلا يمكن نقلها الى الفرع ، وخاصة اذا كانت أخفى أو مساوية له في الخفاء ، كالرضا في العقود فانه خفي لا يعرف ، لذلك جعلت صحة العقد متوقفة على الصيغة الشرعية كالايجاب والقبول لكونها ظاهرة [٥] ، وأن تكون أوصافها مسلمة ، أو مدلولا عليها كالمشقة في السفر اذ أنها تختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة ، لذلك ناط الشارع الحكم في السفر سواء وجدت المشقة بالفعل أم ارتفعت المشقة [٦] .

٢- "أن تكون العلة موءثرة في الحكم ، لأن الحكم معلول لها ، فان لم يكن ثمّة تأثير فيه خرجت عن كونها علة" [٧] . ويفسر كون العلة موءثرة في الحكم قول

---

١ عبد القادر شيبه الحمد امتاع العقول بروضة الأصول ص ١٧٩-١٨٠ - الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ (د.ن)

٢،٣،٤ انظر الشوكاني ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول ص ١٩٣

٥، ٦ انظر امتاع العقول بروضة الأصول ص ١٨١-١٨٢ .

٧ الزركشي - البحر المحيط ج ٥ ص ١٥٥ - ومناهج البحث عند علماء المسلمين ص ٩٤ .

الباقلاني : "هو أن يغلب على ظن المجتهد أن الحكم حاصل عند ثبوتها لأجلها دون شئ سواها" [١] . كتحريم الاسكار فان علته أنه يوءثر على العقل .

٣- أن تكون العلة مطردة "أي كلما وجدت العلة في صورة من الصور ، وجد الحكم" [٢] أي تدور العلة مع الحكم وجودا ، فكلما ظهرت ظهر . ومثال ذلك : تعليل حرمان القاتل من الميراث ، بأنه استعجل غرضه قبل أوانه فعومل بحرمانه [٣] .

٤- أن تكون العلة منعكسة - أي كلما انتفت العلة انتفى الحكم ، أي أن العلة تدور مع الحكم عدما - فكلما اختفت اختفى . ويوءدي هذا الى منع تعليل الحكم بعلتين لأنه اذا كان للحكم أكثر من علة ، لم يوءد الى انتفاء الحكم ، بل قد تنتفي العلة ويوجد الحكم لافتراض وجود علة أخرى مثال : تعليل حرمة النكاح بالقرابة والصهر والرضاع [٤] .

ثانيا : منهجهم في معرفة العلل :

لا يكتفى في القياس الأصولي بمجرد وجود الجامع بين الأصل والفرع ، ولا باستناد هذا القياس الى قانون التعليل والاطراد - ولا بوضع شروط خاصة للعلة ، بل لابد من قوانين تحقق وجود الجامع بين الأصل والفرع . وقد تعارف الأصوليون على تسمية هذه الأدلة بالمسالك . وهذه المسالك ليست فقط طرقا للاثبات بل هي علل جامعة توءدي الى اكتشاف العلة [٥] .

والمسالك أو الأدلة تنقسم الى قسمين :

(١) أدلة نقلية وهي النص - آية أو حديث - ، والاجماع ، وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

١ المصدر نفسه والمكان نفسه

٣،٢ أبو عبد الله أحمد المالكي التلمساني (ت ٧٧١هـ) . مفتاح الوصول الى علم الأصول ص١٠١ طبع تونس سنة ١٣٤٦هـ . ومناهج البحث عند علماء المسلمين ص ٩٥.

٤ انظر مفتاح الوصول ص ١٠١-١٠٢، ومناهج البحث عند علماء المسلمين ص ٩٥.

٥ مناهج البحث عند علماء المسلمين ص ٩٦.

(٢) أدلة عقلية ، وهي الاستنباط ، وأهمها ثلاثة أنواع :

١- السبر والتقسيم .

٢- الطرد .

٣- الدوران .

١- السبر والتقسيم :

السبر معناه الاختبار ، والتقسيم هو حصر الأوصاف الصالحة لأن تكون علة في الأصل، وترديد العلة بينها بأن يقال العلة اما هذا الوصف أو هذا الوصف [1] . فاذا ورد نص بحكم شرعي في واقعة ولم يدل نص ولا اجماع على هذا الحكم ، سلك الباحث للتوصل الى معرفة علة هذا الحكم مسلك السبر والتقسيم : بأن يحصر الأوصاف التي توجد في واقعة الحكم وتصلح لأن تكون العلة وصفا منها ، ويختبرها وصفا وصفا على ضوء الشروط الواجب توافرها في العلة ، وأنواع الاعتبار الذي تعتبر به ، بواسطة هذا الاختبار يستبعد الأوصاف التي لا تصلح أن تكون علة ، ويستبقي ما يصلح أن تكون علة ، وبهذا الاستبعاد وهذا الاستبقاء يتوصل الى الحكم بأن هذا الوصف هو العلة . مثلا ورد النص بتحريم ربا الفضل والنسيئة في مبادلة الشعير بالشعير ، ولم يدل نص ولا اجماع على علة هذا الحكم . فالباحث يسلك لمعرفة علة هذا الحكم مسلك السبر والتقسيم بأن يقول : علة هذا الحكم اما كون الشعير مما يضبط قدره لأنه يضبط بالكيل ، واما كونه طعاما ، واما كونه مما يقتات به ويدخر ، لكن كونه طعاما لا يصلح علة ، لأن التحريم ثابت في الذهب بالذهب وليس الذهب طعاما ، وكونه قوتا لا يصلح أيضا لأن التحريم ثابت في الملح بالملح وليس قوتا ، فيتعيّن أن تكون العلة كونه مقدرا . وبناء على هذا يقاس على ماورد في النص كل المقدرات بالكيل أو الوزن ، ففي مبادلتها بجنسها يحرم ربا الفضل والنسيئة [2] .

---

١ أبو حامد الغزالي المستصفى في علم الأصول ص ٣٩٥-٣٩٦ - وعبد الوهاب خلاف علم أصول الفقه ص ٧٧ ، وامتاع العقول بروضة الأصول ص ١٨٥-١٨٦ .

٢ انظر عبد الوهاب خلاف علم أصول الفقه ص ٧٧ الطبعة العاشرة سنة ١٩٧٢م الناشر دار القلم بالكويت والمستصفى في علم الأصول ص ٣٩٦ .

(٢) أدلة عقلية ، وهي الاستنباط ، وأهمها ثلاثة أنواع :

١- السبر والتقسيم .

٢- الطرد .

٣- الدوران .

١- السبر والتقسيم :

السبر معناه الاختبار ، والتقسيم هو حصر الأوصاف الصالحة لأن تكون علة في الأصل، وترديد العلة بينها بأن يقال العلة اما هذا الوصف أو هذا الوصف [1] . فاذا ورد نص بحكم شرعي في واقعة ولم يدل نص ولا اجماع على هذا الحكم ، سلك الباحث للتوصل الى معرفة علة هذا الحكم مسلك السبر والتقسيم : بأن يحصر الأوصاف التي توجد في واقعة الحكم وتصلح لأن تكون العلة وصفا منها ، ويختبرها وصفا وصفا على ضوء الشروط الواجب توافرها في العلة ، وأنواع الاعتبار الذي تعتبر به ، بواسطة هذا الاختبار يستبعد الأوصاف التي لا تصلح أن تكون علة ، ويستبقي مايصلح أن تكون علة ، وبهذا الاستبعاد وهذا الاستبقاء يتوصل الى الحكم بأن هذا الوصف هو العلة . مثلا ورد النص بتحريم ربا الفضل والنسيئة في مبادلة الشعير بالشعير ، ولم يدل نص ولا اجماع على علة هذا الحكم . فالباحث يسلك لمعرفة علة هذا الحكم مسلك السبر والتقسيم بأن يقول : علة هذا الحكم اما كون الشعير مما يضبط قدره لأنه يضبط بالكيل ، واما كونه طعاما ، واما كونه مما يقتات به ويدخر ، لكن كونه طعاما لا يصلح علة ، لأن التحريم ثابت في الذهب بالذهب وليس الذهب طعاما ، وكونه قوتا لا يصلح أيضا لأن التحريم ثابت في الملح بالملح وليس قوتا ، فيتعيّن أن تكون العلة كونه مقدرا . وبناء على هذا يقاس على ماورد في النص كل المقدرات بالكيل أو الوزن ، ففي مبادلتها بجنسها يحرم ربا الفضل والنسيئة [2] .

---

١ أبو حامد الغزالي المستصفى في علم الأصول ص ٣٩٥-٣٩٦ - وعبد الوهاب خلاف علم أصول الفقه ص ٧٧ ، وامتاع العقول بروضة الأصول ص ١٨٥-١٨٦ .

٢ انظر عبد الوهاب خلاف علم أصول الفقه ص ٧٧ الطبعة العاشرة سنة ١٩٧٢م الناشر دار القلم بالكويت والمستصفى في علم الأصول ص ٣٩٦ .

وخلاصة هذا المسلك ، أن المجتهد عليه أن يبحث في الأوصاف الموجودة في الأصل، ويستبعد مالايصلح أن يكون علة منها ، ويستبقي ماهو علة حسب رجحان ظنه ،وهاديه في الاستبعاد والاستبقاء تحقق شروط العلة السالفة الذكر . وفي هذا تتفاوت عقول المجتهدين لأن منهم من يرى المناسب هذا الوصف ، ومنهم من يرى المناسب وصفا آخر [١] .

٢- الطرد :

الطرد هو مقارنة الوصف للحكم في الوجود دون العدم ، بحيث لا يكون مناسبا ولا شبيها . على أن تكون هذه المقارنة في جميع الصور ماعدا الصور المتنازع فيها ، أي صورة الفرع الذي يراد ثبوت الحكم له ، لوجود ذلك الوصف فيه ، بناء على أن ذلك الوصف الطردي علة هذا الحكم [٢] .

فالطرد عبارة عن مقارنة الوصف للعلة وجودا ، بحيث لا يوجد الوصف الا ويوجد معه الحكم ، ولا يمكن التوصل الى اثبات هذا الا اذا اقترن الحكم مع الوصف في الفرع ، فاذا ماثبت الحكم في الفرع يكون ذلك الوصف علة واثبات العلية يكون بالاطراد.ومثال ذلك : الغيم دليل المطر ، فحيث يوجد المطر يوجد الغيم ، وعدم نزول المطر في بعض الحالات مع وجود الغيم لا يقدح في كونه دليلا ، لأن الذي يعنينا المطر وليس الغيم ، فوجود المطر طردي مع وجود الغيم [٣] . فالعلة والمعلول في الطرد متلازمان بحيث اذا وجدت العلة وجد المعلول .

٣- الدوران :

الدوران يعرف بأنه دوران العلة مع المعلول وجودا وعدما ، ويعبر الأصوليون عنه "بالجريان" أو "بالطرد والعكس" ومعناه أن يوجد الحكم بوجود الوصف ويرتفع بارتفاعه ، فيعلم أن هذا الوصف علة ذلك الحكم .والوصف يسمى مدارا ،والحكم يسمى دائرا . وعلى

---

١ انظر علم أصول الفقه ص ٧٨.

٢ البحر المحيط ج ٥ ص ٣١٨ – ومناهج البحث عند علماء المسلمين ص ٩٩.

٣ مناهج البحث عند علماء المسلمين ص ٩٩-١٠٠.

هذا فان لهذا المسلك ثلاثة عناصر : المدار ، والدائر ، والدوران [1] ، ومثاله : ان عصير العنب قبل أن يدخله الاسكار ليس بحرام اجماعا ، فاذا مادخله الاسكار كان حراما اجماعا ، فاذا ذهب عنه الاسكار ، ذهب عنه التحريم . فلما دار التحريم مع الاسكار وجودا وعدما ، ثبت لنا ان الاسكار علة التحريم .

والدوران يستند الى التجربة ، بل ان الأصوليين يعتبرونهما شيئا واحدا : الدوران عين التجربة ، وقد تكثر التجربة فتفيد القطع ، وقد لا تصل الى ذلك : قطع الرأس مستلزم قطعا للموت ، ونظنه مع السم [2] . ويقول النيسابوري : الدورانات الدالة على علية المدار كثيرة جدا تفوق الاحصاء – وذلك لأن جملة كثيرة من قواعد علم الطب انما تثبت بالتجربة ، وهي الدوران بعينه . وذلك كالاسهال والسخونة والبرودة ، فانها تدور مع تناول بعض الأدوية والأغذية وجودا وعدما . [3] .

وقد اختلف علماء الأصول في افادته العلية ، فقال قوم : يفيد العلية لأنه يغلب على الظن ثبوت الحكم مستندا الى ذلك الوصف ، فاننا لو رأينا رجلا جالسا فدخل رجل آخر ، فقام الأول عند دخول الآخر ، ثم جلس بعد خروجه ، وتكرر منه ذلك ، غلب على ظننا أن العلة في قيامه هو دخول ذلك الرجل . وقال قوم : لا يفيد العلية أصلا لجواز أن يكون الوصف ملازما للعلة وليس هو العلة [4] .

وانما سمي دورانا ، لما فيه من متابعة الحكم للوصف وجودا وعدما . والطرد الملازمة في الثبوت ، والعكس الملازمة في الانتفاء [5] .

---

١ انظر الأصفهاني : شرح الأصفهاني على المحصول ص ١٠٤ . (مخطوط) ومناهج البحث العلمي عند علماء المسلمين ص ١٠١ .
٢ انظر القرافي ، نفائس الأصول في شرح المحصول (مخطوط) جـ ٢ ص ١٠٣ ومناهج البحث العلمي عند علماء المسلمين ص ١٠١.
٣ انظر نفس المصدرين ونفس المكان .
٤ امتاع العقول بروضة الأصول ص ١٨٨.
٥ المصدر نفسه ص ١٨٩.

وخلاصة ماتقدم أن علماء الاسلام من الأصوليين تمكنوا من وضع أصول المنهج الاستقرائي في أكمل صورة ، وأسسوا أدق طرق البحث العلمي على قانون العلية ، وقانون الاطراد في وقوع الحوادث ، وبنوا القياس الأصولي على أساس الاستنباط والنظر والتجربة والمشاهدة ، فاستخدمه الأصوليون من علماء أصول الفقه في استنباط الأحكام الفقهية غير المنصوص عليها ، واستخدمه علماء علم الكلام في تدعيم حججهم في اثبات وجود الله وغير ذلك من الحجج التي احتاجها المسلمون لمواجهة خصوم الاسلام . ثم انتقل منهج البحث العلمي الاسلامي من دائرة المناقشات والمناظرات النظرية الى دائرة العلماء التجريبيين المسلمين .

(ج) منهجهم في البحث في مجال العلوم الطبيعية :

لقد تكون المنهج العلمي عند علماء المسلمين – كما رأينا – في دوائر علماء الأصول ، قبل أن ينتقل الى العلماء الطبيعيين ، وعلى أيدي هؤلاء انتقل منهج البحث من مرحلة النظر والتنظير الى مرحلة التجريب والتطبيق . وللاستدلال على هذا القول نستعرض نماذج من خلاصات أعمال بعض العلماء المسلمين في مجال العلوم الطبيعية .

١– رشيد الدين بن الصوري : (ت ٦٣٩هـ)

اشتهر بالبحث العلمي في النبات ، وطريقته العلمية التي كان يتبعها في شرحه للنباتات المختلفة من حيث نموها ، وثمرها ، ولون ورقها ، وجذعها وأزهارها وأغصانها – هي [1] :

أ – يتوجه الى مكان تواجد النبات موضوع الدراسة .

ب – يتفق مع مصور ماهر ليصحبه الى نفس المكان .

ج – يشاهد النبات الذي يريد دراسته ويدرسه دراسة دقيقة محددة .

---

١ انظر ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٦٩٩–٧٠٣ – ترجمة رشيد الدين ابن الصوري – طبعة دار مكتبة الحياة – بيروت سنة ١٩٦٥م – شرح وتعليق د. نزار رضا .

هـ - يطلب من المصـور أن يلاحـظ النبـات من حيث اللـون والحجم والأوراق والأغصان ليصورها محاولا محاكاتها قدر المستطاع .

و - يكرر هذه العملية هو والمصور مرة في ريعان شباب نضارته ، ثم مرة أخرى وقت كماله واثماره وظهور بذوره ، ثم عندما تتساقط أوراقه ويبسه [١].

فالصوري لم يكن يكتفي بدراسة النبات دراسة نظرية ،بل كان يدرسه على الطبيعة وفي جميع مراحل نموه وأطواره بما تيسر له من امكانات زمانه من الأجهزة .

٢- جابر بن حيان : (ت ٨١٣هـ)

نظر جابر بن حيان الى نظرية تكوين الغازات في باطن الأرض ، نتيجة تفاعل المواد المكونة لها ، وأجرى تجارب على ذلك ، فلاحظ أن الغازات ، لاتتكون من صورة تفاعل الدخان والقوام المائي ، كما كان سائدا عند قدماء اليونان ، بل انهما تتحولان الى عنصرين جديدين هما الزئبق والكبريت ، وباتحاد هذين العنصرين في باطن الأرض تتكون الغازات . وظلت هذه النظرية معمولا بها حتى مطلع القرن الثامن عشر للميلاد ، حيث جرى تطويرها الى نظرية جديدة سميت بنظرية الفلوجستن (اسم صاحب النظرية الجديدة) [٢] .

وكان ابن حيان - مع دأبه الشديد في اجراء التجارب والبحوث العلمية مع التدقيق في الملاحظة والاحتياط والتأني في الاستنتاج - ينصح طلابه الذين كانوا يلازمونه بضرورة اجراء التجارب ، لأن من لا يجري التجارب لا يصل الى أدنى مراتب الاتقان والمعرفة [٣] .

فالتأكيد على اجراء التجارب ، ومباشرة اجراء التجارب ، والاعتقاد بأن التجارب

---

١ انظر المصدر نفسه ص ٧٠٣.

٢،٣ انظر أحمد علي الملا أثر العلماء المسلمين في الحضارة الغربية طبعة دار الفكر بيروت ص ١٤٧-١٤٩ الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م .

والملاحظة والمشاهدة هي أدق وسائل العلم والمعرفة ، كان منهج جابر بن حيان، وهو نفس المنهج الذي يعتقده الشرق والغرب في القرن الخامس عشر الهجري .

٣- الحسن بن الهيثم : (ت ٤٣٠هـ)

كان ابن الهيثم مثلا يحتذى في التجرد للعلم وعدم الميل مع الهوى ، ونؤكد هذا بايراد ملخص عما جاء من مقدمة كتابه (المناظر) . يرى ابن الهيثم مايلي [1] :

أ - استعمال العدل والحق وعدم الميل مع الهوى .
ب - التحري والتمييز والانتقاء للآراء المختلفة قبل قبولها والعمل بموجبها .
جـ - الوصول الى الحقيقة عن يقين وتجربة .
د - يوصي بعدم نسب كلام الغير لنفسك ، والاكتفاء بالاستفادة منه .

وهذه الوصايا التي يحث عليها ابن الهيثم هو عين مايدرس في مناهج البحث العلمي النظري والتطبيقي في أرقى الجامعات .

وكان ابن الهيثم - عند معالجته لظاهرة الانعكاس الضوئي - يستخدم نظرية السبر والتقسيم (أي الابطال والحصر) التي استخدمها الأصوليون ، فكان يستخدم لفظ السبر في مكان التجربة ، ولفظ التقسيم في مكان الاحتمالات الممكنة وهذا يعني أن ابن الهيثم قد تنبه الى أهمية طريقة الحذف - أي حذف مالايصلح للتعليل مع الابقاء على مالايصلح - قبل فرنسيس بيكون بخمسة قرون [2] .

وفي مجال الطب كان الامامان الرازي وابن سينا ، يصفان الأعراض ويشخصان العلل، ثم يأتيان على بيان الروابط والعلاقات بين العلل المشابهة ، وهما في ذلك يقومان بعملية تفسير للظواهر لا يقتصر على مجرد الوصف والتعريف ، بل يقتضي

---

١ انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٥٠-٥٦٠
٢ انظر منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية ص ٩٤-١١٥ .

الأمر مشاهدة الأعراض والدلالات ، يعقبها وضع فرض يتحقق منه الطبيب عن طريق التجربة [١] .

وفي مجال الصيدلة كانت تعرف قوى الأدوية بطريقين وهما التجربة والقياس ، وتقديم التجربة على القياس ، لأن التجربة تعرفنا مايصدر عن الدواء سواء كانت بالكيفية أو بالصورة – وليس كذلك القياس اليوناني – والمراد بالتجربة الاستدلال على قوى الأدوية من مثل الطعم والرائحة واللون وسرعة الانفعال وبطئه . وقد وضع ابن سينا قواعد للتجربة لا تخرج عنها قواعد منهج الاستقراء الحديث (عند بيكون) في تنويع التجربة وسحبها على حالات جديدة ونقلها وقلبها [٢].

وفي العلوم الكونية اتضح أن دلالتي الالتزام والقياس ، يلتقيان في ظل منهج الاستقراء الذي استخدمه العلماء المسلمون في مباحث علم نظام الكون ، فأمكنهم بذلك الاستدلال على القوانين المسيطرة ، وللتحقيق من صحة قياساتهم وأرصادهم أجروا تجاربهم ، فلم يقفوا عند حد النظريات كما فعل قدماء اليونان ، على الرغم من أن المسلمين استفادوا من طرق البحث المستقصى من هذا العلم ، لكنهم تجاوزوا أساليبهم لتصبح لهم وسائلهم المميزة في البحث والاستقصاء [٣] .

والذي نخلص اليه مما سبق ، أن المسلمين ساروا في بحوثهم على الطريقة العلمية الصحيحة ، وقوام هذا المنهج استقراء وقياس ، استقراء مبدوءه أمور متعينة في الذهن تميز ، وتفحص وتستقصى ثم يستقرأ حكمها العام ، وقياس يتخذ فيه ذلك الحكم المستقرأ مقدمة تستنبط منها نتائج ينظر في مطابقتها للواقع . ويمثل كل من الاستقراء والقياس مرحلتين في البحث العلمي ، فالاستقراء يفيد الجانب الوصفي ، والقياس يفيد الجانب العلمي ، ولمّا كان القياس وحده منهج البحث عند اليونان فقد كانت غاية

---

١ انظر نفس المصدر ص ١٤٣–٢٢٠

٢ انظر ابن أبي أصيبعة – طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٠ ومنهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية ص ٢٢٦.

العلم عندهم البحث عن العلل واكتشافها [1] . وقد تنبه العلماء المسلمون الى عقم المنهج اليوناني الذي كان القياس الصوري أداته ، حيث كان يبتدىء بمقدمات عامة ، وتنتهي الى نتائج جزئية ، ومن ثم كان منهجا لاقامة البرهان على حقيقة معلومة لا الكشف عن حقيقة جديدة ، فلزم البحث عن أداة مغايرة تمكن من كشف الجديد ولا تقف عند ماهو معلوم ، وكان الاستقراء هو هذه الأداة فيكونوا بذلك أول من بنى النتائج على الاستقراء ، ثم التجربة والمشاهدة [2] .

---

١ انظر منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية ص ٢٧٢.

٢ انظر نفس المصدر ص ٢٧٤

الفصل الثاني

منهج البحث العلمي في الغرب

المبحث الأول : نشأة منهج البحث العلمي وتطوره :

يعتقد كثير من المهتمين بعلم مناهج البحث بأن دراسة تاريخ علم المنطق تعكس بصورة دقيقة تطور العلم ومناهجه في الغرب ، بحيث يصبح فهم التطور في النظرية المنطقية مرهونا بفهم تطور العلوم ومناهجها منذ الحضارة اليونانية وحتى اليوم ، لهذا فانه من المفيد – في تقديري – تتبع تطور علم المنطق بايجاز منذ ظهوره علما حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي حيث ظهر المنهج الاستقرائي ، واعتمد أساسا للبحث بدلا عن المنهج القياسي :

١– تطور علم المنطق التقليدي* : (منهج القياس الأرسطي) :

المقصود بالمنطق هو تلك النظرية التي وضعها الفيلسوف اليوناني القديم أرسطو (٣٨٤–٣٢٢ ق٠م) ، وما أضيف اليها من شروح وتأويلات في العصور التالية ، أو بعض التعديلات التي لم تخرجها عن جوهرها الأصلي الذي نادى به أرسطو ، ولهذا فان أرسطو يعد الواضع الأول لعلم المنطق ، ولكنه لم يستخدم لفظ "المنطق" في مؤلفاته ، بل كان يستخدم لفظ "التحليلات" لتدل على مايسمى بالمنطق ، ولا يعرف على وجه التحديد أول من استخدم لفظ "المنطق" ، ولا في أيّ عصر استخدم هذا اللفظ [١] ٠

---

* هذه التسمية الغرض منها تمييز هذه المرحلة من علم المنطق عن مرحلته كعلم في العصر الحديث ، فالمنطق عند أرسطو علم لابد من اكتسابه واتقانه قبل الدخول في تعلم أيّ علم آخر ، لأنه مدخل لجميع العلوم ، وآلة لها على اختلاف أنواعها ٠ أما في العصور الحديثة فيكاد يتفق المناطقة على أن المنطق علم صوري ، لا يتعلق عادة دون غيرها ، بل شأنه دائما أن يضع المبادئ العامة للفكر أيّا كان موضوعه ٠ فهو لهذا علم عام عمومية مطلقة – استبعد كل اعتبار لمادة الفكر، الى جانب أن موضوعه – الاستدلال الذي فيه تبدأ من مقدمات نسلم بصحتها لتنتهي الى النتائج اللازمة عنها – لهذا اعتبره المحدثون علما عقيما لأنه لا يضيف جديدا للفكر – ص (١٥–٢٠) من كتاب علم المنطق د٠ محمد مهران ٠

١ د٠ محمد مهران – علم المنطق – ص ١٧ – مطبعة دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٧٨م ٠

والقول بأن أرسطو هو أول من وضع علم المنطق لا يعني أنه لم تكن هناك ارهاصات للنظرية التي وضعها أرسطو ، فقد كان هناك السوفسطائيون [١] ، فالمنطق عند هؤلاء هو "فن التفكير" الذي يهدف الى الانتصار على الخصم ، سواء في المحافل السياسية أو في دور القضاء ... الخ . وقد كان "سقراط" بارعا في هذا الفن ، الا أنه لم يقبل مايسلم به الناس، وأراد أن يبحث في الأسس التي يقوم عليها التسليم برأي أو نتيجة ، أي أنه كان ينشد وضع الأفكار على صورة قياسية للوصول الى المقدمات التي تبرز النتيجة أو الرأي الذي يناقشه ، وهذه الصورة التي كان ينشدها "سقراط" هي جوهر منطق أرسطو لهذا فانه يعد أول من جعل الفكر موضوعا لعلم خاص ، أو لنوع خاص من الدراسة – أي أنه أقر امكان دراسة المبادئ العامة التي يسير بمقتضاها الفكر الصحيح دراسة مستقلة عن أيّ مادة بعينها أو علم بعينه ، ووضع لها البحوث المنطقية التي جمعها تلاميذه وشراحه من بعده وأطلقوا عليها اسم الأورجانون Organon أي الأداة أو الآلة ، كما أطلقوا على العلم اسم "لوجيكا Logic" أي المنطق [٢] .

وقد ظل الأورجانون الأرسطي المنهج الوحيد للتفكير ، وظلت له السيادة على عقول المفكرين والفلاسفة ، باعتباره قمة الفكر اليوناني ، ولأن مفكري وفلاسفة المسيحية – بعد التوفيق بين فلسفة أرسطو وتعاليم الدين المسيحي – أقروه منهجا وحيدا للفكر ، ودعمته الكنيسة بكل مالها من سيطرة ونفوذ ، واعتبرت كل من يخرج عنه خارجا على تعاليم الكنيسة ، ومن ثمّ كانت سيطرته تامة حتى مطلع العصور الحديثة حيث تمت أول محاولة ناجحة للخروج عليه على يد الفيلسوف الانجليزي (فرنسيس بيكون) المتوفي سنة ١٦٢٦ الذي استطاع وضع أساس المنهج الاستقرائي في الغرب [٣] .

---

١ هم جماعة كانت تتميز باجادتها فن المناقشة والجدل ، واقامة الحجج على مايدعونه من قضايا ، واللجوء الى الحيل اللغوية المتقنة لاقناع السامعين .

٢ انظر د. محمد مهران – علم المنطق ص ٤٢-٤٤ .

٣ نفس المصدر ص ٤٥ .

ويتناول المنطق الأرسطي موضوعات ثلاثة أساسية هي [1] :

(١) الحدود : الألفاظ ودلالاتها وأنواعها وكيفية تعريفها •

(٢) القضايا : ويقوم على تأليف الحدود على هيئة جمل مفيدة تحمل كل منها فكرة معينة تحتمل الصدق أو الكذب ، فالقضية هي الوحدة الفكرية في أبسط صورها اذ لا يمكن تحليلها الا الى الألفاظ التي تتألف منها •

(٣) الاستدلال : وهو استنتاج قضية من قضية أخرى أو أكثر ، فاذا كان الاستدلال على قضية من قضية أخرى ، كان الاستدلال استدلالا مباشرا ، أما اذا كان الاستدلال على قضية "النتيجة" من قضيتين "المقدمات" كان الاستدلال استدلالا غير مباشر • وهذا مايسمى بالاستدلال القياسي أو القياس الارسطي وهو جوهر منطق اليونان – والذي سيطر على عقول المفكرين الغربيين طيلة قرون طويلة •

ويقوم الاستدلال القياسي في أساسه على اتساق الفكر نفسه ، أي عدم تناقضة مع نفسه ، فتكون النتيجة المستنبطة صحيحة على فرض صحة المقدمات التي استنبط منها بصرف النظر عن صحة هذه المقدمات بالفعل في دنيا الواقع •

٢– نشأة المنهج الاستقرائي :

ان القياس كما فهمه أرسطو كان أساسا للتفكير العلمي السائد لدى اليونان في وقته ، فقد كان تفكيرا استنباطيا في صورته ، يمضي في استنباط النتائج من مقدمات مسلم بصحتها ، وقد واجه هذا الفهم اعتراضات قامت على أساس أن النتيجة عقيمة لكونها متضمنة في المقدمات ، فلا جديد اذن في القياس ، ولا يتقدم العلم الا بالكشف عن الجديد • وكان هذا الجديد يلزمه منطق مخالف للانتقال من العام الى الخاص – فكان البديل هو منهج الاستقراء الذي يقوم على ملاحظة بعض جزئيات ظاهرة معينة ليصل في النهاية الى

---

١ د• محمد مهران – علم المنطق ص ٤٩–٥٢

تفسير عام لهذه الظاهرة ـ أي انه يرتفع من دراسة الجزئيات الى القانون العام الذي يفسر الظاهرة التي نبحثها . فالاستقراء هو المنطق الذي ينتقل من الخاص الى العام[1].

وكانت أول محاولة ناجحة للخروج من منهج القياس الأرسطي على يد الفيلسوف الانجليزي (فرنسيس بيكون) المتوفى سنة ١٦٢٦م الذي ألف كتابه (الأوراجنون الجديد)[2] ناقضا فيه مذهب أرسطو في القياس، ثم طرائق البحث المتبعة في عهد أرسطو ومفصلا لنظريته الجديدة في منهج البحث العلمي .

ويقرر "بيكون" في كتابه ، ثقته في قدرة العقل ، بشرط أن يكون هذا العقل مزودا بالمنهج الصحيح ، وأن يتحرر من الأخطاء والأوهام التي تعوق تقدمه ، ويعني بتلك الأوهام ـ القيود الناتجة عن عادات القبيلة ، ورغبات الأفراد الخاصة وميولهم، وحياتهم الاجتماعية ، ثم التحرر من جماعة الفلاسفة وزحمة أفكارها [3] . وهذا هو الجانب السلبي في نظريته ـ أي جانب الهدم ، أما الجانب الايجابي والانشائي من منهجه فيتلخص في أن كل واقعة أو حدث طبيعي لـه صورة هي التي تعينه ، ويمكن رد الواقعة الواحدة الى صور عديدة مختلفة ، لذلك فالحاجة ماسة الى منهج يستفاد به في فحص الوقائع التي من نوع واحد حتى يستبعد كل مالايتصل بالواقعة التي نبحث عن صورتها والاستبقاء على الصورة التي هي الصلة الحقيقية لما يسميه بالتركيب الدقيق الباطن . ويتضح من هذا أن غاية المنهج هي استبعاد كل الصور الممكنة منطقيا ، واستبقاء الصورة الحقيقية ،

---

١ جلال محمد عبد الحميد موسى ـ منهج البحث العلمي عند العرب ص ٣٥ .

٢ يعتبر هذا الكتاب أهم أعمال (فرنسيس بيكون) الذي يعتقد الغرب أنه واضع منهج الاستقراء وقد انتهى بيكون من تأليفه في سنة ١٦٢٠ ـ والكتاب مكون من ستة أجزاء لم ينجز منه سوى جزئين ـ فالجزء الأول منه أسماه تقدم العلوم وأنجزه سنة ١٦٠٥، أما الجزء الثاني فهو كتاب (الاوراجنون الجديد) ـ وقد اختار له هذا الاسم تمييزا عن كتاب ارسطو (الاورجانون) ـ أما الأجزاء الأربع الأخرى ـ فهي التاريخ الطبيعي والتجريدي ، سلم العقل، التمهيدات لعلم الطبيعة الجديد ـ الفلسفة الجديدة أو العلم الايجابي .

٣ انظر منهج البحث العلمي عند العرب ص ٤٣ .

وقد أسماها بيكون " بالعلة الحقة " فالمنهج بناء على ماسبق ، يقوم على جمع كل مايتعلق بالواقعة موضوع البحث من مشاهدات قديمة أو حديثة دون تمييز، وتصنيف هذه المشاهدات ووضعها في جداول ، لتمكين العقل من تطبيق عملية الحذف أو الاستبعاد [1] ، واستبقاء الصورة[2] المسببة الفعالة [3] .

فالمنهج الاستقرائي بالصورة التي ظهر بها عند "بيكون" يجب أن يمر بمراحل معينة قبل أن ينتهي الى الصياغة النهائية للقانون العلمي الذي يفسر الظاهرة التي يقوم بدراستها ، وهذه المراحل هي :

(١) مرحلة الملاحظة وجمع المادة ، ويقوم الباحث في هذه المرحلة من البحث بجمع كل مايصل الى علمه من حالات وشواهد لها صلة بالواقعة موضوع البحث ، وملاحظة الظاهرة موضوع الدراسة باستخدام قواعد التجريب التي وضعها "بيكون" [4] ، والتي تتلخص في تنويع التجربة باستخدام مواد متنوعة ، واطالة التجربة ، بحيث تظهر آثار التجربة بوضوح ، ثم محاولة نقل التجربة وتطبيقها في مجالات مختلفة [5] . ويلاحظ أن بيكون خلط بين الملاحظة والتجربة في هذه المرحلة [6] .

(٢) مرحلة التبويب والتنظيم المنهجي للأمثلة في قوائم أو جداول[7] بغرض توضيح ما بينها من أوجه الاتفاق والاختلاف ، وقد أسماها "بيكون" قوائم العرض ، لأن وظيفتها

---

١ أي استبعاد الصور الباطلة التي لا تأثير لها في الواقعة موضوع البحث .
٢ أي التي لها تأثير في أحداث هذه الواقعة .
٣ انظر منهج البحث العلمي عند العرب ص ٤٣-٤٥
٤ انظر نفس المصدر ص ٤٥
٥ انظر عبد الرحمن بدوي - مناهج البحث العلمي ص ١٥٧
٦ انظر منهج البحث العلمي عند العرب ص ٤٥
٧ هذه القوائم أو الجداول ثلاثة - وهي :

قائمة الحضور : ويبحث فيها الشواهد المؤيدة أو الايجابية
قائمة الغياب : ويبحث فيها الشواهد السلبية
قائمة المقارنة : ويبحث فيها الأحوال الايجابية أو السلبية مقارنة بظواهرها .

أن تعرض للعقل المواد التي جمعت في المرحلة السابقة عرضا منظما ، ييسر عملية تفسير الظاهرة موضوع البحث [١] .

(٣) مرحلة الاستقراء الحق أو الصحيح ، أو مرحلة وضع القانون العلمي الذي يفسر الظاهرة موضوع الدراسة . وتلك هي الغاية من منهج "بيكون" .

بالتأمل فيما تقدم نلاحظ على منهج الاستقراء عند "بيكون" مايلي :

أولا : ان القياس هو محور نظرية "بيكون" تماما كما كان عند أرسطو ، ولكن الاختلاف بينهما في الوسائل فقط ، فالقياس عند أرسطو والاستقراء عند "بيكون" منهجان هدفهما الوصول الى منهج برهاني يوصل الى نتائج سليمة [٢] .

ثانيا : ان أساس نظرية "بيكون" يكمن في قوائمه الثلاثة للوصول الى القانون العام ، عن طريق استخدام منهج الحذف والاستبعاد ، وهذا المنهج يطابق المنهج الذي استخدمه العلماء الأصوليون في مسلك "السبر والتقسيم" [٣] .

ثالثا : أغفل "بيكون" - عند ذكر خطوات منهجه - مرحلة تكوين الفروض ، لاعتقاده أن مجرد جمع الوقائع والتجارب في قوائمه الثلاثة كفيل بالوصول الى القانون العام موضوع البحث - في حين أن خطوات المنهج التجريبي الصحيح هي الملاحظة ، والتجربة ، ثم الفروض وتحقيقها عن طريق التجربة [٤] .

---

١ انظر جلال محمد عبد الحميد موسى - منهج البحث العلمي عند العرب ص ٤٦-٤٧ .

٢ نفس المصدر ص ٤٨ .

٣ انظر الفصل الأول ص

٤ انظر جلال محمد عبد الحميد موسى - منهج البحث العلمي عند العرب ص ٤٩ .

المبحث الثاني : قواعد منهج البحث العلمي في الغرب :

كان ظهور منهج الاستقراء في الغرب ، مواكبا لنشأة العلم التجريبي الحديث ، لذا جاء تعبيرا عن الروح العلمية التجريبية التي سادت القرن السادس عشر الميلادي، ومن ثمّ فهو يعد أساس المنهج العلمي الذي يستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية والانسانية . ولكن نظرا لتطور العلوم وتعدد وظائفها ووسائلها فقد احتيج الى ادخال تعديلات في المنهج الاستقرائي "لبيكون" ، ووضع قواعد دقيقة له تساعد في تحقيق أفضل النتائج للظواهر قيد البحث . ويمكن تلخيص هذه القواعد في الخطوات التالية[1] :

الخطوة الأولى : وتشمل مجرد الوصف والتعريف والتصنيف ، ثم تقسيمها الى أسر وفصائل وأصناف ، دون اللجوء الى عملية التفسير أو التجريب . والخبرة الشخصية القائمة على تجارب طويلة وممارسة فعلية هي أساس هذه الخطوة فضلا عن العيان الحسي الذي يعتبر المحرك الأول لقدرة الباحث . لهذا فان عنصري الملاحظة الدقيقة التي لا تغفل الظواهر المختلفة ، والعوامل المؤثرة فيها ، والحيدة التي لا تقبل املاء أيّ اتجاه آخر غير الظاهرة التي أمامه ، هام وضروري للوصول الى الغاية المقصودة من البحث في هذه المرحلة . ويطلق على هذه الخطوة ، مرحلة المشاهدة .

الخطوة الثانية : الانتقال من مرحلة معرفة حالة الشئ الى بيان الروابط الموجودة بين طائفة من الظواهر المشابهة . وتقتضي هذه المرحلة عملية تفسير لا تقتصر على مجرد الوصف ، بل تقوم على مشاهدة الظواهر بصورة متكررة بغرض وضع فرض يمكن أن يكون قضية تفسيرية لمجموع هذه الظواهر. وهذا مايعرف بمرحلة فرض الفروض .

وخلال هذه الخطوة تتم مرحلة اختبار صحة هذا الفرض التي امّا أن تثبت هذا الفرض مباشرة أو تؤدي الى اثبات قضية تكفي صحتها لاثبات صحة

---

١ الخطوات الثلاث المذكورة ملخصة من كتاب "منهج البحث العلمي" لعبد الرحمن بدوي ـ الصفحات ١٢٧-١٣٩ .

الفرض المطلوب امتحان الصحة فيه - فهذه الخطوة في الواقع خطوة تحليلية المطلوب فيها الوصول الى قواعد جزئية - (مرحلة التجربة)٠

الخطوة الثالثة : وفي هذه الخطوة تتم عملية تنظيم هذه القوانين ، لكي تدخل في نطاق أعم بأن تصبح مبادىء عامة كلية ، تستخرج منها قوانين بوساطة الاستدلال ٠ وهذه المبادىء العامة هي الفروض العظمى، ومن أمثلتها فرض النسبية في الذرات ، أو اشعاع الراديوم - أو فرض التطور في العلوم الحيوية ٠ والملاحظ أن هذه الخطوة تركيبية ، بمعنى أنها مرحلة محاولة تركيب قوانين للظواهر الجزئية شيئا فشيئا ، لوضع قانون كلي عام يصلح أن يستخلص منه بقية القوانين الفرعية ٠

ومما يؤخذ على هذا المنهج أنه جزئي غير كلي ، ذلك لأن العلوم الطبيعية لا تحقق جميعها هذه الخطوات بدقة ، اذ يستحيل بالطبع اجراء التجارب في علم الفلك مثلا ويكتفى فيه بالملاحظة بواسطة الآلات والآلات الحديثة مثل المنظار المقرب والمجهر ، وقد يتعذر اقامة التجارب في علم "البيولوجيا" "Biology" علم الأحياء، فضلا عن تعذرها في مجال العلوم الانسانية كعلمي النفس والاجتماع ٠ لهذا فان منهج الملاحظة والتجربة أصبح عاجزا عن تحقيق متطلبات العلم الحديث وتطلعاته ، فكان من الضروري استخدام المنهج الاستنباطي الرياضي الى جانب الملاحظة والتجربة في الطريقة الاستقرائية ٠ وبهذا أصبح المنهج العلمي المعاصر عند الغربيين منهجا يجمع بين الاستقراء والاستنباط ، وهو مايسمى بالمنهج الفرضي ٠ وعلى الرغم من اشتراك المنهجين - الاستقرائي (التقليدي) والفرضي (المعاصر) في مرحلتين من مراحل المنهج العلمي هما : فرض الفروض، والملاحظة والتجربة ، فانهما يختلفان في ترتيب هذه المراحل ، فالمنهج الفرضي الاستدلالي يبدأ بالفروض الصورية وليس بالملاحظة ، ثم يستنتج من هذه الفروض النتائج اللازمة عنها باستخدام المنهج الاستنباطي ، ثم يقوم بتحقيق هذه النتائج باستخدام الملاحظة والتجربة[1] ٠

---

[1] انظر د٠ محمد مهران - علم المنطق ص ٥٤-٥٥ ٠

ثم ان هدف المنهج الاستقرائي هو ايجاد التفسير الملائم للظاهرة موضوع البحث . أما المنهج الفرضي فانه يهدف الى تفسير فروض أو قوانين سبق التوصل اليها من قبل، ويراد لها مزيدا من التفسير والتعميم . وقد استهدف هذا المنهج سد النقص الناتج عن تطبيق المنهج العلمي التجريبي ، خاصة في الدراسات المتعلقة بالذرة ومكوناتها .. وما أشبه ذلك من دراسات [1] .

وماعرضناه خاص بالمناهج وتطورها في مجال العلوم التطبيقية ، لكن الواقع أن عدد المناهج لا يكاد ينحصر ، ففي داخل كل علم منهج ، بل ان الغرب يستحسن الآن استعمال مناهج خاصة لمسائل جزئية في داخل العلم ، غير أنهم رأوا في الوقت نفسه أنه من المستحسن اتخاذ مناهج نموذجية قليلة ،تتفرع عنها المناهج الجزئية الأخرى،ثم حصروا هذه النماذج في ثلاثة مناهج رئيسة ، نلخصها في الآتي [2] :

١- المنهج الاستردادي - أو المنهج التاريخي ، وهو الذي يقوم الباحث فيه باسترداد الماضي تبعا لما تركه من آثار ، أيّا كان نوع هذه الآثار ، وهذا المنهج هو المستخدم في العلوم التاريخية والأخلاقية . وقد رأينا في منهج البحث العلمي عند المسلمين كيف أن المسلمين استحدثوا وضع المنهج التاريخي على نسق وشروط منهج المحدثين في تحقيق الخبر[3].

٢- المنهج الاستدلالي - (أو المنهج الفرضي الرياضي) - وهو المنهج الذي يسير الباحث فيه من مبدأ الى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون اللجوء الى التجربة - وهو منهج العلوم الرياضية خصوصا . وهذا المنهج يقابل المنهج التجريبي الذي يعتمد على التجربة والمشاهدة فالفرق الأساسي بين المنهجين هو أن الفرض يتم التوصل اليه مباشرة عن طريق التجربة والمشاهدة ، في المنهج التجريبي - أما المنهج الرياضي - فالفروض فيه لا تكون وليدة الملاحظة المباشرة لظواهر الطبيعة ،

---

١ نفس المصدر السابق ٥٦

٢ عبد الرحمن بدوي مناهج البحث العلمي الصفحات ١٨-٢٩ .

٣ انظر ص ٣٢-٣٣ من هذه الرسالة .

بل يتم التوصل اليها بطريق الاستنباط من قوانين علمية سابقة ، وهي فروض صورية تشير الى كائنات واقعية ، لكنها لا تدرك بالحس المباشر ، وبالتالي لايكون تحقيقها بشكل مباشر ، بل يمكن فقط تحقيق النتائج التي تتمخض عن هذه الفروض ، بل أحيانا تكون هذه النتائج بدورها مما لا يقبل التحقيق التجريبي المباشر[١] .

٣- المنهج التجريبي : ويشمل الملاحظة والتجربة معا ، وهو الذي يبدأ فيه من جزئيات أومبادىء غير يقينية تماما ، ونسير فيها معممين حتى نصل الى قضايا عامة معتمدين في كل خطوة الى التجربة كي تضمن لنا صحة الاستنتاج وهو منهج العلوم الطبيعية على وجه الخصوص[٢] .

فالتجريب يبدأ حينما يكون لدينا فرض نحاول تحقيقه ، فأول مايجب دراسته في التجريب هو كيفية تكوين الفروض ثم البحث في تحقيق الفروض ، واستخراج القوانين المختلفة بعد استقرائنا لفروض عديدة حتى نصل الى وضع النظرية ، ثم الفروض العامة التي تخضع لها مجموعات معينة من النظريات المتعلقة بميدان من ميادين البحث العلمي[٣] .

وقد أضاف الدكتور عبد الرحمن بدوي منهجا رابعة وهو المنهج الجدلي الذي يحدد منهج التناظر والتجاور في الجماعات العلمية أو في المناقشات العلمية على اختلافها ولا يمكن لهذا المنهج ان توءتى ثماره الا بالاستعانة بالمناهج الثلاثة السابقة[٤].

---

١ انظر د. محمد مهران ، علم المنطق ص ٥٥ .

٢ " د. عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ص ١٩ .

٣ " د. عبد الرحمن بدوي ، نفس المصدر ص ٢٤٤ .

٤ " نفس المصدر ص ١٩ .

المبحث الثالث : تقويم منهج البحث العلمي الغربي بميزان الاسلام

أولا : الايمان بالغيب ونظرتهم اليه :

لقد ترقت أوربا في ميدان العلوم الطبيعية حيث استطاعت بدء من عصر النهضة أن تبدع منهجا من التجربة والمشاهدة تتوافر فيه كل مقومات الدقة ، وأخضعت علومها الطبيعية للتجربة والمشاهدة ، فسيرت القطار ، واستغلت الكهرباء ، وأطارت الصواريخ، مستخدمة الدراسة التجريبية ، ذلك لأن المنهج التجريبي انما يصلح معتمدا للعلوم الطبيعية ، اذ من شأن هذه العلوم أن لا تدرك ادراكا يقينيا الا عن طريق البدء بموضوعات توجد في التجربة الخارجية البعيدة عن وحي العقل والتفكير ، ثم تفرض نفسها عليها طبق مادلت عليه المشاهدة والتجربة ، وعلى العقل بعد ذلك أن يفسرها ويحللها [1] .

"غير أن أوربا بمقدار ماترقب معدا في ميدان العلوم الطبيعية ، ومناهجها التجريبية ، فقد تخلفت في ميدان المدركات اليقينية الأخرى مما يدخل تحت اسم المجردات والغيبيات " [2] .

ظهر المنهج التجريبي في أوربا في عصر النهضة ، ثم تبلور بصورة واضحة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، وكان ذلك في أعقاب الصراع الذي نشأ بين الكنيسة ممثلة في رجال الدين ، والعقل ممثلا في علماء الطبيعة ، الذي انتهى بخروج الكنيسة خاسرة ، تاركة وراءها عقائد مهزوزة في نفوس موءيديها ، والحادا في الاعتقاد لدى معارضيها ، وآلت أزمة الأمور الى دعاة العلم والعقل ، ليصوغوا الحياة في أوربا صياغة علمانية غير دينية ، فانتكست أوربا بنبذها الدين عن حياتها وواقعها ، "وانتكس معها العلم الحديث بانحرافه عن منهجه الرباني ، فقطع الصلة بينه وبين مصدره ، وأسقط من حسابه وجود قوة عليا خالقة ومدبرة ، ونفى عن الانسان النفحة الالهية ،

---

١ د. البوطي (محمد سعيد رمضان) - كبرى اليقينات الكونية ص ٥٥ .

٢ نفس المصدر ص ٥٦

وعاد به الى أصل حيواني ، كما عاد بالحياة على الأرض الى قوة الطبيعة فعطل في الانسان فطرته ، وجرده من سلطان آية قوة خارجة عن محيط الأرض في مستوى الحياة والأحياء، وقد حذر القرآن الكريم من مثل هذا الانحراف ودل البشرية على مافيه من سوء العاقبة ، لأنه خروج عن ناموس الكون وسنته ، اذ نهايته الى الدمار مهما حقق من قوة وعمران [١]. يقول الله تعالى : (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون . أولم يتفكروا في أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما الا بالحق وأجل مسمى ، وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون . أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثرمما عمروها ،وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فماكان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) [٢] .

ويتمثل انحراف منهج العلم الحديث في أوربا في اعتماده على اخضاع الحقائق الكونية للتجربة والمشاهدة دون سواهما ، فالدين في نظر أغلبية الغربيين باطل ، لأنه لم يكن ثمرة من ثمار منهج الاستقراء أو الاستدلال أو القياس ، ولا يمكن اخضاعه للتجربة والمشاهدة . ومادام الدين لا يخضع للتجربة والمشاهدة فهو لغو ولا وجود له [٣] .

وهذا الأساس الذي بنى عليه منكرو الدين في الغرب ، دعوى بطلان الدين، وعقائده قائم على أسس غير علمية ، لأن التجربة لا تعد حقيقة علمية لمجرد أنها شوهدت كما أن القياس ليس باطلا لمجرد أنه قياس ، فامكان الصحة والبطلان موجود فيهما على السواء[٤].

فمثلا - "كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب ، اعتقادا منهم بأن الماء لا يحمل الا مايكون آخف منه وزنا ، وحين قال بعضهم ان السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتي من الخشب أنكر الناس هذه المقالة ، واتخذوها هزوا ، وجاء نحّاس فألقى بنعل من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة

---

١ محمد شديد - منهج التربية في القرآن ص ١٢٣-١٢٤.

٢ سورة الروم الآية ٧-٩.

٣ وحيد الدين خان - الاسلام يتحدى ص ٤٥.

٤ نفس المصدر ص ٤٥.

الحديدية بدل أن تطفو على سطح الماء استقرت في القاع - كان هذا العمل تجربة، ولكننا جميعا نعتقد أنها كانت تجربة باطلة ، فلو أن النحّاس ألقى بطبق من حديد لشاهدبعينه صدق ماقيل من طفو السفن الحديدية" [١] .

ومثل آخر : "في بداية القرن العشرين ، استخدم العلماء تلسكوبا ضعيفا في مشاهدة السماء ، فوجدوا أجراما كثيرة كالنور ، فاستدلوا أنها سحب من البخار والغاز تمر بمرحلة قبل أن تصير نجما ، ولكنهم بعد أن تمكنوا من صناعة منظار قوي، وشاهدوا الأجرام مرة ثانية ، علموا أن الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة نجوم شوهدت كالسحب نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض" [٢] .

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين ، وأن العلم لا ينحصر فيالأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة ، والعلم الحديث لايدعي ولا يستطيع أن يدعي أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة ، فالحقيقة أن "الماء سائل" ، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة ، ولكن الواقع أن كل "جزىء" من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين ، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ولو آتينا بأقوى تلسكوب في العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لايمانهم بالاستدلال المنطقي . وحين يقرر العلماء أنهم تعرفوا على حقيقة ما فذلك يعني أنهم عرفوا معناها . وبعبارة أخرى أنهم بحثوا عن وجود شىء وأحواله ففسروه تفسيرا يقبله العقل السليم ، فهي في الحقيقة تفسيرات لبعض الشواهد الانسانية الملحوظة ، وليست بحقائق شوهدت فعلا . ولأن المشاهدة الانسانية لا يمكن أن توصف بأنها كاملة ،لعدم قدرة الانسان على الاحاطة الكاملة - فان هذه الحقائق قابلة لأن تتغير بتطور الملاحظة وقدرة الانسان على ايجاد تفسير أكثر دقة وموضوعية لملاحظاته [٣] .

---

١ وحيد الدين خان - الاسلام يتحدى ص ٤٥.

٢ نفس المصدر ص ٤٦.

٣ نفس المصدر ص ٤٦-٤٨.

فالحقائق التي تعرّف عليها العلماء مباشرة تسمى بالحقائق المحسوسة بيد أن الحقائق التي توصلوا اليها لا تنحصر في الحقائق المحسوسة ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم يتعرف عليها العلماء مباشرة ، ولكنهم عثروا عليها عن طريق الاستنباط ، وهذا النوع من الحقائق تسمى الحقائق المستنبطة ، ولا فرق بين الحقيقتين الآ في التسمية فالأولى تعرّف عليها العلماء مباشرة بالادراك الحسي ، والثانية بالواسطة أي الاستنباط، والحقيقة هي الحقيقة سواء عرفوها عن طريق الملاحظة والمشاهدة ،أو عن طريق الاستنباط . وقد قرر العلماء الأخذ بالحقائق المستنبطة ، واعتبار الحقائق التي تنتج عنها حقائق علمية ، وعللوا صحة المنهج التعليلي بأن الكون نفسه عقلي ، وأن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون الكلية [1] .

عندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من" الحقائق الملحوظة فانه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمي . وبعبارة أدق : ضرورة اعتقادية وجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات ، وربط بعضها ببعض ، فاذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية في تفسير الحقائق تفسيرا كاملا عدّت حقيقة علمية على الرغم من أنها لم تلاحظ قط كا لوحظت الحقائق الأخرى التي نعرفها بالمشاهدة أو بالملاحظة العلمية . ومعنى ذلك أن العالم يوءمن بوجود شيء غائب بمجرد ظهور نتائجه – فكل حقيقة يوءمن بها تكون دائما فرضا في أول أمرها ، الى أن يكشف حقائق جديدة فيزداد يقيننا بها ، حتى يبلغ حق اليقين، واذا لم توءيدها الملاحظات اللاحقة تخلى عنها [2] . ومن أمثلة هذه الحقائق – حقيقة قانون الجاذبية الذي لا سبيل الى انكاره لدى العلماء .

ان قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته ، ولكنه جاء نتيجة مشاهدة حقائق عديدة تتكرر كل يوم ، ولا علاقة لاحداها بالأخرى ظاهرا [3] ، وبربط هذه الوقائع المحسوسة

---

١ وحيد الدين خان – الاسلام يتحدى ص ٤٧ .

٢ نفس المصدر ص ٥١ .

٣ مثل : (ان الطير اذا مات يقع على الأرض ، وان رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلب جهدا أكبر من انزاله من على الظهر، وان الصعود الى الجبل أشق من النزول منه ، وأن القمر يدور في الفلك ... الخ)

بالحقائق الاستنباطية أمكن اكتشاف الرباط الذي يجمع بين هذه الحقائق ، ووضعه في صورة قانون . وهو مايعرف بـ قانون الجاذبية . فكل ماشاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية ، وانما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها منطقيا أن يوءمنوا بوجود هذا القانون . والتفسير التجريبي العلمي لهذا القانون أن لا وجود لهذا القانون،ولا أساس له من الصحة ، لأنه لم يثبت بالتجربة والمشاهدة ، ولكنه – أي القانون – يعتبر – بلا جدال – حقيقة علمية ، لأنه يفسر بعض الحقائق الملحوظة – وعلى هذا فليس بلازم أن تكون الحقيقة هي ماعلمناه مباشرة بالتجربة ، ومن ثمّ نمضي الى القول بأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض مانلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام – تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة [1] .

ثم ان النظريات التي يتعامل معها العلماء في هذا العصر هي في الواقع فروض علمية ناجحة ، ومن الممكن أنتكون باطلة ، ذلك لأن النظريات التي نعتبرها اليومحقيقة ليست الآ قياسا على وسائل البشر المحدودة ، ولا يزال العلماء يعتبرون الفرض الذي يفسر ملاحظاتهم لا يقل قيمة عن الحقائق الملحوظة والمشاهدة . ولهذا فانهم لايستطيعون التأكيد على أن "الحقائق الملحوظة" هي وحدها "العلم"، وأن ماسواها من النظريات الشارحة لا تدخل في نطاق "العلم" لأنها غير ملحوظة .. وهذا مانسميه الايمان بالغيب وهو بالنسبة الى الموءمنين ليس سوى الايمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس عقيدة عمياء ، وانما هو خير تفسير للحقائق التي يشاهدها العلماء [2] .

---

١ وحيد الدين خان – الاسلام يتحدى ص ٤٨.

٢ نفس المصدر ص ٥١–٨٢.

ثانيا : ادعاء تعارض حقائق العلم والدين :

عندما سقطت النصرانية في طائفة من المفاهيم الباطلة الدخيلة على أصل الدين، والمخالفة له ، والمناقضة للعقل والعلم الصحيح ، حاولت أن تدافع عن موقفها بقولها: ان الدين لا يخضع لمنطق العقل ، اذ هو فوق مستوى العقل البشري ، ويجب التسليم بكل ماجاء فيه ، ولو كان العقل يرفضه رفضا باتا لاستحالته ـ كمسألة التثليث ، فحرمت بذلك التفكير والنظر في مسائل الدين ، وفرضت عليهم التسليم المطلق بالاله المثلث دون مناقشة ولا نظر ، مع أن العقل السليم يرفض هذا رفضا قاطعا ، ولا يسلم به الا مع تعطيل العقل ، ورافق ذلك أنهم أقفلوا باب التفكير والبحث العلمي نهائيا عن كل مسألة عرضت لها نصوص دينهم ، ماكان متعلقا بواقع الكون الذي تستطيع الوسائل الانسانية أن تصل الى معرفته وظل روءساء الدين المسيحي يهيمنون على أتباعهم بهذه الصورة،حتى قامت الثورة العلمية المادية الحديثة ، ففجرت جوانب البحث العلمي في كل مجال من المجالات العلمية التي يستطيع الانسان أن يصل اليها . ومع هذه اليقظة أخذ المثقفون منهم يفكرون في قضية التثليث ، وقضايا مشابهة ، فلم تهضمها عقولهم،وبدأوا يتشككون في صحة ديانتهم من أساسها، وقام الصراع بين قوتين : قوة دينية تقودها الكنيسة ، وقوة أخرى تمثلت في العلماء المفكرين الذين تأثروا بمنهج البحث العلمي ، ومناقشة الأمور بالعقل والمنطق ، وسائر طرق البحث الانساني وسائل للوصول الى المعرفة الصحيحة[1].

وانتهى الصراع بمحاصرة الديانة النصرانية وحجزها داخل جدران الكنيسة، ومضى المجددون المتنورون في ثورتهم على رجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم في كل مايتصل بهم ويعزى اليهم من عقيدة وعلم وأخلاق ، وآداب ، وانتقلت ثورتهم الى الأديان الأخرى فعادوها جميعا ـ واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقل وزعماء الدين المسيحي حربا بين العلم والدين ـ أيّ دين ـ وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل

---

١ انظر : عبدالرحمن حسن حنبكه الميداني : صراع مع الملاحدة حتى العظم ـ ص ٢٥-٢٧.

أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني [١] .

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الموادعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد مايميزون به بين الدين ورجال الدين المحتكرين لزعامته ، ويفرقون بين مايرجع الى أصل الدين من عهدة ومسئولية ، ومايرجع الى رجال الكنيسة من جمود واستبداد ، وبذلك نبذوا الدين نبذ النواة [٢] ، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيه الا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التي هي نفسها في حاجة الى الهداية والنور .

لقد كان الجرح الذي خلفه صراع علماء الغرب مع الكنيسة عظيما ، حتى أن العلماء كرهوا كل شيء يتصل بالدين ـ كل دين دون تمييز ـ وكان من نتائجه أن تخلى العلماء عن كل أسس منهجهم العلمي في البحث عند حديثهم عن الدين وحقائقه ، فقالوا ان الدين والعلم يختلفان ويتنازعان في المنهج الذي يجب اعتماده للوصول الى المعارف والعلوم ، وفي البحث عن الحقائق ـ وظنوا أن الحقائق العلمية تسير في خط مضاد للفكرة الدينية ، لذلك خيّروا البشرية بين الدين بصورته البشعة التي تمثلها الكنيسة ، وبين العلم بحقائقه الثابتة . ولم يكن عندهم من صدق الطلب ، وسعة الصدر ، والنصيحة لأمتهم وأنفسهم ، والتجرد في طلب الحق مايحملهم على النظر في الدين الاسلامي الذي كانت تدين به أمم غير هينة معاصرة لهم .

فهل تتعارض حقائق الدين الاسلامي مع حقائق العلم الحديث بالتبع أو بالضرورة ؟

في الاسلام لا يصح القول بأن الدين والعلم الصحيح خصمان لا يلتقيان ، بل الصحيح أنهما صنوان متكاملان ، فهما يتفقان في الغاية ، اذ أن كليهما يبحث عن الحقيقة ، وان كان لكل منهما أسلوبه ومنهجه في البحث عنها ، فالعلم يخبرنا بما هو كائن ، والدين

---

١ أبو الحسن علي الندوي ـ ماذا خسر العلم بانحطاط المسلمين ص ١٩٢-١٩٣.
٢ نفس المصدر ص ١٩٣.

يخبرنا بما ينبغي أن يكون ، ويحثنا على التماس الأسس العقلية للمعرفة في الاسلام. والعلوم التجريبية – وهي فرع من فروع العلم – لم يجوزها الاسلام فحسب ، بل حث عليها ودعا اليها ، وألح على أن يتنبه الناس الى مافي الكون من آيات وروائع وبدائع تبعث على التأمل للافادة من أسراره ، والتفكر في صانع هذا الكون وموجده . وقدرته ، فهي دعوة تحمل في طياتها الأمل في أن تتم غلبة الانسان على الطبيعة بالكشف – حين يأذن الله – عن الوسائل التي تجعل الغلبة حقيقة واقعة ، وتبعث في الانسان الاحساس بالتفوق على القوى التي تتألف منها بيئته . ومن ثمّ ينتهي به الأمر الى الايمان بعظمة الله الخالق [1] .

قال تعالى : (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، والله على كل شيء قدير) [2]. وقال تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات ومافي الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) [3] ، لقد أيقظ القرآن الكريم هذه الروح التجريبية الباحثة في عصر كان ينظر فيه أكثر علماء الاسلام الى عالم المرئيات على أنه قليل الجدوى ، نظرا لأن العقلية السائدة عندهم كانت تدعو الى السمو في مجال الروحانيات وتزكية النفس .

لقد أرسى الاسلام على يد علمائه دعائم العلم الحديث وأسسه ، فكان أول من اشتهر في علم الحساب والنجوم مسلم بن أحمد (   ) وأول من نبغ في الكيمياء جابر ابن حيان (   ) وأول من نبغ في الجبر وقدم حلولا هندسية بمعادلات محمد بن موسى الخوارزمي (   ) وأول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، واخترع محاولة الطيران عباس بن فرناس (   ) . وأول من عارض نظرية اقليدس وبطليموس بشأن الابصار ، وكان على وشك أن يكتشف العدسة المكبرة الحسن بن الهيثم (   ) . وكان الذي أنشأ حساب المثلثات الحديث البيروني (   ) – لقد كان علماء الفكر الاسلامي

---

١ د. التهامي – في ضوء القرآن والسنة – ص ١٨.
٢ العنكبوت الآية ٢٠.
٣ لقمان الآية ٢٠.

بحق رواد منهج العلم التجريبي الحديث في الوقت الذي كان فيه الغرب يتخبط في ظلام الجهل ، ويعتمد أساسا على تتبع آثارهم وترجمة مؤلفاتهم ، وكانوا الى جانب ذلك مثال السمو الروحي والايمان العميق بمنشئ الحياة وخالق الأكوان وواهب النعم .

فالحقيقة أن الدين الحق ليس قسيما مغايرا للعلم ، لأنه علم جاء عن طريق الوحي، والوحي منحة من الله تعالى لعباده عن طريق النبوة ، وهو طريق من طرق المعرفة الصحيحة ، لأنه يقدم شهادة بالحقيقة ، ومتى كان الخبر عن الوحي كان يقينا مقطوعا به ، ولذا فانه لا يمكن أن يتناقض مع اليقين الذي توصل اليه عن طريق الوسائل الانسانية البحتة . فالمقابلة اذن ليست بين الدين والعلم ، ولكن بين طرق اكتساب العلم الذي يأتي به الدين ، وطرق اكتساب المعرفة الانسانية البحتة ، كطريق الحس المباشر لادراك المعارف ، وهو الادراك القائم على المشاهدة والتجربة ، وكطريق العقل لاستنباط المعارف التي لا تدرك بالحس المباشر . فالوحي طريق من طرق اكتساب العلم ، ويمتاز عن الوسائل الانسانية البحتة بأنه طريق لاكتساب المعارف المتعلقة "بعلوم الدين" ، وأهمها العلوم الغيبية التي لا تدركها الحواس الانسانية ، ولا تستطيع العقول بوسائلها اثباتها مستقلة عن أنباء الدين . أما الحقائق التي يتم التوصل اليها عن طريق الحواس الانسانية أو الوسائل المادية التي يستخدمها الحس كالملاحظة والتجربة أو الاستدلال العقلي ، فلا يمكن أن تتناقض لأن الحقيقة واحدة وان اختلفت طرق الوصول اليها ، ولأن الطرق الصحيحة التي تقصد أمرا واحدا لابد أن توصل الى غاية واحدة ونتيجة واحدة . وانما يحدث التناقض بين الحقائق التي تأتي بطريق الادراك الحسي ، ونتائج الاستدلال العقلي اذا أصاب أحدهما أو كلاهما خلل ما ، لهذا فان كل مظهر للتناقض بين ماتشهد به الوسائل الانسانية للمعرفة وماتشهد به النصوص الدينية من المعارف عن طريق الوحي لا يعدو أحد الاحتمالات الآتية :

(١) اما أن يكون الذي نسب الى العلم لم يصل الى مرحلة العلم المقطوع به ، كالنظريات التي لم تتأكد بعد ، والتي مازالت رهن البحث والنظر، أو التي لا سبيل الى اثباتها بأدلة علمية يقينية ، وان اعتقدها العلماء الماديون لعدم وجود ماهو أقوى منها في نظرهم المادي البحت ، ولأنه لا اختيار لهم بعد ذلك الا التسليم بما جاء

به الدين ، وهم يرفضون نفسيا هذا الأخير .

(٢) واما لأن الذي نسب الى الدين لم يصل الى درجة القطع في نقل النص الذي تضمنه ، كأن يكون الخبر كاذبا ، أو ضعيفا لا يصح الاعتماد عليه ، أو خبرا غير قطعي الثبوت ، فمن الممكن دخول خطأ فيه من نقل الراوي أو فهمه ، اذ يحتمل أنـــه روى المعنى الذي فهمه هو ، ولم يرو اللفظ ذاته الذي أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا انما يكون في أحاديث الآحاد ، أي : التي لم تبلغ مبلغ التواتر اللفظـي أو المعنوي . أما أن يكون الخبر الاسلامي قطعي الثبوت قطعي الدلالة ثم يخالف الحقيقة والواقع ، فهذا غير موجود حتما ، وليس من الممكن أن يوجد قطعا .

(٣) واما لأن فهم النص الديني كان فهما خاطئا ، وهذا الفهم لا يتحمل النـص الديني وزر خطئه ، وانما يعبر عن رأي من فهمه على هذا الوجه المخالف للحقيقـة العلمية ، التي توصلت اليها الوسائل الانسانية ، كمسألة كرية الأرض ودورانها حـول نفسها وحول الشمس ونحو ذلك [١] .

ان حقائق الدين الاسلامي تستقى من طريقين : طريق الوحي ، وطريق أولي العلم. وقد اعتبر العقل العلمي شاهدا على الحقيقة ، وسندا لها ، ولو كان البحث العلمي الانساني السليم من شأنه الوصول الى القطع بحقائق لا يوافق عليها دين الاسلام لمـا دعاه الاسلام الى تقديم شهادته بالحقيقة . تأمل قول الله تعالى (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) [٢] . هذه الآية شهدت بحقيقة وحدانية الخالق تبارك وتعالى عن طريق الوحي والرسل . وأمثال هذه الآية كثير في القـرآن وكلها تحث على استعمال العقل لاثبات الحقائق العلمية التي أثبتها الدين عن طريـق الوحي بالاستنتاج أو الاستدلال العقلي ليقدم شهادة بالحقيقة [٣] .

---

١ عبد الرحمن حسن حنبكه الميداني ، صراع مع الملاحدة حتى العظم الصفحات ٢١-٢٥.
٢ سورة آل عمران الآية ١٨.
٣ عبد الرحمن حسن حنبكه الميداني ، صراع مع الملاحدة حتى العظم ص ٢٤ ، ٢٦.

لقد حاد منهج البحث العلمي الغربي عن الحقيقة والموضوعية التي تميز بها في العلوم التجريبية عندما قرر أن الحقائق التي أتى بها الدين تتناقض مع الحقائق التي توصل اليها العلم عن طريق الوسائل الانسانية البحتة - متجاهلا أن الحقيقة واحدة سواء أثبتها الدين عن طريق الوحي أو العلم عن طريق الوسائل الانسانية ، ولو تجرد دعاة البحث العلمي من عصبيتهم ، ومقتهم لكافة الأديان دون تمييز ، وأخضعوا ماقدمته شهادة العقل ، ووسائل البحث العلمي الانسانية ، وماقدمته شهادة النصوص الدينية للضوابط العلمية الصحيحة ، المتفق عليها لأدركوا أن حقائق الدين لا تناقض حقائق العلم في حالات الثبوت القطعي لحقائق العلم وحقائق الدين •

ثالثا :أصل النظرية الاستقرائية لبيكون :

ان فكرة مسلك السبر والتقسيم التي استحدثها الأصوليون للدلالة على علة الأحكام غير المنصوص عليها[1] - هي نفس الفكرة التي بنى عليها فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) منهجه التجريبي[2] •

فالمنهج "البيكوني" يقوم على جمع كل مايتعلق بالواقعة موضوع البحث من مشاهدات ، وتصنيف هذه المشاهدات ، ووضعها في جداول لتمكين العقل من عملية الحذف والاستبعاد ، أي استبعاد الصور الباطلة التي لا تأثير لها في الواقعة ، موضوع البحث ، واستبقاء الصورة المسببة الفعالة ، أي التي لها تأثير في أحداث هذه الواقعة •

وقد لاحظنا عند سرد مسلك السبر والتقسيم - انه عبارة عن حصر للأوصاف التي توجد في الأصل والتي تصلح في بادي الأمر ، ثم ابطال مالايصلح منها فيتعين الباقي للعلية - فهو في الواقع عملية حذف ، ثم تعيين - وهو عين مافعله "بيكون" عند عرض نظريته في منهج الاستقراء التي تقوم على عملية الحذف والاستبعاد ، ثم الاستبقاء أو اليقين • وهذا يدل دلالة واضحة على أن أصل منهج "بيكون" في الاستقراء هو مسلك السبر والتقسيم ، وانه ربما انتقل الى أوربا فيما انتقل اليها من علوم المسلمين عبر عدة مسالك فاستوعبه "بيكون" وأعاد صياغته بصورة توحي بأنها من صنعه وابتكاره ضمن نظرية لم يستفد منها العلم الحديث شيئا غير الذى اقتبسه منهج المسلمين في الاستقراء متمثلا في مسلك السبر والتقسيم •

---

١ انظر ص ٤٢-٤٣ من هذه الرسالة •
٢ انظر ص ٥٢-٥٥ من هذه الرسالة •

رابعا : الادعاء بأن المنهج التجريبي من وضع الفكر الغربي

بالتأمل فيما سبق عرضه عن منهج البحث العلمي عند المسلمين وعندالغربيين يتضح أن المنهجان ، الاسلامي والغربي ، يتفقان على رفض القياس اليوناني ، ويعتمدان منهج الاستقراء والتجريب ، باعتباره خير أداة للبحث العلمي في كشف الجديد من الحقائق .

ولكنه شاع بين الغربيينولدى بعض دعاة التغريب من أبناء المسلمين، ان الطريقة العلمية الحديثة في البحث من وضع (فرنسيس بيكون) الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي نشر كتابه الذي أسماه (الاورجانون الجديد) عام ١٦٢٠م ناقضا فيه مذهب ارسطوفي القياس، ومفصلا نظريته في البحث مستخدما منهج الاستقراء للاستدلال على صحة الغرض الذي ينتج عن استخدام نظريته [١] .

والحقيقة التي يؤكدها المنصفون من المفكرين الغربيين أن المسلمين هم الذين وضعوا هذا المنهج بجميع عناصره ، وان هذا المنهج وكل العلوم الاسلامية انتقلت عن طرق عدة الى أوربا .

"ويقررالمستشرق (بريفولت) في كتابه "Making of Humanity" [٢] أن روجر بيكون المتوفى سنة ١٢٩٤م درس العلم العربي دراسة عميقة وانه لا ينسب له ولا لسميه فرنسيس بيكون (المتوفى سنة ١٦٢٦م) أيّ فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربا ، ولم يكن روجر بيكون فيالحقيقة الا واحدا من رسل العلم والمنهج الاسلامي الى اوربا المسيحية . ولم يكف "بيكون" عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه .

"ثم يذكر بعد ذلك أن مناقشات عدة تقوم واضعي المنهج التجريبي ، وان هذه المناقشات تعود في آخر الأمر الى تصوير فاسد محرف لمصادر الحضارة الأوربية.أما مصدر

---

١ راجع ص من هذا الفصل .

٢ Briffault : Making of Humanity ص ٢٩٢ ـ نقلا من كتاب مناهج البحث العلمي عند المسلمين ص ٢٧٧ ، د. علي سامي النشار .

الحضارة الأوربية الحق فهو منهج العرب التجريبي ، الذي انتشر في عصر بيكون وتعلمه الناس في اوربا ، يحدوهم الى ذلك رغبة ملحة .

"ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الاسلامية تأثير أساسي عليها. ولكن أهم أثر للثقافة الاسلامية في العلم الأوربي هو تأثيرها في "العلم الطبيعي والروح العلمي" . وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره . ويقرر في حسم واصرار :

"أن مايدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ماقدموه لنا من اكتشافاتهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة . ان العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا .. انه يدين لها بوجوده . وقد كان العالم - كما رأينا - عالم ماقبل العلم . ان علم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر أجنبية لم تجد لها مكانا ملائما في الثقافة اليونانية . قد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ، ولكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة ، والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني ... ان ماندعوه بالعلم ظهر في أوربا كنتيجة لروح جديد في البحث ولطرق جديدة في الاستقصاء ... طريق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب الى العالم الأوربي -" .

فالمسلمون اذن هم واضعوا أسس المنهج التجريبي ، ثم ان "فرنسيس بيكون" قام بعد ذلك بشرح هذا المنهج بطريقته ، وقد رأينا كيف أن منهج "بيكون" يشابهه منهج الأصوليين في مسلك "السبر والتقسيم" "وتنقيح المناط" وقد شرحت هذين المسلكين في موضعهما وبينت ان هذا لمسلم هو أساس منهج "بيكون" .

لقد ظل ماقدمه العقل الاسلامي من مناهج سليمة ، ينمو خلال العقل الأوربي حتى اكتسب البحث العلمي قبولا متزايدا لدى جميع الأوساط العلمية باعتباره طريقا

---

١ د. علي سامي النشار - مناهج البحث لعلمي عند علماء المسلمين ص ٢٧٧ - نقلا عن كتاب Making of Humanity - Briffault في الصفحات(١٦٠-١٩٦-٢٩٢) (لم نعثر على المرجع مترجما بمكتبات الرياض) .

جديدا للمعرفة وسبيلا لاكتشاف طرق جديدة للحياة .

ولكنني استدرك وأقول انه لا جدوى من أن نقول ان أوربا انما ورثت هذا المنهج منا نحن المسلمين خلال العصور الوسطى وأحداثها التاريخية المعروفة . اذ أن الحقيقة ان أوربا بمقدار ماهي غنية اليوم بهذا الميراث ، فاننا فقراء بما كان الفخر بامتلاكه في يوم من الأيام، ولذا ينبغي علينا نحن العرب والمسلمين أن نفتح أعيننا جيدا على حقيقة واضحة هي : أن التاريخ ليس ملكا الا للزمن الذي ولد فيه ، ولا يورث أمجادا ولا انحطاطا وانما يورث شيئا واحدا فقط هو : العبرة [1] .

فهل نعتبر نحن معشر المسلمين بهذه العبرة ، ونستيقظ من سباتنا العميق، ونحذو حذو السلف في الجد والمثابرة والأصالة ، بدلا من التغني بالآباء وأمجادهم. ان على المسلمين اليوم أن يعوا دورهم ، ويحددوا مكانهم جيدا في خارطة العالم،ويعلموا أن مكانهم الصحيح بين الأمم هو القيادة ، وعليهم أن يسعوا جادين لتسلم الراية من جديد ليقودوا العالم الى بر الأمان من وسط هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن والأهواء والنزعات والتيارات الفكرية المنحرفة ، ولن يكون ذلك الا بالرجوع الى منهج الله القويم الذي يزن مطالب الروح والجسد بميزان دقيق ، فيكيل لكل منهما حسب حاجته فتسعد البشرية دنيا وأخرى ، ثم الذي بعد ذلك يشحذ الهمم للترقي في مجال العلوم أيّا كان نوعها .

---

١ د. البوطي (محمد سعيد رمضان) ـ كبرى اليقينات الكونية ص٥٦.

الباب الثاني

قواعد بناء الشخصيّة المسلمة

الفصل الأول

القاعدة الايمانية

المبحث الأول : أهمية البدء بالعقيدة الاسلامية [1] :

لا شك أنها نقطة بداية صحيحة أن نبدأ من العقيدة ، قاعدة بناء المسلم في هذا العصر ، واعتبارها أساسا لوضع اللبنات الأولى لهذا البناء ، وتأتي أهمية البدء بالعقيدة لأسباب كثيرة ومهمة منها :

أولا : ان الاسلام الحنيف أقام بناءه على أساس العقيدة ، ولأن الظروف التي دعت الاسلام للنداء بالعقيدة الصحيحة أول مرة ، قريبة من الظروف التي يعيشها المسلم في هذا العصر ، فكثير من المجتمعات الاسلامية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبعضها لا يزال حتى القرن الرابع عشر ومطلع القرن الحالي ، تتنازعها تقاليد وأفكار، ان لم تكن هي الشرك فهي قريبة منه ، بل ان بعض المجتمعات أوشكت يوما أن تعبد شجرة أو مكانا أحاطه الناس بالتقديس [2] . ولا يزال كثير مما يحدث حتى اليوم فيما يسمى

---

١ العقيدة الاسلامية هي الجانب النظري الذي يجب على المؤمن الايمان به أولا، ايمانا يقينا مبنيا على التصديق الجازم مع الشعور بالرضا والقبول واقبال النفس عليه والاطمئنان به . (الا من أكره وقلبه مطمئن) ـ وقد أطلق القرآن الكريم لفظ الايمان بدلا من العقيدة ، ومعناهما واحد . (انظر كتاب الايمان للحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن شيبة المتوفى سنة ٢٣٥هـ ـ تحقيق ناصر الدين الألباني (ص ٩٧-٩٨) ـ طبعة المطبعة العمومية بدمشق .
وقد عرّف الامام الشهيد حسن البنا ـ العقيدة بأنها الأمور التي يجب أن يصدق بها الانسان ويطمئن بها ، وتكون يقينا عنده ، لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك ـ (العقائد، تحقيق رضوان محمد رضوان ص ٧) ـ وعرّفها الشيخ أبوبكر الجزائري بأنها (مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة ، ويعقد عليها الانسان قلبه ويثني عليها صدره جازما بصحتها ، قاطعا بوجودها وثبوتها لا يرى خلافها أن يكون أو يصح أبدا) ـ (عقيدة المسلم ص ٢١ ـ طبعة ٢ القاهرة سنة ١٩٧٨م) .

٢ كما حدثت في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر قبيل ظهور دعوة الامام محمد ابن عبدالوهاب رحمه الله ، فكادت أن تكون تجسيدا لدعوة السامري لقوم موسى، وانحرافا عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولئك الذين قالوا له عليه الصلاة والسلام : اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فقال صلى الله عليه وسلم: الله أكبر كما قالت بنو اسرائيل اجعل لنا الها كما لهم آلهة ...) .

بالموالد في بعض البلدان له شكل الشرك ، ولا ينقصه الا النية ، والله أعلم بالنوايا ، وبرغم أن أصحاب هذه الموالد برءاء مما أحدث الناس ، فان ماغلب عليها من بدع ، ومايرتكب فيها أو باسمها من آثام كفيل بالانتهاء عنها ، فان من أسباب تحريم الخمر والميسر قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) [1] . فضلا عن أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، وسد الذرائع كفيل بترك مالا بأس به خشية أن يكون به بأس كما هو مقرر لدى الأصوليين[2].

ثانيا : وهناك الطواغيت التي أمر الله المسلمين أن يكفروا بها ليصح ايمانهم ، والطواغيب ليست ، ولم تكن الأوثان والأصنام فحسب ، ذلك لأن الأوثان والأصنام مجردصورة واحدة أو مثل واحد ، تمثلت في عصور معينة ، ولكن للطواغيت صور كثيرة ومتعددة تتمثل في عصرنا هذا في المعتقدات الباطلة ، والمبادىء الهدامة ، والأفكار المنحرفة ، وعبادة الأشخاص وتقديسهم ، وتتمثل في السلوك المنحرف المبني على اعتقاد وتأثر ، وجماع هذه جميعا أن تعطى شيئا منها بعض صفات الله ، أو بعض أفعاله التي اختص الله تعالى بها وحده ، ولا يسهم أن تفرد بهذا العطاء أو الاشراك مع الله فيه - فمن أعطى شخصا أو هيئة أو مبدأ صفة الحكم - أي وضع القواعد والتشريعات ابتداء ، وهذا خالص حق الله ، سواء في العقيدة أو الأخلاق أو العبادات أو المعاملات ، فقد اتخذ الشخص أو الهيئة أو المبدأ طاغوتا ، فان أفرده بهذه الصفة فقد اتخذ طاغوتا من دون الله ،وان أشركه مع الله في هذه الصفة ، فقد اتخذه طاغوتا مع الله . وفي الحالين ان توافرت له الارادة فقد انتفى عنه الايمان [3] وقد وصف القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى : (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) [4] . وقد

---

١ سورة البقرة الآية وكان ذلك قبل خيبر والمسلمون حديثو عهد بكفر - انظر ابن كثير جـ ٢ ص ١٤٣ . القرطبي جـ ٧ ص ٢٧٣.

٢ انظر د. علي جريشه - وحمد شريف الزئبق - أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي ص ١٩٠-١٩٣ - ط ١ سنة ٩٧هـ مطبعة الاعتصام القاهرة .

٣ انظر د. علي جريشه ومحمد شريف الزئبق - المصدر السابق ص ١٩٥-١٩٦ - وانظر حسن اسماعيل الهضيبي - دعاة .. لا قضاة، الطبعة الأولى ١٣٩٧ ، دار الطباعة والنشر الاسلامية ص ١٦١-١٦٤.

٤ سورة النساء الآية ٦٠.

قيل في سبب نزول هذه الآية أن رجلا من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة ، فقال اليهودي : انطلق بنا الى محمد . وقال المنافق : انطلق بنا الى كعب بن الأشرف ،فأبى اليهودي فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودي ، فلما خرجا ، قال المنافق : ننطلق الى عمر بن الخطاب ، فأقبلا اليه فقصا عليه القصة . فقال عمر : رويدا حتى أخرج اليكما ، فدخل البيت ، فاشتمل على السيف ثم خرج ، فضرب المنافق حتى برد. وقال : هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله ، فنزلت هذه الآية [1] . وفي تفسير قوله تعالى :(وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله) [2] يقول ابن كثير القرشي رحمه الله - فما حكم كتاب الله وسنة رسوله ، وشهدا له بالصحة فهو الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال [3] . ورغم وضوح الأمر فاننا نجد في عصرنا هذا من يتحاكم الى الطاغوت ويدعي في الوقت نفسه انه مسلم فيقول مثلا : أنا مسلم العقيدة ماركسي المذهب ؟! وكما تقدم توضيحه فان العقيدة لا تصح حتى يسقط كل طاغوت من حسابه ، ويعطي الحق كله لله ،ويمتثل لقول الله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)[4]. ولذا كان النفي في شهادة التوحيد سابقا على الاثبات - (لا اله الا الله) .

ثالثا : ان البدء بالعقيدة يعني البدء بتعريف الناس بالههم الحق ، وبحقيقة وجود من أوجدهم من العدم ، وبعلمه وقدرته تعالى عليهم ، ولقائه بهم بعد موتهم ، ونهاية حياتهم ومجازاته ايّاهم على كسبهم الاختياري ، وعملهم غير الاضطراري ، ثم تعريفهم بوجوب طاعته فيما بلغتهم من أوامره ، ونواهيه من طريق كتبه ورسله ، طاعة تزكو بها نفوسهم ، وتتهذب بها مشاعرهم ، وتكمل بها أخلاقهم ، وتنتظم بها علاقتهم بين الخلق والحياة ، ويعني ذلك أيضا البدء بتعريفهم بغنى ربهم تعالى عنهم ،وافتقارهم اليه سبحانه في كل شي من شئونهم حتى أنفاسهم التي يرددونها ، وعليه وحده توكلهم

---

١ ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٩٢ - عن الكلبي عن أبي صالح عبدالله عباس . وانظر تفسير الآية - أبو الفرج ابن الجوزي ، زاد المسير في علم التفسير ، الجزء الثاني ص ١١٨-١١٩ ط ١ ٨٥هـ - بيروت .
٢ سورة الشوري الآية ١٠ .
٣ اسماعيل بن كثير القرشي - تفسير القرآن العظيم - الجزء الأول ص ٥١٨ - مطبعة دار المعرفة بيروت سنة ١٩٦٩م ، ١٣٩٨٨هـ .
٤ سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦.

واعتمادهم ، اذ هو وحده محط رجائهم اذا طمعوا ، ومأمن خوفهم اذا خافوا وانهم يحبهم له سبحانه يحبون ويبغضه سبحانه يبغضون، فهو مولاهم ، ولا مولى غيره ،وهو معبودهم، ولا معبود سواه ، سبحانه [1] .

رابعا : العقيدة هي الضابط الأمين الذي يحكم التصرفات ويوجه السلوك ، ويتوقف على مدى انضباطها في النفوس واحكامها كل مايصدر عن النفس ، فهي أساس كل تصرفات المسلم ، فاذا تعطل جزء منها أحدث فسادا كبيرا في التصرفات ، ولذا فقد عنى القرآن الكريم ببناء العقيدة ، وبخاصة القرآن المكي الذي أنزل قبل الهجرة ، فقد أفردت سوره وآياته في تقرير (لا اله الا الله) في القلوب والعقول ، دون التطرق الى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها . ان تناول القرآن المكي قضية الاعتقاد وحدها ، وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى،يجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة، واستغراقها لشعاب النفس كلها ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة ، لأن العقيدة متى استقرت في أعماق النفس الغائرة ، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه (لا اله الا الله) وتعين انه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام ، حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته وقبل أن تعرض عليها تشريعاته ، فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الايمان وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس ـ فيما بعد ـ تنظيمات الاسلام وتشريعاته بالرضى والقبول [2] .

فالعقيدة هي الأساس المكين الذي ترتكز عليه فروع هذا الدين كله ، ومن العبث اشادة بناء ضخم بلا أساس ، ولهذا فان محاولة تتبع فروع الشريعة بالتفصيل والتعليل هو في الواقع اشتغال بالمهم قبل الأهم ، ولا يمكن أن تؤدي هذه المحاولة أكلها التي نرجو ، والثمار التي نأمل ،ومن الأولى الاهتمام بترسيخ العقيدة الصحيحة أولا في الأعماق ثم محاولة الزام النفس بعدها بأوامر الشريعة كلها [3] .

---

١ انظر ـ أبوبكر الجزائري ـ عقيدة المؤمن ص ٢١ ـ الطبعة الثانية ١٩٧٨م القاهرة .
٢ انظر ـ سيد قطب ، معالم في الطريق ص ٣١-٣٣ ـ طبعة دار الشروق .
٣ انظر ـ دكتور عبدالله عزام ـ العقيدة وأثرها في بناء الجيل ص ١٧-١٨ طبعة دار الاعتصام ـ القاهرة (د. ت).

المبحث الثاني :

الايمان : معناه وحقيقته

(١) معنى الايمان :

أ ـ المعنى اللغوي :

للايمان في لغة العرب مدلولان ، فتارة يطلق ويراد به التامين أي اعطاء الأمان، وهذا انما يكون عند تعدي الفعل بنفسه ، تقول آمنت فلانا ايمانا وأمنته تأمينا. قال تعالى (وآمنهم من خوف) [١] ، ومنه اسم الله تعالى : (المؤمن) لأنه آمن عباده من أن يظلمهم . (وتارة) يتعدى بالياء أو اللام فيكون معناه التصديق : (قولوا آمنا بالله) [٢] (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) [٣] . قال علماء الاشتقاق : هذا المعنى الثاني راجع الى الأول لأن من صدقك ،فقد أمّنك من التكذيب والمخالفة [٤] .

ولمّا كان الايمان في الشرع منقول من الاستعمال الثاني فيه ـ أعني غير متعد ـ فان معنى الايمان المراد هنا هو التصديق [٥] ، والتصديق هو اعتقاد القلب ومحله القلب. هذا أصله . فان سمينا الاعتراف والاقرار باللسان ايمانا ، فانما نسميه بذلك لكونه ترجمة لذلك التصديق القلبي وعبارة عنه . فالايمان على هذا ، اذعان قلبي يشمل التصديق والرضى والمحبة والنية وغير ذلك من الأحوال القلبية [٦] .

---

١ سورة قريش الآية ٤.
٢ سورة البقرة الآية رقم ١٣٦.
٣ سورة البقرة الآية رقم ٧٥.
٤ انظر فتاوي ابن تيمية الجزء السادس كتاب الايمان الأوسط ص ٥٧٥-٥٩٧ ـ وانظر ابن قتيبة كتاب مشكل القرآن ج ١ ص ١٢-١٣ طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ وانظر د. محمد عبدالله دراز المختار من كنوز السنة النبوية شرح أربعين حديثا في أصول الدين ص ٦٨-٦٩
٥ انظر محمد بن حزم الطاهري ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ الجزء الثالث ص ٢١١ كتاب الايمان ط ٢ سنة ١٩٧٥م مطبعة دار المعرفة ببيروت .
٦ انظر د. محمد عبد دراز ـ المختار من كنوز السنة النبوية ـ شرح أربعين حديثا في أصول الدين ـ ص ٧١-٧٢ ـ مطبعة الشئون الدينية بدولة قطر .

(ب) المعنى الاصطلاحي :

أما في اصطلاح الشرع ، فكثيرا مايراد من الايمان مطلق التصديق بحق أو باطل ولكن المعني الأخص الذي صار اليه العرف الشرعي أراد من الايمان خصوص التصديق بخبر السماء المنزل على الأنبياء [1] . قال ابن حجر في الفتح : "الايمان شرعا : تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه ... قال وهذا متفق عليه" [2] . قلت وهو الصحيح الموافق لما في الكتاب والسنة .

وضابط التفريق بين الاستعمالين لمعنى الايمان في القرآن ، يكون بالنظر في الموضع الذي يذكر فيه ، هل له في الكلام متعلق خاص تعدى اليه بالباء أو اللام ، أم ذكر مجردا عن المتعلق ؟ فاذا وجدناه متعلقا بأن قيل مثلا (ايمان بكذا) عرفنا أنه بمعناه اللغوي البحت ، أي مطلق التصديق لما تعلق به ، سواء كان حقا أم باطلا مشوبا بالشرك أم لا. قال تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويوءمن بالله) [3] وقال : (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله) [4] . وقال عز وجل (كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم موءمنون) [5] . وقال (ومايوءمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) [6] .

أما اذا ذكر بدون متعلق ، فالمراد به تلك الحقيقة الشرعية الخاصة وهي التصديق بالحق والانقياد القلبي له [7] .

---

١ د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٧٣.
٢ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني – فتح الباري بشرح البخاري – الجزء الأول ص ٤٦ – طبعة دار الفكر – تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز .
٣ سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦.
٤ سورة العنكبوت الآية رقم ٥٢.
٥ سورة سبأ الآية رقم ٤١.
٦ سورة يوسف الآية رقم ١٠٦.
٧ انظر د. محمد عبدالله دراز – المختار من كنوز السنة النبوية – شرح أربعين حديثا في أصول الدين – ص ٦٩–٧٤ طبعة الشئون الدينية بدولة قطر – كتاب الايمان والاسلام والمقارنة بين معنى اللفظين .

(٢) حقيقة الايمان :

انقسم الناس فيما يقع عليه اسم الايمان – أي حقيقة الايمان المطلوب من المكلفين – أهو قول فقط ، أم قول واعتقاد ، أم قول واعتقاد وعمل ؟ الى أربعة أقسام :

القسم الأول : قال بأن الايمان هو مجرد التصديق بالقلب ، أي المعرفة والعلم بالقلب فقط ولو نطق اللسان خلاف ذلك [1] ، وهذا قول ظاهر الفساد والبطلان ، فان لازمه أن فرعون وقومه كانوا موءمنين ، فانهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ولم يوءمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هوءلاء الا ربّ السموات والأرض بصائر ..) [2] . وقال تعالى (وجحدوا [3] بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) [4] . وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، ولم يكونوا موءمنين به ، بل كافرين به ، معادين له ، وكذلك أبو طالب عندهم يكون موءمنا فانه قال :

ولقد علمت بأن ديـن محمـد	من خير أديان البريـة دينـا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحا بذاك مبينـا

بل ابليس يكون عند الجهم موءمنا كامل الايمان ! فانه لم يجهل ربه ، بل هو عارف به ، (قال : ربّ فانظرني الى يوم يبعثون) [5] . (قال ، رب بما أغويتني) [6] .

---

١ وهذا قول الجهمية – والجهمية هم أتباع الجهم بن صفوان (أبو محرز) السمرقندي – قال عنه صاحب لسان الميزان ج ٢ ص ١٤٢ ، أنه ضال مبتدع وهو رأس الجهمية ، قتله نصر ابن يسار أمير خراسان سنة ١٢٨هـ . والجهمية فرقة ضالة ظهرت (بترمذ) وهم من نفاة الصفات والذات عن الله تعالى ، ولذلك يسمون أيضا (بالمعطلة) لنفيهم الصفات والذات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عنه جل شأنه .

٢ سورة الاسراء الآية رقم ١٠٢

٣،٤ سورة النمل الآية رقم ١٤ . والجحد في اللغة : انكارك بلسانك ماتستيقنه نفسك . انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٥ تحقيق السيد أحمد صقر سنة ١٩٧٨م – دار الكتاب العلمية بيروت .

٥ سورة الحجر الآية رقم ٣٦ .

٦ سورة الحجر الآية رقم ٤٩ .

(قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين) [1] ـ ولا يكون الكفر عند الجهم الا لمن يجهل وجوب الرب تعالى ، وقد كفر الجهم نفسه بقوله هذا [2] .

القسم الثاني : قال بأن الايمان هو القول باللسان فقط [3] ! وان اعتقد الكفر بقلبه ، فاذا فعل ذلك فهو موءمن من أهل الجنة [4] . وفساد هذا القول ظاهر أيضا ، فالمنافقون عندهم موءمنون كاملو الايمان ، وهذا جحد للنص الصريح الذي جعل المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، وجحد للنص الصريح بضرورة التصديق بالقلب . قال تعالى : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [5] .

القسم الثالث : قول جمهور (المرجئة) [6] بأن الايمان المطلوب من المكلفين هو قول واعتقاد

---

١ سورة ص الآية ٨٢.
٢ انظر ـ شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣-٣٧٤ ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢ ـ مطبعة المكتب الاسلامي ـ تحقيق جماعة من العلماء وخرج أحاديثه ناصر الدين الألباني ـ وانظر ابن حزم المصدر السابق ص ١٨٨ ـ وانظر حسن الهضيبي دعاة .. لا قضاة ص ١٥٧ ـ سنة ١٩٧٧ ط دار الطباعة والنشر الاسلامي .
٣ قالت الكرامية ان الايمان قول باللسان ، ولو بلا عمل ولا اعتقاد ـ والكرامية نسبة الى امامهم أبي عبدالله محمد بن كرام النيسابوري وكان والده يحفظ الكرام ، فقيل له الكرام . وكان أبو عبدالله هذا من أهل نيسابور ثم أخرج عنها وانتقل الى بيت المقدس ومات فيها سنة ٢٤٤هـ . وقال عنه الامام الذهبي انه ساقط الحديث مع بدعته (انظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ١٣٤ ـ الطبعة الثانية سنة ٩٢هـ ـ طبعة المكتب الاسلامي بيروت) .
٤ انظر العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ ـ المصدر السابق . وانظر الملل والنحل للشهرستاني بحاشية الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ـ المصدر السابق ص ١٤٤-١٥٣.
٥ سورة البينة الآية رقم ٥.
٦ المرجئة : المرجئة من الارجاء على معنيين ـ الأول : التأخير (قالوا ارجه واخاه) أي أمهله وأخره . والثاني : اعطاء الرجاء . أما اطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يوءخرون العمل عن النية والقصد . وأما بالمعنى الثاني فظاهر فانهم كانوا يقولون لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة . وقيل : الارجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة الى يوم القيامة ، فلا يقضى =

فقط ، فلا يضر بعد ذلك شئ من المخالفة والعصيان صغيرا أو كبيرا [١] . وهذا يعني عدم دخول الأعمال في تقدير الجزاء ، وأن المطيع والعاصي في قسط الرحمة سواء [٢] ! وهذا جحد صريح لنصوص القرآن في مثل قوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به) [٣] ، وقوله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [٤] . ولا يخفى أن من اللوازم البينة لهذا القول ، بطلان التكليف بالفروع جملة ، وضياع آيات الوعيد ، وصيرورتها كذبا وخداعا ، تعالى الله عن ذلك . ثم كيف تستوي عند العقول عاقبة الظلم والعدل ؟

= عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار . وقيل الارجاء : تأخير علي رضي الله عنه من الدرجة الأولى الى الدرجة الرابعة . والمرجئة أصناف أربعة : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة ، وهم المعنيون في هذا البحث . ومن المرجئة الخالصة (اليونسية) أصحاب يونس السمري (والغسانية) وهم أصحاب غسان الكوفي ، والقول المذكور في الوجه الثالث منسوب اليه . انظر الشهرستاني ، الملل والنحل ص ١٨٦–١٨٨ .

وقال الشهرستاني – (ومن العجب أن غسان الكوفي كان يحكى عن أبي حنيفة النعمان الفقيه رحمه الله مثل مذهبه ويعده من المرجئة ، ولعله كذب ولعمري كان يقال لأبي حنيفة وأصحابه مرجئة السنة ، وعدّه كثير من أصحاب المقالات من جملة المرجئة ،ولعل السبب فيه أنه كان يقول : الايمان هو التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص، ظنوا أنه يؤخر العمل عن الايمان ، والرجل مع تحرجه في العمل كيف يفتي بترك العمل ! وله سبب آخر وهو أنه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الأول، والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم في القدر مرجئا ، وكذلك الوعيدية من الخوارج، فلا يبعد أن اللقب انما لزمه من فريقي المعتزلة والخوارج والله أعلم) انتهى، انظر الملل والنحل للشهرستاني ص ١٨٨–١٨٩ – حاشية الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري .

قلت : وانني أشد عجبا اذ ينسب الطحاوي صاحب متن العقيدة الطحاوية الى أبي حنيفة ، نفس قول المرجئة . فقد ورد فيه أن أبا حنيفة يقول بأن الايمان قول باللسان وعقد باللسان دون الجوارح !! انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣–٣٧٤ .

١ انظر، د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٧٤ ، وانظر الشهرستاني – الملل والنحل ص ١٨٨ – حاشية الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري .

٢ انظر د. دراز المصدر السابق ص ٧٦.

٣ سورة النساء الآية ١٢٣.

٤ سورة الزلزلة الآية ٧،٨.

أم كيف تستوي طبيعة الخير والشر[1] ؟ (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار) [2] (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون) [3] .

القسم الرابع : قال ابن حزم رحمه الله [4] ، وذهب الفقهاء وأصحاب الحديث والمعتزلة والخوارج والشيعة الى أن الايمان هو المعرفة بالقلب ، والاقرار باللسان، والعمل بالجوارح ، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية [5] . ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز : ثم ان الخوارج والمعتزلة اختلفوا في تقدير قيمة العمل ، فقالت الخوارج [6] : من أخل بالعمل فترك فريضة أو ارتكب كبيرة ولم يتب منها فقد

---

١ انظر د. دراز المصدر السابق ص ٧٦.
٢ سورة ص الآية ٢٨.
٣ سورة الجاثية الآية رقم ٢١.
٤ انظر ابن حزم الظاهري المصدر السابق ص ١٨٨.
٥ قال الامام النووي في شرح صحيح مسلم انأكثر المتكلمين أنكروا زيادة الايمان ونقصانه ، وقالوا متى قبل الزيادة كان شكا وكفرا . وقال ان المحققين من أصحابنا المتكلمين قالوا ان نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص ، وان الايمان الشرعي هو الذي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها . وقالوا ان في هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف وبين أصل وضع الايمان في اللغة . وقال رحمه الله وهذا الذي قاله هوءلاء وان كان ظاهرا حسنا ، فالأظهر والله أعلم ان نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة . ولهذا يكون ايمان الصديقين أقوى من ايمان غيرهم وقال ولا يتشكك عاقل أن تصديق أبو بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس . (انظر شرح صحيح مسلم للنووي ج ١ ص ١٤٨-١٤٩) .
٦ الخوارج : هم أول من خرج على أمير الموءمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ممن كان معه في حرب صفين ، وأشدهم خروجا عليه ومروقا من الدين ، حين قالوا: القوم يدعوننا الى كتاب الله وأنت تدعونا الى السيف . حتى قال رضي الله عنه :أنا أعلم بما في كتاب الله انفروا الى بقية الأحزاب . قالوا : لترجعن الأشتر (أحد قواد جيوش أمير الموءمنين علي رضي الله عنه) عن قتال المسلمين والا لنفعلن بك كما فعلنا بعثمان . فاضطر الى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وولوا مدبرين ومابقي =

خرج من الايمان ، ودخل في الكفر ، واستحق الخلود في النار [١] . وقالت المعتزلة [٢] : من أخل بالعمل ـ هكذا ـ فقد خرج من الايمان ووجب تخليده في النار كالكفار، لكنه لا يسمى كافرا ، فهو في منزلة بين الايمان والكفر اسما،وان كان كالكافرين في تأبيد العذاب [٣] .

ونلاحظ هنا أن الخوارج والمعتزلة يرفعان قيمة الأعمال الى مستوى العقائد ، كما أن الكرامية والمرجئة يضعان قيمتها من ميزان الاعتبار ، وكلا المذهبين فاسد وباطل وقد تقدم ذكر فساد قول المرجئة والكرامية .

أما الخوارج والمعتزلة الذين رفعوا قيمة العمل الى صف العقيدة ، وجعلوا العاصي بترك العمل كالعاصي بتكذيب الله ورسوله فان النصوص الشرعية ونظر العقل السليم يبطل زعمهم [٤] ، فقد جعل الله تعالى للمعصية التي دون الشرك حكما غير حكم الشرك، فقال (ان

= منهم الا قليل . فامتثل الأشتر أمره . وكان من أمر الحكمين أن الخوارج حملوه على التحكيم أولا ، وكان يريد أن يبعث عبدالله بن عباس فما رضي الخوارج بذلك وقالوا : هو منك فحملوه على بعث أبي موسى الأشعري على أن يحكما بكتاب الله تعالى . فجرى الأمر على خلاف مارضي به فلما لم يرض ، خرجت الخوارج عليه وقالوا : حكمت الرجال لا حكم الا لله . وهم المارقة ويسمون بالمحكمة والشراة والحرورية ... الخ . وقد صارت الخوارج الى فرق شتى لكل منها اسم خاص كالأزارقة والأباضية والنجدات والعماردة والثعالبة وتتفرع منها فروع شتى . ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي، ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ولا يصححون المناكحات الا على ذلك ويكفرون أصحاب الكبائر ويرون الخروج على الامام اذا خالف السنة حقا واجبا !! وقد اندثرت فرق الخوارج وبقيت بعض معتقداتهم كالتكفير والخروج على الامام ، حيّة تتكرر كلما ضاقت على بعض المسلمين أمورهم ! انظر الشهرستاني ج ١ ص ١٥٥-١٥٦ .

١ د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٧٤ .

٢ المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية ـ وهم أتباع واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ) وكان تلميذا للحسن البصري يقرأ عليه العلوم والأخبار أيام عبدالملك ابن مروان وخالفه في رأيه . وسمي معتزلا لأنه اعتزل مجلس أستاذه (حسن البصري) ، فقال الحسن : اعتزلنا بن عطاء ـ فسمي هو وأتباعه بالمعتزلة .

٣ د. محمد عبدالله دراز ـ المصدر السابق ص ٧٥ .

٤ د. محمد عبدالله دراز ـ المصدر السابق ص ٧٦-٧٩ بتصرف وايجاز .

الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)[1] . وهذا نص لا يقبل التأويل، وذلك لأن الله تعالى عمم في الذنب وقيد بالمشيئة في المذنب، فالأمر الذي دون الشرك هو ما كان من المعاصي العملية ، وهي لا تساوي الكفر ولا تعادله بأيّ حال . ويؤيد هذا المعنى ماورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (وانى اختبأت دعوتي لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة ان شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا)[2] . والأدلة متضافرة وكثيرة في عدم خلود من نطق بالشهادتين حقا وصدقا في النار[3].

الآن وقد تبين مصادمة مذاهب الفرق الاسلامية المتعددة لصريح المنقول والمعقول، فلقائل أن يقول : كيف انتسب أهلها الى الاسلام ودخلوا تحت راية القرآن ؟!

والجواب أن هذا من عجيب أمر اللغة العربية التي جاء بها القرآن والسنة . فان هذه اللغة بما فيها من احتمال الحقيقة والمجاز ، والعموم والخصوص يتسع صدرها بحسب الظاهر لكل هذه الفرق فتجد كل فرقة في جانب منها مستندا لزعمها . ولأمر ما أنزل الله الكتاب (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات)[4] فمن قرأ كتاب الله وسنة رسوله وجد فيهما أطرافا يميل اليها المتطرفون ، وأوساطا يأخذ بها المقتصدون (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)[5]. وأما الراسخون في العلم فيردون المتشابه الى المحكم ويقولون (كل من عند ربنا).

فالمرجئة نظروا في آيات الوعد التي وعد الله فيها المؤمنين بالجنة مثل قوله تعالى (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا)[5] وقوله تعالى (وهل نجازي الا الكفور)[6] . ونظير هذا في السنة قوله صلى الله عليه وسلم (من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار)[7] ـ فجعلوا هذه الآيات والأحاديث عامة

---

١ سورة النساء الآية رقم ٤٨.
٢ صحيح مسلم الجزء الأول ص ١٨٩ كتاب الايمان ـ الحديث رقم ٣٣٨.
٣ ولزيادة التحقيق يراجع أبواب كتاب الايمان في الصحيحين (البخاري ومسلم).
٤ سورة آل عمران الآية رقم ٠٧
٥ سورة الأحزاب الآية رقم ٤٧.
٦ سورة سبأ الآية رقم ١٧.
٧ صحيح مسلم شرح النووي الجزء الأول ص ٢٢٩ المجلد الأول طبعة دار الفكر ـ بيروت .

تستوي فيها مراتب الايمان ، وجعلوا الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات [١] .

أما المعتزلة والخوارج فقد أخذوا آيات الوعيد مثل قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) [٢] ومن السنة قوله صلى الله علين وسلم (من اقتطع حق امرى مسلم بيمينه أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة ، قالوا : ولو شيئا يسيرا يارسول‌الله ؟ . قال : ولو قضيبا من أراك ، ولو قضيبا من أراك،ولو قضيبا من أراك) [٣] ـ هذا الى كثير من آيات الوعد بالجنة قيدت بالعمل الصالح مع الايمان ، وجعلوا هذه الآيات عامة ، فسووا بين معصية الشرك ومادونها [٤] .

فهذان الطرفان في أمر الايمان ، كل طرف أشد غلوا من صاحبه ، وكلاهما ناقص المعرفة بربه ، ماعرفه حق معرفته ، ولا قدره حق قدره ، هذا (وان ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وان ربّك لشديد العقاب) [٥] .

ان العقيدة المتطرفة لا يمكن أن يصلح عليها أمرالخلق ولايقوم بها نظام العالم ، لأن الاستبشار والاتكال داع الى التفريط والتهاون ، ولأن اليأس والقنوط داع الى الافراط والعنت والحرج ، وانما يصلح أمر القلب اذا أخذ حظا من الرجاء وحظا من الخوف : هذا من ورائه يسوقه بعصاه ، وذاك من أمامه يحدوه برغائبه ومناه . ولا يكون ذلك الا اذا اعتدلت العقيدة فكانت وسطا بين التفريط والافراط ، جامعة بين أطراف الصفات "[٦] .

وهذا الرأي الوسط هو عقيدة الأمة الوسط التي يمثلها أهل‌السنة والجماعة ـ وهم جمهور الأمة وجميع الصحابة والتابعين ومن تبعهم باحسان ومذهب أهل السنة والجماعةفي

---

١ انظر د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٨٢.
٢ سورة الجن الآية ٢٣.
٣ رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٨٥ باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجر بالنار .
٤ انظر د. محمد عبدالله دراز ـ المصدر السابق ص ٨٣.
٥ سورة الرعد الآية ٦.
٦ د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٨٥.

حقيقة الايمان يقوم على أن المطلوب من المكلف أمر مركب من قول واعتقاد وعمل[١] ، لكن أجزاء هذا المركب ليست بنسبة متساوية في تركيبه ، فكما أن الانسان مركب من جسم حيواني مادي وروحي ناطق مفكر ، والجسم مركب من أجهزة وأعضاء تتفاوت حاجة المجموع اليها ، فمنها ماهو عضو رئيس تنحل البنية وتذهب الحياة بفقده كالقلب والرأس، ومنها ماهو عضو نافع تنقص المرافق بنقصه كاليد والرجل ، ومنها ماهو زينة مكمل للجمال والتناسق كالشعر والظفر ـ كذلك أجزاء الايمان[٢] .

فأما الجزء الأول : وهو الجزء الذي لا غنى عنه بحال ، واذا عدم عدمت حقيقة الايمان ، وحقت على فاقده كلمة الهوان والخلود في النار فهو الاعتقاد ـ وأعني به العلم الجازم بكل ماثبت بالضرورة أنه جاء من عند الله على لسان رسوله ، وليس ذلك فقط بل لابد ـ مع اليقين الجازم الذي هو حكم عقلي ـ من أمر آخر قلبي وهو الرضى والارتياح النفساني لهذه العقيدة ، بحيث تكون طبق هواه وميله وعاطفته ، فلا يغص بها حقدا وحسدا ، ولا يتسخطها كبرا وأنفة ، كقوم فرعون جاءتهم آايت الله مبصرة فجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ،أو كعلماء اليهود كانوا يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم ولكن شقت عليهم زعامته واستتباعه اياهم ، وقد كانوا متبوعين، فودّوا أن لم يكن ، وكرهو نعمة الله عليه، وظنوا أنهم أولى منه بهذه المكانة . ومن هنا كانوا كفارا مع اعتقادهم ويقينهم بأمره لأنهم أضاعوا شطر الركن الاعتقادي وهو الرضى والتسليم[٣] : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)[٤] فاذا تحقق هذا الجزء الأول فقد وجد أساس الايمان ، وكتب لصاحبه عند الله عهد بالنجاة من الخلود في النار اذا مات على ذلك، ولم يتحقق معه سائر الأجزاء ، يدل على ذلك ماورد في صحيح مسلم عن جابر قال : "أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله ماالموجبتان ؟ فقال : من مات لايشرك

---

١ وانظر ابن حجر العسقلاني فتح الباري لشرح صحيح البخاري الجزء الأول ص ٤٦ـ تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز طبعة دار الفكر وانظر كتاب الايمان ـ ابن تيمية ص ١٤٤، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ . وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٤٦.

٢ انظر د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٨٥.

٣ د. دراز المصدر السابق ص ٨٦.

٤ سورة النساء الآية رقم ٦٥.

بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار" [١] .

الجزء الثاني : الاقرار باللسان – أي اعلان هذه العقيدة بالقول أو غيره ، كالصلاة ونحوها مما يؤدى معنى الاعتراف بالايمان . وأصل الاقرار باللسان هو النطق بشهادة (أن لا اله الآ الله) ، وهي لفظة ينطقها المرء للاخبار بما وقع في نفسه من تيقن وجود ذات الله تعالى ، وأنه تعالى أحد لا اله سواه ، اقرارا منه بذلك [٢].

وحكم من نطق بشهادة أن لا اله الآ الله وأن محمدا رسول الله أنه مسلم تجرى عليه أحكام المسلمين ، وليس لنا أن نبحث في مدى صدق شهادته – اذ أن ذلك متعلق بما استشعره واستيقنه بقلبه ، وهو أمر لا سبيل لنا للكشف عنه والتثبت منه ، لأنه من شأن الذي يعلم السر وأخفى . فمن استيقن قلبه مانطق به لسانه ، كان عند الله مسلما موءمنا ، ونفعه ماتلفظه بلسانه [٣] ، يدل على ذلك :

١- قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حدث به أبو هريرة رضي الله عنه قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الآ الله وأن محمدا رسول الله ، ويوءمنوا بي وبما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الآ بحقها وحسابهم على الله) [٤] قال النووي رحمه الله وفيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف ، أن الانسان اذا اعتقد دين الاسلام اعتقادا جازما لا تردد فيه ، كفاه ذلك وهو موءمن من الموحدين [٥] . وأضاف رحمه الله أن المراد التصديق الجازم وقد حصل ولأن النبي صلى الله عليه وسلم اكتفي بالتصديق بما جاء به صلى الله عليه وسلم ولم يشترط المعرفة بالدليل [٦] . وقال حسن الهضيبي رحمه الله : "والمجمع عليه من أهل الاسلام : أن الذي يعصم ماله ودمه بالشهادتين هو المسلم . وأما عصمة أموال ودماء أهل الذمة فتكون بالعهد، ولا يشترط فيهم النطق بالشهادتين" [٧] . قال النووي رحمه الله : "وقد

---

١ صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٩٣،باب من مات لايشرك بالله دخل الجنة ط دار الفكر.
٢ انظر حسن الهضيبي ، دعاة..لاقضاة ص ١١ ط دار النشر والطباعة الاسلامية سنة ١٩٧٧م .
٣ انظر حسن الهضيبي ، المصادر السابق ص ١٤.
٤ صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص ٢١٠-٢١١.
٥ الامام محي الدين النووي – شرح صحيح مسلم المصدر السابق ٢١٠/١.
٦ الامام النووي المصدر السابق ٢١١/١.
٧ دعاة لا قضاة ص ١٥.

تظاهرت بهذا المعنى أحاديث في الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي به " [١] .

٢- وقوله صلى الله عليه وسلم فيما حدّث به أنس بن مالك رضي الله عنه (يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه مايزن شعيرة من خير ، ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه وزن برة من خير ، ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله ، وكان في قلبه وزن ذرة من خير) [٢] .

٣- وحديث المقداد بن عمرو الكندي قال : يارسول الله : أرأيت ان لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا فضرب احدى يديّ بالسيف ، فقطعها ، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله . آقتله يارسول الله بعد أن قالها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،لاتقتله فقال يارسول الله : انه قطع احدى يديّ ثم قال ذلك بعد ماقطعها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله فان قتلته فانه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وانك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال) [٣] .

٤- وحديث أسامة بن زيد بن حارثة قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحرقة [٤] من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فقال : فلما غشيناه قال : لا اله الا الله . قال : فكف الأنصاري ، فطعنته برمحي حتى قتلته . فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قال يا اسامة : أقتلته بعد ماقال لا اله الا الله . قلت : كان متعوذا . فمازال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) [٥] .

---

١ الامام النووي المصدر السابق ص ٢١١.
٢ صحيح البخاري الجزء الأول كتاب الايمان باب زيادة الايمان ونقصانه ص ١٦ طبعة بالاوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول (ط دار الفكر) .
٣ صحيح البخاري الجزء الخامس- كتاب المغازي ص ١٩.
٤ الحرقة- بالراء المفتوحة والحاء المضمومة - قالوا هي قبيلة من جهينة سميت بذلك لأن أباهم حرق قوما بالقتل وبالغ في ذلك - والجمع الحرقات (بضم الحاء والراء)وهم بطون تلك القبيلة . انظر هامش صحيح البخاري ج ٥ ص ٨٨.
٥ صحيح البخاري - الجزء الخامس- باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد الى الحرقات من جهينة ص ٨٨.

فهذه النصوص الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاطعة الدلالة على صحة القول بأن حكم الله أن نعتبر من نطق بالشهادتين مسلما ، تجرى عليه أحكام المسلمين وأن نعامله بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية باعتباره مسلما ،وأن نكل سريرته الى عالم السرائر جل شأنه[١] . ومما يعضد هذا القول ، أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله علين وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعم قل لا اله الا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعيد تلك المقالة - حتى قال أبو طالب آخر ماكلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله ...)[٢] ولو لم تكن للنطق بالشهادتين جدوى لما طالب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه بذلك ويلح عليه الطلب . فالنصوص كلها تتضافر لتدل على أن النطق بالشهادتين يخرج صاحبها من الكفر وتدخله في الاسلام .

ويتعلق بهذا الجزء من الايمان ملاحظتان :

الأولى : بالنسبة الى الله عز وجل، فان الاقرار باللسان لا يدخل عنده سبحانه في أصل الايمان ، اذ لا حاجة به سبحانه ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور ولا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، الى ترجمة عما في القلب أو اقرار به ، واعلان عنه ، لأنه سبحانه لا يحجبه حجاب عما في قلوبنا ويستوي بالنسبة اليه السر والعلن . بخلافنا نحن فقد أمرنا أن نحكم بالظاهر حيث لا يكون فيمقدورنا الاطلاع على السرائر ، فمن يترك هذا الجزءولم يقر مع تحقق أساس الايمان فيه وهو التصديق فهوعند الله من المؤمنين ، وانما يكون الاقرار على هذا فريضة عملية تدخل في نطاق الأعمال وتأخذ حكمها ، فيأثمبترك الاقرار عمدا مع القدرة عليه والا فلا[٣] . يستشهد لهذا بما

١ انظر حسن الهضيبي المصدر السابق ص١٦.
٢ انظر صحيح مسلم شرح النووي - الجزء الأول باب وفاة أبو طالب ص ٢١٤.
٣ انظر د. محمد بيصار - العقدية والأخلاق ص ١٠٠ الطبعة الرابعة ١٩٧٣ - طبعة دار الكتاب اللبناني . وانظر د. محمدعبدالله دراز المصدر السابق ص ٨٧.

ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : (وقال رجل موءمن من آل فرعون يكتم ايمانه)[1] فقد لقبه بالايمان مع كتمانه له . وقال عز من قائل (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا)[2] .

الثانية : بالنسبة الى الناس فان الاقرار باللسان يعد من أصول الدين لأننا أمرنا ألا نحكم الا بظواهر الأمور ، ونترك أسرارها وبواطنها لله عز وجل ، فليس لنا أن ندعي الاطلاع على مافي قلوب الناس . وكل دلائل ايمانهم بالنسبة لنا انما هو الاقرار أو مايقوم مقامه ، الذي هو بمثابة الترجمة لما في عقائدهم وان كانت دلالته عليه لا تتجاوز مرتبة الظن[3] .

وليس في وجوب الحكم باسلام من نطق بالشهادتين مايتعارض مع كون المسلم مكلفا بعد نطق الشهادتين بفرائض أخرى هي من الايمان كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والدعوة الى الله على بصيرة ،والحكم بما أنزل الله ... الخ ذلك أن الايمان يزيد بازدياد الطاعة وزيادة العلم ووجود البراهين . ثم ان القول باسلام من نطق بالشهادتين لا يلزم الحكم باسلامه أيا ماقال أو عمل بعد النطق بهما . ذلك أن ممالاشك فيه أن شريعة الله قد حددت أقوالا وأعمالا اذا قالها المسلم أو عملها خرجت به من الاسلام وارتد كافرا . وقد حدد هذه الأقوال والأفعال الله عز وجل في محكم تنزيله ، وبينها الرسول عليه الصلاة والسلام ، فليس لأحد أن يزيد عليها أو ينقص منها . فمن نطق بالشهادتين وأيقن بها ثمّ أتى ببعض الكبائر مثل الزنا والقتل والغلول والنهب وشرب الخمر ، فلا يخرجه ذلك من الملة،ولا يحكم عليه بالردة ، انما يقام على فاعلها الحد المنصوص شرعا . فاذا أقيم عليه الحد فهو كفارة له ، وان ستره الله تعالى فأمره الى الله تعالى ان شاء عذبه وان شاء غفر له[4] .

---

١ سورة غافر الآية رقم ٢٨.

٢ سورة النحل الآية رقم ١٠٦.

٣ انظر د. محمد بيصار النصدر السابق ص ١٠١ ـ وانظر د. محمد عبدالله دراز المصدر السابق ص ٨٨.

٤ انظر حسن الهضيبي المصدر السابق ص ٣٥-٤٠.

والنطق بالشهادتين فضلا عن أنه يكفي لعصمة الدم والمال والانتقال من الكفرالى الاسلام ، فانه يحول دون خلود قائلها في النار في الآخرة ،وذلك اذا سانده ايمان ولو كان في حجم الذرة ، أما الخلود الأبدي في النار فلا يكون الا للكافرالحق ، كما أن دخول الجنة بغير عذاب لا يكون الا لمن توافر له الايمان الحق ـ قول باللسان وعقد بالقلب وعمل بالجوارح .

أما الجزء الثالث من أجزاء الايمان : فهو العمل بكل ماأمر الله به من فرائض ونوافل ، والكف عن كل مانهى عنه من محرمات ،وشبهات كبرت أو صغرت ، قلت أو كثرت سرا كانت أو علانية بقلبه وجارحته . وهذا الجزء من الايمان تتفاوت مراتبه تفاوتا كبيرا ، فمن وفاه بجملته واتقى الله حق تقاته بقدر الطاقة البشرية كان من السابقين المقربين . ومن أدى الفرائض واجتنب الكبائر ولكنه قارف شيئا من الصغائر أو قصر في النوافل كفر الله عنه ما ألمّ به من سيئة ، مالم يصر عليها ، وأدخله الجنة على قدر درجته في العمل ،قال تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) [1] وقال (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ، ان ربّك واسع المغفرة) [2] .

ومن ترك فريضة أو فعل كبيرة ، وتدارك أمره بالتوبة قبل أن يحضره الموت ، كان حقا على الله أن يتوب عليه ويدخله الجنة بغير عذاب . قال تعالى : (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) [3] .

ومن أصر على مافعل حتى جاءه الموت وهو على ذلك لم يكن حقا على الله أن يتوب عليه : (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) [4] ـ أي ليست التوبة حقا له بل يبقى الفضل في عقوبته مفوضا الى مشيئة الله

---

١ سورة النساء الآية رقم ٣١.
٢ سورة النجم الآية رقم ٣٢.
٣ سورة النساء الآية ١٧.
٤ سورة النساء الآية ١٨.

فان شاء عفا عنه بفضله ، وان شاء عذبه بقدر ذنبه ثم أخرجه الى الجنة ولو بعد حين[١].

وخلاصة ماسبق أن الايمان الشرعي مؤلف من ثلاثة عناصر : اعتقاد بالجنان، وقول باللسان وعمل بالأركان ، وهذه العناصر ليست سواء في الميزان . بل منها الأصل ومنها الفرع - فالأول والثاني - يشملهما الأصل ، أما الثالث وهو العمل فهو الفرع سواء أكان من أعمال الجوارح أم من أعمال القلوب ماعدا الاعتقاد . وقد ذكر ابن حجر في الفتح أن السلف عندما أدخلوا الأعمال في الايمان انما أرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كمال الايمان وليس شرطا في صحته كما ذهب اليه بعض أهل الفرق من الخوارج والمعتزلة[٦].

---

١ سورة النساء الآية رقم ٣١.
٢ سورة النجم الآية رقم ٣٢.
٣ سورة النساء الآية ١٧.
٤ سورة النساء الآية رقم ١٨.
٥ انظر د. محمد عبدالله دراز - المصدر السابق ص ٨٧-٨٨-٨٩-٩٠ ، وانظر د. محمد بيصار - المصدر السابق ص ١٠١.
٦ انظر ١/٤٦.

المبحث الثاني :

عناصر الايمان

ان الايمان بالله - أي بالذات الغيبية العلوية القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة - هو روح الاسلام وأصل عقائده كلها ، كما بينها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . فالقرآن حين يتحدث عن أركان الايمان ومتعلقاته يجعل الايمان بالله أولها وأصلها كما في قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ..) [1] وقوله (يا أيها الذين آمنوا ، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) [2] . والرسول الكريم صلوات الله وسلامه يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الايمان . قال : (الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره) [3] .

فالايمان بالله هو الأصل، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة اليه وتابعة له ، ذلك لأنه لا يتصور أن يؤمن أحد بالرسل الا بعد الايمان بالمرسل ، ولا بالجزاء والحساب الا بعد الايمان بالمجازي والمحاسب [4] وكذلك سائر أركان الايمان التي تضمنتها الآيات السابقة .

والايمان بالله ، يتضمن الايمان بوجوده بالضرورة ، والايمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته . والايمان باسمائه الحسنى وصفاته العليا التي يتجلى فيها اتصافه بكل كمال يليق به ، وتنزهه عن كل نقص . فكما أن الايمان بالله تعالى هو جوهر العقائد الاسلامية فان توحيد الله تعالى هو جوهر الايمان بالله [5] .

---

١ سورة البقرة الآية ٢٨٥.
٢ سورة النساء الآية ١٣٦.
٣ صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الايمان - باب بيان الايمان والاسلام والاحسان الجزء الأول ص ١٥٧.
٤،٥ د.يوسف القرضاوي - حقيقة التوحيد ص ٦-١٥، مطبعة وهبة القاهرة - الطبعة الأول ١٣٩٩هـ .

وقد أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم مايجب الايمان به من العقائد الاسلامية في الحديث الذي يرويه عبادة بن الصامت رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من شهد أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن "عيسى" عبد الله ورسوله . وكلمته ألقاها الى "مريم" وروح منه ، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ماكان عليه من العمل) [1] . في هذا الحديث جمع صلى الله عليه وسلم أصول العقائد التي بها النجاة في الآخرة . فان العقائد على كثرتها في كتب التوحيد ترجع الى ثلاثة مقاصد :

المقصد الأول : معرفة[2] المبدىء (أي العلم بالله تعالى وصفاته)

المقصد الثاني : معرفة الواسطة (وهو الايمان بالرسل والملائكة والكتب والتكاليف)[3]

المقصد الثالث : معرفة المعاد (وهو الايمان بالبعث والحساب والجزاء)[4]

ولابد من جمع هذه المقاصد الثلاثة في الاعتقاد ، الا أنها تارة تذكر كلها بصريح العبارة ، وتارة يكتفى بذكر المقصدين الأولين دون الثالث[5] مثل قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسله ..)[6] . وتارة يكتفى بذكر الطرفين لأن من أحاط بهما فقط أحاط بالواسطة و (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [7] . وتارة يكتفى بذكر واحد من الثلاثة [8] .

---

١ صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - باب يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولاتقولوا على الله الا الحق ص وانظر اللؤلؤ والمرجان الجزء الأول ص ٧ الحديث رقم ١٧.

٢ ويطلق على جملة المباحث المتعلقة بها اسم الالهيات وقد حكى ابن حجر في الفتح اجماع العلماء على وجوب معرفة الله تعالى عن امام الحرمين . انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١ ص ٧٠

٣ ويطلق على جملة المباحث المتعلقة بها اسم النبوات .

٤ ويطلق على جملة المباحث المتعلقة بها اسم السمعيات .

٥،٦ سورة آل عمران الآية رقم ١٧٩ - (يلاحظ في حالة ذكر المقصدين الأولين فان معرفة المعاد داخل في عموم ماجاءت به الرسل) .

٧ سورة المائدة الآية رقم ٦٩.

٨ والأمثلة على ذلك كثيرة . فاذا ذكر الأصل الأول فقط (من قال لا اله الا الله دخل الجنة وفي الحديث القدسي (لأخرجن من النار من قال لا اله الا الله) فذلك لأن الايمان اذا =

المقصد الأول : معرفة الله تعالى وتوحيده

ان أول واجب فرضه الله عز وجل على العبيد ، هو معرفة الرحمن - أي معرفتهم ايّاه بالتوحيد الذي خلقهم له ، وأخذ عليهم الميثاق ، ثم فطرهم شاهدين مقرين به ،ثم أرسل به رسله اليهم ،وأنزل به كتبه عليهم . وهذا التوحيد لا يدخل العبد في الاسلام الا به ، ولا يخرج منه الا بضده ، ولم يزحزح عن النار ويدخل الجنة الا به . ولم يخلد في النار ويحرم الجنة الا بضده ، ولم تدع الرسل الى شيء قبله ولم تنه عن شيء قبل ضده من الشرك [1] والتعطيل [2] والتمثيل [3] . والتوحيد المامور به توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر :

الأول : توحيد في المعرفة والاثبات والاعتقاد ، ويتضمن اثبات صفات الكمال لله عز وجل وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل ، وتنزيهه عن صفات النقص ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات [4] .

= كان اجابة لدعوة رسوله لزم منه تصديق الداعي ، بل اشتهر أن كلمة التوحيد صارت علما على مجموع الكلمتين اللتين هما شعار الاسلام . واما ذكر الثاني فقط فا تبعوني يحببكم الله) كما في قوله تعالى في سورة آل عمران (آية ٣١) . لأن هذا هو الواسطة الجامعة بين الطرفين . وأما الثالث فقط (الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون) سورة البقرة الآية ٤٦ . لأن من عرف النتيجة عرف مقدماتها .

للمزيد انظر د. محمد عبدالله دراز - المختار من كنوز السنة - شرح أربعين حديثا في أصول الدين ص ١٠٥-١٠٩.

١ الشرك - هو أن يجعل المرء لله شريكا فيما هو خالص حقه سبحانه كأن يتخذ مع الله الها أو آلهة يعبدها أو يطيعها أو يستعين بها ونحو ذلك مما لا يستحقه الا الله .

٢ التعطيل : المراد بالتعطيل هنا نفي الصفات الالهية وانكار قيامها بذاته تعالى - ويكون ذلك بتعطيل أسمائه وصفاته كتعطيل الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم .

٣ التمثيل - هو التشبية وينقسم الى قسمين : الأول : كتشبيه المخلوق بالخالق كتشبيه النصارى المسيح بن مريم بالله .وتشبيه اليهود عزيرا بالله وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله . والثاني : كتشبيه الذين يشبهون الله بخلقه فيقولون له وجه كوجه المخلوق ويد كيد المخلوق وسمع كسمع المخلوق .... الخ .

٤ حافظ بن أحمد حكمي . معارج القبول لشرح سلم الوصول الى علم الأصول في التوحيد الجزء الأول ص ٥٤ - المطبعة السلفية ، القاهرة .

الثاني : توحيد في الطلب والقصد والارادة - وهو عبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، وتجريد محبته والاخلاص له ، وخوفه ورجاؤه ، والتوكل عليه والرضا به ربا والها ووليا ، وان لا يجعل له عدلا في شئ من الأشياء . ويسمى توحيد الالوهية [١].

وفي معرض تفسير قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [٢] ذكر العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، جملا وافرة من هدى القرآن وقال رحمه الله : "فمن ذلك توحيده جل وعلا في ربوبيته ، وفي عبادته وفي أسمائه وصفاته" [٣] وأضاف رحمه الله أن استقراء القرآن العظيم قد دل على أن الاعتقاد في حق الله ينقسم الى ثلاثة ، ثم ذكر أنواع التوحيد الثلاثة المتقدمة [٤] .

وفيما يلي نلقي مزيدا من الضوء على المقصود بالمصطلحات المتقدمة - وهي توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية . وتوحيد الأسماء والصفات :

١- توحيد الربوبية :

ومعناه اعتقاد أنه تعالى ربّ السموات والأرض و خالق من فيهما ومافيهما ، ومالك الأمر في الكون كله لا شريك له في ملكه ، ولا معقب لحكمه ، فهو وحده ربّ كل شئ ورازق كل حي، ومدبر كل أمر ، وهو وحده الخافض الرافع ، المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل ، وكل ماسواه ومن سواه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا الا باذنه ومشيئته [٥] . وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر البشر العقلاء . قال تعالى في الكفار : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولون الله ..) [٦] وقال (قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمّنْ يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي

---

١ حافظ بن أحمد حكمي المصدر السابق ص ٥٤.
٢ سورة الاسراء الآية ١٠.
٣ محمد الأمين الشنقيطي أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن - الجزء الثالث ص ٣٧٢ . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ مطبعة المدني بالقاهرة .
٤ الشنقيطي، منهج التشريع الاسلامي وحكمته ، محاضرة مطبوعة ألقيت بدار الحديث الشريف ١٣٨٤هـ .
٥ انظر د. يوسف القرضاوي المصدر السابق ص ٢١.
٦ سورة العنكبوت الآية ٦١.

من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ،فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون)[1].
(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها : ليقولن الله)[2].
وقال عز وجل (قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ،قل أفلا تذكرون
قل من ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ، سيقولون لله ؟ قل أفلا تتقون ؟! قل من
بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون . سيقولون لله . قل فانى
تسحرون) [3] .

فهذه أجوبة المشركين ، تدل على أنهم يقرون بربوبية الله تعالى وتدبيره
لأمره ،وكان مقتضى ايمانهم بربوبيته تعالى أن يعبدوه وحده ، ولا يشركوا بعبادة ربهم
أحدا . والحقيقة أنه لم ينكر هذا النوع من التوحيد الذي هو توحيده جل وعلا في
ربوبيته الا اثنان :

الأول : رجل بلغ من الجهل والغفلة مايجعل درجته من الفهم والعقل أقل من درجة البهائم
كمن قال الله فيهم : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا
كالأنعام بل هم أضل سبيلا) [4] وقال فيهم (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن
والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون
بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) [5] بل كثير من هوءلاء الذين
فضل الله عليهم الأنعام ، يقرون بربوبيته جل وعلا ، فظهر أن من ينكر ذلك
منحط عن درجة الأنعام بمراتب [6] .

الثاني : رجل مكابر ماهو عالم به بأنه حق كفرعون ، فانه يقول فيما ذكر الله تعالى
عنه (قال فرعون ومارب العالمين) [7] وقوله : (قال فمن ربكما ياموسى)[8] تجاهل

---

١ سورة يونس الآية ٣٢.
٢ سورة العنكبوت الآية ٦٣.
٣ سورة الموءمنون الآيات ٨٤-٨٩.
٤ سورة الفرقان الآية ٤٤.
٥ سورة الأعراف الآية ١٧٩.
٦ محمد الأمين الشنقيطي - منهج التشريع الاسلامي وحكمته المصدر السابق ص ٢٣-٢٤.
٧ سورة الشعراء الآية ٢٣.
٨ سورة طه الآية ٤٩.

عارف بأنه مربوب لرب العالمين بدليل قوله تعالى (قال لقد علمت ما أنزل هوءلاء الا رب السموات والأرض بصائر ٠٠٠) [١] وقوله عز وجل (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ٠٠٠) [٢] .

وهذان النوعان اللذان تتمثل فيهما انكار الربوبية ، تتجسد في الماديين الملحدين الذين ينكرون وجود الله كالدهريين قديما والشيوعيين في عصرنا الحاضر ، وفي الماديين (الثنوية) الذين يعتقدون أن للعالم الهين : الها للنور والها للظلمة [٣]. أما معظم المشركين كالعرب في الجاهلية فكانوا يعترفون بهذا النوع من التوحيد ولا ينكرونه كما حكى عنهم القرآن في الآيات السابقة [٤] .

٢- توحيد الألوهية :

وتوحيد الألوهية يعني توحيده في عبادته ، أي افراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة ، فلا يعبد الا الله وحده ، ولا يشرك به شيء في الأرض أو في السماء .

وهذا القسم من التوحيد هو أعظم أقسامه وأهمها ، وهو الذي وجه الرسل الكرام أكبر عنايتهم اليه [٥] ، وهو الذي كانت فيه المعارك بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وبين أممهم كما هو مفصل في القرآن الكريم [٦] ، ومن ذلك قول مشركي مكة في مواجهة التوحيد : (أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب) [٧] .

---

١ سورة الاسراء الآية ١٠٢.
٢ سورة النحل الآية رقم ١٤.
٣ الشهرستاني - الملل والنحل - ج ١ ص ٨٠.
هامش المفصل في الملل والأهواء والنحل الجزء الأول ص ٨٠ .
٤ د. يوسف القرضاوي المصدر السابق ص ٢١-٢٢.
٥ د. يوسف القرضاوي المصدر السابق ص ٢٣.
٦ انظر محمد الأمين الشنقيطي أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن- الجزء الثالث ص ٣٧٤.
٧ سورة ص الآية رقم ٥.

وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى كلمة (لا اله الآ الله) [1] ـ وهي كلمة متركبة من نفي واثبات . فمعنى نفيها ـ أي خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع العبادات كائنة ماكانت . ومعنى الاثبات ـ أي ـ افراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات باخلاص ، على الوجه الذي شرعه على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام [2] . فهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الالهية عن كل ماسوى الله ، واثباتها لله وحده ، فهو وحده الاله الحق ، وماعداه مما عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة وباطلة صنعتها الجهالة والأوهام كما قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق ، وان مايدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي القدير) [3] . ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعا كانت الدعوة الى عبادة الله وحده ، واجتناب الطاغوت، هي العنصر الأول في دعوات الرسل جميعا من لدن نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام ، وكانت المهمة الأولى للرسل تتمثل في الأمرين السابقين المتلازمين . والأدلة على ذلك كثيرة . من ذلك قوله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [4] ـ ويقول جل وعلا مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم (وما أرسلنا من قبلك من رسول الآ نوحي اليه انه لا اله الآ أنا فاعبدون) [5] ـ وكان أول نداء يوجهه كل رسول الى قومه : (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) [6] هكذا ذكر القرآن عن نوح

---

١ وتسمى (كلمة التوحيد) أو (كلمة الاخلاص) أو (كلمة التقوى) ـ والاله ـ كما قال ابن تيمية رحمه الله هو الذي تألهه القلوب بحبها ،وتخضع لها ، وتذل له ، وتخافه ، وترجوه ، وتنيب اليه ، وتلجأ اليه وتطمئن في مهمتها ، وتتوكل عليه في مصالحها وتلجأ اليه ، وتطمئن بذكره ، وتسكن الى حبه ـ وليس ذلك الآ الله وحده ـ ولهذا كانت (لا اله الآ الله) أصدق الكلام وأفضله وكانت رأس الأمر .
(انظر ـ شيخ الاسلام ابن تيمية ـ كتاب العبودية ص ٨ـ٩ طبعة ثالثة ١٣٩٨هـ) .

٢ انظر محمد الأمين الشنقيطي المصدر السابق ص ٣٧٤.

٣ سورة الحج الآية رقم ٦٢.

٤ سورة النحل الآية ٣٦.

٥ سورة الأنبياء الآية ٢٥.

٦ سورة الأعراف الآية ٥٩.

وهود وصالح وشعيب وغيرهم صلوات الله ورضوانه عليهم أجمعين . وكان نداء نوح الى المشركين من قومه (اني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا الا الله) [1] - والمسيح عيسى ابن مريم الذي اتخذه قومه بعد ذلك ربا يعبد يقول : (يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وماللظالمين من أنصار) [2].

أما خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانت دعوته الى التوحيد واجتناب الطاغوت من أبرز وأقوى الدعوات، ويكفي لعناية الاسلام بالتوحيد أن جعله شعارا يميزه عن كل الديانات سواء منها الوثنية والكتابية المحرفة - وأصبح أشهر مايعرف به الاسلام أنه دين التوحيد . وصار عنوان الاسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل الاسلام وله ماللمسلمين من حقوق وواجبات - (شهادة أن لا اله الا الله) (وأن يشهد أن محمدا رسول الله) ولأهمية التوحيد المتمثل في الكلمتين السابقتين ، كانت من أهم وظائف المسلم اقامة التوحيد في نفسه ، والدعوة اليه لقوله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الانس والجن : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون.ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) [3] فالآية الكريمة توضح أنه سبحانه خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له . فهذه هي الغاية والحكمة من خلقهم . وكما أن رسالة التوحيد هي غاية المسلم ووظيفته ،فهي أيضا رسالة الأمة المسلمة الى العالم كله والى الأمم جميعا. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يختم دعوته الى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها [4] بهذه الآية (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) [5] وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم باحسان يعرفون هذه الرسالة وواجبهم نحوها ، وحين سأل رستم قائد الفرس ربعي بن

---

١ سورة هود الآية رقم ٢٥-٢٦.
٢ سورة الأنبياء الآية ٧٢.
٣ سورة الذاريات الآية ٥٦-٥٧.
٤ انظر د. يوسف القرضاوي المصدر السابق ص ٢٣-٢٨.
٥ سورة آل عمران الآية ٦٤.

عامر من حرب القادسية . من أنتم ؟! وما مهمتكم اجابه بقوله (نحن قوم بعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام) [١] .

والتوحيد الخالص لا يتحقق في المسلم مالم ينضم توحيد الالوهية الى توحيد الربوبية ، أي ان توحيد الربوبية يستلزم توحيد الالوهية بالضرورة [٢] ، لأن الاقرار بقدرة الله ومالكيته وعلمه ونعمه على خلقه يستوجب أن يعبد وحده شكرا على نعمه واستزادة من عطاياه ، وطلبا لتزكية النفس [٣] . ويكثر في القرآن الكريم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته ،ولذلك يخاطبهم باستفهام التقرير فاذا أقروا بربوبيته ، احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده ، ووبخهم منكرا عليهم شركهم به غيره ، مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده ، لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه المستحق لأن يعبد وحده [٤] :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) الى قوله (فسيقولون الله) [٥] . فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله (فقل أفلا تتقون) [٦] ثم يقول ربّ العزة (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم.سيقولون لله) [٧] فلما اعترفوا وبخهم منكرا عليهم شركهم بقوله (فقل أفلا تذكرون) . وقوله تعالى (آلله خير أما يشركون . أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ماكان لكم أن تنبتوا شجرها) [٨] ولا شك أن الجواب الذي

---

١ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٩.

٢،٣ انظر، د. احمد احمد غلوش ـ الدعوة في عصر النبوة الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م ص ٢٠ وانظر د. يوسف القرضاوي المصدر السابق ص ٢٣.

٤ انظر محمد الامين الشنقيطي ـ أضواء البيان ـ المصدر السابق ص ٣٧٤-٣٧٥ . وانظر ابن قيم الجوزية ـ مدارج السالكين ص ٤١١-٤١٢ الجزء الأول تحقيق محمد حامد الفقي ط دار الكتاب العربي سنة ١٣٩٢هـ .

٥ سورة يونس الآية رقم ٣١.

٦ سورة المؤمنون الآيتان ٨٦، ٨٧.

٧،٨ سورة النمل الآية رقم ٦٠،٦١.

لاجواب لهم البتة غيره ، هو أن القادر على خلق السموات والأرض ، وماذكر معها ، خير من جماد لا يقدر على شئ ، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرا عليهم بقوله (أاله مع الله بل هم قوم يعدلون) [١] .

والآيات بنحو هذا كثيرة ، ولأجل ذلك فان الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهام تقرير ، يراد منها انهم اذا أقروا رتب لهم التوبيخ والانكار على ذلك الاقرار لأن المقر بالربوبية يلزمه الاقرار بالألوهية ضرورة . وقد زعم البعض أن الاستفهام هنا استفهام انكار ، ولكن الثابت الذي دل عليه استقراء القرآن أن الاستفهام المتعلق بالربوبية ، استفهام تقرير ، وليس استفهام انكار ، وقد ثبت عند كلامنا عن توحيد الربوبية أن الاقرار بالربوبية جبل عليه فطر البشر ، وانهم لا ينكرون الا مكابرة أو جهلا [٢] .

٣- <u>توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته</u> :

ان ذات الله تبارك وتعالى اكبر من أن تحيط بها العقول البشرية أو تدركها الأفكار الانسانية لأن هذه العقول مهما بلغت من الغلو والارادة محدودة القوة محصورة القدرة [٣] . وقد تكلم أقوام في ذات الله تبارك وتعالى فكان كلامهم سببا لضلالهم وفتنتهم واختلافهم ، لأنهم يتكلمون فيما لايدركون تحديده ، ولا يقدرون على معرفة كنهه . ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التفكر في ذات الله ، وأمر بالتفكير في مخلوقاته [٤] . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي

---

١ سورة النمل الآية رقم ٦٠ ، ٦١ .

٢ انظر ـ محمد الامين الشنقيطي ـ المصدر السابق ص ٣٧٦ الجزء الثالث .

٣ والانسان مثلا ينتفع بكثير من الاشياء ولا يعلم حقائقها . فالكهرباء والمغنطيس وغيرهما قوى نستخدمها وننتفع بها ولا نعلم شيئا عن حقيقتها . ولا يستطيع أكبر عالم الآن أن يفيد عنها بشئ . على أن معرفة حقائق الأشياء وذواتها لا يفيدنا بشئ . ويكفينا أن نعرف من خواصها مايعود بالفائدة علينا . فاذا كان هذا شأننا في الأمور التي نلمسها ونحسها فما بالنا بذات الله تبارك وتعالى ؟!

٤ والنهي عن التفكر في ذات الله هنا ، ليس حجرا على الفكر ، ولا جمودا في البحث ولا تضييقا على العقل ، ولكنه عصمة له من التردي في مهاوي الضلالة ، وابعادا له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ، ولا تحتمل قوته ، مهما عظمت ، علاجها فمن أراد معرفة الله وتقديره سبحانه حق قدره فليقصر همته في ادراك عظمته جل وعلا من خلال التفكير في مخلوقاته ، والتمسك بلوازم صفاته .

صلى الله عليه وسلم : (تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله ، فانكم لن تقدروا قدره) [١] .

ولأن عقول البشر قاصرة عن معرفة كنه ذات الله ، فان الخالق المتصرف جل وعلا تعرف الى خلقه بأسماء وصفات تليق بجلاله ، يحسن بالموءمن التوجه اليها وحفظهاوتعظيم الله بها [٢] . ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لله تسعة وتسعون اسما ، مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة) . قال البخاري رحمه الله : (أحصيناه – حفظناه) [٣] . وفي رواية البخاري (وهو وتر يحب الوتر) وأسماء الله التسعة والتسعون المشار اليها في الحديث المتقدم ، منها علم واحد وضع للذات القدسية وهو لفظ الجلالة (الله) وباقيها كلها ملاحظ فيها معنى الصفات ، ولهذا صح أن تكون أخبارا للفظ الجلالة . فاسم الذات هو هذا الاسم وبقية الأسماء وصفية لصفات الله [٤] .

---

١ رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب
٢ انظر – حسن البناء (الشهيد) – كتاب العقائد – (مجموعة الرسائل) – ص ٤٧١–٤٧٤ – طبعة موءسسة الرسالة بيروت .
٣ رواه البخاري – في كتاب التوحيد – باب ان لله مائة اسم الا واحدا (ص ١٦٩) – الجزء الثامن – وانظر الجزء السابع كتاب الدعوات ص ١٦٩ . والحديث رواه الترمذي الحديث رقم ٣٥٠٢ وزاد : (هو الله الذي لا اله الا هو ، وذكر أسماء الله الحسنى تسعة وتسعين اسما) . وهذه التسعة والتسعون ليست كل ماورد في أسماء الله تبارك وتعالى ، بل وردت الأحاديث بغيرها مثل (الحنان – والمنان والبديع والمغيث والخلاق ...) انظر الترمذي – في الدعوات الأحاديث رقم (٣٤٧١) ورقم (٣٥٣٨) وفي ذكر اسم الله الأعظم واسمائه الحسنى – جامع الأصول ج ٤ ص (١٦٩–١٧٢) واسم الله الأعظم الذي اذا سئل به أجاب غير متعين على الصحيح ، وانما هو دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى اذا دعا به الانسان مع توفر شروط الدعاء المطلوب شرعا ، استجاب الله له . أما مايدعيه بعض الناس من أنه سر من الأسرار يمنح لبعض الأفراد فيفتحون به المغلقات ويخرقون به العادات ويكون لهم من الخواص ماليس لغيرهم فلم يرد به كتاب ولا سنة وانما هو ادعاء بغير دليل شرعي .
٤ حسن البنا – مجموعة الرسائل – كتاب العقائد ص ٤٧٩ .

وقد أشارت آيات القرآن الكريم الى بعض الصفات الواجبة لله تعالى والتي يقتضيها كمال الألوهية ، وتقدم ذكر طائفة منها عند الكلام على توحيد الالوهية والربوبية . ثم انه وردت آيات في القرآن الكريم ، وأحاديث في السنة المطهرة توهم ظاهرها مشابهة الحق تبارك وتعالى لخلقه في بعض صفاتهم ، اختلف بسببها الناس ، وطال الجدل بين المسلمين في الماضي ومازالت آثاره باقية الى هذا العصر حيث عمد علماء العقائد الى اثبات صفات الله تبارك وتعالى بأدلة عقلية ، وأقيسة منطقية ، لدرء الشبهات والأباطيل التي لحقت لمعاني تلك الصفات بسبب جدل المتكلمين فيها . ولكن الأمر أوضح من ذلك لأن اثبات صفات الكمال المطلق لله تعالى واثبات وجود الخالق تبارك وتعالى صار في حكم البدهيات التي لا يحتاج اثباتها الى دليل أو برهان – ولا يطالب بالدليل عليها الا كل مكابر مريض القلب لا يجديه الدليل ولا تنفعه حجة . وقد ورد في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لايزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا : خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجدمن ذلك شيئا . فليقل : آمنت بالله) [1] . فالرسول صلى الله عليه وسلم ينهى صراحة البحث في ذات الله تبارك وتعالى لأن عقول البشر تعجز عن ادراك حقيقة نفسها ، فكيف تدرك حقيقة ذات الله تبارك وتعالى [2] .

وفيما يلي نماذج من آيات الصفات التي شار حولها الجدل :

(١) قال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) [3] – ومثلها كل آية ورد فيها لفظ الوجه مضافا الى الحق تبارك وتعالى .

(٢) وقال تعالى : (ولقد مننا عليك مرة آخرى . أذ أوحينا الى امك مايوحى أن اقذفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي

---

١ صحيح مسلم شرح النووي ج ١ ص ٨٤ .

٢ حسن البنا – المصدر السابق ص ٥٠٧–٥١٥ .

٣ سورة الرحمن الآية رقم ٢٧ .

وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني)[١] . وقال تعالى مخاطبا نوحا عليه السلام :(واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون)[٢] ـ ومثلها كل آية وردت فيها لفظ العين مضافا الى الله تبارك وتعالى.

(٣) وقال تعالى في أصحاب بيعة الرضوان : (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ...)[٣] وقال عز وجل :(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ، ولعنو بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)[٤] .

(٤) وقال تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[٥] . ومثلها كل آية نسب فيها الاستواء على العرش الى الله تبارك وتعالى .

وكذلك جميع الآيات الواردة في القرآن الكريم في نسبة النفس والروح والجهة لله تبارك وتعالى .

وقد وردت في الأحاديث الشرعية ألفاظ كالتي وردت في الآيات السابقة منسوبة الى الله تبارك وتعالى كالوجه واليد ونحوهما ـ فنكتفي بالآيات عن ذكرها ، ونورد بعض الأحاديث التي وردت فيها ألفاظ أخرى من هذا القبيل منسوبة الى ذات الله تبارك وتعالى[٦]:

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعا ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على اولئك ـ نفر من الملائكة جلوس ـ فاستمع مايحيونك فانها تحيتك ، وتحية ذريتك . فقال : السلام عليكم . فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوه ورحمة الله . وكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن)[٧] .

---

١ سورة طه الآية رقم٣٩.
٢ سورة هود الآية ٢.
٣ سورة الفتح الآية ١٠.
٤ سورة المائدة الآية ٦٤.
٥ سورة طه الآية ٥.
٦ انظر حسن البنا المصدر السابق ص ٥١٤-٥١٩.
٧ رواه البخاري باب

(٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع ربّ العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها الى بعض [١] ، وتقول : قط قط [٢] بعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الله) [٣] .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لله أشد فرحا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته اذا وجدها) [٤] .

وقد انقسم الناس في اثبات صفات الله تعالى ، التي وردت بالآيات والأحاديث المتقدمة على أربع فرق :

(١) فرقة أخذت بظواهرها كما هي، فنسبت الى الله وجها كوجوه الخلق ، ويدا أو أيديا كأيديهم ، وضحكا كضحكهم . وهكذا حتى فرضوا الاله شيخا ، وبعضهم فرضه شابا ، وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة . وليسوا من الاسلام في شئ . وليس لقولهم نصيب من الصحة لتعارضه مع قوله تعالى : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) [٥] وآيات التوحيد الأخرى مثل سورة الاخلاص [٦] .

(٢) فرقة عطلت معاني هذه الألفاظ على أيّ وجه ، يقصدون بذلك نفي مدلولاتها مطلقا عن الله تبارك وتعالى . فالله تبارك وتعالى عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، لأن ذلك لا يكون الا بجارحة ، والجوارح يجب أن تنفى عنه سبحانه ، فبذلك يعطلون صفات الله تبارك وتعالى ، ويتظاهرون بتقديسه . وهؤلاء هم المعطلة . ويطلق عليهم الجهمية نسبة الى رأسهم الجهم بن صفوان . وهذا قول باطل أيضا لأنه ثبت الكلام والسمع والبصر لبعض الخلائق بغير جارحة معلومة لدينا . فكيف

---

١ (فينزوى بعضها الى بعض) : أي ينقبض بعضها الى بعض .
٢ (وتقول قط قط) : أي تقول حسبي ، حسبي .
٣ رواه البخاري .
٤ رواه البخاري .
٥ سورة الشورى الآية رقم ١١ .
٦ حسن البنا – المصدر السابق ص ٥٢١ . وانظر عمر سلمان الأشقر العقيدة في الله ص ١٩٠–١٩١ .

يتوقف كلام الحق تبارك وتعالى على الجوارح ؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[1].
هذان رأيان باطلان لاحظ لهما من النظر، وبقي رأيان هما محل أنظار في العقائد وهما رأي السلف ، ورأي الخلف :

(٣) أما السلف رضوان الله عليهم، فيؤمنون بآيات الصفات وأحاديثها كما وردت ، ويتركون المقصود منها لله تبارك وتعالى مع اعتقادهم بتنزيه الله تبارك وتعالى عن المشابهة لخلقه [2] .

(٤) أما الخلف فقد قالوا (اننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لايراد بها ظواهرها ، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها ، فأخذوا يؤولون الوجه بالذات واليد بالقدرة ... الخ هربا من شبهة[3] التشبيه)[4] .

---

١ حسن البنا المصدر السابق ٥٢٢. وانظر عمر سلمان الأشقر المصدر السابق ص ١٩١.
٣،٢ حسن البنا - المصدر السابق ص ٥٢٣.
٤ وفي بيان الأقوال الزايفة في الكلام عن أسماء الله وصفاته قال الشيخ عمر سلمان الأشقر مايلي :
(المكذبون بأسماء الله وصفاته ، والمشبهون صفاته بصفات خلقه ، والنافون لأسمائه وصفاته - ضلالهم واضح ، اذ هم مشاقون لله ورسوله ، مكذبون للكتاب والسنة، وأمرهم معلوم لا يحتاج الى بيان - أما الذين يحتاج الى كشف ما في مقالتهم من زيف فهم أهل الكلام الذين يزعمون انهم ينزهون الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، وبهذا ينفون صفات الله تعالى التي وردت في كتاب الله ، بحجة أنها توهم التشبيه ، ويلجأون في سبيل ذلك الى تأويل هذه الصفات تأويلا يصرفها عن معانيها الحقة) .
ثم قال الشيخ عمر الاشقر وقد (حاول بعض المعاصرين كالشيخ حسن البنا والشيخ حسن أيوب وغيرهما أن يهونوا من خطيئة هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلف) ، وان يقربوا وجهة نظر السلف والخلف ، ولكن الحقيقة التي يجب أن تظهر وتدرك ان مذهب الخلف الزاعمين أن ظاهر الصفات غير مراد المؤولين لها - مذهب بعيد عن الصواب ، ولا لقاء بينه وبين مذهب السلف ، ولا يشفع لهم حسن نيتهم ، فحسن النية لا يجعل الباطل حقا) . انظر عمر سلمان الاشقر - المصدر السابق ص ١٩١-١٩٤ . وانظر حسن البنا - كتاب الرسائل :- (وخلاصة هذا البحث أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق ، وهو تأويل في الجملة واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز ، فانحصر الخلاف في تأويل بما يجوز في =

وعن المنهج الصحيح لفهم أسماء الله وصفاته ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : انالقران العظيم دل على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس من جاء بها كلها فقد وافق الصواب وكان على الاعتقاد الذي عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالح ، ومن أخذ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضل . وذكر أن كل الأسس الثلاثة يدل عليها القرآن العظيم :

الأساس الأول : تنزيهه – جل وعلا – عن أن يشبهه بشئ من صفاته شيئا من صفات المخلوقين[1].
وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى (ليس كمثله شئ) [2] . وسورة الاخلاص .

الأساس الثاني : الايمان بما وصف الله به نفسه ، لأنه لم يصف الله أعلم بالله من الله[3].
وذكر قوله تعالى (أأنتم أعلم أم الله) [4] . والايمان بما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم – الذي قال الله تعالى في حقه : (ماينطق عنالهوى ، ان هو الا وحي يوحى)[5] .

وقال الشيخ الشنقيطي : (وحيث أخل المكلف بأحد هذين الأصلين وقع في هوة ضلال ، لأن من تنطع بين يدي ربّ السموات والأرض وتجرأ على الله بهذه الجراة العظيمة بأن نفى عن ربّه وصفا أثبته لنفسه ، فهذا ضال فالله جل وعلا يثبت لنفسه صفات كمال وجلال. فكيف يليق بمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي ربّ السموات والأرض ويقول : هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك ، ويلزمه من النقص كذا ، فأنا أؤوله وألقيه ، وآتي ببدله من تلقاء نفسي من غير استناد الى كتاب وسنة . سبحانك هذا بهتان عظيم" . وأضاف رحمه الله : "ومن

= الشرع وهو هين كما ترى ...) ص ٥٣٢–٥٣٣ ، وهذا القول هو ما أشار اليه الشيخ عمر الأشقر والذي نقلنا عنه قوله . وهذا القول الذي ذكره فضيلته يوافق ماذهب اليه العلامة الشيخ محمد الأمين اشنقيطي رحمه الله في كتابه منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات . وفي تفسيره – أضواء البيان الجزء الثاني والثالث .

١ انظر محمد الأمين الشنقيطي أضواء البيان في تفسيرالقرآن – الجزء الثاني ص ٢٧٢–٢٧٣ – وانظر عمر الأشقر المصدر السابق ص ١٨٧–١٨٨.
٢ سورة الشورى الآية ١١.
٣ انظر محمد الأمين الشنقيطي المصدرالسابق ص ٢٧٢–٢٧٣ – وعمرالاشقرالمصدرالسابق ص ١٨٧–١٨٨.
٤ سورة البقرة الآية ١٤٠.
٥ سورة النجم الآية ٤.

ظن أن صفة خالق السموات والأرض تشبه شيئا من صفات الخلق فهو ضال جاهل . ومن آمن بصفات ربه جل وعلا ـ منزها ربه عن مشابهة صفاته لصفات الخلق فهو موءمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل" . وقال رحمه الله : (وهذا التحقيق هو مضمون قوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) . فهذه الآية فيها تعليم يحل جميع الاشكالات ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع . ذلك لأن الله قال : (وهو السميع البصير) بعد قوله (ليس كمثله شئ) . ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات وكأن الله يشير للخلق ألا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره ، بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر ، وان ذلك تشبيه . بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ليس كمثله شئ . فالله سبحانه جل وعلا ـ له صفات لائقة بكماله وجلاله ، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم وكل هذا حق ثابت لا شك فيه . ان صفة ربّ السموات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين" [١] .

ويقول رحمه الله "فينبغي للناظر في أسماء الله وصفاته التأمل في أمرين :

الأمر الأول : أن جميع الصفات من باب واحد ، لأن الموصوف بها واحد ، ولا يجوز في حقه مشابهة الحوادث في شئ من صفاتهم . فمن أثبت مثلا انه (سميع بصير) وسمعه وبصره مخالفا لاسماع الحوادث وأبصارهم لزمه مثل ذلك في جميع الصفات كالاستواء واليد ونحو ذلك من صفاته جل وعلا ولا يمكن الفرق بين ذلك بحال .

الأمر الثاني : ان الذات والصفات من باب واحد أيضا فكما انه جل وعلا له ذات مخالفة لجميع ذوات الخلق ، فله سبحانه صفات مخالفة لجميع صفات الخلق) [٢] .

الأساس الثالث : قطع الأطماع عن ادراك حقيقة الكيفية ، لأن ادراك حقيقة الكيفية مستحيل . وهذا نص الله عليه في سورة طه حيث قال : (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما) [٣]. وبعد أن ذكر جملا من كلام النحويين وعلماء البلاغة

---

١ انظر محمد الأمين الشنقيطي ـ أضواء البيان الجزء الثاني ص ٢٧٣ .
٢ انظر محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٨٥ من الجزء الثالث .
٣ سورة طه آية ١١٠ .

عن الفعل المضارع (يحيطون) – قال رحمه الله . فقوله (يحيطون) يعني لا احاطة للعلم البشري برب السموات والأرض . فينفي جنس أنواع الاحاطة عن كيفيته . فالاحاطة المسندة للعلم منفية عن ربّ العالمين . قال الشيخ عمر الأشقر : "وهذا الذي ذكره الشيخ العلامة من استحالة معرفة كيفية الله أو صفاته هو الصواب لأن العقل الانساني مهما بلغ من الذكاء وقوة الادراك قاصر غاية القصور، وعاجز نهاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء" [١] .

"ان الانسان عاجز عن معرفة حقيقة الروح التي تتردد بين جنبيه ، وعاجز عن معرفة حقيقة الضوء الذي هو من أظهر الأشياء – وعاجز عن ادراك حقيقة المادة وحقيقة الذرات التي تتألف منها المادة ، فكيف يطمع في معرفة حقيقة الذات والصفات الالهية ؟!" [٢] .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى : (وجماع القول في اثبات الصفات هو القول بما كان عليه سلف هذه الأمة وأئمتها ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، ويصان ذلك عن التحريف والتمثيل والتكييف والتعطيل، فان الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . فمن نفى صفاته كان معطلا . ومن مثل صفاته بصفات مخلوقاته كان ممثلا ، والواجب اثبات الصفات ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات ، اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل . كما قال تعالى : (ليس كمثله شيء) فهذا رد على الممثلة ، (وهو السميع البصير) رد على المعطلة . فالممثل يعبد صنما ، والمعطل يعبد عدما) [٣] – تعالى الله عن كل ذلك علوا كبيرا.

---

١ انظر عمر سلمان الاشقر العقيدة في الله ص ١٨٩-١٩١.
٢ عمر سلمان الاشقر – العقيدة في الله ص ١٩٠.
٣ ابن تيمية – الفتاوى الجزء السادس ص ٥١٥.

المقصد الثاني : الايمان بالواسطة (أي الايمان بالرسل)

الايمان بالرسل جزء من عقيدة المؤمن لا يتجزأ بحيث لا تصح عقيدة المؤمن ولا تكتمل الا به . والايمان بالرسل هو أن يؤمن المرء بكل نبي[1] ورسول[2] عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي [3] . فمن عرفهم عن طريق الوحي الالهي بأسمائهم آمن بهم واحدا واحدا، ولا يؤمن برسالة بعض ويكفر برسالة بعض ، إذ الكفر بواحد منهم يعتبر كفرا بجميعهم[4] لقوله تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ،أولئك هم الكافرون حقا)[5] وقد قص الله تعالى أخبار خمسة وعشرين رسولا بأسمائهم في القرآن الكريم [6] . ولم يرد

١،٢ النبوة الشرعية ـ هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته والاعلاء من شأنه ، بانبائه بالوحي الذي أراده له ، أو له ولغيره . ولهذا فالنبي هو كل ذكر من بني آدم ، أوحى الله تعالى اليه ، فان أمره بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول . وان لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول . وعلى هذا فكل رسول نبي وليس كل نبي برسول، ومثال النبي غير الرسول ـ يوشع بن نون صاحب موسى وفتاه . انظر عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري (ص ٢٧٠) .

٣ الوحي : الوحي في الشرع هو مايوحى به الله تعالى من كلماته الصادقة في أخبارها وأحكامها بطريق من طرق الوحي الثلاث :

أ ـ الوحي المباشر ـ وهو أن يعد الله قلب العبد اعدادا خاصا بتصفيته من الكدورات والرغوبات النفسية ، ثم يلقى الى صاحبه بكلماته التي أراد أن يوحي بها اليه ، فيتلقاها النبي ويعيها وعيا كاملا صحيحا وهو جازم بأنها كلام الله تعالى ووحيه اليه .

ب ـ أن يخاطب الله تعالى من أعده لذلك من أنبيائه ورسله ، فيسمعه كلامه المباشر مع القرب وبدونه ، ولكن من وراء حجاب ، فيسمع النبي الكلام ولا يرى المتكلم ،وقد تم هذا للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء والمعراج ، اذ عرج به صلى الله عليه وسلم حتى بلغ سدرة المنتهى وكلمه ربه وفرض عليه الصلوات الخمس ، كما تم التكلم من وراء حجاب لموسى عليه الصلاة والسلام ، وكان بجبل الطور من سيناء ، حيث ناداه بالواد المقدس طوى ، ونباه وأوحى اليه وأرسله الى فرعون وملائه . فقد سمع موسى كلام الله ، ولم ير الله جل وعلا ـ قال موسى : (رب ارني انظر اليك) فقال تعالى : (لن تراني ...) سورة الأعراف الآية ١٤٣) وأقنعه بعجزه عن الرؤية لله تبارك وتعالى . فأمره أن ينظر الى الجبل وقد تجلى له ، فصار دكا ، فنظر موسى الى الجبل ، فلم يقو على رؤيته ، فخر مغشيا عليه ، فلما أفاق تاب الى الله مما قال .

حـ ـ أن يوحي الله تعالى الى من اصطفى من رسله بواسطة ملك يرسله اليه ، وكان جبريل عليه السلام موكلا بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي صحبه في اسرائه ومعراجه .

٤ انظر أبو بكر الجزائري ـ عقيدة المؤمن (ص ٢٧٠).

٥ سورة النساء الآية رقم (١٥٠-١٥١).

٦ انظر القرآن الكريم ـ ذكر منهم ثمانية عشر رسولا في سورة الأنعام الآيات (٨٣-٩٠)، وذكر السبعة الباقون في سورة آل عمران الآية ٣٣ ـ وسورة هود الآية ٥٠ و٦١ و٨٤ ، وسورة الأعراف الآيات ٦٥ و٧٣ و٨٥ .وسورة الأنبياء الآية ٨٥ و٨٦ ،وسورة الأحزاب الآية ٤٠ .

نص قاطع في ترتيب وجود الرسل المشار إليهم في الآيات القرآنية إلا مايفهم من بعض الآيات من تقديم بعض الرسل على بعض . وقد ذكر الشيخ عبدالوهاب النجار[1] ترتيبهم على النحو التالي : آدم ، ادريس ، نوح ، هود ، صالح ، ابراهيم ، لوط ، اسماعيل، اسحاق، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ، أيوب ، يونس ، الياس، اليسع ، ذو الكفل ، زكريا ، يحي ، عيسى ، محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين [2] .

والايمان بالرسل ضروري ، لا يتوقف على نظر ولا دليل بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى ، لأن الله هو الذي نبأهم وأرسلهم وأخبر عنهم ، وأمر بالايمان بهم وتصديقهم . والايمان بالله تعالى مستلزم للايمان بكل ما أمر الله بالايمان به من الملائكة [3] والكتب [4]

---

١ في كتابه قصص الأنبياء ص ٣٠٩ ورد في الجزء السابع من تفسير القرطبي ص ٣٣ أن الرسولين الكريمين الياس واليسع متقدمان في الوجود على الرسل ، زكريا ويحي وعيسى. انظر البحث القيم لفضيلة الشيخ عبدالحميد السائح - عقيدة المسلم ،في باب النبوات ص ١٩٨-٢١٧ .

٢ عبدالحميد السائح - عقيدة المسلم ومايتصل بها ص ٢٠٦-٢٠٧ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨ مطابع وزارة الاوقاف والشئون الدينية - عمّان .

٣ الملائكة : الايمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الاسلامية لقوله تعالى (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) سورة النساء الآية ١٣٦ . وكما ورد في حديث جبريل المشهور حيث ذكر أركان الايمان ومن بينها الايمان بالملائكة . ولهذا كان الايمان بالملائكة ركنا من أركان عقيدة المؤمن التي لا تتم الا به ،وكان من شك فيه ، أو حاول التشكيك كاذبا كافرا لا حظ له في الاسلام . والملائكة خلق كثير، لا يأتي عليه العد ولا يحصيه من دون الله أحد ، خلقهم الله من النور ، وطبعهم على الخير ، فهم لايعرفون الشر ، ولا يأمرون به ولا يأتونه ولا يفعلونه (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ولايسأمون من عبادته ولا هم يستكبرون . وقد خلقت الملائكة من نور كما خلق الجان من مارج من نار وخلق الانسان من صلصال كالفخار . والملائكة يتفاضلون في القرب من الله وعلو المنزلة كالبشر أو أكثر ، فمنهم الملائكة المقربون ومنهم حملة العرش ومنهم الحفظة والكرام الكاتبين والملائكة السياحون وملائكة الدعاء وملائكة العروج ... الخ . وأفضل الملائكة على الاطلاق جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ملك الموت . والملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض لذلك وجب الايمان بهم دون البحث عن أصلهم والكلام فيهم وفي كنههم . انظر أبوبكر الجزائري عقيدة المؤمن لمزيد من التفصيل ص ١٩٢-١٩٨ .

٤ الايمان بالكتب : ومعنى الايمان بالكتب : التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخالص الى من اصطفى من رسله عليهم السلام فجمع ودوّن فكان صحفا مطهرة وكتبا قيمة . والقرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يرجع اليه في معرفة الكتب السماوية ، اذ هو الكتاب المحفوظ حفظا لا يتطرق اليه معه الزيادة ولا النقص ولا التحريف ولا التغيير أو التبديل . وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة صحف ابراهيم وصحف موسى وثلاثة كتب هي توراة موسى ، وزبور داود وانجيل عيسى - عليهم السلام . وهذه الكتب المذكورة يجب على المؤمن الايمان بها تفصيلا كما ذكرت مفصلة . ثم عليه أن يؤمن بباقي كتب الله التي لم تذكر في القرآن مفصلة ، حيث لم يرد في القرآن ذكر أسمائها وأسماء من نزلت عليهم وانما نزلت مجملة في قوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا =

والرسل ،والبعث والجزاء ،والقدر والقضاء ، وبكل غيب أمر الله تعالى بالايمان به ، فيكفي الموءمن دليلا أن يبلغه خبر الله ، وأمره بالايمان بالرسل[1] كقوله تعالى (قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ،وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق،ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [2] . فعلى الموءمن آلا يفرق بين رسول ورسول منهم ، كما فعل اليهود والنصارى، حيث آمن اليهود بأنبياء بني اسرائيل وكفروا بعيسى ابن مريم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء وكفروا بخاتم الأنبياء وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كفر الله ، وتوعد بالعذاب من يوءمن ببعض الرسل ، ويكفر ببعض كما في الآيات السابقة من سورة النساء [3] . ونظرا لأن الله تعالى قد نسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه لم يبق هناك مايلزم الموءمن إزاء أولئك الرسل سوى الايمان بأنهم ممن اصطفاهم لهداية أقوامهم ، وأنه يجب الإعتقاد بأنهم من أكرم البشر ، وأعظمهم شأنا عند الله العظيم ، وبأنهم معصومون من الكذب والخيانة وكتمان الحق والبلاهة وكل صفة ذميمة [4] .

= بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) سورة الحديد الآية ٢٥ والايمان بالكتب واجب شرعا ، ويقتضي الايمان بالقرآن على وجه الخصوص لأنه أكمل كتاب ولأنه ناسخ لكل ماسبقه من الكتب ولأنه آخر الكتب ومتضمن رسالة عامة لكل العالمين ، ولأن الكتب السماوية الأخرى قد داخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان فهي لذلك لاتمثل حقيقة كتب الله ولا تحمل الهدى والنور والرحمة والموعظة لأهلها فضلا عن غيرهم من البشر . وقد اقتضت حكمة الله أن يحدد للناس عهد النبوة فبعث خاتم النبيين وأنزل كتاب الله الجامع (القرآن الكريم) فنسخ به سائر الكتب وضمنه هداية الثقلين الانس والجن وجعله مهيمنا للكتب ومصدقا لها وأرسل محمدا صلى الله عليه وسلم للبشر كافة . انظر الآية ١٠٥ النساء .

١ أبوبكر الجزائري - عقيدة الموءمن ص ٢٧١.

٢ سورة البقرة الآية رقم ١٣٦.

٣ الآية ١٥٠-١٥١ النساء.

٤ انظر أبوبكر الجزائري - المصدر السابق ص ٣٠٦-٣٠٧

ثم إن الله تعالى قد ختم النبوات بآخر نبوة ، وهي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى : (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليما) [١] . فلم يبق لأحد من مطمع في أن يدعى النبوة ويوءتاها بعد محمد صلى الله عليه وسلم . ومن ادعى ذلك فقد كذب على الله وعلى خلقه ، ولن يلبث طويلا حتى يفتضح أمره كما حدث لمسيلمة الكذاب [٢] ، وغلام أحمد القادياني [٣] صاحب مذهب القاديانية .

ولهذا كان الايمان بمحمد ورسالته والعمل بما جاء فيها ضروريا للوقاية من عذاب يوم القيامة ، وللفوز بالنعيم المقيم فيه . وأيما عبد لا يوءمن بهذه الرسالة ولايعمل بمحتواها في حدود طاقته ومايستطيع إلا وهو من أهل الخسران يوم القيامة ، ولا ينفعه إيمان بالله ولا بأنبيائه ، وذلك لعدم عمله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته وهي الفوز بالجنة بعد النجاة من النار ، بمن آمن به واتبعه فيما جاء به صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويوءتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يوءمنون . الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ، ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) [٤] .

---

١ سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

٢ هو مسيلمة بن حبيب (الحنفي) الكذاب ـ قال ابن هشام : مسيلمة بن ثمامة ويكنى أبا ثمامة . قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم على وفد بني حنيفة . قال ابن اسحاق: وقد حدثني شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ، وخلفوا مسليمة في رحالهم . فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فأعطاه مثل ما أعطاهم ، ثم انصرفوا عن رسول الله ، فلما انتهوا الى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم . وقال اني قد أشركت في الأمر معه ، ثم جعل يسجع لهم الأساجيع ليضاهي بها القرآن . ومع ذلك كان يشهد أن محمدا نبي ـ وقد ارتدت معه بنو حنيفة . قتل في عهد أبي بكر رضي الله عنه ـ قتلته جيوش خالد بن الوليد الذي تولى تأديب المرتدين ـ انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٣ .

٣ ولد غلام أحمد في قرية قاديان احدى قرى البنجاب الهندية عام ١٨٣٩م من أسرة مغولية فارسية ـ ادعى النبوة وادعى بأنه المهدي المنتظر ثم ادعى سنة ١٨٩١ انه المسيح الموعود. وكان يناصر الانجليز على المسلمين لذلك ادعى انه نسخ الجهاد الذي شرع الاسلام وان الواجب على كل مسلم أن يسالم الانجليز . استمر في دعوته حتى في لاهور سنة ١٩٠٨ ودفن في قاديان في مقبرة سماها مقبرة الجنة . (انظر كتاب الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ـ عبد القادر شيبه الحمد ص ٨٦-٩٢) .

٤ سورة الأعراف الآية رقم

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على ختم النبوة به بالحديث الصحيح التالي : (إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، يقولون ، هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) [١] ومن أقوى الحجج العقلية على ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أنه مضى على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولم تأت نبوة حق ولا نبي صدق طيلة هذه الحقبة من الزمن ، في حين أنه كان قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تظهر النبوات في كل عصر ومصر [٢] ، وقد يوجد العدد من الأنبياء في الأمة الواحدة والبلد الواحد [٣] ، كما هو معلوم في التاريخ وفي جانبه الديني على الخصوص [٤] .

---

١ صحيح مسلم بشرح النووي ، المجلد الثامن – الجزء الخامس عشر ص ٥١ – طبعة دار الفكر

٢و٣ كما وجد داود وسليمان عليهما السلام في عصر واحد ومصر واحد – وكما وجد زكريا ويحي وعيسى في بلد واحد وأمة واحدة – وبعث موسى وهارون الى أمة واحدة وفي عصر واحد ومصر واحد . والأمثلة على ذلك كثيرة . مثل وجود ابراهيم عليه السلام ولوط في عصر واحد ... الخ .

٤ انظر أبو بكر الجزائري – عقيدة المؤمن ص ٣٠٧–٣٠٨ .

المقصد الثالث : الايمان باليوم الآخر

اليوم الآخر هو آخر أيام الدنيا الذي يعقبه البعث ومايجري يوم القيامة من محاسبة ووزن للأعمال [1] . فالمراد باليوم الآخر أمران :

الأول : فناء هذه العوالم وانتهاء هذه الحياة بكاملها .

الثاني : إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها .

فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة ، وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثاني له البتة [2] .

والإيمان باليوم الآخر عبارة عن التصديق الجازم بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة ، وكل مافيها من حقائق غيبية فوق طاقة العقل البشري تصوره ، من بعث للخلائق ، وحشرهم [3] ، وحسابهم [4] ،

---

١ انظر عبدالحميد السائح ـ المصدر السابق ص ٢١٤.

٢ انظر أبو بكر الجزائر المصدر السابق ص ٣١١.

٣ الحشر : عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة ،وذلك للحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم على أعمالهم مصداقا لما في الحديث : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم لأحد) . صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٦ ـ ومعنى عفراء : بيضاء تميل الى الحمرة قليلا .(وقرصة النقى) : أي الخبز الأبيض السالم من الغش والنقى من النخالة (وانظر الحديث رقم ١٩٤٧ مختصر صحيح مسلم للمنذري ـ تحقيق ناصر الدين الألباني)

٤ الحساب : بعد أن يتم حشر الناس في عرصات القيامة ، يؤتى كل فرد من أفراد الناس كتابا يقرؤه ـ حيث يؤتى جميع الناس المقدرة على القراءة ، وبمجرد القاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه مصيره ويعلن على الفور عن فوزه وفرحه وسروره ، أو عن خيبته وحزنه وخسرانه وذلك مصداق قوله تعالى في سورة الانشقاق : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا) ـ (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا ، انه كان في أهله مسرورا انه ظن أن لن يحورا . بلى ان ربّه كان به بصيرا) سورة الانشقاق الآيات ٧ـ١٥ . وتختلف كيفية الحساب ، ففيه اليسر وفيه العسر ، وفيه التوبيخ وفيه العدل التام والفضل وفي هذا يقول جل وعلا (وكفى بنا حاسبين) الأنبياء الآية ٤٧.والمؤمن لا يناقش الحساب رحمة به وشفقة عليه ولأن من نوقش الحساب عذب .فقد ورد في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من نوقش عذب ، قلت ، أليس يقول الله ، (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا ..؟) فقال : انما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة الا هلك) . وانظر ابن كثير القرشي تفسير القرآن العظيم ـ المجلد الرابع ص ٤٨٨ ـ تفسير سورة الانشقاق . (والحديث من صحيح مسلم ج ١٦٤/٨) . وانظر حديث رقم ٢١٧٥ مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ـ تحقيق الشيخ الألباني .

ومجازاتهم [١] . ولقد عبر القرآن الكريم عن اليوم الآخر بألفاظ وعبارات مختلفة منها البعث ومنها المعاد ومنها القيامة والدار الآخرة وهي ألفاظ مختلفة ومدلولاتها واحدة ، وهي وجود حياة ثانية بعد فناء الأولى [٢] . والحياة الآخرة تبدأ بالبعث وهو إعادة الحياة للإنسان روحا وجسدا بعد الممات تماما كما كان في الدنيا ، واخراجه من القبر، وتسمى النشأة الأخرى . ولا يستطيع الانسان معرفة هذه النشأة الأخرى لأنها من عالم الغيب، ولأنها تختلف عن طبيعة النشأة الأولى التي تمر بأطوار معلومة للإنسان وفي وصف النشأة الأخرى يقول جل وعلا : (نحن قدرنا بينكم الموت ، ومانحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون – ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) [٣] وقد ذكر ابن كثير رحمه الله أن هذه الآيات جاءت مقررة للمعاد ورادة على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد من الذين قالوا : (أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) لأن قولهم صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد . فكأن الله تعالى يقول : إن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة – وقد علمتم ذلك – فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداءة قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى [٤] .

ويفهم مما ذكره ابن كثير أن حجج القرآن في إثبات البعث والمعاد حجج عقلية مقنعة ، لا يزيغ عن الأخذ بها الا هالك ، وتأكيدا لذلك نورد هذه الواقعة . فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العاص بن وائل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم ففتته ثم قال يامحمد : أيبعث هذا بعد ما أرم ؟! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ الجزاء : ويجرى الحساب والاستجواب في جو رهيب للغاية ، اذ تقوم الأشهاد، ولايؤذن للمرء في الاعتذار فيعتذر ولا يقبل من ظالم معذرة ، وتعرض الأعمال عرضا حيّا ناطقا فتشهد الألسن والأرجل وجميع الجوارح وتصدق ماحوت الكتب . ثم توضع الموازين العادلة الدقيقة وتحصر الأعمال كبيرها وصغيرها فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) الزلزلة (٧–٨) . ثم يجازي الله عباده عن السيئة بمثلها كما يكافىء على الحسنة بعشر أمثالها . انظر عبد الحميد السائح المصدر السابق ص٣٢٢–٣٢٤.

٢ أبوبكر الجزائري – المصدر السابق ص ٣٢٠.

٣ سورة الواقعة الآيات ٦٠–٦٢.

٤ انظر – ابن كثير القرشي – تفسير القرآن الكريم – الجزء الرابع ص ٢٩٥ – تفسير سورة الواقعة – طبعة دار المعرفة – بيروت سنة ١٣٨٨هـ .

نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم .وفي هذه الواقعة نزل قوله جل وعلا (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) [١] .

وقد قضت حكمة الله تعالى ، أن يخفى ميعاد ذلك اليوم ، حتى عن رسله وأنبيائه ولذلك ورد عن عمر رضي الله عنه الحديث المشهور بحديث جبريل قول جبريل عليه السلام (أخبرني عن الساعة) فقال النبي صلى الله عليه وسلم - (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) يعني أن علم الخلق كلهم في وقت الساعة سواء . وهذه إشارة إلى أن الله تعالى استأثر بعلمها . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مفاتح الغيب خمس لايعلمهن إلا الله ثم تلا قوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم مافي الأرحام ، وماتدري نفس ماذا تكسب غدا وماتدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) [٢] [٣] .

ثم حدثه [٤] رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض أمارات الساعة فقال عليه الصلاة والسلام : (أن تلد الأمة ربتها) قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرح الحديث "والمراد بربتها سيدتها ومالكتها - وهي إشارة إلى فتح البلاد وكثرة جلب الرقيق حتى تكثر السراري وتكثر أولادهن ، فتكون الأمة رقيقة لسيدها وأولاده منها بمنزلته ، فان ولد السيد بمنزلة السيد ، فيصير ولد الأمة بمنزلة ربها وسيدها" [٥] ونقل رحمه الله عن

---

١ قال ابن كثير رحمه الله - قيل نزلت الآيات من آخر سورة يس في العاص بن وائل، وذكر القصة المذكورة - وقيل نزلت في عبدالله بن أبي بن سلول - واستبعد أن تكون نزلت في ابن أبي لأن السورة مكية . قال وسواء نزلت فيهما أو في غيرهما فان الآيات عامة ترد على كل من أنكر البعث . (انظر ابن كثير . الجزء الثالث ص ٥٨١) . تفسير الآيات (٧٧-٧٩) من سورة يس .

٢ سورة لقمان الآية رقم ٣٤.

٣ صحيح البخاري - أبواب الاستسقاء - باب لا يدري متى يجيء المطر الا الله (الجزء الثاني ص ٤٣٥) . وانظر شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٦).

٣ يعني جبريل عليه السلام في تتمة الحديث المشهور السابق .

٤ ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ص ٣٧-٣٨ الناشر مكتبة الرسالة الحديث : عمان .

الامام أحمد رحمه الله قوله "أي تكثر أمهات الأولاد يقول إذا ولدت عتقت لولدها" [1] وعن وكيع قوله "أي أن تلد العجم العرب ، والعرب ملوك العجم وأرباب لهم" [2] وفي قوله صلى الله عليه وسلم (أن ترى الحفاة العراة العالة) قال ابن رجب "المراد بالعالة الفقراء" [3] وفي قوله صلى الله عليه وسلم (رعاء الشاة يتطاولون في البنيان) قال والمراد : "أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم ، وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفته وإتقانه ..... فإذا صار الأمر في الحفاة العراة رعاء الشاة وهم أهل الجهل والجفاء ، فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا . فإنه إذا كان رؤوس الناس من كان فقيرا عائلا فصار ملكا على الناس سواء كان ملكه عاما أو خاصا في بعض الأشياء ، فإنه لا يكاد يعطي الناس حقوقهم بل يستأثر عليهم بما استولى عليهم من المال ... فإذا كان مع هذا جاهلا جافيا فسد بذلك الدين لأنه لا همة له في إصلاح دين الناس ، ولا تعليمهم بل همته في جباية المال واكتنازه ، ولا يبالي بما أفسد من دين الناس ولا بمن أضاع أهل حاجتهم" [4] .

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر علامات الساعة وبيانها مجملا ومفصلا نذكر منها قوله تعالى : (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها ، فانى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) [5] . وقسم العلماء أمارات الساعة التي جاءت بها الآيات والأحاديث إلى قسمين : (أ) علامات الساعة الكبرى (ب) علامات الساعة الصغرى .

أما علامات الساعة الكبرى فهي التي إذا ظهرت منها علامة واحدة ، أغلق باب التوبة على الناس فلم يقبل إيمان عبد بعدها لم يكن قد آمن من قبل ، كما لم يقبل منه خير لم يقدمه قبل رؤية الآية وظهورها لقوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربّك ، يوم يأتي بعض آيات ربّك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) [6] .

١،٢ انظر المصدر السابق ص ٣٨.
٣،٤ انظر المصدر السابق ص ٣٨.
٥ سورة محمد الآية ١٨.
٦ سورة الأنعام الآية ١٥٨.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض) [1] .

وعلامات الساعة الكبرى إذا ظهرت منها آية واحدة تتابعت حتى لكأنها خرزات في خيط متى سقطت واحدة تتابع باقي الخرزات حتى تسقط عن آخرها في زمن وجيز محدود[2]. وأول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها [3] . وروى البخاري رحمه الله : (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس أجمعون ، لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) [4] وقد أخرج مسلم عن حذيفة بن أُسيد بن حضير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلع عليهم مرة وهم يتذاكرون عن الساعة ، وذكر لهم أن الساعة لن تقوم قبل روءية عشر آيات ، فذكر الدخان والدجال والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج [5] .

أما علامات الساعة الصغرى ، فهي العلامات التي تسبق ظهور علامات الساعة الكبرى وقد عد العلماء بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وانشقاق القمر آية له عليه الصلاة والسلام من أول اشراط الساعة الصغرى . أما بعثته صلى الله عليه وسلم فقد كانت شرطا من أشراط الساعة لأن نبوته ختم الله بها سائر النبوات فلا نبي بعده ، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة وفي الحديث : (بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار الى أصبعيه السبابة والوسطى وقرن بينهما) [6] . وأما انشقاق القمر فقد كان شرطا من أشراط الساعة ، لأن الله تعالى ذكره مقرونا بالأخبار باقتراب الساعة فقال تعالى : (إقتربت الساعة

---

١ صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٩.
٢ انظر أبوبكر الجزائري : المصدر السابق ص ٣٢٩.
٣ انظر سنن أبو داود الحديث رقم ٤٣١٠ باب امارات الساعة.
٤ رواه البخاري ج ٩ ص ١٩١.
٥ صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٩.
٦ انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٢٦١ وصحيح البخاري ج ٩ ص ١٩٠ والترمذي حديث رقم ٢٢١٤.

وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر) [١] . وقد انشق القمر فعلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين طلبت منه قريش آية تدل على نبوته ، فدعا الله ، فانشق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس على مرآى من أهل مكة وهم ينظرون [٢] .

أما انقراض الكون ، وانتهاء الحياة الأولى فيبدأ بأن يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الأولى ، فينفخ فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة ، فتنحل بها كل الروابط التي كانت تربط بين أجزاء الكون فترتج الأرض رجا عنيفا ، وتتزلزل زلزالا مروعا ، وتندك مع جبالها دكا فتصير هباء منبثا ، وتصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن،فتتناثر الكواكب ، وتنكدر الشمس ، ويذهب ضوء الكل، ويفقد كيانه ، فتنصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها . فإذا هي كالنحاس المذاب تماما ، وإذا العالم كله سديم وبخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له [٣].

والآيات التي تدل على صحة ماتقدم كثيرة نذكر منها قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ـ وإذا البحار فجرت) [٤] . وقوله جل وعلا : (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت) [٥] ويقول سبحانه : (إذا زلزت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها) [٦] . ويقول في فاتحة القارعة : (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش) [٧] ـ وقد ورد في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحب أن ينظر الى يوم القيامة فليقرأ قوله تعالى (إذا الشمس كورت) [٨] . وأورد ابن كثير

---

١ سورة القمر الآيات ١، ٢، ٣.
٢ ابن كثير ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١ تفسير سورة القمر.
٣ انظر ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير، الجزء التاسع، تفسير الآيات ١-٦ سورة التكوير ص ٣٧-٣٩. وانظر أبوبكر الجزائري ـ عقيدة المؤمن ص ٣٣٤.
٤ سورة الانفطار الآية ١-٣. وانظر تفسير السورة ابن الجوزي ، المصدر السابق ص ٤٦-٤٧.
٥ سورة التكوير الآية ١-٦.
٦ سورة الزلزلة الآية ١-٣.
٧ سورة القارعة الآية ١-٥.
٨ انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ـ الحديث رقم ٤٨١٦ ورقم ٤٩٣٤ ـ وانظر زاد المسير في علم التفسير المصدر السابق ص ٣٧.

القرشي في تفسيره عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سره أن ينظر الى يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ : (إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت) [1] وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول لله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة عرلا (غير مختونين) قلت : يارسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال صلى الله عليه وسلم ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) [2] .

أما الانسان الذي يزعم أنه سيد هذا الكون ، ويتطاول على خالقه جل وعلا بالجحود والنكران فانه حين يشاهد هذه الأهوال بعينه ، ويسمع دوي القارعة بأذنيه ، فإنه يفقد رشده ، ويصاب بذهول ، ويطير لبه ، ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراش في حمقه وقلة تعقله يترنح كالسكران من شدة الفزع والهول وماهو بسكران ولكنه اليقين من عذاب الله الذي ظنه سرابا كاذبا - ويشتد الهول على الانسان حتى تذهل كل مرضعة عما ترضع ،وتضع الحوامل لما في بطنها قبل موعدها لشدة الهول [3]. قال تعالى مصورًا هذا الموقف(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ،يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) [4]. قال أبو الفرج بن الجوزي في تفسيره [5] وفي وقت هذه الزلزلة قولان :

أحدهما : "أنها يوم القيامة بعد النشور وللاستدلال على وجه هذا القول ذكر ماروى أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم : قم فابعث بعث النار ، فيقول يارب : ومابعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار ، فحينئذ يشيب المولود ، وتضع كل ذات حمل

---

١ انظر ابن كثير القرشي = تفسير القرآن العظيم . الجزء الرابع . تفسيرسورة التكوير ص ٤٧٤. وانظر صحيح الترمذي الجزء ٢ ص ١٦٨.

٢ صحيح البخاري،جـ٩ ص ١٩٥ باب الحشر.وانظرالنسائي جـ١١٤/٤ في الجنائز ، باب البعث .

٣ أبوبكر الجزائري المصدر السابق ص ٣٣٤.وانظرابن كثيرتفسيرالقرآن العظيم جـ٣ص ٢٠١-٢٠٢.

٤ سورة الحج الآية رقم ١-٢.

٥ أبوالفرج بن الجوزي - زاد المسير في علم التفسير المجلد الخامس ص ٤٠٢-٤٠٤.

حملها)[1] . وقرأ الآية .. وقال السدى هذه الزلزلة تكون يوم القيامة"[2] . وقد إختار ذلك ابن جرير الطبري وغيره ، واحتجوا على ذلك بأحاديث [3] .

والثاني : "أنهاتكون في الدنيا قبل القيامة ،وهي من أشراط الساعة قاله علقمة والشعبي وابن جريج.

وروى أبو العاليه عن أبي بن كعب . قال : ست آيات قبل القيامة ، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك ، إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت ، واضطربت ، ففزع الجن إلى الانس،والانس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير ، والوحش ، فماج بعضهم في بعض ، فقالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحور ، فإذا هي نار تتأجج ، فبينما هم كذلك ، إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة ، والسماء إلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فماتوا [4] وقال مقاتل : هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى ، وذلك أن مناديا ينادي من السماء : ياأيها الناس أتى أمر الله ، فيفزعون فزعا شديدا ، فيشيب الصغير ، وتضع الحوامل" [5] ... وقال الحسن : "تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ،وتضع الحامل مافي بطنها لغير تمام ، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا ، لأن بعد البعث لا تكون حبلى" [6] .

أما نشأة الحياة الثانية ، فان مرد معرفتها إلى أخبار الله تعالى في كتبه ، وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام ، والإيمان بأنها حق ، انه بعد فناء العالم بنفخة إسرافيل نفخة الفناء ، وهي النفخة الأولى – وبعد مضي أربعين سنة لا ندري هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا أو أيام شهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسي الذي كانت به أيامنا وأعوامنا هذه ؟! بعد مضي هذا الزمن ينزل من السماء ماء فتنبت الأجسام تحت

---

١ صحيح البخاري جه/٢٤١ ،كتاب التفاسير- تفسير سورة الحج – وهذا جزء من الحديث المروي في البخاري

٢ انظر ابن الجوزي المصدر السابق ص ٤٠٣.

٣ انظر ابن كثير القرشي – تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٢٠٤-٢٠٥ عند تفسير آية سورة الحج المذكورة . فقد ذكر رحمه الله الأحاديث التي تدل على أن الزلزلة تكون يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور.

٤ رواه ابن جرير الطبري ج ٦٣/٣٠ – عند قوله تعالى (واذا النجوم انكدرت) – وذكره ابن كثير ج٤/ص ٤٧٥.

٥،٦ انظر ابن الجوزي المصدر السابق ص ٢٠٥.

الأرض كما ينبت البقل ، وذلك تفاعل الماء مع ندرة الحياة التي هي عبارة عن عظيم صغير ، يوجد في آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد في هذه الحياة الدنيا يسمى عجب الذنب [١] . فقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مابين النفختين أربعون، قالوا ياأباهريرة : أربعون يوما ؟ قال: أبيت. قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) [٢] . قال النووي رحمه الله ـ ومعنى أبيت أي أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا .بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة وقد جاءت من رواية غيره في غير مسلم أربعون سنة [٣] .

فاذا تم الخلق واكتمل النمو ، وأصبحت الهياكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن تحلها الأرواح ، فتدب فيها الحياة ، كما كان أول مرة ، يرسل الله الخالق الأرواح التي قبضها ملك الموت من مستوعاتها لتدخل الأجسام التي هيئت لها فتحيا ، ثم ينادي مناد الله تبارك وتعالى أن قوموا لربكم ، فتسمع وتجيب ، وتنشق الأرض عنهم سراعا ، ويقومون من قبورهم أحياء للحشر بعد أن تم النشر [٤] . وهذا مصداق قوله تعالى : (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) [٥] .

---

١ عجب الذنب : قال النووي هو بفتح العين وإسكان الجيم أي العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب ـ قال : ويقال له عجم بالميم ـ وهو أول مايخلق من الآدمي وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه . ثم ذكر رحمه الله الحديث الذي ورد فيه لفظ عجم بالميم : (كل ابن آدم يأكله التراب الا عجم الذنب) . قال : هذا مخصوص ، فيخص منه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فان الله حرم على الأرض أجسادهم ـ كما صرح في الحديث . انتهى . انظر صحيح مسلم بشرح النووي المجلد الثالث الجزء ١٨ ص ٩١-٩٢ .

٢،٣ انظر صحيح مسلم بشرح النووي المصدر السابق نفس الصفحات المذكورة .

٤ ابوبكر الجزائري المصدر السابق ص ٣٣٧-٣٣٩.

٥ سورة ق الآيات ٤١-٤٤.

ومما يجب الايمان به من عقيدة الايمان باليوم الآخر ، الايمان بالجنة التي أعدها الله للمتقين ، والنار التي أعدها الله للعصاة والمجرمين من الكفار والملحدين وهما من عالم الغيب لايتم معرفتهما إلا بتصديق ماجاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة. وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن لايفنيان أبدا . وقد استدلوا على انهما مخلوقتنان بقوله جل وعلا : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يوءتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) [1]. وبقوله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث وفيه : فقالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت ؟ [2] فقال : إني رأيت الجنة ، وتناولت عنقودا ، ولو أصبته لأكلتم منه مابقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء . فقالوا بم يارسول الله . قال : بكفرهن . قيل أيكفرن بالله قال : يكفرن العشير،ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئا ، قالت : مارأيت خيراً قط) [3] .

أما أن الجنة والنار لا يفنيان أبدا ، ولا تبيدان فهو قول الجمهور من أئمة السلف والخلف وهو المشهور . وقال جماعة من السلف والخلف ببقاء الجنة أبدا وبفناء النار بعد انتهاء أمدها المقرر في علم الله [4] ، الا أن ظواهر نصوص القرآن تقضي بدوام النعيم لأهل الجنة ، والعذاب لأهل النار ، وذلك لأن كلا من الفريقين كان عازما

---

١ سورة الحديد الآية رقم ٢١ . وانظر من نصوص القرآن الكريم قوله تعالى عن الجنة : (أعدت للمتقين) آل عمران الآية ٣٣ . وقوله عز وجل (أعدت للكافرين) عن النار- سورة آل عمران آية ١٣١ - وعن النار أيضا - قال تعالى : (ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا) النبأ ٢١-٢٢، وعن الجنة قال تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) سورة النجم الآية ١٣-١٥.

٢ تكعكت : آخرت نفسك . ولمسلم في صلاة كسوف الشمس (رأيناك كففت نفسك) أي : منعتها

٣ صحيح البخاري ، كتاب النكاح - باب كفران العشير وهو الزوج وهو الخليط من المعاشرة ج ٦ ص ١٥١. وانظر مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري حديث رقم ٤٤٥ باب كسوف الشمس ص ١٢٠، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني الطبعة الثالثة - طبعة المكتب الاسلامي سنة ١٣٩٧هـ .

٤ انظر تحقيق ذلك في شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٠ . طبعة المكتب الاسلامي - الطبعة الأولى سنة ٩٢هـ - خرج أحاديثها الشيخ الألباني .

ومصمما على السير على طريقته ، ولو استمرت به الحياة ، فعامل ربّ العزة ، كلا منهما بما يستحق جزاءً وفاقا [1] .

---

١ انظر تحقيق خبر الجنة والنار وهل هما مخلوقتان لا تفنيان أبدا أم لا : والأقوال فيها في المراجع التالية : شرح العقيدة الصحاوية المصدر السابق ٤٧٦-٤٨٨٠ وانظر عبد الحميد السائح المصدر السابق ص ٣٣٠-٣٣٤٠

المبحث الثالث : أثر الايمان في بناء المسلم

(١) آثار الاقرار بلا إله إلا الله :

ذكر الداعية أبو الأعلى المودودي [١] ــ رحمه الله ــ تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلي :

١ــ إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر ، بخلاف من يقول بآلهة متعددة أو من يجحدها .

٢ــ إن الايمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس مالا يقوم دونه شيء، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله ، وهو المحي المميت . وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة . ومن ثمّ ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه ، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع اليه ،ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته لأن الله هو العظيم القادر وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد .

٣ــ ينشأ من الايمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها : تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ماعنده قادر على سلبه إيّاه إذا شاء . أما الملحد فانه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة .

٤ــ المؤمن بهذه الكلمة : يعلم علم اليقين أنه لا سبيل الى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح ، أما المشركون والكفار فانهم يقضون حياتهم على أماني كاذبة . فمنهم من يقول : إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا عند أبيه ، ومنهم من يقول : نحن أبناء الله واحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا. ومنهم من يقول : إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا واتقيائنا ، ومنهم من يقدم البذور والقرابين إلى آلهته زاعما أنه قد نال بذلك رخصة في العمل

---

١ انظر مبادئ الاسلام ص ٨٠-٨٧ ، الناشر موسسة الرسالة سنة ١٣٩٧هـ .

بما يشاء . أما الملحد الذي لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله ، وانما الهه هواه وشهوته وهو عبدها .

٥- قائل هذه الكلمة لا يتسرب اليه اليأس ، ولا يقعد به القنوط ، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض ، ومن ثمّ فهو على طمأنينة وسكينة وأمل ، حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش .

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه ، وهو يبذل جهده متوكلا على الله ، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة ، وسرعان مايدب لهم اليأس ويساورهم القنوط عند الشدائد مما يفضي بهم أحيانا الى الانتحار .

٦- الايمان بهذه الكلمة يربي على قوة عظيمة من العزم والاقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاء مرضاة الله . إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض ، فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصور ، كالجبال الراسية ، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟

٧- هذه الكلمة تشجع الانسان وتملأ قلبه جراءة ، لأن الذي يجبن الانسان ويوهن عزمه شيئان : حبه للنفس والمال والأهل ، أو اعتقاده أن هناك أحدا غير الله يميت الانسان ، فايمان المرء بلا إله إلاّ الله ينزع عن قلبه كلا من هذين السببين ، فيجعله موقنا أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده ، وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أن لايقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده .

ومن أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر فهذا كفر عمل .

٨- الايمان بلا إله إلاّ الله يرفع الانسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم ، وغيرها من الصفات القبيحة .

٩- وأهم شئ وأجدره في هذا الصدد ، أن الايمان بلا إله إلا الله ، يجعل الإنسان متقيدًا بشرع الله ومحافظا عليه ، فان المؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شئ ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كائن ، فانه لايستطيع أن يفلت من الله عز وجل .

وعلى قدر مايكون الايمان راسخا في قلب الانسان ، يكون متبعا لأحكام الله قائما عند حدوده ، لا يجرؤ على اقتراف ماحرم الله ، ويسارع الى الخيرات والعمل بما أمر الله .

ومن أجل ذلك جعل "لا اله الا الله" أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلما ، والمسلم هو العبد المطيع المنقاد لله تعالى ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمنا من قلبه بأن لا إله إلا الله ، وهذا هو أصل الاسلام ، ومصدر قوته ، وكل ماعداه من معتقدات الإسلام إنما هي مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه ، والإسلام لا يبقى منه شئ لو زال هذا الأساس [١] .

(٢) أثر الولاء والبراء لله ولرسوله وللمؤمنين :

"لما كان أصل الموالاة : الحب ، وأصل المعاداة : البغض ، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح مايدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والانس والمعاونة وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك" [٢] - فان الولاء والبراء من لوازم الايمان بالله والعمل بمقتضاه . وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة .

أما الكتاب فمنه قوله تعالى : (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) [٣] .

---

١ انظر مبادئ الاسلام ص ٨٧.
٢ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ الرسائل المفيدة ص ٢٩٦ - تصحيح عبد الرحمن الرويشد طبع سنة ١٣٩٨هـ بدار العلوم بمصر .
٣ سورة آل عمران الآية ٢٨

ويقول عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان توليتم فإن الله لا يحب الكافرين)[١].

وقوله تباركت أسماوءه ، عن أهداف أعداء الله :

(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله) [٢] . (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين) [٣] . ويقول جل وعلا : (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على الموءمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم) [٤] .

أما الأحاديث والآثار فكثيرة نذكر منها :

١- مارواه الإمام أحمد عن جرير بن عبدالله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعه على أن ينصح لكل مسلم، ويبرأ من الكافر [٥] .

٢- وقال صلى الله عليه وسلم "أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله"[٦].

٣- وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "أوثق عرى الايمان الموالاة في الله ،والمعاداة في الله ، والحب في الله والبغض في الله" [٧] .

---

١ سورة آل عمران الآية ٣١،٣٢.

٢ سورة النساء الآية ٨٩.

٣ سورة المائدة الآية ٥١.

٤ سورة المائدة الآية ٥٤.

٥ المسند للامام أحمد ج ٤ ص ٣٥٧ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ الناشر المكتب الاسلامي بدمشق .

٦ المسند ج ٢٨٦/٤.

٧ ذكره السيوطي في الجامع الصغير ج ١ ص ٦٩ وقال الألباني حديث حسن انظر صحيح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٤٣.

٤- وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "من أحب في الله وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فانما ينال ولاية الله بذلك ، ولن يجد طعم الايمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا" [١] .

وفي شرح قول ابن عباس جاء مايلي : قوله ووالى في الله ، فيه بيان للازم المحبة في الله ، وهو الموالاة فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب ، بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب . وهي النصرة والاكرام ، والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً . وقوله "وعادى في الله" فيه بيان للازم البغض في الله ، وهو المعاداة فيه ، أي اظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراءة منهم ، والبعد عنهم باطنا وظاهرا إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب ، بل لا بد مع ذلك من الاتيان بلازمه [٢] ، ومصداق ذلك قوله تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) [٣] .

فالولاء لله تعالى هو محبة الله ونصرة دينه ، ومحبة أوليائه ونصرتهم ، والبراء هو بغض أعداء الله ومجاهدتهم ، وذلك مثل قوله تعالى الذين آمنوا أشد حبا لله"[٤]. "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [٥] . وحب الله تعالى لعبد فيه علاقة الرحمة والعدل والود ، وهذا أمر لا يقدر على ادراك قيمته إلا من عرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه وكما وصفه رسوله وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره .

---

١ ابن رجب الحنبلي جامع العلوم والحكم ص ٣٠.
٢ انظر سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٤٢٢ . طبعة ادارات البحوث العلمية بالرياض (د.ن).
٣ سورة الممتحنة الآية ٤٠.
٤ البقرة الآية ١٦٥.
٥ آل عمران ٣١.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك الا من ذاق حلاوتها ، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلا عظيما ، وفضلا غامرا جزيلا ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه ، وتعريفه هذا المذاق الجميل هو إنعام عظيم [1] .

أما البغض في الله فأمر ملازم للحب في الله ، لا ينفصل عنه ، لأن المحب يحب مايحب محبوبه ، ويبغض مايبغض محبوبه ، ويوالي من يوالي محبوبه ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ،ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما نهى عنه ، فهو موافق له في ذلك .

فالولاء لله بهذا المعنى يعني الانقياد التام لأوامره ونواهيه ، ومن أمثلة ذلك مارواه أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : "بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح ،وأبي دجانة ، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر ، فسمعت مناديا ينادي ألا إن الخمر قد حرّمت ، قال : فما دخل علينا داخل ، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب ،وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا طيب أم سليم ، ثم خرجنا إلى المسجد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ..) إلى قوله تعالى : (فهل أنتم منتهون)؟ فقال رجل يارسول الله فما نرى فيمن مات وهو يشربها ؟ قول الله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ...) الآية . فقال رجل لأنس بن مالك أأنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم أوحدثني من لايكذب . ماكنا نكذب ولا ندري ما الكذب" [2] .

---

١ في ظلال القرآن ج ٢ ص ٩١٨-٩١٩ – بتصرف طبعة دار الشروق .

٢ تفسر القرآن العظيم ج ٢ ص ٩٢-٩٧ – تفسير الآيات ٩٠-٩٣ من سورة المائدة ،وقد ذكر ابن كثير أحاديث كثيرة في بيان تحريم الخمر اخترنا منها هذه الرواية وجميع الروايات متقاربة المعنى .

ونجحت توجيهات القرآن ، وتربية الرسول فانقادوا للأمر في يسر وقناعة تامة وماتكونت عصابات التهريب ، ولا لجأت الدولة إلى أحكام الاعدام والسجن ومصادرة الأموال ولا إلى مجلات وجرائد ومحاضرات وصور وسينما ... الخ .

وكذلك فعلن النساء ، فعن صفية بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة ، إن لنساء قريش لفضلا ، وإني والله مارأيت أفضل من نساء الأنصار ، وأشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت سورة النور (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب رجالهن اليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم منها ، يتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما فيهن إمرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتاب . فاصبحن وراء رسول الله – كأن على رؤوسهن الغربان" [١] .

أما الولاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون في متابعته فعلا وقولا وتقريرا ، والانصياع لأمره كائنا ماكان آمره أو نهيه ، والنزول لحكمه ، لأن طاعته صلى الله عليه وسلم من طاعة الله سبحانه وولائه (فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) [٢] .

وقد التزم الرعيل الأول من سلف هذه الأمة ، بكل أمر آتاهم من الرسول صلى الله عليه وسلم فكانوا يمثلون النموذج الصادق الحي لهذا الولاء ، فمن ذلك أن اليهود لعنهم الله – حاولوا الوقيعة بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع الأوس والخزرج مجلس واحد يتحدثون فغاظ أحد اليهود مارآه من الفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد ذلك الذي كان بينهم من العداوة الجاهلية ، فأمر هذا اليهودي شابا يهوديا ، فقال له : اعمد اليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وماكان قبله ، وآنشدهم بعض ماتقاولوا فيه من الأشعار – وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس

---

١ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٤.
٢ سورة المائدة الآية

والخزرج – فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا ، وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، وغضب الفريقان جميعا وقالوا : موعدكم الظاهرة [١] .. السلاح .. السلاح ، وخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يامعشر المسلمين : الله ، الله .. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا [٢] ، فأنزل الله تعالى فيهم قوله : (ياأيهاالذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) [٣] .

فهذه الواقعة تدلنا أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تقتضي بالتبعية اتباع سنته صلى الله عليه وسلم واتباع شريعته باطنا وظاهرا والامتثال بكل أمر ونهي يصدر منه صلى الله عليه وسلم .

أما الولاء للموءمنين، فيكون على مقتضى الآية التالية : (أذلة على الموءمنين أعزة على الكافرين) [٤] – أي أنهم يعاملون الموءمنين بالذلةواللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم ، والغلظة لهم ، فهم يحبون من أحبه الله فيعاملونه بالمحبة والرأفة واللين ، ويبغضون أعداء الله الذين يعادونه فيعاملونهم بالشدة والغلظة كما في قوله تعالى :(أشداءعلى الكفار رحماء بينهم) [٥] .

ومن هنا فان مقتضيات الولاء والبراء : حق المسلم على المسلم وحقوق المسلم على المسلم كثيرة جدا : النصرة والمودة والزيارة والاكرام والسلام وحماية العرض

---

١ الظاهرة : الحرة – حرة المدينة .
٢ السيرة النبوية الجزء الثاني ص ١٩٢ .
٣ سورة آل عمران الآيتان رقم ١٠٠،١٠٢ .
٤ سورة المائدة الآية ٥٤ .
٥ سورة الفتح آية ٢٩ .

والمواساة وغير ذلك مما هو منصوص في الكتاب والسنة ومن هذه الحقوق :

(أ) المودة : وهذه للمؤمنين من بعضهم البعض فليس للكافر ولا للفاسق ولا للمبتدع فيها نصيب ، ومن هذه المودة حب المسلم لأخيه المسلم مايحب لنفسه كما قال صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه" [١] .

(ب) النصرة : وهذا واجب أخوي إيماني على كل مسلم لأخيه المسلم من أيّ جنس كان وفي أيّ أرض حل ، وبأيّ لون كان ، ينصره بنفسه ، وبماله ، وبالذب عن عرضه ، ولذلك ورد التهديد لمن يترك ذلك وهو قادر عليه . قال صلى الله عليه وسلم :مامن امرئ يخذل امرءًا مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلاّ خذله الله في موطن يحب فيه نصرته ، ومامن امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلاّ نصره الله في موطن يحب نصرته" [٢] .

وقد امتدح الله سبحانه وتعالى الأنصار رضوان الله عليهم في نصرتهم لأخوانهم المهاجرين فقال سبحانه : (والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) [٣] .

ومن الأوامر النبوية في شأن النصرة قوله صلى الله عليه وسلم : انصر آخاك ظالما أو مظلوما) [٤] ونصرته إذا كان مظلوما ظاهرة ، أما نصرته إذا كان ظالما فبردعه عن الظلم ومنعه . وقال صلى الله عليه وسلم : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة" [٥] .

---

١ رواه البخاري في صحيحه ج ١ ص ٥٧ كتاب الايمان .
٢ سنن أبو داود ج ١٩٧/٥ والمسند ج ٣٠/٤ .
٣ سورة الأنفال ، ٧٤ .
٤ رواه البخاري في صحيحه ج ٩٨/٥ كتاب المظالم .
٥ رواه البخاري في صحيحه ج ٩٧/٥ كتاب المظالم .

والمسلم داخل المجتمع المسلم ماهو إلا عضو عامل من أعضاء الجسد ، فإذا حصل لهذا العضو مرض أو اختل عمله تأثر لذلك بقية الجسد ، ويصور ذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله الكريم "الموءمن للموءمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" [١] وقوله صلى الله عليه وسلم "الموءمن مرآة أخيه ، والموءمن أخو الموءمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه" [٢] .

ولقد كان التحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه مثالا فريدا في تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر سواءعلى مستوى الأمة أم الأفراد ، حيث حققوا الموالاة والمعاداة على أوضح وأدق صورها .

ولن ينتصر المسلمون ، ولن تكون لهم شوكة ، إلا إذا تحقق فيهم ـ بعد صفاء العقيدة ووضوحها ـ حب المسلم لأخيه كحبه لنفسه ، وشعوره بآلام أخيه كشعوره بما يصيبه هو ، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو ، والله ينصر من ينصره إنه لقوي عزيز" [٣].

وتتحقق النصرة بعدة أمور منها : الدفاع بالنفس عن الأخ ، وكسر شوكة الظالمين وبذل المال له لإعزازه وتقوية جانبه ، والذب عن عرضه وسمعته ، والرد على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين ، والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق وتسديد الخطى وتتبع أخبار المسلمين في أنحاء المعمورة ، والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة [٤] .

كل هذه الأمور تحقق ولاءه لاخوانه المسلمين وتجعله عضوا عاملا صالحا في جسم الكيان الاسلامي .

---

١ رواه البخاري في صحيحه ج ٤٥٠/١٠ كتاب الأدب .

٢ رواه البخاري في الأدب المفرد ص ٧٠.

٣ الولاء والبراء في الاسلام ص ٢٦٨-٢٦٩.

٤ نفس المصدر والصفحة .

(٣) آثر الأخوة في الله :

لما أذن الله تعالى بالهجرة : خرج المسلمون الى المدينة جماعات ووحدانا ، ولم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر وعلي حيث أقاما بأمر منه صلى الله عليه وسلم وإلا من إحتبسه المشركون كرها .

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تجهزوا ، وخرجوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى المدينة ، وعرفوا أنها دار منعة ، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس ، خافوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحوقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته ، فلذلك اجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجا منهم ليتشاوروا في أمره [١] .

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأي واحد ، وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل ، ولكن حماية الله ونصرته لنبيه صلى الله عليه وسلم أكبر من مكر أولئك المجرمين ، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينام في مضجعه تلك الليلة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، وبقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث نام تلك الليلة في فراش المصطفى صلى الله عليه وسلم وينتهي الأمر بخسارة وذلة الملأ من قريش [٢] .

ووصل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى دار الهجرة ، دار النصرة والمنعة حيث وجد أنصار الله ،فكانت الهجرة هذه نصرا للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يأويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج !! وكانت نصرا أيضا للأنصار حيث قضى على الاحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم وعلى كيد اليهود لهم حيث كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة .

---

١ انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٢٥ وزاد المعاد ج ٣ ص ٥٠ .

٢ انظر السيرة النبوية ص ١٢٧ وزاد المعاد ج ٣ ص ٥١ .

وكان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة هو بناء المسجد لينطلق منه النداء الرباني (الله أكبر ، الله أكبر) وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوي للأمة المسلمة يتلقون فيه وحي الله عن رسول الله ، ويتعلمون أمور دينهم ولتنطلق منه رايات الجهاد .

وبعد ذلك : "آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم الآخر من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر فلما أنزل الله عز وجل : (وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) [١] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الاخوة" [٢] .

إن هذه الأخوة الايمانية هي الوشيجة العظمى ، والرابطة الفريدة في علاقات البشر بعضهم مع بعض ، فلقد أحس كل موءمن - كما قال الأستاذ محمد قطب - سواء كان مهاجرا أو أنصاريا برباط جديد يربطه باخوته في الله ، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل إن آصرة الدم - حين كانت في الجاهلية ،لم تكن تنشئ في نفس أحدهم ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة .

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الاسلام ؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة ؟

والجواب : إن الأمر ليس سرا ولا سحرا ولكنه الإسلام يلتقي فيه الناس على العقيدة في الله ، لأن كلا منهم يحب الله ورسوله ، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هي الحال في العلاقات الجاهلية ، وإنما الجانب البارز هو الحب في الله .

---

١ سورة الأحزاب آية ٦٠

٢ زاد المعاد ج ٣ ص ٦٣٠

منهج التربية الاسلامية ج ٢ ص ٤٠-٤١ بتصرف طبعة دار الشروق ١٤٠٠هـ .

إن الأخوة في الله جديرة بالنظر والاعتبار ، ذلك انه نتج عنها أمور عظيمة في حياة المسلمين سواء في مستوى الأمة والدولة ، أم في مستوى الأفراد .

أما ما يتعلق بهم كأمة ، فقد كانت هذه المؤاخاة هي الركيزة الأساسية في تكوين مفهوم الأمة المسلمة ، أمة التقت على العقيدة في الله ، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحب والنسب ، أو الأرض أو اللون أو اللغة أو الجنس فيها أيّ حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة . والله سبحانه وتعالى يقول : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ..) [1] الآية فقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم البعض ، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ويناصره ويجاهد من أجله ، ويؤثر على كل قريب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد : (والمؤمنون بعضهم أولياء بعض) [2] .

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك صلى الله عليه وسلم أصابعه" [3] . وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" [4] .

ولقد أثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار ، فقال سبحانه عن المهاجرين : (للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) [5] .

ثم يثني سبحانه على الأنصار بقوله :

---

١ سورة آل عمران آية ١٠٣.
٢ سورة التوبة آية ٧١.
٣ صحيح البخاري ج ١٠ ص ٤٥٠ كتاب الأدب ، وصحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩ كتاب البر.
٤ صحيح البخاري ج ١٠ ص ٤٣٨ كتاب الأدب ،وصحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩ كتاب البر واللفظ البخاري .
٥ سورة الحشر الآية ٨.

(والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما آوتوا ويوءثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [١] .

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك ، فهوءلاء الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله ، فقد أصبح حبهم من العقيدة التي يدين بها المسلم ربه ، وبغضهم وكراهيتهم نفاق . ففي الحديث الصحيح :

"آية الايمان حب الانصار ، وآية النفاق بغض الأنصار" [٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم : "الأنصار لا يحبهم الا موءمن ، ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله" [٣] .

وبهذه الأخوة تكون المجتمع الاسلامي ، ذلك المجتمع الذي تظلله راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية ، ويسوده الحب والتفاني ، ويوءمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، الجهاد رهبانيته ، والدعوة الى الله سبيله ومنهاج حياته ، القوي فيه ضعيف حتى يوءخذ الحق منه ، والضعيف فيه قوي حتى يأخذ حقه ، ولاوءه لله ورسوله والموءمنين ، وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كان أقرب قريب ، وجدوا حلاوة الايمان وطعمه ، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم يحب أن يلقى في النار ولا يعود الى الكفر بعد أن أنقذه الله منه [٤] ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

"لايجد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه الا لله ، وحتى أن يقذف في النار أحب اليه من أن يرجع الى الكفر بعد أن أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما" [٥] . وهذا ماتحقق فيهم رضوان الله عليهم .

---

١ سورة الحشر الآية ٩.
٢ صحيح البخاري جـ ١ ص ٦٢ كتاب الايمان ، وصحيح مسلم جـ ١ ص ٨٥ كتاب الايمان واللفظ للبخاري .
٣ متفق عليه . صحيح البخاري جـ ٧ ص ١١٣ كتاب المناقب، وصحيح مسلم جـ١ ص ٦٦ كتاب الايمان واللفظ للبخاري .
٤ انظر محمد بن سعد القحطاني، الولاء والبراء في الاسلام ص ١٩٤، الطبعة الأولى دار طيبة بالرياض .
٣ صحيح البخاري ، جـ ١٠ ص ٤٦٣ كتاب الادب .

وبهذه المواخاة الايمانية وجد التكافل الاجتماعي ، وبرزت فيه صور خالدة لم توجد لها مثيل قط . ومن ذلك مارواه البخاري ـ رحمه الله ـ أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبدالرحمن : إني أكثر الأنصار مالا ، فاقسم مالي نصفين ! ولى امرآتان فانظر إلى أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها !! قال عبدالرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من إقط وسمن ، ثم تابع الغدو حتى جاء يوما وبه أثر صفرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مهيم ؟ قال : تزوجت . قال : كم سقت لها . قال : نواة من ذهب [1] . "وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا اعجابه بنبل عبدالرحمن الذي زاحم اليهود في سوقهم وبزهم في ميدانهم ، واستطاع بعد أيام أن يكسب مايعف به نفسه ويحصن به فرجه ، ذلك أن علو الهمة من خلائق الايمان" [2] .

وخلاصة القول : إن هذه الموآخاة كان تدريبا عمليا على الأخوة الاسلامية التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس الموءمنين بها : (إنما الموءمنون اخوة) [3] وكان تدريبا ناجحا فذا في نجاحه ، فريدا من نوعه من التاريخ .

وكان كذلك تدريبا عمليا على التكافل ، وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الاسلامية . القادرون يكفلون غير القادرين على أساس الاخوة في الله من جانب ، وعلى أساس التصرف في مال الله بما يرضي الله في جانب آخر [4] .

---

١ رواه البخاري في صحيحه ج ٧ ص ١١٢ كتاب مناقب الأنصار.

٢ محمد الغزالي ـ فقه السيرة ص ١٩٣.

٣ سورة الحجرات الآية ١٠.

٤ انظر منهج التربية الاسلامية ج ٢ ص ٦٩.

(٤) أثر الايمان في أداء فريضة الجهاد :

الجهاد يعتبر من أهم مقتضيات الايمان ، لأنه من أهم وسائل المؤمنين للفصل بين الحق والباطل ، وبين حزب الرحمن وحزب الشيطان . فالمعلوم بداهة وتجربة أن العداوة بين الفريقين متأصلة ، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،وذلك لأن المنهجين مختلفان ، ويستحيل الالتقاء بينهما لأن حزب الله يريد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، وحزب الشيطان لا يرضى بذلك ، فيسعى جاهدا في سحقه وابادته ما استطاع الى ذلك سبيلا [1] .

ومن المعلوم أن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والألوهية ، فإذا لبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل ، وإنزال الكتب وإن انتكصوا على أعقابهم فلا بد من جهادهم : (حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) [2] .

ثم إن نصرة المؤمنين بالله واجبة على كل مسلم ، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين ، يكثرون سوادهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يأتي السهم فيرمى به ، فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) [3] . فالذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم ليس لهم في المغانم نصيب ولا في خمسها إلا ماحضروا فيه القتال [4] . يدل على ذلك الحديث الذي يرويه أبي بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزو باسم الله ، في سبيل الله ،

---

١ انظر الولاء والبراء في الاسلام ص ٢٨٩-٢٩٠.
٢ سورة الأنفال الآية ٣٩.
٣ تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٥٤٢.
٤ انظر تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٠.

قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فايتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم أدعهم إلى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم أدعهم الى التحول إلى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين واخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكونون كاعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء إلاّ أن يجاهدوا مع المسلمين فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ..." [1] الحديث .

فالدين الاسلامي يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي أحسن فإذا قامت عليهم الحجة ثم أعرضوا وجب قتالهم ، وإن كان هناك سلطان وطواغيت ترفض أن يستمع الناس للإسلام فإنه يجب بتر هذه الطواغيت من أساسها لتبلغ كلمة الاسلام للناس ، ثم يأتي هنا مبدأ ، لا إكراه في الدين ، أي إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فان أهلها لا يجبرون على اعتناق عقيدة الاسلام ، ولكن يجب أن يخضعوا لسلطانه ،فإن أسلموا فلهم ماللمسلمين ، وإن طلبوا البقاء في ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين .

ومن هنا ، فإن أهداف الجهاد في الاسلام يمكن تلخيصها فيما يلي :

١- يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة .

٢- ويجاهد لتقرير حرية الدعوة الى الله .

٣- ويجاهد لتمكين شريعة الله في الأرض ليحتكم الناس اليها ، وذلك لأن شريعة الله تقرر أولا أن العبودية لله الكبير المتعال ، وتلغي ماسوى ذلك من

---

١ صحيح مسلم ج ٥ ص ١٤٠.

٢ انظر تفسير القرآن العظيم ج ص ٤٥٩، وانظر فصل الجهاد في معالم في الطريق ص ٧٤.

عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها - فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريقه ، وإنما هناك ربّ واحد للناس جميعا هو الذي يشرع وهو الذي يتوجهون إليه وحده بالطاعة والخضوع كما يتوجهون إليه بالإيمان والعبادة على السواء [١] .

وعبودية الجهاد من أشرف وأحب أنواع العبودية لله سبحانه لأنه لو كان الناس كلهم موءمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الرب على محاب النفس" [٢] .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية "إنه لم يرد الأعمال وفضلها مثل ماورد فيه ... لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، وهو مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ففيه محبة الله ، والاخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له والصبر ، والزهدوذكر الله وسائر أنواع الأعمال ما لايشتمل عليه عمل آخر والقائم به من الشخص والأمة بين احدى الحسنيين دائما : أما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة" [٣] .

ولقد أدرك أصحاب رسول الله صلى الله علين وسلم فضل الجهاد في سبيل الله ، فانطلقت كتائبهم في الأرض تنشر الخير ، وتلقن الايمان وتكسر شوكة الطاغوت من أجل أن يعبد الله وحده في الأرض .

وقد وجد في ذلك التاريخ الاسلامي المشرق نماذج رفيعة أجادت - بحق - صناعة الموت من أجل أن تعيش حياة كريمة سواء في هذه الحياة على هذه الأرض بالنصر وإعلاء

---

١ انظر أحمد فايز طريق الدعوة في ظلال القرآن جـ ١ ص ١ ص ٢٨٨-٢٨٩ الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ .

٢ انظر ابن قيم الجوزية مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٩٦ .

٣ ابن تيمية السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ص ١١٨ طبع الجامعة الاسلامية بالمدينة سنة ١٣٨٩هـ .

كلمة الله ، أم بالحياة عند الله في نعيم لا ينفد وفيهم يقول ربّ العزة : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) [١] .

لقد كانت هذه النماذج الايمانية تستبطىء أن تحيل بينها وبين الجنة تمرات كما في قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري "حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غزوة بدر : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، قال : يارسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض . قال : نعم . قال : بخ بخ . قال رسول الله : ومايحملك على قول بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فانك من أهلها . ثم أخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا أحييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بها ثم قاتلهم وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد — إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد — وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

فمازال يقاتل حتى قتل [٢] .

وهذا غسيل الملائكة الصحابي الجليل حنظلة بن عامر يخرج من بيته حين سمع نداء الحرب في معركة أحد وكان حديث عهد بعرس لم يكن ليتأخر حتى يغتسل من جنابته ، بل هرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد فلما قتل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته ، فقالت : خرج وهو جنب لما سمع الهيعة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك تغسله الملائكة [٣] .

هذا غيض من فيض ، ونقطة من بحر ، من تلك البطولات التي بعث الايمان فيها شجاعة خارقة للعادة وحنينا إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة ، تمثلوا الآخرة وتجلت

---

١ سورة آل عمران الآية ١٦٩.
٢ رواه مسلم في صحيحه ج ٦ ص ٤٤ كتاب الامارة وانظر فقه السيرة للغزالي ص ٣٤٤.
٣ انظر الاصابة لابن حجر ج ١ ص ٣٦٠ ، وفقه السيرة للغزالي ص ٢٧٢ .

لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي العين . وهذا هو مفهوم الجهاد الذي ينبغي أن يتمثله كل من آمن بالله ويريد أن يسلك سبيل الذين آمنوا من السلف الصالح .

الفصل الثاني

القاعدة التعبدية

المبحث الأول : أهمية العبادة في الاسلام :

لكل نظام فكري يراد له البقاء ، رياضات وأساليب سلوكية ، تغلب عليها في هذا العصر الصفة الجماعية ، وتكون عادة مصحوبة بهتافات ، وجهود وحركات حسمية منظمة وتؤدي جماعات جماعات ، كل بحسب عمرها ، وثقافتها ، ومكانتها ، وذلك ليواكبوا بين انطباعات الانسان النفسية والفكرية ، وبين طاقاته الحسمية ، إعترافا منهم بأن الكائن البشري وحدة لا تتجزأ بجسمه وعقله وروحه . وتبدو هذه الرياضات وتجمعات الناس نوعا من العبث ، وإضاعة الوقت ليس بينها وبين الفكر السليم ، والمنطق والفطرة النفسية رابط حقيقي متين [1] كالذين (اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهن الحياة الدنيا)[2].

أما في الاسلام فان العبادات والنسك الاسلامية هي التي تقوم هذا المقام ، فالعبادات تظهر لنا أعمالا تعبدية ، ورياضات روحية ، عميقة الجذور ، ترتبط بمعان سامية تنبع من فطرة النفس ، وبذكريات عظيمة ، هزت التاريخ ، وتقوم بتنظيم حياة المسلم اليومية بالصلاة ، وحياته الغذائية والصحية بالصوم ، وحياة المجتمع الكبير بالزكاة ، كما تقوم بتنشيم واحياء وحدة المجتمع الاسلامي الكبير ، والروابط والمشاعر الاجتماعية للأمة الاسلامية كلها في شتى الأصقاع بالحج . ثم إن سر هذه العبادات وأهميتها تكمن في أنها ترتبط بمعنى واحد ، كان سببا في توحيد نوازع الانسان كلها ، والتأليف بين قلوب جميع أفراد المجتمع المسلم ، إنه العبودية لله وحده ، وتلقى التعاليم والأوامر من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله [3] . ويصور القرآن الكريم هذا المعنى أروع تصوير فيقول ربّ العزة (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) [4] .

---

١ عبد الرحمن النحلاوي - أصول التربية الاسلامية ص ٥٠.
٢ سورة الأعراف الآية ٥١.
٣ عبد الرحمن النحلاوي نفس المرجع السابق ص ٥١.
٤ سورة الأنفال الآية ٦٣.

ويقول تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) [١] .

"والمتأمل في تاريخ الاسلام وانتشار دعوته ، يلاحظ أن العبادة كان لها الأثر الكبير في نشر الاسلام ، وإن العُبّاد من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم كانوا هم الدعاة المؤثرون ، وقد انتشر الاسلام في آسيا وأفريقيا قديما وحديثا بفضل الله تعالى، ثم بفضل سيرة أولئك الذين تميزوا عن غيرهم بالعبادة والرياضة الروحية ، فملأت قلوبهم ، ونفوسهم حبا لله ولدعوته وحركت جوارحهم ، وهزت قلوبهم ، فسرى ذلك في محيطهم .

"وقد بدأت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ونزول الوحي بالخلوة والتعبد في غار حراء ، وكانت العبادة تشغل جزءاً كبيرا من حياته وحياة المسلمين الأولين في بدء الدعوة [٢] ، وكان من أوائل مانزل من القرآن ، عليه صلى الله عليه وسلم "قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) [٣] وتشير الآية التي تلي هذه الآية إلى أن هذا مقدمة لتحمل رسالة ثقيلة ، وتمهيد وإعداد لها "إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا – إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا" [٤] .

وكان المسلمون الأولون يجتمعون ويتعبدون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، واستمر النبي صلى الله عليه وسلم في أخذ نفسه بكثرة العبادة ، وكان قيام الليل بالنسبة إليه فرضا فرضه الله عليه ، وكذلك كان الرعيل الأول من كبار الصحابة ، يأخذون أنفسهم بالعبادة من قراءة القرآن ، وذكر الله والصلاة حتى كأن كثرة العبادة كانت متناسبة مع منزلة الانسان في الدعوة وقوة أثره وبلائه فيها [٥] .

---

١ سورة الأنعام الآية ١٦٢.

٢ محمد المبارك – نظام الاسلام ، العقيدة والعبادة – ص ١٦٣ بتصرف يسير .

٣،٤ سورة المزمل الآيات ٢،٣،٤.

٥ محمد المبارك – نفس المصدر السابق ص ١٦٣.

المبحث الثاني : مفهوم العبادة في الاسلام :

حين نتحدث عن "عبادات الاسلام" نعني بها تلك الصورة المحددة التي رسمها الاسلام للتقرب بها إلى الله تعالى ، واتخذها شعائر مميزة له ، وعيّن لها مواقيت ومقادير وكيفيات لا مجال فيها لتبديل أو تعديل ـ وتلك هي العبادات المعروفة كالصلاة والصوم والزكاة والحج . وهناك عبادات أخرى لكنها لا تدخل في نطاق التعبد بتحديد المواقيت والكيفيات [1] ـ وتشمل كل عمل يبتغى به المسلم وجه الله تعالى .

وعلى هذا يمكن تقسيم العبادات إلى نوعين :

النوع الأول : ويشمل جميع أعمال الانسان المشروعة إذا ابتغى بها صاحبها وجه الله تعالى .

النوع الثاني : العبادات المخصوصة التي شرعت بقصد العبادة المحضة أو اظهار الخضوع لله والصدع بأمره ، وهذا النوع من العبادة هو المعروف الشائع بين الناس ،وهو المعروف بهذا الاسم في الأديان الأخرى .

أولا : مفهوم العبادة الشاملة :

لقد أسبغ الاسلام الحنيف صبغة العبادة ، على جميع أعمال الانسان المسلم إذا قصد بها وجه الله تعالى ومرضاته ، وعملت على وجهها المشروع ، وكانت في سبيل تحقيق أهداف مشروعة ، فالزارع والصانع والتاجر والطبيب والمهندس والعامل والموظف والمعلم والمتعلم ، تعتبر أعمالهم عبادة إذا قصد بها نفع عباد الله والإستغناء عن الناس وإعالة العيال [2] . ومن أهم وأرفع وأجل العبادات ، التي تندرج تحت أنواع العبادة الشاملة فريضتان هما : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله :

---

١ القرضاوي ـ العبادة في الاسلام ص ٢٠٣.

٢ محمد المبارك ـ المرجع السابق ص ١٧٠.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السمات التي تميزت بها هذه الأمة : كنتم خير آمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " [١] . وهي من شعب الايمان وخصال المؤمنين " المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" [٢] ومن فرط فيها لعن كما :"لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون" [٣] .

أما الجهاد في سبيل الله فقد أمر الله به المسلم كما أمر بالركوع والسجود وسائر العبادات : "يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم" [٤] ويقول الله تعالى في معرض كلامه عن المجاهدين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون"[٥]. وقال صلى الله عليه وسلم : "لغدوة في سبيل الله أو روحة خيرمن الدنيا ومافيها"[٦] . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر المجاهدين في الله فقال عليه الصلاة والسلام : لا تستطيعونه ، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، وكل ذلك يقول : لاتستطيعونه . ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله ، لايفتر من صلاة وصيام ، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله " [٧] .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ، وانفاق المال في أبواب الخير المختلفة ، والوفاء بالعهد ، والصبر على الشدائد في

---

١ سورة آل عمران الآية ١١٠.
٢ سورة التوبة الآية ٧١.
٣ سورة المائدة الآية ٧٨-٧٩.
٤ سورة الحج ٧٧-٧٨.
٥ سورة التوبة الآية ١٢٠-١٢١.
٦ رواه البخاري جامع للاصول جـ ٩ ص ٤٧١ - حديث رقم ٧١٧٠ - صحيح البخاري جـ ٦ ص ١١ و[illegible]
٧ جامع الاصول جـ ٩ حديث رقم ٧١٨٢ . ص ٤٨١

الحرب وغير الحرب ، كل هذه الأعمال إذا قرنت مع الايمان بالله واليوم الآخر تعتبر من أعظم مظاهر العبادة في الاسلام . ولهذا فان الاكتفاء بالعبادات المخصوصة ، وإتخاذها مقياسا للصلاح والتقوى ، وإهمال الوسائل التعبدية الأخرى التي أمرنا الله تعالى بها لإزالة أسباب الإنحراف والتشويه لقيم الاسلام ومعاييره من أخطر الأمراض التي شاعت بين المسلمين في العصور المتأخرة ، وبقيت آثارها واضحة في حياتهم العامة والخاصة ومالم يتبادر المسلمون جميعا وفي مقدمتهم أولياء أمورهم الى درء المفسدة التي نتجت باهمال تلك العبادات أو تركها فلن يصلح أمرهم ، ولن تكون العزة التي وعدها الله للموءمنين في كتابه .

ثانيا : العبادات المخصوصة أنواعها وأثرها :

إن العبادة المحضة في الاسلام أنواع متعددة يرجع أهمها الى مايلي :

(١) ذكر الله تعالى والتفكر في آياته وآلائه :

"إن التفكر في معالم الكون وآفاقه ،والانتقال منها إلى خالقها ومبدعها وصانعها ومدبر أمرها ، وإلى تعظيم قدرته وإجلال صنعته ، والتعجب من حكمته والخضوع لعظمته ، وتذكر ذلك في كل حالة ، وفي أيّ وقت من الأوقات ، عبادة تردد ذكرها في القرآن الكريم والسنة المطهرة" [١]."إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار" [٢]. فالمسلم يتعبد الله تعالى بالفكر ، عن طريق التأمل في النفس والآفاق ، والتفكر في ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء ،والتدبر لآيات الله ، وإعمال العقل نظرًا وتدبرًا وتعلمًا : "وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون" [٣] .

---

١ محمد المبارك ـ نفس المرجع السابق ص ١٧٢.
٢ سورة آل عمران الآية ١٩٠-١٩١.
٣ سورة الذاريات الآية ٢٠-٢١.

ويتعبد المسلم لله باللسان عن طريق الذكر ، وقد ورد الأمر بذكر الله في القرآن مرات عديدة كقوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا" [١] "واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين" [٢] . كما ورد ذم الغفلة عن تذكر الله ونسيانه ، والنهي عن الوقوع في هذه الحالة كقوله تعالى : "ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا" [٣] .

ولمّا كان التفكر القلبي قد يطرأ عليه في حياة الانسان نسيان بسبب مفاتن الحياة ومشاغلها ، وكان هذا التذكر هو الغذاء الروحي لكل نشاط الانسان المسلم ، فقد وضع الاسلام الحنيف له علاجا ميسرا ، يوافق الفطرة السليمة بضروب منوعة من الألفاظ والتعابير الدالة على التهليل والتكبير والتسبيح من الكتاب والسنة - ومن هذه الألفاظ والتعابير كلمة "لا اله الا الله" "والله أكبر" "والحمد لله" "وسبحانه" وهي ألفاظ دالة على الوهية الله ، وعظمته وتنزهه عن كل شاكلة والثناء عليه [٤] - وفي الحديث قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : "ان شرائع الاسلام قد كثرت عليّ فمرني بأمر أتشبث به ، فقال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله" [٥] .

وذكر الله من العبادات التي جاءت عامة مطلقة غير مقيدة في الأصل بزمان أو مكان أو هيئة أو حركة مخصوصة ، فهي خالية من الشكليات "الطقوس" ، وإنما يقصد بها انعكاس اللفظ في القلب ، وتحريكه ، ولذلك أمكن أن تمارس هذه العبادة في أكثر أحوال الانسان بل أثناء شغله وعمله سواء أكان ذلك بالقلب أم باللسان والقلب معا [٦] . وذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من ذكر القلب وحده وعلة ذلك أن شغل جارحتين فيما يرضي الله سبحانه وتعالى أفضل من شغل جارحة واحدة [٧] .

---

١ سورة الأحزاب الآية ٤١-٤٢.
٢ سورة الأعراف الآيَة ٢٠٥.
٣ سورة الكهف الآية ٢٨ .
٤ محمد المبارك - نفس المرجع السابق ص ١٧٢.
٥ رواه الترمذي وقال حسن صحيح - ص ٤٥٨ ج ٥ - الحديث رقم ٣٣٧٥ - الجامع الصحيح - الترمذي - تحقيق ابراهيم عطوه ط الأولى سنة ٦٥م مطبعة الحلبي .
٦ محمد المبارك - المصدر السابق ص ١٧٣.
٧ الشوكاني - تحفة الذاكرين - بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين .

والذكر نوعان : ذكر ثناء مثل سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقد تقدم الكلام عن هذا النوع .

وذكر دعاء قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أدعية وأذكار كثيرة في مختلف المناسبات والأوقات ، عند النوم واليقظة ، وعند الاصباح والامساء ، وعند الأكل والشرب ، وعند السفر والأوبة ، وعند لبس الثوب ، وركوب الدابة ، وهبة الريح ونزول المطر .. وفي كل حال وفي كل حين . وقد ألف العلماء في ذلك كتباً شتى [1] .

(٢) الدعاء :

الدعاء كما ورد في الحديث مخ العبادة " الدعاء مخ العبادة " [2] فهو لهذا أعلى أنواع العبادة وأرفعها وأشرفها - والآية الكريمة في قوله تعالى : "وقال ربكم ادعوني استجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين" [3] دلت على أن الدعاء عبادة ، وإن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار، ولا أقبح من هذا الإستكبار، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالقه ورازقه وموجده من العدم ومحييه ومميته [4] .

والله سبحانه وتعالى يدفع بالدعاء ماقد قضاه على عبده ، وقد وردت بهذا أحاديث كثيرة ، ويؤيد ذلك قوله تعالى "يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب" أما الأحاديث فمنها قوله عليه الصلاة والسلام : "لايرد القضاء الا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" [5] - وقال "لايغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل ، فيتلقاه الدعاء، فيعتلجان الى يوم القيامة" [6] والحديث فيه دليل أن الحذر لا يغني عن صاحبه شيئا من

---

١ ومن أهمها - كتاب الأذكار للامام النووي .
٢ رواه الترمذي - ج ٥ ص٤٥٦ حديث رقم ٣٣٧١.
٣ سورة غافر الآية ٥٩-٦١.
٤ الشوكاني - تحفة الذاكرين ص ١٠.

٥ رواه ابن حيان في صحيحه من حديث سلمان الفارسي وتحفة الذاكرين ص ١١
٦ رواه البزاز ورجاله رجال الصحيح وتحفة الذاكرين ص ١١

القدر المكتوب عليه ، ولكن ينفع الدعاء وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء) [١] .

وقد اختلف العلماء في صحة ماتقدم من أن الدعاء يدفع ماقد قضاه الله على عبده ويرده ،وقد نقلنا هنا ماذهب اليه الامام الشوكاني من أن الدعاء يرد من قدر الله عز وجل ، فقد يقضي الله بشيء على عبده قضاء مقيدا بأن لا يدعوه ، فان دعاه اندفع عنه[٢]. "وعن أبي هريرة رضي الله عنه "ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء" [٣] ولمّا كان الدعاء هو العبادة أو مخ العبادة كما تقدم ، كان أكرم على الله من هذه الحيثية ، لأن العبادة هي التي خلق الله سبحانه الخلق لها كما في قوله تعالى : "وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون" [٤] ولا منافاة بين هذا الحديثوبين قوله تعالى "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" [٥] لأن كل شيء شرف في بابه فانه يصف بالكرم .

"والدعاء من العبد لربه من أهم الواجبات ، وأعظم القربات ، لأن ترك الدعاء انصراف عن الله تعالى ، وهذا مما يغضب الله تعالى" [٦] وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : "من لم يسأل الله يغضب عليه" [٧] .

وبما أن الدعاء عبادة كسائر العبادات ، فقد وضع العلماء شروطا له ، ان توافرت كان الدعاء أدعى للاجابة ، وان لم تتوافر كان الأمر الى الله عز وجل إن شاء قبله وإن شاء رده عليه . ونذكر من هذه الشروط مايلي :

أولا : تجنب الحرام في المأكل والمشرب والملبس – ووجه ذلك أن ملابسة المعصية مفضية لعدم الاجابة ، إلا إذا تفضل الله على عبده ، وهو ذو الفضل العظيم

---

١ رواه الترمذي – الجزء الخاص – ص ٥٥٢ حديث رقم ٣٥٤٨
٢ الشوكاني – تحفة الذاكرين – ١١.
٣ رواه الترمذي – ج ٥ ص ٤٥٥ حديث رقم ٣٣٧٠
٤ سورة الذاريات الآية ٥٦
٥ سورة الحجرات الآية ١٣
٦ الشوكاني – المرجع السابق ص ١١.
٧ البخاري – الأدب المفرد ص ٩٧ طبعة دار الكتب والترمذي ج ٥ ص ٤٥٦ حديث رقم ٣٣٧٣. طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى "إنما يتقبل الله من المتقين" وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " إنه إذا ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب ، يارب ، ومطعمه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب له"[١] . ووجه تخصيص المسافر بالذكر أنه قد ورد أن دعوته مستجابة، فاذا كانت ملابسته للحرام مانعة لقبول دعوته فغيره بفحوى الخطاب أولى [٢] .

ثانيا : الاخلاص لله والخشوع : وهو الذي تدور عليه دوائر الاجابة وقال عز وجل (فادعوه مخلصين له الدين) . فمن دعا ربه غير مخلص فهو حقيق بأن لايجاب إلا أن يتفضل الله عليه .

ثالثا : تقديم عمل صالح : ليكون ذلك وسيلة الاجابة ويدل على ذلك حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة – فقد حكى النبي صلى الله عليه وسلم عنهم أنه توسل كل واحد منهم بأعظم أعماله التي عملها لله تعالى ، فانه استجاب الله دعاءهم ، وارتفعت عنهم الصخرة ،وكان ذلك بحكايته صلى الله عليه وسلم سنة لأمته .

رابعا : أن يكون على وضوء وأن يثنى على الله ثم يصلي على نبيه أولا وآخرا – ففي الحديث "من كان له حاجة إلى الله عز وجل أو الى أحد من بني آدم ، فليتوضأ ، وليحسن الوضوء ، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله تعالى بما هو أهله ، وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم" [٣] .

خامسا : حضور القلب وأن يكون موقنا بالاجابة – ففي الحديث : " القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض ، فاذا سألتم الله أيها الناس ، فاسألوه وأنتم موقنون

---

١ _ رواه مسلم من باب قبول الصدقة من الكسب الطيب كتاب الزكاة حديث رقم ١٠١٥ ، والترمذي حديث رقم ٢٩٩٢ كتاب التفسير
٢ _ الشوكاني المرجع السابق ص ١٢.

٣ - رواه الترمذي حديث رقم ٤٧٩ ، وجامع الاصول جـ ٦ ص ٢٥٢

بالاجابة ، فان الله لا يستجيب لعبد دعاءه عن ظهر قلب غافل" [١] .

سادسا : أن يكرر الدعاء ويلح عليه ـ وقد أخرج مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم "كان إذا دعا كرر ثلاثا" [٢] .

سابعا : ألا يدعو باثم ولا قطيعة رحم ـ لأن الدعاء يستجاب مالم يدع باثم أو قطيعة رحم ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم ـ قال (مامن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يؤخرها له في الآخرة ، وإما أن تصرف عنه من السوء مثلها" [٣] .

وعلى المسلم إذا دعا أن يبدأ بنفسه [٤] ولا يخص نفسه من دون المسلمين ، وأن يسأل حاجته كلها : "ليسأل احدكم ربه حاجاته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع" [٥] ولا يستعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فانما : "يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي" [٦] .

(٣) تلاوة القرآن :

القرآن في الأصل مصدر من وزن فعلان كالغفران والشكران والشكلان تقول قراءته قرءا قراءة وقرآنا ، بمعنى واحد ـ أي تلوته تلاوة ، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى " إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه" [٧] . أي قراءته .

ثم صار علما شخصيا لهذا الكتاب ، وهذا هو الاستعمال الأغلب ، ومنه قوله تعالى "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" [٨] .

---

١ رواه الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما .
٢ رواه مسلم صـ ٢ ص ٩٤ .
٣ ذكره الترمذي من حديث جابر بن عبد الله ج ٥ رقم ٣٣٨١ ص ٤٦٢ .
٤ الترمذي ج ٥ ص ٤٦٣ ـ حديث رقم ٣٣٨٥ .
٥ رواه الترمذي من كتاب الدعوات حديث رقم ٣٦٠٧ ، ٣٦٠٨ .
٦ الترمذي الجزء الخامس ص ٤٦٤ ـ حديث رقم ٣٣٨٧ .
٧ سورة القيامة الآية ١٧ .
٨ سورة الاسراء الآية ٠٢٠١

"وروعي في تسمية القرآن كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين شئ بالمعنى الواقع ، وفي تسميته بهذين الاسمين اشارة الى أن حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني انه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، المنقول الينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ماهو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر.

"وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية ، اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ، انجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" [١] – ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها الى حفظ الناس فقال تعالى : "والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله" [٢] . أي بما طلب اليه حفظه والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جئ بها على التوقيت لا التأبيد وان هذا القرآن جئ به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائدا بما شاء الله زيادته ، فكان سادا مسدها ، ولم يكن شئ منها ليسد مسده فقضى الله أن يبقى حجة الى قيام الساعة ، واذا قضى الله أمرا يسر له اسبابه وهو الحكيم العليم" [٣] .

وقد حوى القرآن من حقائق الغيب وحقائق النفس وحقائق الحياة ،وحقائق الاجتماع الانساني وبين من سنن الله الكونية ، ومن آياته في الأنفس والآفاق مالا يستغنى بشر عن معرفتها والاهتداء بها [٤] . وقد صاغ ذلك كله في أسلوب معجز ، ووصف ذلك ربّ العزة بقوله "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" [٥] .

والقرآن الكريم وصفه منزله بأنه نور ، والنور من طبيعته أن يضئ ويهدي "يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا" [٦] ووصفه بأنه روح والروح

---

١ سورة الحجر الآية ٩.
٢ المائدة الآية ٤٤.
٣ د. محمد عبدالله دراز – النبأ العظيم ص ١٢-١٤.
٤ د. يوسف القرضاوي – ثقافة الداعية ص ١٠.
٥ سورة هود الآية ٢١.
٦ سورة النساء الآية ١٧٤.

من طبيعتها أن تحرك وتحي "كذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا" [١] – ولهذا كان شأن المهتدين بالقرآن أن يوصفوا بالحياة والنور تمييزا عن الموت والظلمات التي يعيش فيها من لا يوءمن به ولا يهتدي بهديه – قال تعالى : أومن كان ميتا فأحييناه ،وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها" [٢] .

ولقد أخذ الله تعالى عهدا وميثاقا على كل أمة نزل عليها كتاب ان تتعلمه ، وتعلمه ولا تضن بتعليمه ، ولا يكتم منه شيئا – قال تعالى : "واذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه" [٣] ولا شك أن امة الاسلام هي خير الأمم وكتابه هذا هو أفضل الكتب ، فالأمر لها آكد وأبلغ من غيرها فصار واجبا عليها الا تألوا جهدا ، ولا تترك سبيلا فيه تبليغ القرآن وتعليمه الا سلكته ، وماذاك الا لأن القرآن تستنزل به الرحمات ويتقى به غضب الله ،وله الفضل في هداية الناس ،وصلاح دنياهم وآخراهم [٤] . يقول الله تعالى "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم" [٥] . وقال تعالى "كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون" [٦] .

لهذا وجب على المسلمين تعلم كتاب الله تعالى وتعليمه ، بكل السبل والوسائل المشروعة المتاحة ، عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" [٧] وقوله عليه الصلاة والسلام الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران" [٨] . وفي فضل تلاوة القرآن ورد قوله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم "انما أمرت ان أعبد ربّ هذه البلدة التي حرمها ، وله كل شئ ، وأمرت أن اكون من المسلمين ، وان أتلوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين" [٩] .

---

١ سورة الشورى الآية ٥٢.
٢ سورة الأنعام الآية ١٢٢.
٣ سورة آل عمران الآية ١٨٧.
٤ محمد رجب فرحاتي – كيف تتأدب مع المصحف ص ١٢٠-١٢١ بتصرف .
٥ سورة المائدة الآية ١٥-١٦.
٦ سورة الأنعام الآية ١٥٥.
٧ رواه الترمذي باب ماجاء في تعليم القرآن ج ٥ ص ١٧٣.
حديث رقم ٢٩٠٧ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.
٩ رواه مسلم جـ ٢ ص ١٩٥
٩ سورة النمل الآية ٩١-٩٢.

ومن الآثار الواردة في فضل القرآن العظيم هذا الحديث الذي أورده الترمذي في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو الحبل المتين ، ونوره المبين . والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تتشعب معه الآراء ،ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الاتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ،وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته ان قالوا "انا سمعنا قرآنا عجبا" من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم" [١] .

(٤) الصلاة :

عني الاسلام بالصلاة عناية فائقة ، وشدد كل التشديد في أدائها ، وحذر كل التحذير من تركها ، فهي عمود الدين ، ومفتاح الجنة ، وخير الأعمال ، وأول مايحاسب به العبد يوم القيامة ، وجعلها صفة جوهرية من صفات المؤمنين المفلحين : "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ..." الى قوله تعالى "...والذين هم على صلاتهم يحافظون"[٢] ومن حرص الاسلام على الصلاة تأكيد أدائها والمحافظة عليها في الحضر والسفر ، والأمن والخوف ،والسلم والحرب وقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)[٣](فان خفتم فرجالا أو ركبانا) [٤] أي فصلوا في حال الخوف ، والحرب ، مشاة أو راكبين كيف استطعتم بغير ركوع ولا سجود بل بالاشارة والايماء ، وبدون اشتراط استقبال القبلة للضرورة هنا "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله" وينذر بالويل والهلاك من يسهو عنها

---

١ الترمذي ـ الجزء الخامس ـ باب ماجاء في فضل القرآن ص ١٧٢ـ حديث رقم ٢٩٠٦.
٢ سورة المؤمنون الآية ١ـ٩.
٣ سورة البقرة الآية ٢٣٨.
٤ سورة البقرة الآية ٢٣٩.

حتى يضيع وقتها [1] "فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون" [2] .

وقد جعل رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الصلاة ، الدليل الأول على التزام عقد الايمان ، والشعار الفاصل بين المسلم والكافر "بين الرجل والكفر ترك الصلاة" [3] ـ ويقول عليه الصلاة والسلام "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر" [4] . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة يوما "من حافظ عليها كانت له نورا ،وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ، ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي ابن خلف" [5] .

قال العلماء في معنى هذا الحديث، فمن شغله عن الصلاة ماله ،فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغلته عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف [6] .

وقال صلى الله عليه وسلم : "من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله" [7] أي أصيب في أهله وماله ، وأصبح بعدهم وترا فردا ، فاذا كانت هذه كارثة من فاتته صلاة ، فكيف بمن فاتته الصلوات كلها" [8] .

والصلاة التي يريدها الاسلام هي تلك التي تأخذ حظها من التأمل ، والتدبر والتمعن والخشية واستحضار عظمة المعبود جل جلاله ، أما تلك الحركات التي تؤديها الجوارح بلا تدبر من عقل ولا خشوع من قلب ، وينقر فيها صاحبها نقر الديكه ، ويخطفها خطف الغراب ويلتفت التفاتة الثعلب [9] ، فلا يعدو كونها اسقاط لواجب مفروض من ذمة كانت على صاحبها فلا يؤجر صاحبها الا بقدر تدبره وخشوعه فيها .

---

١ انظر العبادة في الاسلام ص ٢١٠-٢١٢.
٢ سورة الماعون الآية ٤-٥.
٣ رواه مسلم ج ١ ص ٦١-٦٢
٤ رواه مسلم ج ١ ص ٦٢
٥ الذهبي - الكبائر ص ١٨-١٩.
٦ الامام شمس الدين الذهبي - الكبائر ص ٢٠-٢١. ط مطبعة الرياض الحديثة ١٣٩١هـ
٧ رواه النسائي ج ١ ص ٢٧٧، ٢٧٨، باب صلاة العصر في السفر.
٨ العبادة في الاسلام ص ٢١٢.
٩ نفس المرجع السابق ص ٢١٣.

ثم ان القصد من كافة العبادات ، وفي مقدمتها الصلاة ، هو تذكير الانسان بربه الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى (واقم الصلاة لذكري) [1] لذلك جعل الله الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا ، أمرهم باقامتها حين يمسون ، وحين يصبحون وعشيا وحين يظهرون وكررها خمس مرات في اليوم والليلة لتطهير المسلم من غفلات قلبه ، وادران خطاياه ،وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم لهذا المعنى في الحديث النبوي التالي : قال : "أرأيتم لو ان نهرا بباب احدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فهل يبقى من درنه شئ ؟ قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا" [2] واي انسان يمر عليه اليوم أو الليلة دون خطايا أو هفوات ؟ ان الانسان كثيرا ما تغلبه الشهوة ويستفزه الغضب ، فيقع في الاخطاء ، ويتردى فيها ، وليس العيب أن يخطئ الانسان، فكل بني آدم خطاء ، ولكن العيب أن يتمادى في الخطأ ، ويستمر في الانحدار حتى يصير كالأنعام أو أضل [3] ، وفي الصلوات الخمس فرصة طيبة يثوب فيها المخطئ الى رشده ويرجع الى ربه تائبا منيبا .

والصلوات الخمس الى جانب كونها وسيلة لغسل الأدران وتكفير الخطايا والسيئات ، تمد المؤمن بقوة روحية نفسية تعينه على مواجهة متاعب ومصائب الحياة ولذلك قال الله تعالى في محكم تنزيله : "واستعينوا بالصبر والصلاة ، ان الله مع الصابرين" [4] وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة [5] .

وفي الصلاة يفضي المؤمن الى ربه بذات نفسه ، ويشكو اليه بثه وهمه ويستفتح أبواب رحمته ويناجي ربه وهو سبحانه قريب منه "واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان" [6] ، ويستعين بعزيز غير ذليل ، ويسأل غنيا غير فقير ، وتكاد روح الخاشع في صلاته تشف ما وراء الحجب ، وتصفو حتى يسمع كلام الله تعالى يقرأ كأنه

---

١ سورة طه الآية ١٤.
٢ رواه الترمذي ـ الجزء الخاس ـ باب مثل الصلوات الخمس ص ١٥١ حديث رقم ٢٨٦٨.
٣ القرضاوي ـ المرجع السابق ص ٢١٤ـ٢١٥.
٤ سورة البقرة الآية ١٥٣.
٥ رواه أبو داود في باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل رقم ١٣١٩
٦ سورة البقرة آلاية ١٨٦

سبحانه يخاطبه مباشرة . وعن الصلاة قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين ، ولعبدي ماسأل فاذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله عز وجل : حمدني عبدي . فاذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى علي عبدي . فاذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدني عبدي . فاذا قال : اياك نعبد ، واياك نستعين . قال الله : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ماسأل . فاذا قال: اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله : هذا لعبدي ، ولعبدي ماسأل " [1] .

ويعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن قوة الصلة بين العبد وربه في الصلاة بقوله ان الرجل اذا دخل صلاته أقبل الله بوجهه ، فلا ينصرف عنه ، حتى ينقلب ـ يرجع ـ أو يحدث حدث سوء .

(٥) الصيام :

العبادات في الاسلام منها مايتمثل في القول كالدعاء وذكر الله تعالى ، وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، ومنها مايتجلى بدنيا كالصلاة وماليا كالزكاة او جامعا بينهما كالحج والجهاد في سبيل الله . ومنها ماليس قولا ولا فعلا، ولكنه كف وامتناع ، وذلك كالصوم الذي هو امتناع عن الأكل والشرب ومباشرة النساء من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، وهذا الامتناع والترك وان كان سلبيا في مظهره ، فهو ايجابي في حقيقته وروحه ، اذ هو كف النفس عما تشتهيه بنية القربى الى الله تعالى ، فهو بهذا عمل نفسي ارادي له ثقله في ميزان الحق والخير والقبول عند الله [2] .

وقد اختار الله للصيام في الاسلام شهرا ، زاده الله تكريما ، باصطفائه من بين سائر الشهور لينزل فيه أفضل كتبه الى خير خلقه صلى الله عليه وسلم قال تعالى "شهر

---

١ رواه الترمذي الجزء الخامس ـ باب من سورة فاتحة الكتاب ص ٢٠١ ـ حديث رقم ٢٩٥٣ .

٢ العبادة في الاسلام ـ ص ٢٧١ ـ بتصرف يسير .

رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر ، فعدة من أيام آخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" [١] .

والصوم ، وسيلة من وسائل الاسلام لتحرير المسلم من سلطان الغرائز والتغلب على نزعات شهواته ، والسمو بالروح الى أن يتشبه بالملائكة في الملأ الأعلى فيقربه اليه ربه ويكرمه بالاجابة لكل طلب يطلبه ، ففي الحديث : "ثلاثة لا ترد دعوتهم ،الصائم حتى يفطر ، والامام العادل ، ودعوة المظلوم" [٢] .

ثم ان الاسلام دين جهاد وكفاح متواصل لاحقاق الحق وابطال الباطل وأول عدة الجهاد هو الصبر والارادة القوية وان من لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوا ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على عدوه ومن لم يصبر على جوع يوم هيهات أن يصبر على فراق اهل ووطن ، من أجل هدف كبير . والصوم - بما فيه من تربية على الصبر والمصابرة وفطام النفوس من اغلال الشهوات والغرائز من أبرز وسائل الاسلام في اعداد المؤمن المرابط المجاهد الذي يتحمل الشظف والحرمان ، ويرحب بالشدة والخشونة وقسوة العيش مادام ذلك في سبيل الله [٣] .

وقد عرف سلفنا الصالح قيمة الصوم ، فاجتهدوا فيه وجنوا ثماره واستمدوا منه روح القوة وقوة الروح ، كان نهارهم نشاطا وانتاجا واتقانا وكان ليلهم تزوارا وتهجدا وقرآنا وكان شهرهم كله تعلما وتعبدا وجهادا واحسانا : ألسنتهم صائمة فلاتلغو برفث أو جهل ، وآذانهم صائمة فلا تسمع لباطل او لغو واعينهم صائمة فلا تنظر الى حرام او فحش وقلوبهم صائمة فلا تعزم على خطيئة او اثم وايديهم صائمة لا تمتد

---

١ سورة البقرة ١٨٥.

٢ رواه الترمذي في صفة الجنة باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها برقم ٢٥٢٨

٣ القرضاوي - العبادة في الاسلام ص ٢٧٦ - ٢٧٧ مع بعض التصرف .

بسوء أو أذى . ولو أنالمسلمين صاموا نهارهم وقاموا ليلهم في زماننا هذا كما كان يفعل سلفنا الصالح لخرجوا من شهر رمضان مغفورا لهم ولازدادوا تقوى وهدى ولأعانهم الله تعالى على عدوهم كما أعان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر بجنود لاقبل للعدو بمواجهتها - أما وان المسلمين يزداد غنيهم زيادة في الوزن لكثرة مايلتهمه من مأكولات ومشروبات ويزداد الفقير حسرة لما يراه من الخير الذي حرم منه - فقد حرموا خيرات هذا الشهر فظلوا يرسفون في أغلال الشهوات والملذات الدنيوية وتثاقلوا الى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا هدفا ومصيرا .

(٦) <u>الزكاة</u> :

الزكاة ركن من أركان الاسلام وفريضة لازمة يكفر من جحدها ، ويفسق من منعها ، ويقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها ، وحسبنا في هذا مافعله الخليفة الراشد أبوبكر الصديق رضي الله عنه في قتال القوم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، وقوله لكلمته المشهورة : "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليها" وكان قيامه بحروب الردة باجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بدليل انه لم ينقل عن أحد منهم ، انه توقف عن مشاركة الصديق رضي الله عنه في تلك الحروب .

فالزكاة في الاسلام ليست "تبرعا" أو "منّة" يتفضل به غني على فقير ، وانما هي حق معلوم لمستحقيها من مال الغني المالك النصاب ، وايتاء الزكاة - مع اقامة الصلاة والشهادة لله تعالى بالوحدانية ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة - عنوان الدخول في الاسلام ،واستحقاق اخوة المسلمين "فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم" [١] "فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين"[٢] .

---

١ سورة التوبة الآية ٥.

٢ سورة التوبة الآية ١٢.

والزكاة الى جانب أنها عبادة محضة لمن يوءديها طيبة بها نفسه ، جزء هام من نظام الاسلام الاقتصادي ، لعلاج مشكلة الفقر ومشكلة المال بوجه عام ولأهمية الزكاة في حياة المسلمين ، فقد حدد الاسلام بدقة متناهية الاموال التي تجب فيها الزكاة والحد الأدنى لما يجب فيه الزكاة ،ومتى تجبالزكاة في المال ، والمقدار الذي يجب اخراجه على كل منها ، والجهات التي تصرف اليها وفيها الزكاة . ولضمان وصول المال المزكى الى مصارفه المحددة جعل الاسلام أمر جباية الزكاة في يد والي المسلمين وجعل لجباتها ـ وهم العاملون عليها ـ سهما تأكيدا لهذا الحق ، وذلك لأن ترك أمر جمع الزكاة لأفراد الأمة المسلمة ، قد يوءدي الى عدم وصول المزكى لمستحقيها ، وقد يمتنع الفقير عن استلام حقه من مال الغني ، تعففا ، وفرارا من سوءال ذيالمال . ثم ان والي المسلمين أقدر على تقدير الجهات التي تصرف فيها الزكاة ، ومراعاة مصالح المسلمين فيها ، فالى جانب الفقراء تصرف الزكاة للموءلفة قلوبهم وفي سبيل الله ، وأولوا الأمر في الجماعة المسلمة هم الذين يقدرون هذه الأمور ويضعوا لها الأولويات[1].

فالزكاة فوائدها عظيمة وجمة ، وأجلها وانفعها الىجانب ماتقدم ذكره ان في أدائها طهارة لنفس الغني من الشح البغيض(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[2] وطهارة لنفس الفقير من الحسد والضغن على الغني الكانز لمال الله عن عباد الله "الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده"[3] ومن شأن الاحسان أن يستميل قلب الانسان ، كما ان من شأنه الحرمان في جانب والتنعم في جانب ان يملأ قلب المحرومين بالبغضاء والاضغان[4] . وتنعكس هذه الصورة المثلى التي تبعتها أداء الزكاة في نفس الغنى والفقير فيالمجتمع ، اذ ان المجتمع كله اغنياء وفقراء بمفهوم الاسلام ، ومن شأن ازالة الشح عن نفس الغني ، والبغض والحسد من نفس الفقير ، خلق مجتمع فاضل متماسك متحاب ومتعاون على البر والتقوى .

---

١ لزيادة الايضاح ـ انظرفقه الزكاة جـ٢ باب طريقة أداءالزكاة ص ٧٤٧ـ٧٩١ د. القرضاوي .
٢ التغابن الآية ١٦.
٣ الهمزة الآية ٢،٣.
٤ يوسف القرضاوي ـ نفس المرجع السابق ص ٢٥٩.

(٧) الحج :

ان ابراهيم عليه السلام قد عرف بأنه عدو الشرك ، ومحطم الأوثان ، ورمز التوحيد، وأبو الملة الحنيفية ، فملته هي الاسلام الخالص ، وهو الذي سمانا المسلمين من قبل ،وقد جعل الله بينه وبين المؤمنين من هذه الأمة روابط روحية تجعلهم ذاكرين لهذا الأب الجليل فضله [١] وسبقه في الدعوة الى توحيد الله ورفضه لكل صنوف الشرك "ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين . ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا" [٢] .

وفي ظل هذه المعاني والمشاعر الطيبة ،والروابط الوثيقة التي تربط المسلمين بالبيت الحرام ، وبانيه الأول ابراهيم عليه السلام ، فرض الله تعالى الحج على كل مستطيع وجعل تركه أو الاستخفاف به كفر بالله تعالى ، ومروقا من الدين الاسلامي الحنيف . "ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين" [٣] .

وأعمال الحج تبدأ بالاحرام من الميقات ، بنية الحج والتجرد من الثياب المعتادة والنداء بشعار الحج المشهور : "لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك" وهذا النداء ترجمة عملية للأمر الالهي الملقى على أبي الأنبياء ابراهيم الخليل بقوله تعالى : "واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ، ان لا تشرك بي شيئا ، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود،واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" [٤] .

---

١ القرضاوي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨٢.
٢ سورة آل عمران الآيات ٦٧-٦٨.
٣ سورة آل عمران الآيات ٩٦-٩٧.
٤ سورة الحج الآيات ٢٦-٢٧.

ومن أهم أعمال الحج بعد الاحرام ، الطواف بالكعبة المشرفة ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة في نهار التاسع من ذي الحجة ، ودون ذلك في الأهمية ، رمي الجمار والمبيت بمنى وذبح الهدى فضلا عن السنن المستحبات الواردة بالتفصيل بكتب الفقه [1].

"وقد كان كثير من الأعمال في حج الجاهليين توارثوه عن ملة ابراهيم عليه السلام ولكنهم خلطوا حقا بباطل ، وصالحا بسيء فحرفوا الحج عن وجهته وملأوا الكعبة - بيت التوحيد - بالأنصاب والأوثان واتخذوا هذه الأنصاب آلهة مع الله تعالى ، يعبدونهم ليقربوهم الى الله زلفى ونذروا لها وذبحوا باسمها وقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا - أي آلهتنا - ثم انهم اصطنعوا لهم في الحج تقاليد ما أنزل بها من سلطان منها طوافهم حول البيت عرايا ، زاعمين أنه لا يليق بهم أن يطوفوا ببيت الله بثياب ارتكبوا فيها الذنوب ، وحرموا على أنفسهم الطعام كالدسم وماوراء القوت .

"فلما جاء الاسلام نقى الحج من ضلالات الجاهلية وأدران الوثنية وجعله كله لله خالصا وحمل على هذا العرى المرزي ، وذلك التحريم للطيبات بغير اذن من الله" [2] وفي مثل هذا أنزل الله قوله تعالى "يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق" [3] .

ان المقصد الأول من كافة العبادات ، هو امتثال أمر الله تعالى ، والوفاء بحقه تعالى ، وفريضة الحج من أكثر العبادات اشتمالا على الأمور التعبدية البحتة التي لا تعرف حكمتها على وجه التأكيد ، ولكن هذا لا يعني أن ليس وراء هذه الشعيرة العظيمة ، آثار طيبة وفوائد جمة ، يشعر بها الأفراد والجماعات على السواء عند أداء مناسكها.

---

١ يراجع تفاصيلها وأحكامها بكتب الفقه المعتبرة عن جمهور المسلمين ومن أعظم هذه المراجع كتاب المغنى لابن قدامة الحنبلي .

٢ د. القرضاوي - نفس المرجع السابق ص ٢٨٣-٢٨٤.

٣ سورة الأعراف الآيات ٣١-٣٢.

لقد شاءت حكمة الذي لاتذركه الأبصار أن يتخذ لنفسه بيتا يزار فيه ، فاذا صورة مادية ترمز الى أسمى الغايات الروحية ، واذا العين ترى الأعمال الانسانية وهي تطوف حول معبود واحد ، وماكان الله ليرد زائريه في أي وقت ، ولذا شرع العمرة في جميع الأزمنة ، الى جانب الحج الذي جعله موءتمرا موقوتا بأشهر معلومات قال ابن عباس "واشهر الحج الذي ذكر الله تعالى شوال وذو القعدة وذو الحجة" [١] .

"ومن كريم رعاية اللهلهذا الموءتمر أن جعل أيامه الحاسمة حرما ، وجعل مكانه المرموق حرما ،وجعل لأعماله حرمة تسرى الى قلوب الحجاج أجمعين حينما يلبسون ثياب الاحرام ، فيصبحون سواسية في مقصدهم ومظهرهم ، وفي ظل هذه الحرمات يتحقق الأمن للمسافرين ، وتروج السوق للمتجرين ، ويطيب الوصال للزائرين ، وتختمر معاني الأخوة في نفوس المسلمين ، وتتاح لهم الفرصة ليدرسوا قضاياهم ويجددوا وسائلهم وأهدافهم وبهذا ينفض الموسم عن قلوب بعدالة الله مطمئنة وأرواح بأنوار اليقين مشرقة ،وآمال بعلو كلمة الله متفتحة ، وعزائم على الجهاد في سبيله متجددة ، وأواصر حول لوائه معقودة" [٢] .

وقد كان أناس من اليمن يستغلون موءتمر الحج في غير ماشرع له ، كانوا يخرجون للحج من غير زاد ويقولون : نحن متوكلون .. نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا ؟! فاذا قدموا مكة سألوا الناس ،وربما أفضى بهم الحال الى النهب أو الغصب [٣] . فنزل قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) [٤] ومن هنا وجب على الحاج أن يتزود من بركات الأرض قبل أن يتوجه للتزود من بركات السماء ، فمن أبى الا أن يستغل الأمن والرواج في سوق الحج فلا جناح أن يسلك سبيل الكسب الشريف بالتجارة أو نحوها ، وذلك هو المقصود بقوله تعالى : (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) [٥] . وانما ابيحت منافع التجارة وغيرها منوسائل الكسب الحلال دون منافع التسول وتكفف الناس لحكم تشريعية عظيمة نذكرمنها مايلي [٥] :

---

١ صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤٤.
٢ د.محمدعبده : العبادةفي الاسلام - ص ٢٩٣-٢٩٤،الطبعة الثالثة ،مكتبة الفلاح - الكويت .
٣ تفسير الخازن ج ١ ص ١٣٠.
٤ سورة البقرة الآية ١٩٧
٥ سورة البقرة الآية ١٩٨

(١) ان من أهداف الحج ابراز المساواة بين المسلمين ، ولاشك أن مدّ الأيـــدي بالسوءال يجعل الفرق واضحا بين الأيدي العليا المنفقة ، والأيدي السفلى المتكففة.

(٢) ان موسم الحج هو مصدر الرزق السنوي لفقراء الحرم ، فلو أننا شرعنا لغيرهم أن يتسولوا لزاحموهم في موردهم الوحيد وهددوا أمنهم وحياتهم .

(٣) ان معظم الحجاج غرباء ، ومن الحرج أن يمتحن استعدادهم المحدود في وقت تصل فيه النفوس الى ذروة الجود ، وقد تبذل ماهي في حاجة ماسة اليه .

المبحث الثاني : أسس العبادة الصحيحة

أولا : أن تكون عملا صالحا :

أكد القرآن الكريم على ضرورة حصر العبادة لله وحده فقال تعالى (وقضى ربّك ألا تعبدوا الا ايّاه) [1] وقال (أمر ألا تعبدوا الا اياه) [2] وقال (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) [3] وقال (يعبدونني لا يشركون بي شيئا) [4] . (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [5] ـ وكل أنواع العبادة من ذكر ودعاء وصلاة وذبيحة انما تكون لله وحده ، ولا تجوز لغيره ، فلا يصلي الا لله ، ولا يدعو الا الله ، ولايذبح الا باسم الله ، وكل مافيه معنى العبادة والتقديس المطلق فلا يكون الا لله . وفي هذا المعنى يقول الامام الرازي [6] : "ان العبادة عبارة عن نهاية التعظيم ، وهي لا تليق الا بمن صدر عنه غاية الانعام ، واعظم وجوه الانعام : الحياة التي تفيد المكنة من الانتفاع ، واليها الاشارة بقوله تعالى "وقد خلقتك من قبلولم تكن شيئا" [7] وقوله : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) [8] وخلق ماينتفع من الاشياء واليها الاشارة بقوله تعالى : (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا) [9] .

والمتأمل في كتاب الله تعالى ، يلاحظ أن ثمة ألفاظ خصها الله بذاته ولم يجعلها لغيره وذلك مثل قوله (حسبي الله) ـ و (توكلت على الله) ، وحصر أمورا بذاته العلية ولم يشرك فيهاغيره ككشف الضر واجابة دعاء المضطر (ام من يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أاله مع الله قليلا ماتذكرون) [10] ، وكغفران الذنوب كقوله "ومن يغفر الذنوب الا الله" [11] وقوله تعالى (اذا مسكم الضر في البحر ضل من

---

١ سورة الاسراء الآية ٢٣.
٢ يوسف الآية ٤٠.
٣ سورة النساء الآية ٣٦.
٤ سورة النور الآية ٥٥.
٥ سورة الكهف الآية ١١١.
٦ الفخر الرازي ـ التفسير الكبير ج ١ ص ٢٤٢ بتصرف يسير .
٧ سورة مريم الآية ٩.
٨ سورة البقرة الآية ٢٨.
٩ سورة البقرة الآية ٢٩.
١٠ سورة النحل الآية ٦٢.
١١ سورة آل عمران الآية ١٣٥.

تدعون الا اياه) [١] وقوله (اذ تستغيثون ربكم) [٢] وكالتوكل في قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [٣] في حين انه سبحانه استعمل لفظ الطاعة والاستجابة بحق الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك كقوله (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) [٤] وقوله تعالى(اطيعوا اللهواطيعوا الرسول) [٥] وكطلبه الاستغفار ، وهو طلب الغفران ، ويلتبس على بعض العوام الفرق بين "غفر"و"استغفر"ـ فغفر،ويغفر،لا يكون فاعله الا الله أما الاستغفار فيكون لنفسه ولغيره من الناس ، كأن يستغفر لنفسه ولوالديه وللموءمنين ، ويمكن أن تطلب من انسان صالح أن يدعو الله لك ويستغفر لك وهذا معنى قوله تعالى "سأستغفر لك ربي" [٦] وقوله تعالى "ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما" [٧] أي استغفر الرسول لهم الله ــ أي دعا لهم وطلب منه أن يغفر ذنوبهم [٨] .

ومن أجل المحافظة على هذا الأساس منع الاسلام كل مايوءدي الى عبادة البشر أو يفسح المجال لالتباس عبادة الله بعبادة البشر ، كتحريم الركوع والسجود لغير الله ، وتحريم الذبيحة التي ذكر عليها اسم غير الله ، أو جعلت لغير الله ، وكتحريم اشادة المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وتحريم تشييد القبور ورفعها وكتحريم التماثيل والصور للأنبياء والصالحين والعظماء وتحريم الحلف لغير الله والنذر بغير الله تعالى[٩].

ثانيا : أن تكون خالصة لله :

ان أساس القبول لأيّ عبادة هو اخلاص القلب لله تعالى ، فاذا لم يصدق قلب الموءمن في عبادته ، ولم يخلص النية لخالقه رد العمل على صاحبه لزيفه ، كما يرد الدرهم

---

١ سورة الاسراء ٦٧.
٢ سورة الأنفال ٩.
٣ سورة الطلاق ٣.
٤ سورة الأنفال ٢٤.
٥ سورة الأنفال
٦ سورة مريم ٤٧.
٧ سورة النساء ٦٤.
٨ انظر محمد المبارك ــ نظام الاسلام ص ١٨٣ بتصرف يسير .
٩ انظر (العبادة في الاسلام مفهومها وخصائصها ص ٤٥.

المزيف على صاحبه ـ قال تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)[١]. (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) [٢] . (قل الله أعبد مخلصا له ديني) [٣] "والقلب هو الأساس في الاسلام ، وهو موضع نظر الله تعالى ، ومحل عنايته ، وهو مستند القبول والفلاح" [٤] وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (ان الله لاينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم" [٥] "ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهو القلب" [٦] ويقول الله تعالى في كتابه العزيز "وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود" [٧] .

والنية الخالصة لا تقتصر على العبادات المخصوصة المحضة كالصلاة والصيام والحج وتلاوة القرآن والذكر والجهاد ، بل تتعداها الى كل عمل شرعه الله ليتعبد به ويتقرب اليه ، فقد روى الطبراني باسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال "كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها "ام قيس" فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر ، فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه "مهاجر ام قيس" [٨] وفي هذا الشأن حدث النبي صلى الله عليه وسلم الحديث الجامع الذي افتتح به الامام البخاري رحمه الله جامعه الصحيح : "انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة اينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه" [٩] .

والنية الخالصة في العبادة بركتها عظيمة ، لأنها قد تتعدى صاحبها الى غيره فتحدث آثارا طيبة ، وعن هذا المعنى قص النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه قصة رجل مخلص أراد أن يتستر بصدقته ،ويعطيها تحت ستار الليل ، حيث يكون في مأمن من

---

١ سورة البينة الآية ٥.
٢ سورة الزمر الآية ٢.
٣ سورة الزمر الآية ١٤.
٤ القرضاوي ـ العبادة في الاسلام ص ١٥٩.
٥ رواه مسلم ـ صحيح مسلم
٦ فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١ ص ١٣٤ كتاب الايمان .
٧ سورة ق الآية ٣٣-٣٤.
٨ صحيح البخاري ج ١ ص ٢.
٩ البخاري ـ باب الايمان ج ١ ص ٢.

رياء الخلق، وابتغاء المحمدة والشهرة عند الناس ، ولكنه أخطأ السبيل ، فوضعها في غير موضعها ، وأعطاها من لايستحقها ، ولكن صدق نيته واخلاصه نفعه وبارك عمله ، فلم تذهب صدقته سدى ولم تضع هباء [1] . فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قال رجل لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ! فقال : اللهم لك الحمد على سارق ؟! - لاتصدقن بصدقه - فخرج بصدقته فوضعها على زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ! فقال : اللهم لك الحمد على زانية ؟ لاتصدقن بصدقة - فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ! فقال اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني . فأتى - أي في المنام - فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله" [٢] .

وبمثل هذه القصص كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه أن اخلاص النية في العمل هو أساس الخير ، وميزان القبول عند الله تعالى لاعمال عباده .

ثالثا : أن تكون وفق ماشرع :

ان اخلاص العبادة لله تعالى وحده لا يكفي لصحة العبادة وقبولها ، بل لابد من أن تكون هذه العبادة على الوجه الذي شرعه الله تعالى ، وبالكيفية التي ارتضاها - يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : "جماع الدين أصلان : ألانعبد الا الله ، ولانعبده الا بما شرع - لا نعبده بالبدع ، كما قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [٣] - وذلك تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا اله الا الله ، وشهادة أن محمدا رسول الله . ففي الأولى : ألا نعبد الا الله - وفي الثانية - ان محمدا رسوله المبلغ عنه ، فعلينا ان نصدق خبره ونطيع أمره ، وقد بين لنا مانعبد

---

١ القرضاوي - العبادة في الاسلام ص ١٦٢.
٢ صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٩٠ باب اذا تصدق على غني وهو لايعلم
٣ سورة الكهف الآية ١١٠.

وخضوع له ، وتنفيذ بأمره ، اشعارا بعبوديتنا له ، فهو الحاكم الآمر ، وهذا معنى قول الفقهاء أن هذه الأمور تعبدية - أي أنها ليست مربوطة بعلة ظاهرة كما هو الشأن في بعض أحكام المعاملات ، وانما تفعل تنفيذا للأمر الالهي ، لذلك لم يبحث الفقهاء في سبب تخصيص كل صلاة من الصلوات الخمس بعدد الركعات ، ولا في تحديد مدة الصيام ، ولا في عدد المرات في الطواف وفي السعي في الحج - ولا في رمي الجمرات وترتيبها وأيامها ..." [١] .

ويجب أن لا يفهم من كون الشعائر التعبدية توقيفية ، وقائمة على اخلاص العبادة لله تعالى وحده ، وبالصورة التي شرعها الله بها ، انها قد سلمت جانب التبديل والتحريف وادخال مالم يأذن به الله - ذلك أن الانسان بطبعه وفطرته جهول وعجول ، ومعرض للخطأ والنسيان ، لذلك حرص الاسلام الحنيف على وضع ثلاثة أمور ينبغي مراعاتها ليحفظ بها على المسلمين عباداتهم وهي :

الأمر الأول : تحريم الابتداع في العبادة :

الابتداع في الدين - بتشريع مالم يأذن به الله ، بادخال عبادة جديدة أو اضافة زيادة على عبادة مشروعة - ممنوع ومذموم ، وقد حرمه الاسلام أشد التحريم ، باعتباره مدخل الشيطان الى عامة المتدينين لافساد عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ونياتهم .

فعن طريق الابتداع وبحجة أنها تقربهم الى الله زلفى ، اتخذ مشركو العرب الأوثان وعبدوا الأحجار والأصنام ، وطافوا بالبيت عراة كما ولدتهم أمهاتهم رجالاونساء وحرموا على أنفسهم ماأحل الله من طيبات الحرث والأنعام ، وأجازوا ذبح أولادهم وفلذات أكبادهم [٢] ، فعلوا كل ذلك تقربا الى الله تعالى فيما زعموا ، وقد وردت نماذج من هذه المبتدعات والمحرمات بسورة الأنعام نذكر منها هذه الآية : قال الله تعالى :

---

١ محمد المبارك - المرجع السابق ص ١٨٧-١٨٨.

٢ القرضاوي - العبادة في الاسلام ص ١٦٩.

(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله مافعلوه ، فذرهم ومايفترون . وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها الا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا مافي بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، انه حكيم عليم ـ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وماكانوا مهتدين) [1] .

وعن طريق الابتداع وبحجة التقرب الى الله تعالى ادخل النصارى نظام "الرهبانية" [2]، بما فيه من غلو وعتو وقسوة على الطبيعة البشرية ، ومخالفة للفطرة الانسانية وقد رد الله تعالى عليهم اجتهادهم في العبادة وعملهم ، لأنهم أظهروا العبودية له سبحانه بغير ماكتب عليهم وشرع لهم . فقال تعالى "ورهبانية ابتدعوها ، ماكتبناها عليهم.." [3]

أما تحريم الابتداع في العبادة ، والتشديد في الأمر باتباع ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حفظ على المسلمين عبادتهم ، وصانها من التحريف أو التبديل والزيادة أو النقصان ، وهذه الميزة التي ظفرت بها العبادات في الاسلام لم يظفر بها دين من الأديان ، وكل العبادات في شتى الديانات قد خضعت لتحريف السدنة ،وألاعيب الكهنة ، وغلو العامة ، حيث لم تجد من يقول للمبتدعين : قفوا عند حدود الله ، ولاتشرعوا مالم يأذن به الله [4] .

وهذا القول الذي ذهبت اليه لا يعني أن المسلمين قد سلموا من الابتداع في دينهم بما لم يأذن به الله ، ولكنهم بفضل الله ومنته ، وجدوا في كل عصر من يجهر فيهم بالحق ويردهم الى كتاب الله وسنة رسوله ، ويحي فيهم السنة ويطارد البدعة تصديقا لوعد الله

---

١ سورة الأنعام الآية ١٣٦-١٤٠.
٢ انظر أبو الحسن على الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الصفحات ١٥٥ ، ومابعدها لتقرأ نماذج وصور من جنوح النصرانية بالابتداع .
٣ سورة آل عمران الآية
٤ القرضاوي ـ العبادة في الاسلام ص ١٧١.

تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وأخبار نبي الهدى صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف (ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يحدد لها أمر دينها"[١].

وقد وقف أئمة الاسلام في وجه كل بدعة يراد لها أن تظهر في عبادة ، حتى وان بدت صغيرة في عين الرائي ، خشية أن تؤدي الى كبيرة ومن أمثلة ذلك ـ أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا أبا عبدالله ، من أين أحرم ؟ فقال : من ذي الحليفة (مكان احرام أهل المدينة) ، من حيث أحرم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال اني أريد أن أحرم من المسجد . فقال : لا تفعل . قال : اني أريد أن أحرم من المسجد عند القبر (يقصد قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم) ـ فقال مالك رضي الله عنه : لاتفعل فاني أخشى عليك الفتنة ! قال الرجل : وأيّ فتنة هذا وانما هي أميال أزيدها ! فقال مالك : وأيّ فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم . اني سمعت الله تعالى يقول "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" [٢] .

وقد ورد عن الامام مالك انه قال : "من أحدث في هذه الأمة مالم يكن عليها سلفها ، فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خان الدين لأن الله تعالى يقول (اليوم أكملت لكم دينكم) [٣] فما لم يكن يومئذ دينا ، فلا يكون اليوم دينا" [٤] .

فاذا كان الدين قد أكمله ، واتم به النعمة ، فلامجال فيه لأحداث زيادة ، لأن الكامل لا يقبل الزيادة ، ومحاولة الزيادة عليه اتهام له بعدم الكمال [٥] .

<u>الأمر الثاني : الغلو في الدين :</u>

ان الله سبحانه وتعالى فرض على الناس عبادته ، والتقرب اليه عن طريق أداء الشعائر التعبدية المفروضة ، والمسنونة ، وبالهيئة التي أمر بها ، ولكنه

١ رواه أبو داود والحاكم وصححه البيهقي عن أبي هريرة .
٢ سورة النور الآية ٦٣.
٣ سورة آل عمران ـ الآية
٤ الشاطبي الاعتصام جـ١ ص ١٠٩
٥ القرضاوي ـ المصدر السابق ص ١٧٤.

سبحانه لم يأمر باتخاذ هذه العبادات الشغل الشاغل في الليل والنهار ، وترك ماسواها من أمور المعايش ، وحقوق الآخرين من الأهل والأولاد أجمعين بل ذمه ودعا الى التوسط بين التفريط في العبادة والافراط والمغالاة فيها .

فقد حكى الامام مسلم في صحيحه قصة عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مع زوجته وكان عبدالله شابا صالحا ورعا نزاعا الى العبادة والصيام والقيام ، فذهب أبوه "عمرو بن العاص" يسأل زوجه عن حاله معها . فقالت في أدب : نعم الرجل عبدالله لم يطأ لنا فراشا منذ جئناك ؟! وشكا عمرو ابنه عبدالله الى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه فجاء ...

يقول عبدالله عن نفسه قال : كنت أصوم الدهر ، وأقرأ القرآن كل ليلة ، فلما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال : ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت : بلى يارسول الله ولم أرد بذلك الا الخير . قال : فانه بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . قلت : يانبي الله اني أطيق أكثر من ذلك . قال : فان لزوجك عليك حقا ، ولزَوْرِك[1] عليك حقا ، ولجسدك عليك حقا ، قال - فصم صوم داود نبي الله ، فانه كان أعبد الناس . قلت : يانبي الله وماصوم داود ؟ قال : كان يصوم يوما ، ويفطر يوما . وهو أحب الصيام الى الله ...."[2] .

وهكذا بين الرسول صلى الله عليه وسلم لعبدالله أن للحياة حقوقا يجب أن تؤدى كما أن للآخرة حقوقا يجب أن تراعى ، والمطلوب هو التوسط واعطاء كل ذي حق حقه .

<u>الأمر الثالث : اليسر ورفع الحرج :</u>

مامن دين خلا من العبادة لله ، لكن الأديان القديمة حسب أتباعها ، أن الدين يطالبهم بايذاء أجسامهم وتعذيبها ، وان الغرض من العبادة ادخال الألم على الجوارح ، وان الجسم اذا ازدادت آلامه كان ذلك طهارة للروح ونزاهة للنفس ، وعن هذه العقيدة نشأ

١- الزَّوْر : الزائر ومنه يقال رجل زائر وقوم زور .

٢) سليمان الندوي - الرسالة المحمدية - المحاضرة الثامنة ٢٤١ ومابعدها ط ٢ دمشق .
والحديث في البخاري جـ ٥ ص ١٠٢ في الصوم باب صوم الدهر ، وباب حق الضيف في الصوم وباب حق الأهل في الصوم ... الخ .

التبتل عند الهنادك ،والرهبانية عند النصاري ، وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الأقدمون الى الآلهة ، فكانوا ينذرون لآلهتهم قرابينبشرية تذبح كالأضاحي ، استرضاء للآلهة ، فاذا سفكت الدماء لهذا الغرض نثرت على الأوثان ، وربما أحرقت لحوم الأضاحي وجمرت الاصنام وبخرت بدخانها ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحي .

فلما جاء الاسلام الحنيف رفع القيود والأصار التي فرضتها أصحاب تلك الديانات على أنفسهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : "يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والاغلال التي كانت عليهم"[١] وأمتن الله تعالى برسوله على الناس "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"[٢] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم معرفا برسالته "بعثت بالحنيفية السمحة" "فهي حنيفية في العقيدة وسمحة في التكاليف والاحكام"[٣].

وانما خصها الله تعالى بالسماحة والسهولة واليسر ، لأنه أرادها رسالة للناس كافة ، في جميع الازمان والاقطار والعموم والخلود لابد لهما من تيسير وتخفيف ورحمة يحقق الغاية والقصد من الرسالة . ويوافق الفطرة الانسانية الضعيفة المتغيرة والمتقلبة حسب مايحيط بها من بيئات وظروف ، فضلا عن هذا فان الانسان المخاطب بالرسالة في أول عهدها هو الانسان المخاطب اليوم ،والى أن يرث الله الأرض ومن عليها وطبيعة النفس البشرية واحدة من حيث مطالبها الجسدية والعقلية والروحية .

واليسر ورفع الحرج واضح في شريعة الاسلام عامة ، وفي العبادات خاصة[٤] ، ففي نهاية آية الطهارة من سورة المائدة "مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون"[٥] وفي ختام آية الصوم يقول الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"[٦] .

---

١ سورة الاعراف الآية ١٥٧.
٢ سورة التوبة الآية ١٢٨.

٣،٤ القرضاوي ـ نفس المصدر السابق ص ١٨٨.
٥ سورة المائدة الآية ٦.
٦ سورة البقرة الآية ١٨٥.

ومن أوصافه صلى الله عليه وسلم انه "ماخير بين أمرين قط الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما" ومن اقواله صلى الله عليه وسلم "ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وابشروا" [١] .

"واذا كانت وجهة الدين هي التيسير ، فكل مسلم يبغى التشديد والتعنت انما يعاند روح الاسلام ، ولهذا وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في وجه المتعنتين والمتشددين واخبرهم بهلكتهم ووبالهم [٢] " وقال صلى الله عليه وسلم "ألا هلك المتنطعون ، الا هلك المتنطعون ، الا هلك المتنطعون" . ولم يكرر الكلمة ثلاثا الا لعظم خطر مضمونها ولكن ينبغي أن لا يفهم من هذا ، ان عدم التشديد يعني التراخي وعدم الحرص على تحري الحق والصواب والسنة الصحيحة ، والالتزام بها ، فالأمر المطلوب وسط بين الغلو والتساهل وبين الافراط والتفريط وعدم الحرص فلننتبه لذلك .

والاسلام الحنيف رفع الحرج عن أمته ، وصدعنا تيار التزمت والتشديد لأمرين عظيمين ذكرهما الامام الشاطبي في الموافقات [٣] :

<u>الأمر الأول</u> : الخوف من الانقطاع في الطريق وبغض العبادة وكراهة التكليف وينتظم تحت هذا المعنى من ادخال الفساد عليه في جسمه أو عقله ، او ماله أو حاله ، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم "عليكم من الأعمال ماتطيقون فان الله لايمل حتى تملوا) [٤] . وفي حديث قيام رمضان وانقطاعه عن الصلاة بهم في المسجد قال عليه الصلاة والسلام "اما بعد فانه لم يخف عليّ شأنكم ، ولكن خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل ، فتعجزوا عنها" [٥] .

فالعلة من التيسير واضحة ، وهي خوف السآمة والملل والعجز وبغض الطاعة وكراهيتها وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه

---

١ البخاري عن أبي هريرة جـ ١٠ ص ١٠٩
٢ القرضاوي ـ نفس المصدر السابق ص ١٨٩ .
٣ الشاطبي ـ الموافقات ـ الجزء الأول ص ٢١٤ ـ ٢١٧
٤ رواه البخاري جـ ٢/ ٢٧٩ من التهجد باب مايكره من التشديد في العبادة .
٥ رواه البخاري جـ ٢ ص ٢٢٠ من صلاة التراويح

قال "ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا الى أنفسكم عبادة الله فان المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" [١] .

الأمر الثاني : خوف التقصير في الواجبات الأخرى ، عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالمكلف المختلفة الألوان ، مثل قيامه على أهله وولده الى تكاليف أخرى،فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلا عنها ، وقاطعا بالمكلف دونها ، وربما أراد أن يقوم بهذه وتلك على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما معا .

---

١ رواه أحمد والبيهقي .

المبحث الرابع : الوظائف الأساسية للعبادة :

ان الله سبحانه ، غني عن العالمين ، لا تنفعه عبادة من عبده ، ولايضره اعراض من صد عنه ، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين ، فهو الغني ونحن الفقراء اليه ، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : "ياعبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد مازاد ذلك في ملكي شيئا . ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد مانقص ذلك في ملكي شيئا" [1] ـ ويقول سبحانه "ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين" [2] وقال تعالى (ياأيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد" [3] .

ومادمنا قد أيقنا ان الله غني عن عبادة الناس له ، فلماذا فرض الله هذه الشعائر ؟! وماهي الوظائف التي تؤديها هذه العبادات لمن يمتثل لها ويؤديها كما أمر ؟!!

العبادات في الاسلام تؤدى امتثالا لأمر الله تعالى ، وأداء لحقه على عباده وشكرا لنعمه التي لا تحصى ، والعبودية بهذا المفهوم هي شعار الايمان بالغيب ولو لم تره ، والطاعة لأمره ولو لم تحط بسره ،فالله تعالى غني عن عباده كل الغنى ، واذا تعبدهم بشيء ، فانما يتعبدهم بما يصلح أنفسهم ويعود بالخير في حياتهم الروحية والمادية الفردية والاجتماعية الدنيوية والأخروية ،بيد أنه قد تخفى حكمة الله تعالى في علاه على البشر ، فكما أخفى الله تعالى كثيرا من أسرار الكون عن الانسان ، أخفى بعض أسرار ماشرع ليظل الانسان متطلعا باشواقه ، وراء المجهول ، آملا في الوصول

---

١ صحيح مسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم برقم ٢٥٧٧ ، والترمذي برقم ٢٤٩٧ . باب رقم ٤٩ .

٢ سورة آل عمران الآية ٩٧.

٣ سورة فاطر ١٥.

معترفا بالقصور ، وليظل دائما في دائرة العبودية المؤمنة التي شعارها دائما "سمعنا واطعنا غفرانك" [١] .

ان الذي نؤمن به ونقره ان الله سبحانه وتعالى ، لا يأمرنا الا بما فيه خيرنا وصلاحنا نحن المخلوقين ، فضلا عن حقه تعالى ، في أن يفرض علينا مايشاء ،يكلفنا بحكم خلقه وانعامه علينا . وامره كله خير ، علمنا العلة الكامنة فيه ، والفائدة الملموسة منها أم لم نعلم -

فما هي الوظائف التي تؤديها العبادة فيمن يؤديها بحقها ؟

الوظائف كثيرة والفوائد جمة ولكل أن ينظر الى العبادة من زاوية معينة فيرى لها فوائد ومزايا ، ووظائف - ولهذا أود أن أتخير بعض وظائفها وأتحدث عنها بايجاز قدر الامكان :

أولا : العبادة تزكية للروح :

ان جوهر الانسان ولبه هو الروح ، وهذا الجوهر دائم الشعور بالحاجة الى الله خالقه ، لأنه لا تزكية له ولا حياة الا بمناجاة الله عز وجل ، وعبادته بما شرع وأوجب وفي المعنى يقول ابن تيمية رحمه الله : "القلب فقير بالذات الى الله من وجهين : من جهة العبادة ، ومن جهة الاستعانة والتوكل ، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ، ولاينعم ولايسر، ولايلتذ ، ولايطيب ولا يسكن ، ولا يطمئن الا بعبادة ربه ، وحبه والانابة اليه ، ولو حصل له كل مايلتذ به من المخلوقات ، لم يطمئن ولم يسكن ، اذ فيه فقر ذاتي الى ربه بالفطرة ، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ،وبذلك يحصل الفرح والسرور واللذة والنعمة ، والسكون والطمأنينة ، وهذا لا يحصل له الا باعانة الله له ، فانه لايقدر على تحصيل ذلك له الا الله - فهو دائما مفتقر الى حقيقة "اياك نعبد واياك نستعين" فانه لو أعين على حصول كل مايحبه ويطلبه ويشتهيه ، ويريده ، ولم يحصل له عبادة لله ،

---

١ القرضاوي - نفس المصدر السابق ص٢٠٦-٢٠٨ .

فلن يحصل الا على الألم والحسرة والعذاب ، ولن يخلص من آلام الدنيا ، ونكد عيشها الا باخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله غاية مراده ، ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ماسواه انما يحبه لأجله ، لا يحب شيئا لذاته الا الله" [1] .

فالانسان كلما أخلص العبودية لله وحده وجد نفسه ، واهتدى الى ربه والى سر وجوده ، وجد حلاوة الايمان ، وكلما ازداد الانسان عبادة ، ازداد ايمانا وتعلقا بربه ، وازداد قلبه طهرا ونقاء ، ولايزال المؤمن يجاهد نفسه وهواه ،ويتقرب الى الله حتى يصل الى الاحساس بلذة القرب والمناجاة فتصبح الصلاة في حسه لقاء تهفو اليه نفسه ، وتجد فيه الانس والسكينة والراحة [2] . ويتبين أثر العبادة في تزكية الروح بوضوح في الحديث الذي يرويه البخاري رحمه الله .. "ماتقرب اليّ عبدي بشيء أحب اليّ مما افترضته عليه ، ومايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل ، حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ،وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ،وان سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه" [3] .

وهي تزكية واقعية تجعل من الفرائض قدرا مشتركا للجميع ، ثم يترك الباب مفتوحا للتسامي والارتقاء في سلم الدرجات بالنوافل لمن يشاء حتى يصبح العابد ربانيا مسددا [4] .

" ان الذي يتذوق طعم الايمان لا ينظر الى العبادة على أنها مجرد خضوع وطاعة ، فحسب ، انه يجد فيها تلذذا بمناجاة الله وطاعته والسعي في مرضاته ، ويجد في ذلك سعادة روحية تفوق سعادة أصحاب القصور والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة" [5] .
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظر فريضة الصلاة في لهف وشوق ، ويقول لبلال رضي الله عنه اذا حان وقتها : "أرحنا بها يابلال" [6] . وقالت عائشة رضي الله عنها ، كان

---

١ ابن تيمية - العبودية ١٠٨-١٠٩.
٢ محمد شديد - منهج القرآن والتربية ص ٢١٥.
٣ رواه البخاري في صحيحه جـ ١١ / ٢٩٧ ح ٦٥٠٢ في كتاب الرقاق باب التواضع
٤ منهج القرآن في التربية - محمد شديد ص ٢١٦.
٥ القرضاوي - نفس المصدر السابق ص ١٠١.
٦ رواه أبو داود في كتاب الأدب - باب في صلاة العتمة برقم ٤٩٨٥ و ٤٩٨٦ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه،فاذا حضرت الصلاة ،فكأنه لايعرفنا ولانعرفه فلا عجب أن يقول عليه السلام جعلت قرة عيني في الصلاة" [١]

ان المؤمن ليجد في عبادة ربه في ساعة الشدة، سكينة ، وأنسا ، لوحشته وانشراحا لصدره وتخفيفا عن كاهله" [٢] ونجد مصداق ذلك في قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : "ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين" [٣] . قوله سبحانه على العبادة اذا ضاق صدره بأقاويل المتقولين وافتراءات المفترين فكأن الله تعالى يقول لنبيه توجه الى ربك تجد السلوى والأنس .

ثانيا : التوازن بين مطالب الروح والبدن :

التوازن والاعتدال بين مطالب الروح والبدن ، أو بين الدين والدنيا هو من الخصائص العظيمة التي تميز بها دين الاسلام عن سائر الأديان الأخرى ، ذلك أن النفس البشرية لا تنصلح الا باحداث هذا التوازن بين المطلبين ، ولقد رعا الاسلام هذا الجانب وأولاه عناية خاصة ، لاصلاح ما أفسده محرفو الأديان التي سبقت الاسلام وذلك من خلال العبادة الشاملة التي أسبغ الاسلام صبغتها على جميع أعمال الانسان المسلم اذا قصد بها وجه الله تعالى ومرضاته وعملت على وجهها المشروع . فالزارع والصانع والتاجر والطبيب والمهندس والعامل والموظف والمعلم والمتعلم ، كلهم يعملون أعمالا دنيوية ولكن أعمالهم هذه تعتبر عبادة ماداموا يقصدون بها نفع عباد الله والاستغناء عن الناس واعالة العيال وما أشبهها من المقاصد المشروعة .

فالمعلوم أن اليهود اقتصر جل همهم على المطالب المادية ، وتعلقوا بالنزعة المادية الخالصة كالثراء المادي وطول العمر والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب والمتع الدنيوية الحسية العاجلة ، ولا تكاد تجد للروحانية أثرا في حياتهم ، حتى

١- رواه النسائي ج ١ ص ٦١ باب حب النساء والحديث رقم ٢٩١٢ جامع الاصول ٤/٦٦ ٧ .
٢ القرضاوي نفس المصدر ص ١٠٢.
٣ سورة الحجر الآية الأخيرة .

اعتراضاتهم التي سجلها القرآن الكريم لهم على خالقهم تركزت في الجوانب المادية ، ونورد هنا طائفة من الآيات التي وردت في ذكر اليهود وماديتهم [١] . فقال جل وعلا : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) [٢] وقال سبحانه (قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) [٣] . وقال عز من قائل : (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون) [٤] . وقال تعالى في معرض وصف بعض أخلاقهم : (.... سماعون للكذب أكالون للسحت ، فان جاءوك فأحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ...) [٥] .

فالمتتبع لآيات القرآن الكريم المخاطب بها بني اسرائيل مباشرة يجد بوضوح انها تذكرهم في أكثرها بنعم الله عليهم من ارسال الرسل عليهم ، ونجاتهم من الغرق، وانزال المن والسلوى والطيبات من الرزق ، ويسجل اعتراضهم عن كل ذلك ،وقولهم قلوبنا غلف، وقولهم لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ،وقولهم نحن أبناء الله واحباوءه كل ذلك ليصدوا عن التوجه الى الله بصدق وعزيمة . حتى النصوص التي تتحدث عن جزاء الأعمال في التوراة أكثرها مادية ، وليس للأجزية الروحية ولا الأخروية مكان في التوراة [٦] .

فاذا انتقلنا الى الانجيل وجدنا أن دعاته انتقلوا بتعاليمه الى النقيض مما عليه اليهود ،وحملوا مشعل دعوة قوية الى الغاء قيمة هذه الدنيا واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى للانسان . وجعلوا محور دعوتهم طلب النجاة والسعادة في العالم الآخر وزعموا أن من أراد الآخرة فعليه رفض كل سبب ونصيب في هذه الدنيا فليس للبدن حق، ولا يعطى لعمارة الأرض وتهيئة أسباب الحياة فيها دور . وابتدع اتباع النصرانية نظاما لم تعرفه الأديان السابقة وهو نظام الرهبانية بمافيه من قسوة على النفس وتحريم للزواج

---

١ انظر العبادة في الاسلام ص ١٧٥.
٢ سورة المائدة الآية ٦٤.
٣ سورة الجمعة الآية ٨.
٤ سورة البقرة الآية ٩٢.
٥ سورة المائدة الآية ٤٢.
٦ انظر العبادة في الاسلام ص ١٧٦.

وكبت للغرائز، ومصادرة للنزوع الى الزينة والطيبات من الرزق ، وانتشر هذا النظام العاتي ،وكثر اتباعه واصبح مما يتعبدون به لله ويتقربون به اليه : البعد عن النظافة واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجسا من عمل الشيطان .

وقد حكى الداعية المجاهد السيد أبو الحسن علي الندوي صورا لجموح الرهبانية وغلوها ، تقشعر منها الجلود ، وتفزع لها القلوب ، وتدهش العقول ، نقلا عن تاريخ اخلاق أوربا" لموءلفه "بيكى" وهو عبارة عن محاضرات متتالية ألقيت عن تاريخ النصرانية والرهبانية التي كانت تعيشها الرهبان . وهذه الصور تأكيد لما سبق ذكره عن جنوح الرهبان الى نبذ الدنيا نبذا كاملا [٢] .

هكذا كانت اليهودية في اغفالها للآخرة وللروح وهكذا كانت المسيحية في تحقيرها للدنيا ومتاعها ونعيمها وللجسد وحقها (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) [٣] فلما جاء الاسلام كانت سمته التوازن والاعتدال في كل الآفاق والنواحي ، الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة لكل زمان ومكان وتشريع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد والبيئات في مختلف شئون الحياة . الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد ، بين بواعث الدين ، ومطالب الدنيا الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة [٤] .

لم يطلب الاسلام من المسلم المثالي أن يكون راهبا في دير ، أو عابدا في خلوة ليله قائم ونهاره صائم كل صمته فكر وكل كلامه ذكر ،وكل نظره تأملات ، لاحظ له في الحياة ولاحظ للحياة فيه ، وانما طلب من المسلم أن يكون انسانا عاملا في الحياة يعمرها ويرقيها ، طلب منه أن يسعى في الأرض ويلتمس الرزق في حباياها زارعا وصانعا وتاجرا وعاملا أو محترفا بأيّ حرفة نافعة ، ولكنه اشترط عليه أن لا تذهله مطالب الحياة عن واهب الحياة [٥] . عليه ألا يقدم حق الجسد عن حق الروح ، عليه ألا ينسى الله

---

١ د. يوسف القرضاوي – العبادة في الاسلام ص ١٧٦–١٧٧.
٢ انظر أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط ٣ ص ١٥٨–١٦٠.
٣ سورة البقرة الآية ١١٣.
٤ د. يوسف القرضاوي المصدر السابق ص ١٧٩.
٥ انظر د. يوسف القرضاوي ١٨٠–١٨٢.

فينسى حقيقة نفسه والدور الذي خلق من أجله . وفي هذا يقول القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله ان الله خبيربماتعملون . ولاتكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون) [1] . وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) [2] .

وهذا شأن المسلم ، عمل وبيع وسعي لطلب الرزق قبل الصلاة ، فاذا اقبلت الصلاة ووقت العبادة سعى الى ذكر الله ، فاذا انقضى وقت العبادة انتشر في الأرض وابتغي من فضل الله ونعمه الكثيرة شاكرا لله أنعمه وآلاءه .

فالناس في عرف القرآن الكريم صنفان ، صنف ضيق الأفق مطموس البصيرة كل همه الدنيا وملذاتها ، وصنف رحب الأفق نير البصيرة وسع قلبه الدنيا والآخرة ـ ونقرأ مصداق ذلك في قوله تعالى : (.... فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الاخرة من خلاق. ومنهم من يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) [3] .

هكذا قسم القرآن الناس قسمين فقط ـ طلاب دنيا ومالهم في الآخرة نصيب وهم الصنف الذي توعده الله في آية أخرى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا لهم جهنم يصلاها مذموما مدحورا) [4] .

وطلاب دنيا وآخرة ، يطلبون الحسنة في الحياتين ، والسعادة في الدارين دعاؤهم (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) ويمكن تفسير الحسنة في الدنيا بما تشاء من العافية أو المرأة الصالحة ، او الاولاد الابرار ، او العلم النافع او الرزق الواسع

---

١ سورة الحشر الآية ١٨-١٩.
٢ سورة الجمعة الآية ٩-١٠.
٣ سورة البقرة الآية ٢٠٠-٢٠٢.
٤ سورة الاسراء الآية ١٨.

او المحبة بين الناس ـ وكل أمر يحقق للمسلم نفعا محضا في الدنيا أو يعينه في أمر الدنيا والآخرة .

فالآية الكريمة توضح للمسلم أن الانقطاع للدنيا أمر مذموم ، وأن الخير كله في الجمع بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، او طلب الدنيا والآخرة دون أن يطغى أحدهما على الآخر .

وتحذيرا من اهمال الدنيا ، واهدار شأنها لحساب الآخرة ، رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرة الانقطاع عن الدنيا والاقبال على الله في صورة تشبه رهبانية النصارى ، وكان يعلم اصحابه ان دينهم ليس دين اعتكاف وانما هو دين تقدم وعمران . والأمثلة الدالة على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تحريض أصحابه على الاعتدال مثيرة منها قصة عبدالله بن عمرو بن العاص الشاب الصالح العابد الذي أراد الانقطاع عن الدنيا والنساء ويقبل على الله يصوم نهاره ويقوم ليله ، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولقنه أن للحياة حقوقا يجب أن تؤدى كما أن للآخرة حقوقا يجب أن ترعى ، والعدل والانصاف في الاعتدال واعطاء كل ذي حق حقه .

وقصة أولئك الرهط من الصحابة الاجلاء الكرام الذين جاءوا الى بيوت ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم ويفطر ويصلي وينام ويأتي النساء ، فكأنهم تقالوها وقالوا انما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأن الله قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فانصرفوا وقد عزم بعضهم على صيام الدهر كله وبعضهم على اعتزال النساء وبعضهم على عدم النوم ابدا ليلا . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالتهم هذه ذهب اليهم وذكرهم بأنه أخشاهم لله واتقاهم وان الذي قرروا القيام به ينافي ماجاء به من عند الله وان ماعلموا عنه هو الحق ، وان من رغب عن سننه فليس منه .

فالذي يجب على المسلم معرفته هو أن تقوى الله وخشيته ليس معناه ترك الدنيا والانقطاع للعبادة طلبا للآخرة ، انما يكون الايمان الصحيح بهذا الدين هو ألا ينعزل المسلم عن الدنيا والا يحيف دنياه على الدين وان يعلم ان ماعند الله من الخير والمثوبة والجنات التي عرضها السموات والارض خير وأبقى وخير وسيلة لابتغاء الآخرة هو أن يجعل الدنيا مطية للآخرة لا أن يجعلها وراء ظهره .

العبادة تقويم للأخلاق :

العمل الصالح هو العمل الذي يرضى الله تعالى ، وهو ثمرة الايمان بالله وباليوم الآخر وبرسوله صلى الله عليه وسلم . والأعمال الصالحة [١] "اسم جامع لكل مايحبه الله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين ، وقول الحق والاحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والقراءة وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والانابة اليه ، واخلاص الدين لله ، والصبر والحكمة والشكر لنعمه والرضاء لقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه" [٢] .

ثم ان كل عمل اجتماعي نافع بعد الاسلام من الأعمال الصالحة التي يجازى عليها مادام قصد فاعله الخير ، ونفع العباد ، لا تصيد الثناء ،واكتساب السمعة والشهرة عند الناس . فكل عمل يراد به مسح دمعة محزون ، أو تخفيف كربة مكروب ، أو تضميد جراح منكوب ، أو سد رمق محروم ، أو شد آزر مظلوم او اقالة عشرة مغلوب او قضاء دين غارم أو دفع شر عن مخلوق او اذى عن طريق او سوق نفع الى ذي كبد رطب ... الخ فهي قربة الى الله تعالى ان صحت نية فاعله [٣] .

---

١ الأعمال الصالحة بمفهومها التي تناولها شيخ الاسلام ابن تيمية تعنى العبادة كما تقدم بيانه عند شرح مفهوم العبادة في الاسلام في أول هذا الفصل

٢ انظر ابن تيمية ـ العبودية في الاسلام ص ٤٠

٣ انظر العبادة في الاسلام ص ١١٦-١١٧ .

وأعمال كثيرة أخرى غير ماتقدم ذكرها ، يستحث الاسلام كل مسلم عليها ، ومن فضل الله تعالى على الناس ان جعل الاعمال المتعبد بها المخصوصة منها والعامة ، ميسرة ،يأتي كل مسلم منها بحسب استطاعته وقدراته وطاقاته يستوي فيها الغني والفقير ، والقوي والضعيف ، والمتعلم والأمي ، ولا تفاضل بينهم الا بالتقوى ، واخلاص النية لله وحده قال تعالى (قل الله اعبد مخلصا له ديني) [1] وقال سبحانه (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) [2] .

فالأعمال الصالحة أساسها النية الخالصة،والنية الخالصة مصدرها القلب فالقلب هو مفتاح الأعمال الصالحة ، وهو جوهر الانسان فاذا فسد الجوهر فسد كل ماهو مرتبط به ، وناشئ عنه من أعمال واقوال ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا وان في الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[3] ولهذا وجب وقايته من الأمراض وجراثيمها ، وجراثيم الأمراض هي الرذائل الأخلاقية ،وهذه الأمراض اذا كثرت ، وبلغت نسبة معينة ، أصيب القلب بالمرض والتشويه ، وأصبح معرضا لسوء الخلق والى هذا المعنى يشير الحديث النبوي الشريف : "ان المؤمن اذا اذنب كانت نكته سوداء في قلبه ، فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فان زاد زادت ، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز : (كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون)[4] " [5] .

وعلاج القلب من الأمراض يكون بالتوبة ،قبل أن تحيط به الخطايا ، فالانسان اذا بقي قلبه على معصية الله عهدا طويلا ، تراكمت عليه الخطايا ، وقسا قلبه وأغراه التراخي بأن يمني نفسه بتوبة آجلة ، ولكن المعاصي تحول بينه وبين نفسه ، فلا يملك الا أن يتمادى ، ويلهيه طول الأمل عن التوبة ، وهكذا يتباعد عن ربه حتى يدركه الموت وهو من الخاسرين .

---

١ سورة الزمر الآية ٢.
٢ سورة الزمر الآية ١٤.
٣ فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١ ص ١٣٤ ــ كتاب الايمان
٤ سورة المطففين الآية ١٣.
٥ سنن ابن ماجة ج ٢ الحديث رقم ١٤١٨.

أما المسلم الحريص على أداء الأعمال الصالحة ، فانه يعجل بالتوبة بعد التوبة اثر كل معصية ، لأنه ذاكر لله تعالى في جميع احواله فيكمل توبته ويوءكدها قولا وعملا وتتأكد توالي التوبات بأداء الصلوات وسائر العبادات والاذكار المختلفة كالاستغفار والتحميد والتكبير ولا شك أن تكرار التوبة والاستغفار ودوام العبادة تقوى في النفس الايمان بقيم الاحسان ،وتقلل من فرص الاساءة ، لأن مقارفة الذنوب ، تزيد رين القلوب ، وتزين الخطيئة وتضعف شعور الانسان بعنصر السوء فيها ، بينما توءكد التوبة المتعاقبة في النفس تقديرا دقيقا لمعايير الخير والشر ، وتورث الاعتصام بمحاسن الأخلاق وهجر مساوئها .

ويدخل في الاعمال الصالحة الموجبة لحسن الخلق اخلاص النية لله تعالى وتحري الحلال في المطعم والمشرب ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال الا ماكان طيبا حلالا . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمر الموءمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، اني بما تعملون عليم) [1] . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله ان كنتم ايّاه تعبدون) [2] . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يقول : يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب له" [3] .

فالرسل الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم جميعا – وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال ، وبالعمل الصالح . فاذا كان الأكل حلالا ، كان العمل الصالح مقبولا ، اما اذا الأكل غير حلال ، فيوضحه قوله عليه الصلاة والسلام : "فانى يستجاب له" – أي كيف يستجاب له ، فهو استفهام على وجه التعجب والاستبعاد – فيوءخذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم أن التوسع في الحرام ، والتغذي منه ، من جملة موانع

---

١ سورة الموءمنون الآية ٥١.
٢ سورة البقرة الآية ١٧٢.
٣ رواه مسلم في صحيحه – صحيح مسلم ج ٢ الحديث رقم ٨٠٣ – كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

قبول الأعمال الصالحة ، كما يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعا من الاجابة .فالمحرمات والنواهي في جملتها مانعة لقبول الأعمال والدعاء ، ويقابلها الطاعات والحرص عليها ، فانها موجبة لقبول الأعمال ، ولهذا لما توسل الذين دخلوا الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، استغاثوا بأعمالهم الصالحة التي اخلصوا فيها لله ، ودعوا بها فأجيبت دعوتهم [١] .

وحرص المسلم على أن تكون اعماله واقواله مقبولة عند خالقه يجعله حريصا على أن تؤدى أعماله على الوجه الذي شرعه الله ، دون زيادة أو نقصان ، وهذا السعي بهذا الحرص من شأنه أن يصلح من أخلاقه وسلوكه ومعاملاته مع الآخرين . وكلما كثر هذا النوع بين المسلمين ، كلما تهيأ المجتمع ليقبل بين افراده اشخاصا صالحين فينصلح المجتمع كله بصلاحهم .

---

١ انظر ابن رجب الحنبلي ، جامع العلوم والحكم ، شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم الجزء الأول ص ٢١٠-٢٢٩ ، شرح الحديث العاشر - تحقيق محمد الأحمد أبو النور(د. ت) (د.ن) .

الفصل الثالث

القاعدة الخلقية

المبحث الأول : مفهوم الأخلاق وأهميتها في بناء المسلم :

١- مفهوم الأخلاق في الاسلام :

ورد لفظ (خلق) في القرآن الكريم في آيتين : الآية الأولى قوله تعالى : (وانك لعلى خلق عظيم) [١] . والآية الثانية في سورة الشعراء (ان هذا الا خلق الأولين) [٢] . والآية الأولى جاءت في مقام المدح معيارا لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن . أما الآية الثانية فقد جاءت في معرض وصف درج عليه الأولون من سوء في الأخلاق ، في حياتهم وفيما بينهم وبين الله تعالى ، ومابينهم وبين أنبيائهم . وسياق الآيات السابقة لهذه الآية توضح ذلك جليا - يقول الله تعالى : (كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون . اني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجري الا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الأولين. ومانحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم ان في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين) [٣].

ان سياق هذه الآيات الكريمات يوضح أن عادا كذبت رسولهم الذي أرسل اليهم ، وأنهم عندما أمرهم بالانتهاء عن الاسراف والعبث وظلم الناس وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض وحذرهم من سخط الله الذي أعطاهم من عنده مايعلمون ، من مواش وبنين وبساتين وانهار ، استنكرت عاد قول نبيهم هود ، وقالوا ان الذي تعظنا أن نتركه هو ماكان عليه آباؤنا الأولون [٤] - وكأنهم يقولون له (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم

---

١ سورة القلم - الآية ٤.
٢ سورة الشعراء الآية ١٣٧.
٣ سورة الشعراء الآية ١٣١-١٣٩.
٤ انظر محمد بن جرير الطبري - جامع البيان عند تأويل القرآن - الجزء ١٨ ص ٩٦.

مقتدون) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "ان عادا لما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه ، وبطشهم بطش انجبابرة وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم آجابوا نبيهم بأنهم يفعلون مايفعلون من ذلك احتذاء منهم سنة من قبلهم من الأمم ، واقتفاء لآثارهم ، فقالوا ماهذا الذي نفعله الا خلق الأولين – ويعنون بالخلق – عادة الأولين" [1] . وقد وضح من خلال المحاورة بين هود عليه السلام وقومه آن الانحراف في الخلق والسلوك والاصرار عليه كان سبب هلاكهم وان أبرز تلك الاخلاق السيئة كانت الاسراف والظلم وتكذيب الرسل وكفران النعم التي أنعمها الله عليهم .

أما الآية الأخرى فقد جاءت في معرض وصف حال خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايبنغي أن يكون عليه خلق المؤمن ، فقوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) [2] شهادة منه تعالى قدره ، بأن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخلق المثالي الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون ، فكيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) [3] – أي "اذا جمعناه في صدرك يامحمد ، فاعمل به ، فكان سلوك النبي صلى الله عليه وسلم تفسيرا بليغا للقرآن الكريم" [4] . ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله قالت : "كان خلقه القرآن" [5] . أرادت به آنه عليه الصلاة والسلام كان متحليا بما في القرآن من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف ، ومتحليا عما يزجر عنه من السيئات . وفي رواية للسائل عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة رضي الله عنها للسائل آلست تقرأ القرآن (قد آفلح المؤمنون) – تعني الآي العشر الأول من سورة المؤمنون – فذلك خلقه [6] – وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (ان لله ثلاثمائة وستين خلقا من لقيه بخلق

---

١ الامام الطبري ، المرجع السابق ٩٨/١٨.

٢ سورة القلم الآية ٤.

٣ سورة القيامة الآية ١٧.

٤ ابن الجوزي – زاد المسير في علم التفسير – الجزء الثامن ص ٤٢١-٤٢٢ – المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر سنة ١٣٨٧هـ دمشق .

٥ صحيح مسلم – الجزء الثاني كتاب المسافرين – باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ، ص ١٦٨ – وانظر تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٣.

٦ انظر ابن كثير القرشي – تفسير القرآن العظيم – الجزء الثالث ص ٢٣٧ . أول تفسير سورة المؤمنون – طبعة دار الشعب القاهرة .

منها مع التوحيد دخل الجنة . قال أبوبكر رضي الله عنه : هل في شيء منها يارسول الله؟ قال : كلها فيك ياأبابكر - وأحبها السخاء) [١] "لذلك كان أحسن أخلاق المرء في معاملته مع الحق سبحانه وتعالى : التسليم والرضا ، وأحسن أخلاقه في معاملته مع الخلق : الصفو والسخاء . وانما قال مع التوحيد ، لأنه قد توجد مكارم الأخلاق والايمان ، كما أنه قد يوجد الايمان ولا أخلاق ، اذ لو كان الايمان يعطى بذاته مكارم الاخلاق لم يقل للمؤمن افعل كذا واترك كذا" [٢] وقد يطبع الانسان ببعض الاخلاق الحميدة ولكن دون ايمان ، كما كان في العرب قبل الاسلام : وفي تفسير قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) قال ابن الجوزي، "كان على ماأمره الله به في القرآن" [٣] .

وقال ابن كثير رحمه الله : "ومعنى هذا انه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن امرا ونهيا سجية له ، وخلقا تطبعه ،وترك طبعه الجبلى فمهما أمره القرآن فعله ومهمانهاه عنه تركه ، هذا مع ماجبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل" [٤] . كما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال : "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي "أف قط - وما قال لشيء فعلته : لم فعلته ،ولا لشيء تركته لم تركته) [٥] ولم يذكر خلق محمود الا كان للنبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأوفر فهو صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية السمحة ليتمم مكارم الأخلاق - وهل الدين الا حسن الخلق والرضا والتسليم لله عز وجل ؟

اذن فالخلق في القرآن الكريم ورد في موضعين ، ليدل في أحدهما على الخلق الحسن، وضرورة الالتزام به ، وفي الآخر على الخلق المذموم والامر باجتنابه - فما هو المقصود بالخلق في تعريف جامع مانع بعد أن عرفنا مدلوله العام كما جاء في الكتاب العزيز ؟

---

١ مسند الامام احمد ج ١١١/٦ ، ط المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٦٩م .
٢ اسماعيل حقي البروسي (ت ١١٣٧) - تفسير روح البيان - المجلد العاشر - مطبعة عثمان بك استانبول سنة ١٩٢٨ ص ١٠٧.
٣ أبو الفرج بن محمد الجوزي - زاد المسير في علم التفسير - الجزء الثامن ص ٤٢٩ ، المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر - دمشق سنة ١٣٨٧هـ .
٤ الحافظ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم - المجلد الثامن - طبعة دار الشعب القاهرة ، ص ٢١٥.
٥ سنن الترمذي - الجزء الرابع ص ٣٦٨ - الحديث رقم ٢٠١٥.

عرف الامام الغزالي الخلق بأنه "عبارة عن هيئة في النفس راسخة تصدرعنها الأفعال بسهولة ويسر من غيرحاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا" [١] .

وعرفه ابن مسكويه بأنه "حالة للنفس داعية لها الى أفعال من غير فكر ولا روية ، وهذه الحالة تنقسم الى قسمين : منها مايكون طبيعيا من أصل المزاج ، ومنها مايكون مستفادا بالعادة والتدريب" [٢] . ولا يخفى مافي التعريفين من تقارب ، وعلة هذا الاتفاق واضحة جلية ، وهي ان المصدر الذي استقى منه اولئك العلماء تلك الآراء مصدر واحد وهو شرع الله الذي فصله في كتابه العزيز ، وهم مجمعون على أن الخلق لا يصدر عن روية ولا تفكير ، ولا تبعث عليه مصلحة ، ولا تدفع فاعله الى عمله منفعة [٣] . فالخلق حالة للنفس تنشأ عن الأفعال من غير روية ، وهو قد يكون طبعيا يولد مع الانسان وقد يكتسبه بالتوجيه والممارسة حتى يصبح عادة لازمة له ، وطبعا دائما ، أي أنه يصير خلقا له ، يصدر عنه تلقائيا من غير أن يسبقه تفكير وتقدير ، بحيث يكون انطباعا من انطباعات النفس وحالاتها ، تحمل على الفعل من غير حاجة الى تأمل وروية ـ فالانسان الذي يسخو مرة او مرتين ، عفوا ، وتحت تأثير معين لا يمكن أن تصفه بخلق السخاء مثلا وانما يتصف بهذا الخلق عندما يصير السخاء عادة لازمة ، وملكة راسخة تكفل صور فعل السخاء عن نفسه الراضية ، وقلبه المطمئن ، وصدره المنشرح لهذا العمل [٤] .

بالتأمل فيما سبق يتبين أن الأخلاق الاسلامية تتميز بطابعين أساسيين هما :

الأول : الطابع الالهي من حيث انه مراد الله تعالى ، اذ انه يجب أن يتبع في الحياة نظاما محدودا ، ولهذا جاء الوحي بصورة هذا النظام ، وطلب من الانسان أن يشترك في تطبيقه بقلبه وروحه ، وبارادته الخيرة الخالصة لوجه الله

---

١ الامام أبوحامدالغزالي ـ احياء علوم الدين ـ الجزء الثالث ـ المطبعة التجارية بمصر (د٠ت) ص ٥٦٠
٢ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه ـ تهذيب الاخلاق ص ٣١، تحقيق قسطنطين زريق مطبعة الجامعة الامريكية بيروت سنة ١٩٦٦٠
٣ انظر زكريا يحي بن عدى ـ كتاب الاخلاق ، مطبعة التقدم ـ القاهرة (ن٠ت) ص ٥،مطبوع وغير محقق ٠وينسب الكتاب الى أبوبكر بن عربي ٠
٤ د٠ محمد غلاب ـ علم الأخلاق ـ المطبعة الأهلية الحديثة بالقاهرة (د٠ت) ص ١٣٥٠

المتفقة مع سلوكه الظاهري المادي [١] .

الثاني : الطابع الانساني من حيث أنها عامة في بعض نواحيها ، اذ لم يحدد تحديدا دقيقا مفصلا ، وانما فيه بعض المبادىء العامة ، فالتنظيم السياسي في الاسلام مثلا غير محدد من جميع نواحيه ولكن هناك معالم أساسية له ، وترك للانسان أعمال جهده وعلمه لوضع الصيغة العملية المناسبة في حدود الاطار العام والقواعد الخلفية والممارسات العملية للرعيل الأول من اسلاف هذه الأمة [٢] .

والأخلاق في الاسلام نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة ـ أي أنه طراز للسلوك وطريقة التعامل مع الغير ، أيّا كان هذا الغير انسانا كان أم حيوانا من حيث ماينبغي أن يكون عليه هذا السلوك كسلوك انساني تجاه الغير ، وذلك بناء على مكانته في الكون ، ومسئوليته التي يجب أن ينهض بها ، وبناء على ماوضع له خالقه من أهداف في هذه الحياة [٣] .

هذا جانب من مفهوم الأخلاق في الاسلام ، وهناك جانب آخر وهو تكامل الجانب النظري مع الجانب العملي منه ، ولذلك جعل الاسلام الاخلاق مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فيعاقب الفجار في الدنيا لفساد آخلاقهم ـ (ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) [٤] . (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) [٥] ـ ويكافىء الأبرار الصالحين بالجنة ، ويعاقب الفجار الأشرار بالنار يوم القيامة ـ (ان الابرار لفي نعيم، وان الفجار لفي جحيم) [٦] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان من احبكم اليّ واقربكم مني مجلسا يوم القيامة ، احاسنكم أخلاقا ، وان من أبغضكم اليّ وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة ، الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله علمنا الثرثارون [٧] والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون) [٨] . وهناك نقطة

---

١ انظر د. محمد البيعار ـ العقيدة والاخلاق واثرهما في المجتمع ط ٤ سنة ٩٣(د.ن) ص ٢١٧.
٢ مقداد يالجن ـ الاتجاه الاخلاقي في الاسلام ص ٤٧.
٣ المرجع نفسه والصفحة .
٤ سورة يونس الآية ١٣.
٥ سورة هود الآية ١١٧.
٦ سورة الانفطار الآية ١٣.
٧ الثرثار: هو الكثير الكلام ،والمتشدق: هو الذي يتطاول على الناس في الكلام
٨ رواه الترمذي في باب ماجاء في معالي الأخلاق ، الحديث رقم ٢٠١٨، الجزء الرابع ص ٣٧٠.

هامة وهى أن الأخلاق تعد جوهر الاسلام وروحه السارية فى جميع جوانبه ،وهذا يعنى أن الاسلام عموما منهنى على قاعدته الخلقية وهذا معنى قوله عليه السلام (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) أى أنه صلى الله عليه وسلم جاء ليتمم البناء الأخلاقي الذى بدأته الرسالات السابقة له ،كما قال فى حديث آخر ،مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها واكملها الا موضع لبنة ،فجعل الناس يدخلونها ،ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع لبنة ،فأنا موضع اللبنة ،جئت فختمت الأنبياء) (١).

٢- <u>أهمية الأخلاق فى بناء المسلم:</u>

إن أهمية الأخلاق باعتبارها قاعدة لبناء الانسان يأتى من أن الأخلاق أمر لا بد منه لدوام الحياة الانسانية من الناحية المادية والمعنوية ولنتصور حياة مجتمع ما ،ماذا يحدث فيه لو اهملت المبادئ الخلقية وسادت فيه الجناية والفسق والكذب والغش والسرقة وسفك الدماء والتعدى على الحرمات والحقوق وزالت كل المعاني الانسانية فى علاقات الناس من المحبة والمودة والنزاهة والترحم ،والأخلاص فهل من الممكن أن تدوم الحياة الاجتماعية سوية فى هذه الحالة ؟ .

ثم ان الانسان أى انسان بحكم طبيعته وخلقته بحاجة الى الغير ،وفى طبيعته التسلط والتجبر والتكبر والأنانية وحب الانتقام ، فاذا استخدمت هذه القوى بغير رادع ولا وازع فان الانسان فى هذه الحالة يكون أقرب الى الوحوش الضارية ، ويسود الحياة قانون الغاب حيث يكون الضعيف تحت رحمة القوى وبطشه (٢)

لهذا فان الانسان بحاجة الى نظام خلقي يحقق له حاجته الاجتماعية ويقف أمام ميوله ونزعاته الشريرة ، ويوجهه الى استخدام قواه فى ميادين يعود نفعها على نفسه وعلى غيره بالخير والسعادة .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ـ باب ذكر النبي خاتم الأنبياء .
(٢) انظر مقداد يالجن ـ الاتجاة الأخلاقي فى الأسلام (دراسة مقارنة) ط ١ سنة ٧٣ م مطبعة الخانجي بمصر (ص ١٠٣) .

المبحث الثاني : خصائص الأخلاق الاسلامية

الشعور الخلقي في الانسان ، شعور فطري ، فطره عليه الخالق تعالى ، فيحمله على حب بعض صفات الانسان ، وكراهة أخرى ، وهو وان كان متفاوتا ، وعلى أقدار متنوعة في مختلف أفراد البشر الا أن الشعور العام بغض النظر عن الافراد لايزال يحكم على بعض السجايا الخلقية بالحسن وعلى بعضها بالقبح في كل زمان ، فالصدق والأمانة والعدالة ، والوفاء بالعهد مثلا ، كل ذلك مما عدته الانسانية من الصفات الخلقية الجديرة بالثناء والمدح في كل دور من الأدوار ولم يأت على الانسانية زمان، استحسنت فيه الكذب والظلم والغدر والخيانة ، وهكذا أمر المواساة والتراحم والسخاء، وسعة الصدر والتسامح ، فان كل ذلك مما لم تنظر الانسانية اليه الا بنظر التقدير والاجلال في كل زمن من الأزمان بخلاف الأثرة وقساوة القلب والبخل وضيق النظر،فان الانسانية ماعدتها قط في شيء مما يستحق التوقير والاكرام . [1] وكذلك سائر الصفات الخلقية الفردية .

وفي الشئون الاجتماعية ماعرفت المجتمعات البشرية مستحقا للاجلال والتوقير الا المجتمع الذي يتمتع أفراده بحسن الادارة وجودة النظام ، وتسودهم روح التعاون والتحاب ، والمناصحة والعدالة والمساواة فيما بينهم ، كما لم تنظر قط بعين الاعجاب والتوقير الى مجتمع تحكم روح التفرق والتشتت واضطراب الاحوال والتباغض والتحاسد والتنافر والجور والتفاضل جميع أفراده .

وكذلك أمر جميع السجايا والطباع خيرها وشرها،لا يزال على ماكان عليه في كل الأزمان ، فما نظرت الانسانية الى أعمال الزنا والسرقة والقتل والتلصص والتزوير والارتشاء والبذاءة ،وايذاء الناس بالغيبة والنميمة والحسد والقذف والافساد في الأرض بنظر التقديس والتمجيد [2] .

---

١ أبو الأعلى المودودي ـ نظام الحياة في الاسلام ـ مطبعة موءسسة الرسالة دمشق ص ٥ـ٠٦

٢ نفس المصدر ص ٠٧

فتبين من ذلك أن القواعد الخلقية هي حقائق ثابتة عالمية ، مازال جميع البشر على معرفة بها ، فليس الخير والشر مما يخفى على أحد حتى يكون بحاجة الى البحث عنه اذا أراد معرفته والوقوف عليه ، بل انهما مما عهده ابن آدم أول مرة ، وقد وهب الله له الشعور بهما ، وأودعه جبلته التي فطره عليها [1] . ومهمة الاسلام تجاه الأخلاق المحضة هي توجيهها ، وتسديدها الى طريق الخير والحق ، ذلك أن الأخلاق في صورتها الأولى هذه ليست الا قوة مجردة يمكن استخدامها في الخير والشر معا . وانما مثلها مثل السيف ، فهو أداة للشر في يد الكافر لنصرة باطلة ، وأداة الخير في يد المجاهد في سبيل الله ، فلا يحكم على الأخلاق بالخير لمجرد وجودها في فرد أو جماعة بعينها ، بل يتوقف خيرها وصلاحها على كونها مستخدمة في السبيل الأقوم [2] .

فاذا كانت الأخلاق الانسانية حقائق ثابتة لا تتغير ولاتتبدل بتبدل الزمان وتغيره ، فما هي الخصائص التي تميز الأخلاق الاسلامية ، وتجعلها تمثل الأخلاق الانسانية في صورتها النظرية والعملية ؟! ان الخصائص التي تميز الأخلاق الاسلامية عن غيرها من الأخلاق كثيرة ونذكر على سبيل المثال لا الحصر هذه الخصائص التالية وهي :

أ ـ الشمول في الأخلاق الاسلامية

ب ـ شرف الغاية والوسيلة

ج ـ مبدأ الالزام .

أ ـ الشمول في الأخلاق الاسلامية :

ان كل قانون يوضع ليحكم عملا ما ، يجب أن يحكم بالضرورة جميع الأفراد العاملين الخاضعين له ، على نسق واحد ، كما يحكم الفرد الواحد في مختلف ظروفه ، والا فلن يكون قانونا ، أي قاعدة عامة ثابتة شاملة [3] يحتكم اليها الجميع في الظروف المشابهة ـ والشمول بهذا المفهوم موجود في نظام الأخلاق في الاسلام بصورة واسعة وواضحة .

---

١ ابو علي المودودي ـ المصدر السابق ص ٨ .

٢ ابو الأعلى المودودي ـ الأسس الاخلاقية للحركة الاسلامية ـ دار الجهاد القاهرة ١٩٧٧ ص ٣٤ .

٣ د . محمد عبد الله دراز ـ دستور الأخلاق في القرآن ـ طبعة موءسسة الرسالة بالقاهرة سنة ٧٣ م ، تعريب د . عبد الصبور شاهين ص ٢١ .

فالأخلاق الاسلامية تشمل جميع أفعال الانسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره سواء أكان الغير فردا أو جماعة أو دولة ، فلا يخرج شيء من دائرة الأخلاق ولزوم معانيها وحدودها [1] ويتجلى طابع الشمول في الأخلاق الاسلامية ، لا لأن مجموع أوامره يتوجه الى الانسانية جمعاء فحسب ، وهو ما يقرره قوله تعالى (قل يا أيها الناس أني رسول الله اليكم جميعا)[2] بل يطبقها على نسق واحد ، سواء أكان تطبيقه لها على نفسه أم على الآخرين[3] (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)[4] - (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)[5] - وسواء أكان التطبيق على أقربائه أم على البعداء على الأغنياء أم على الفقراء (... كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا)[6] وسواء أكان خارج الجماعة أو بداخلها - (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين)[7] وعلى الأصدقاء أم على الأعداء (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى)[8] .

بل انه حتى في الحالة الواحدة التي لا يشتمل نص التشريع فيها على لفظ عام ، وحتى لو كان منزلا بمناسبة ظرف فردي ، فانه يعتبر من حيث المبدأ ، قابلا للشمول .

---

(١) د . عبد الكريم زيدان - أصول الدعوة - ط ٣ سنة ١٩٧٦ (د .ت) ص ٨٤ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .
(٣) دراز - نفس المصدر ص ٥٣ .
(٤) سورة البقرة الآية ٤٤ .
(٥) سورة المطففون الآية ١ - ٣ .
(٦) سورة النساء الآية ١٣٥ .
(٧) سورة آل عمران الآية ٧٥ - ٧٦ .
(٨) سورة المائدة الآية ٨ .

أعني انه من الممكن أن ينطبق على جميع الحالات المماثلة . من ذلك ما اعلنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (اني لا أصافح النساء ، انما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة) [1] قال أبوبكر بن العربي تعليقا على هذا الحديث ـ كان النبي عليه السلام يصافح الرجال في البيعة باليد ، تأكيدا لشدة العقدة بالقول والفعل، فسأل النساء ذلك ـ فقال لهن : قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة ، ولم يصافحن لما أوعز الينا في الشريعة من تحريم المباشرة لهن الا من يحل له ذلك [2] . واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع النساء دون مصافحة ، ولم تمس يده الطاهرة يد امرأة لا تحل له قط ، كما روى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ، انها اخبرته بذلك [3] ، فان المسلمين اولى أن تشملهم هذه الحالة التي الزم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه [4] .

فالشمول في القاعدة الخلقية ، يعني أن ينسحب تطبيق القاعدة على جميع الأفراد وفي مختلف الظروف التي تحيط بالانسان ، مادام تطبيقها يدخل تحت الطاقة وامكان العمل دون مشقة مهلكة .

١،٢ وهو جزء من حديث طويل في باب بيعة النساء الحديث رقم ١٥٩٧ ـ قال أبوبكر ابن العربي : هذا الحديث لأميمة بن رقيقه ـ وليس لها الا هذا الحديث الواحد وهوحديث حسن صحيح . وانظر صحيح الترمذي بشرح الامام أبيبكر بن العربي المالكي ـ الجزء السابع ـ الطبعة الأولى طبعت على نفقة عبدالواحد محمد الغازي بالمطبقة المصرية بالأزهر سنة ١٩٣١م ص ٩٥-٩٦.

٣ محمد الزرقاني ـ شرح الزرقاني على موطأ مالك ـ الجزء الرابع باب البيعة مطبعة مصطفى محمد القاهرة سنة ١٩٣٦م ص ٣٩٨.

٤ وطد ذكر العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عدة جمل مفيدة في موضوع مصافحة النساء نذكر هنا طرفا منها للفائدة والتنبيه على أهمية هذا الأمر . قال رحمه الله "اعلم أنه لا يجوز للرجل الأجنبي مصافحة امرأة أجنبية منه . ولا يجوز أن يمس شيء من بدنه شيئا من بدنها ، والدليل على ذلك : الأول : "ان النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه انه قال : وذكر الحديث . وقال : والله يقول (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) فيلزمنا ألا نصافح النساء اقتداء به صلى الله عليه وسلم" . وكونه صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء وقت البيعة دليل واضح على أن الرجل لا يصافح المرأة ، ولا يمس شيء من بدنه شيئا من بدنها ، لأن أخف أنواع اللمس المصافحة ، فاذا امتنع صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي يقتضيها وهو وقت المبايعة ، دل ذلك على أنها لا تجوز وليس لأحد مخالفته صلى الله عليه وسلم لأنه هو المشروع لأمته بأقواله وأفعاله ويقرره" وقد ذكر رحمه الله أمرين آخرين لتقوية الحجة يكتفى هنا بهذا القدر ومن أراد الزيادة فلينظر .. اضواء البيان الجزء ٦ ص ٦٠٢-٦٠٣ للموءلف عند تفسيره سورة الأحزاب .

ج ـ مبدأ الالزام

الالزام هو القاعدة الأساسية ، والمحور الذي يدور حوله أيّ نظام أخلاقي ، ذلك انه اذا لم يعد هناك الزام ، فلن يكون هناك مسئولية ، واذا عدمت المسئولية فلايمكن أن تسود العدالة ، وحينئذ تتفشى الفوضى ، ويفسد النظام ، لذلك يجب أن تستند الأخلاق الفاضلة الى سلطة آمرة ، يستشعرها كل فرد ، ويسعى لتنفيذ نفس الحالة أيا كانت الحالة ويستهجن العصيان لها دون قهر أو نفور [1] .

والالزام الأخلاقي يفترض حرية الاختيار ، أي انه يكلف لكنه لا يقهر قهرا ماديا ، بل يدع امكان مراعاته او مخالفته لاختيارهم وتلك هي القاعدة الاساسية التي يحرص القرآن الكريم على ابرازها وتقريرها سواء مايتعلق بالانسان نفسه او الفضيلة الخلقية ذاتها [2] ـ يقول الله تعالى (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) [3] ـ (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) [4] ـ (أفانت تكره الناس حتى يكونوا موءمنين) [5] فالأمر اذن أمر اختيار حر دنيوي يرجع الى استخدام الانسان لملكاته ـ ومقدرته على تزكيتها أو طمسها واهمالها كما تبينها الآية الكريمة (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) [6].

ثم قرن الاسلام حرية الاختيار ، بالامكان المادي للعمل ويسره ، ذلك أنه يستحيل عقلا ، أن نلزم الانسان بشيء لا يمكن تحقيقه ـ وفي هذا يقول الله تعالى (لايكلف الله نفسا الا وسعها) [7] والظروف التي نزلت فيها الآية تعيننا على تحديد معنى هذه الآية . ففي الآية السابقة لهذه الآية يقول الله تعالى (وان تبدو مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) [8] وقد اعتقد بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، أن هذه الآية تنطبق على كل

---

١ د. محمد عبدالله دراز ـ دستور الاخلاق في القرآن ـ ص ٢١ـ المرجع السابق .
٢ د. دراز نفس المصدر ص ٥٧.
٣ سورة لنساء الآية ٨٠.
٤ سورة البقرة الآية ٢٥٦.
٥ سورة يونس الآية ٩٩.
٦ سورة الشمس الآية ٩ـ١٠.
٧ سورة البقرة الآية ٢٨٦.
٨ سورة البقرة الآية ٢٨٤.

مايدور من أفكار وعزائم او رغبات او هواجس أو تخيلات تمسكا بحرفية النص ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت (لله مافي السموات ومافي الأرض ، وان تبدو مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا رسول الله صلىالله عليه وسلم ثم جثوا على الركب ، فقالوا : يارسول الله ، كلفنا من الأعمال مانطيق ، الصلاة والصوم والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآيةولا نطيقها . فقال رسول الله صلى اللهعليه وسلم : أتريدون ان تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم ، سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربناواليك المصير) [1] وهنا نزل هذا النص التفسيري ليوءكد لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والموءمنين من بعدهم ، أن التكليف لا يتوجه الى الانسان الا في حدود قدراته (لايكلف الله نفسا الا وسعها) ـ ومن قواعد التكليف التي يقوم عليها الالزام الأخلاقي قوله تعالى (فاتقوا الله مااستطعتم) فالأمر الجوهري في الأخلاق الاسلامية أنها متوافقة مع قدرات الانسان واستطاعته ، ويأتي الزامه في حدود هذه الاستطاعة ، أما الالتزام الاخلاقي بالتكليف الذي لا تقر العادة امكان تحمله ، أو يمكن تحمله مع المشقةوالعنت الشديد الذي قد يستنفذ قوى الانسان وطاقاته ، فلا يخضع للالزام الأخلاقي [2] .

ويتميز الالزام الأخلاقي في الاسلام بأن الله سبحانه وتعالى هو مصدره في الدرجة الأولى ، فهو الذي خلق الانسان ، ووضع النظام الأخلاقي ، وهو الذي يعلم الظاهروالباطن والسر والعلن ، (انه يعلم السر ومايخفى) [3] وهو يراقب الناس في سلوكهم وأعمالهم (ان ربك لبالمرصاد) [4] .

ثم جعل الاسلام سلطة الجماعة ملزمة في الدرجة الثانية ، واعتبر المجتمع مسئولا عن انحراف الأفراد ، لأن فساد بعض الافراد قد يوءدي الى فساد المجتمع كله ، وقد حذر

---

١ صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ ص ٥٦ (ج١) انظر تفسير الطبري ج ٣ ص ٩٧ ـ ط دار المعارف بمصر تحقيق محمود محمد شاكر .
٢ د. دراز ـ دستور الاخلاق في الاسلام ص ٧٣.
٣ سورة الأعلى الآية ٧.
٤ سورة الفجر الآية ١٤.

الاسلام المجتمع من التقاعس عن استخدام حقه في تقويم الأخلاق العامة - (لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم) [١] . وقال تعالى : (اتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة) [٢] وقد أمر الجماعة بعقاب المنحرفين (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة - ولا تأخذكم بهما رأفة في دين ان كنتم توءمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من الموءمنين) [٣] .

ومن مصادر الالزام الأخلاقي في الاسلام ضمير الانسان ، فالله تعالى ذكره ، كلف الإنسان المسلم وهو يعلم قدراته وطاقاته ، ثم بين له طريق النجاة والفلاح ، وطريق الهلاك ، وجعل المشيئة اليه في اختيار الطريق الذي يريده (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) [٤] . (ولكنه لم يدعه يتخبط ، بل جعل له واعظا من نفسه يهديه الى الحق ، واستمر فيتوجيه الواعظ الداخلي الذي هو ضمير الانسان الى ماهو خير وماهو شر . ففيالحديث (دع مايريبك الى مالا يريبك ، فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة) [٦] - وفي حديث آخر يقول رسول الله صلىالله عليه وسلم "الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه" [٧] . فهذه الأحاديث تدلعلى أن للانسان حاسة اخلاقية ، يستطيع ان يميز بها بين ماهو حسن وجميل من سلوك ، وبين ماهو قبيح وضار ، وباستعمال هذه الحاسة يمكن تجنب مواطن الذلل والاهتدء الى الصواب) .

من هذا يتضح جليا ، ان الالزام الاخلاقي في الاسلام يكتسب قوته من مصدرين أساسيين الأول : يرجع الىالعناصر الخارجية - مثل الوحي الالهي والمجتمع - والثاني - يرجع

---

١ مغداد يالجن - الاتجاه الاخلاقي في الاسلام
٢ تفسير الطبري الجزء العاشرص ٤٩١ تفسير الآية ٧٨ من سورة المائدة وانظر سننالترمذي الحديث رقم ٣٠٤٧ و ٣٠٤٨ في أبواب تفسير القرآن ص ٢٥٢-٢٥٣.
٣ سورة الانفال الآية ٢٥.
٤ سورة النور الآية ٢.
٥ سورة النور الآية ٩.
٦ سورة الانسان الآية ٣.
٧ البخاري كتاب البيوع .

الى العناصر الداخلية ـ ويشمل العقل والضمير الخلقي ـ وهذه العناصر تشكل أقوى سلطة الزامية للأخلاق الاسلامية في الوقت الذي لا نجد لغيرها من الاخلاق سوى سلطة القانون الذي يعتبر سلطة محدودة اذا قيس بالسلطة الاخلاقية في الاسلام [١].

ثانيا : التطابق بين الغاية والوسيلة

ومن خصائص الأخلاق في الاسلام أنها تشترط لتحقيق الغاية النبيلة أن تكون وسيلة تحقيقها مثلها في النبل والطهارة . وهذا يعني أن تتلاءم الوسائل التي تتخذ ، مع الغايات الاخلاقية أو بتعبير آخر ، إتفاق الوسائل مع الغايات الاخلاقية ،لان الغايات الأخلاقية لا تتحقق الا بالوسائل الاخلاقية بصفة عامة ،ولهذا يجب أن تكون كل وسيلة تتخذها لتحقيق الغاية الاخلاقية اخلاقية مثلها ، وهذا يقتضى أن تكون الوسائل خيرة كالغايات تماما ، والا يترتب عليها ارتكاب الشرور من أجل تحقيق الخيرات ،ومن ثمّ لا يمكن تخليص البشرية من الشرور اذ الشر لا ينتج الا شرا . وعلى الرغم من أهمية طهارة الغاية والوسيلة . فان بعض المفكرين يرون أن الغاية تبرر الوسيلة ، أي أنه يمكن اتخاذ أيّة وسيلة ولو كانت شرا لتحقيق الغاية الأخلاقية ، لأن المهم عندهم الغاية وليست الوسيلة [٢] . والحقيقة انه لا مكان في الاخلاق الاسلامية لمثل هذا المبدأ الغاية تبرر الوسيلة ـ ذلك لأن هذا المبدأ نشأ في ظروف قاسية ووسط مجتمعات كانت تدين للقوة كوسيلة لاخضاع الخصم أو اضعافه ، ثم السيطرة عليه ، فهو مبدأ قائم على فلسفة منحرفة في السياسة ، نادى به رجل يدعى ميكافيلى [٣] في القرن الخامس عشر الميلادي في كتاب سماه الأمير [٤] . وأصل هذا المبدأ يتضمن أن السياسة غير الأخلاق ، بالمعنى المفهوم

---

١ انظر د. مقداد بالجن المصدر السابق ص

٢ مقداد بالجن ـ التربية الاخلاقية ـ الطبعة الأولى مكتبة الخانجي بمصر ٩٧هـ ص ٣٧٦-٣٧٧.

٣ ميكافيلى : هو نيقولا ميكافيلى ، ولد في فلورنسا في ايطاليا سنة ١٤٦٩م وتوفي سنة ١٥٢٧، كان موظفا عاديا حين ألف ولم يكن يتوقع أن يكون لاسمه هذا الشأن في عالم السياسة .

٤ كتاب الامير : ألفه نيقولا ميكافيلى عام ١٥١٧ لأحد أمراء مقاطعات ايطاليا في القرن الخامس عشر الميلادي ويدعى (لوران دي مونتيس) تناول فيه المؤلف الامارات الموجودة في ايطاليا مبينا أنواعها وكيفية السيطرة عليها وطرق المحافظة عليها واسباب فقد السيطرة عليها ، ثم بين ماينبغي أن يكون عليه مسلك الأمير ازاء رعيته وازاء اصدقائه واعدائه من الامراء والملوك . ولأن عصره كان مليئا بحالات عدم الالتزام بالعهود والمواثيق ، وعدم تأثير معاهدات السلام بين اولئك الامراء لما اعتادوا عليه من الفسق والمكر والخديعة فيما بينهم لتمكن روح العداء وحب =

عند الاخلاقيين ، أي ان كل غاية سياسية تبرر للسياسي أن يتخذ أيّة وسيلة تضمن له تحقيقها ، ولو كانت هذه الوسيلة غير أخلاقية في عرف الأخلاقيين .

وقد أخذ معظم المشتغلين بالسياسة في الغرب ثم في الشرق غير الاسلامي ، بهذا الاتجاه الميكافيلي ، حتى أصبح منهجا يعرف به كل الظالمين والمنحرفين في الأرض قبل ميكافيلي وبعده ، في السياسة وفي غيرها من أمور الحياة العامة . فالديمقراطيات الغربية رغم حرصها على التظاهر بالتمسك بالمثل الاخلاقية في ميدان السياسة ، تتخذ ماجاء في كتاب الامير منهجا لها في علاقاتها مع غيرها من الأمم ، وأصدق مثال على ذلك تعاون الغرب المسيحي مع اليهود على تشريد الشعب الفلسطيني المسلم ، لاحلال اليهود مكانهم ، واستغلالهم بعد ذلك لهذا الوضع الجديد في كسر شوكة المسلمين واضعاف قوتهم .

وقد فَاقت اليهودية والصهيونية العالمية تلك الديمقراطيات الزائفة في الأخذ بهذه القاعدة نفسها ، فهي تتخذها منهجا لها في جميع مجالات الحياة ، في الشئون السياسية والمالية والاجتماعية ، وغيرها من الشئون حتى تحقق لليهودي غاية من غاياته مهما كانت حقيرة ، واليهود بهذه الصفة هم أبرز من مارس هذا المبدأ بين الأمم فقد جاء في البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون : "ان السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء ، فالحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع ، وهو لذلك غير راسخ القدم على عرشه ... ولابد لطالب الحكم من الالتجاء الى المكر والرياء ، فان الشمائل

= السيطرة عليهم ، فقد نصح ميكافيلي الامير المذكور بأن يسعى بكل امكاناته لتحقيق غاياته مهما كانت الوسائل ، ولو كانت تلك الوسائل غير مشروعة ، فالغاية عنده تبرر الوسيلة . وكان هذا المبدأ الذي ذكره في الفصول الأخيرة من كتابه أخطر مافيه لأنه أثار مسألة علاقة السياسة بالاخلاق ، وجعل من السياسة فنا قائما بأصولها وذاتيتها الخاصة ، ففصل بذلك بين السياسة والاخلاق فكان الانفصال الذي لم يلتقيا بعده الى ليوم في الغرب الذي اعتنق هذا المذهب . ولم يكن هذا الكتاب ليجد هذا الرواج لولا انه أعقب ظهوره نشوب الحروب الدينية في القرن السادس عشر الميلادي ، بسبب حركة الاصلاح الديني البروتستنتي ، ثم حركة الاحياء الوثني النزعة ضد التعصب الكاثوليكي (حركة الصراع بين الكنيسة والعقل - او الصراع بين العلم والدين كماهو مشهور في الغرب) .وكان مما اعطى الكتاب رواجا أكثر فيما بعد ، نابليون بونابرت في فرنسا ، وموسوليني في ايطاليا وهتلر في ألمانيا كانوا يعتبرون كتاب الأمير مثلهم الأعلى . وهوءلاء هم قادة الحرب والتدمير في العالم الغربي في العصر الحديث . انظر د. محمد طه بدوي كتاب - علم أصول السياسة - دراسة منهجية ط ٤ سنة ١٩٦٧ مطبعة المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر بالاسكندرية ص ٢١٧-٢٢٤.

الانسانية العظيمة من الاخلاص والامانة تصير رذائل في السياسة ... ان الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت الى ماهو خير واخلاقي بقدر مانلتفت الى ماهو ضروري ومفيد ... ومن غير اليهود أناس قد أضلتهم الخمر وانقلب شبابهم مجانين بالكلاسيكيات ، والمجون المبكر الذي أغراهم به وكلاؤنا ، ومعلمونا ، وخدمنا ، وقهرماناتنا في البيوتات الغنية ، وكتبنا ومن اليهم ونساؤنا في اماكن لهوهم ..." [1] .

أما رأي الاسلام في هذا الموضوع ، فتحدده الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا اليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون)[2] فهذه الآية تدعو الى اتخاذ الوسائل ليقي الانسان نفسه من المعاصي ، ثم ليصل الى الله ، لكن يجب ان تكون هذه الوسائل من جنس الواجبات ، او من الامور المشروعة لا المحرمة ، ذلك لأن الخير لا يأتي الا بوسيلة خيرة ، وانه اذا اتخذ الشر وسيلة لجلب الخير، فانه قد ينتج عنه شر بدل الخير ، بل قد يكون الشر الناتج أكثر بكثير من ذلك الشر الذي اتخذ وسيلة لتحقيق ذلك الخير [3] . ولهذا أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سألوه أو يأتي الخير بالشر ، قائلا : "الخير لا يأتي الا بالخير ، أما الشر فقد يأتي باشر منه" [4] .

وقد اتخذ المسلمون الحق والعدل والفضيلة مبادىء أساسية لهم ، والتزموا بها مع جميع الناس دون تفريق بين الافراد أو الشعوب ، سواء منهم من دان بالاسلام ومن لم يدن به ، وللدلالة على ذلك نورد هذه الواقعة : حكى الطبري في تاريخه أنه لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة ، الى سكان ماوراء النهر ، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السري ، ان قتيبة غدر بنا ، وظلمنا ، وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والانصاف ، فأذن لنا ، فليفد منا وفد الى أمير المؤمنين ، يشكو ظلامتنا ، فان

---

١ انظر في ترجمته : بروتوكولات صهيون ، أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ٩٦هـ ، ص ٣٢-٣٣.
٢ سورة المائدة الآية ٣٥.
٣ د. مقداد يالجن - التربية الاخلاقية ص ٣٧٩.
٤ فتح الباري - شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ج ٦ ص ٣٨٩ - باب فضل النفقة في سبيل الله .

كان لنا حق أعطيناه ، فان بنا الى ذلك حاجة . فلما أذن لهم سليمان وجهوا منهم وفدا قدم على عمر في دمشق، وبعد أن شرحوا له ظلامتهم ، كتب لهم كتابا ، موجها الى سليمان جاء فيه ، ان أهل سمرقند قد شكوا ظلما أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فاذا آتاك كتابي فاجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فان قضى لهم ، فأخرج - المسلمين الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة . قرأ سليمان الكتاب ، ثم أجلس للأهالي القاضي جميع بن خاضر لينظر في ظلامتهم ، وبعد أن سمع شكواهم بصدر رحب قضى بأن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم خارج أسوار المدينة ، وينابذوهم على سواء ، فاما أن تعلن الحرب ثانية ، واما أن يتفق الطرفان على أساس عادل للصلح ، الا أن سكان المدينة دهشوا لهذا العدل فأعلنوا بالاجماع ودون تردد - بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا [1] .

فالحق والعدل والفضيلة ، وسائر ما أمر الله به من خير في الوسائل والغايات هو الاطار الذي يحد الأخلاق الاسلامية في التزام الوسائل والغايات ، ويميزها عن الممارسات الأخلاقية لسائر الأمم غير الاسلامية . وفي داخل هذا الاطار يفسح الاسلام المجال الى اتخاذ الوسائل التي يوجب المنطق السليم اتخاذها حينما يتعذر وسيلة أخرى مناسبة لاضرر فيها مطلقا ، لكنه يحد هذا أيضا بسياج من الضوابط ، بحيث يعد الخروج عنها خروجا عن الأخلاق الاسلامية وغاياتها وهذه الضوابط هي :

(١) أن تكون غايات الانسان في حياته مقيدة ، بالأنواع التي أذن الله بها في شريعته لا تتعداها ، فما كل غاية تبدو للانسان يصح أن يجعلها احدى غاياته ، مالم تكن مأذونا بها شرعا .

(٢) أن يكون سعي الانسان الى غاياته المأذون بها شرعا مقيدا ، باتخاذ الوسائل التي لا اهدار فيها لحق أو فضيلة أو واجب ، وليس فيها ارتكاب محرم من المحرمات الشرعية .

---

[1] محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك - الجزء السادس - دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م ص ٥٦٧-٥٦٨ ، تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم .

(٣) اذا تعارض في حياة الانسان ضمن أصول الحق والعدل والفضيلة والواجب، واجبات ولم يمكن بحال من الاحوال تحقيقها معا ، أو ممنوعا ، ولم يمكن بحال من الأحوال تركهما معا ، أو ضرران ولم يكن بحال من الأحوال دفعهما معا [1] ، فقاعدة الاسلام عند وجود هذا التعارض الذي لا يمكن تفاديه بوسيلة من الوسائل الاخرى المشروعة اهدار أدنى الواجبين لتحقيق آكدهما[2] وارتكاب أخف المحرمين لدفع الوقوع في أشدهما [3]، وتحمل أهون الضررين وسيلة لدرء أعظمهما [4] .

والقاعدة التي تجمع هذه الضوابط الثلاثة هي "الضرر لا يزال بالضرر" [5] ومن ثم نجد الاسلام حرم اتخاذ الأمور المحرمة وسيلة لتحقيق الأمور المشروعة مثال ذلك تحريم

---

١ عبدالرحمن الميداني - نفس المصدر ص ٩٧-١٠١ .

٢ ومن أمثلة ذلك اهدار أدنى الواجبين ، لتحقيق آكدهما - انه اذا تعارض في حياة أمة واجب التنمية الاقتصادية ، وواجب صيانة الدين والخلق والفضيلة والعلم فمن واجبها ، والحالة هذه أن تحرص على صيانة هذه الأمور ، ولو أفضى الى اهدار واجب التنمية الاقتصادية أو بعضه ، على أن الله تعالى سوف ييسر لها وسائل التنمية الاقتصادية مكافأة لها على ما التزمته من واجب من أجل شريعة الله .

٣ ومثال ارتكاب أخف المحرمين لدفع الوقوع بأشدهما ، انه اذا تعرضت حياة انسان للقتل على يد ظالم ، ولم يكن دفع ذلك عنه الا بارتكاب وسيلة الكذب ، جاز في هذه الحالة دفع أشد الأمرين بأخفهما ، وظاهر أن الكذب على الظالم أخف عند الله من تعريض حياة مسلم لجبروت ذلك الظالم .

٤ ويكون هذا مالو أصيب عضو من أعضاء الانسان بمرض لا يستطاع ايقاف سريانه الى سائر الجسد الا يبتره ، والا سرى فقتل صاحبه ، فمن الواجب والحالة هذه ، بتر العضو العليل لأن فقد العضو الواحد أهون من فقد الانسان نفسه .

٥ السيوطي - الأشباه والنظائر ص ٨٦ - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة سنة ١٩٥٩م .

التداوي بالمحرمات ـ فالغاية لا تبرر الوسيلة في الاسلام ، وانما يجب اتخاذ الوسائل الخيرة للغايات الخيرة ٠

المبحث الثالث : اكتساب الأخلاق الاسلامية وتقويمها ووسائل تحصيلها

أ ـ الأخلاق فطرة أمْ اكتساب ؟؟

من البدهيات أن حظوظ الناس من الطبائع النفسية التي فطروا عليها حظوظ متفاوتة ، فالناس كما تختلف حظوظهم من الذكاء الفطري ، وتتفاوت حظوظهم الجسدية قوة وضعفا ، وطولا وقصرا ، وبدانة ونحولا ، وصحة وسقما ، وجمالا ودون ذلك ، تختلف حظوظهم من الطبائع النفسية الخلقية وغير الخلقية . فالخوف الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر ، والطمع الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقا من الناس مفطورا على سرعة الغضب بينما نجد فريقا آخر مفطورا على الحلم والأناة وبطء الغضب ، ونجد حب التملك الفطري عند بعض الناس أقوى منه عند بعضهم الآخر [1] . وهذا التفاوت نلاحظه حتى في الأطفال الذين لم يتأثروا بالبيئة في تكوينهم النفسي بعد . وقد جاء في الحديث مايثبت هذا التفاوت الفطري في الطبائع الخلقية وغيرها . من ذلك مارواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : (.... ان بني آدم خلقوا على طبقات شتى ... آلا وان منهم البطيء الغضب ، سريع الفيء ، والسريع الغضب سريع الفيء ، البطيء الغضب بطيء الفيء ، فتلك بتلك ، آلا وان منهم بطيء الفي سريع الغضب الا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ،وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ....)[2]. وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة قال : قيل يارسول الله ـ من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم ـ قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسف نبي ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسالونني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا) [3] .

---

١ انظر عبدالرحمن حسن حنبكه الميداني ـ الأخلاق الاسلامية وأسسها ـ الجزء الأول ص ١٦٧-١٦٨. ط دار القلم بيروت سنة ١٩٧٩ الطبعة الأولى .

٢ سنن الترمذي الحديث رقم ٢١٩١ ـ باب ماأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بما هو كائن الى يوم القيامة ـ الجزء الرابع (تحقيق ابراهيم عطوة ط ٢ سنة ٩٥هـ ص ٤٨٣ وهو جزء من حديث طويل .

٣ ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ـ الأدب المفرد المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٧٨هـ ـ الجزء الأول ص ٢٢١ الحديث رقم ١٢٩ باب الكرم .

فالحديث يشير الى أن التكوين الخلقي يرافق الانسان ويصاحبه في كل أحواله فاذا نظرنا الى مجموعة من الناس غير متعلمة ، أو في وسط اجتماعي جاهلي ، فانه لابد أن يمتاز من بينهم أحاسنهم أخلاقا وادراكا ، فهو خيرهم معدنا ، أفضلهم سلوكا اجتماعيا ، فاذا نقلنا هذه المجموعة كلها ، فعلمناها وانقذناها من جاهليتها ، فلابد أن يمتاز من بينهم من كانوا قد امتازوا سابقا ، لأن العلم يمد من كان ذا خلق حسن ، وسلوك اجتماعي فاضل فيزيده حسن خلق وفضل سلوك ، فاذا جاء الدين والفقه فيه ، كان ارتقاء هوءلاء فيما امتازوا به من ارتقاء يمنحهم السبق على من سواهم ،وعندئذ تظل فروق النسبة لصالحهم فضلا وكرما ، فدل الحديث بهذا على أن من الأخلاق أخلاق فطرية بها يتفاضل الناس في أصل تكوينهم الفطري[١] .

والأخلاق الفطرية في الانسان تبقى نقية طاهرة سليمة مابقيت الفطر الانسانية أصيلة ، فاذا انحرفت هذه الفطرة ، انحرفت معها الأخلاق الفطرية . يشير الى هذا ماروا‌ه الترمذي عن حذيفة بن اليمان قال : "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ـ فقد رأيت أحدها وأنا انتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل مثل الوكت[٢] ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل[٣] ، كجمر دحرجته على رجلك فنفطت[٤] فتراه منتبرا[٥] وليس فيه شيء . ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصى فدحرجه على رجله فقال : فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يوءدي الأمانة ، حتى يقال : ان في بني فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ،ما أعقله ومافي قلبه مثقال حبة خردل من ايمان . قال حذيفة : ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي

---

١ الميداني ـ الأخلاق الاسلامية وأسسها ـ المرجع السابق ص ١٧٢-١٧٣.
٢ الوكت : الأثر اليسير .
٣ المجل : تنفط في الجلد من آثر الحرق ، أو من آثر العمل والكد .
٤ نفطت : تقرحت وأصابها بثور من آثر الجمر .
٥ منتبرا : مرتفعا ظاهرا .

أيكم بايعت ، لئن كان مسلما ليردنه عليّ دينه ، وان كان نصرانيا او يهوديا ليردنه عليّ ساعيه . أما اليوم فما كنت أبايع منكم الا فلانا وفلانا" [1] .

ففي الحديث بيان عن أن الأصل في الناس أن يكونوا أمناء ، وأن الأمانة فطرة جعلها الله عز وجل في جذر قلوب الرجال - أي في أصل قلوبهم - اذ جذر القلوب أعمق شئ فيها ، وهو الذي يغذي عواطفها وانفعالاتها ، كما أن جذر الشجرة يغذيها بعوامل النماء والخضرة والاتساع . ثم نزلت شرائع الله التي أنزلها في كتبه التي هيمن عليها القرآن الكريم وبينتها سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن بيان ، فكانت تغذية وتنمية لما غرسه الله في قلوب الرجال من فطرة قائمة على الأمانة في أصل تكوينها ، مما جعل حذيفة رضي الله عنه يقول : ولقد أتى على زمان ، وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه عليّ دينه ... ثم ان الامانة ترفع من قلوب الرجال ، بسبب مايحدث للناس من انحراف ، حتى ان قوة تأثيرها وضغطها على الأفراد الصالحين قد يحدث تحولا مفاجئا للأخلاق الكريمة في قلوب الرجال ، فتسلب من جذر قلب الرجل خلقه الفطري الذي نماه الاسلام بتعاليمه ، وتنتزعها منه ، الا أن الانتزاع الأول يبقى له أثر يسير مثل الوكت ،نظرا لأن الأخلاق الأصيلة يصعب انتزاعها انتزاعا كليا دفعة واحدة ، ولكنها في المرة الثانية تستأصلها ، فلا يبقى الا مظهر أجوف ليس فيه جوهر نافع .

ونخلص مما سبق عرضه الى أن بعض أخلاق الناس فطرية ، تظهر فيهم منذ أول حياتهم ،ومنذ بداية نشأتهم ، وبعض أخلاق الناس ، أخلاق مكتسبة من البيئة الطبيعية أو البيئة الاجتماعية أو من توالي الخبرات والتجارب ونحو ذلك .

على أن الأخلاق المكتسبة لابد لها من وجود الاستعداد الفطري لاكتسابها ، وشأن الأخلاق في هذا كشأن المهارات الحركية والعضلية . فالعضو الذي لديه استعداد وقابلية فطرية لاكتساب مهارة من المهارات ، يمكن أن يغدو بالتدريب والتعليم مكتسبا لهذه

---

[1] سنن الترمذي - باب ماجاء في رفع الأمانة ، الحديث رقم ٢١٧٩ ج ٤ ص ٤٧٤ ، وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٨٨ ط دار الآفاق الجديدة .

المهارة ، اما العضو الذي ليس لديه هذا الاستعداد فانه من المتعذر تدريبه وتعليمه حتى يكتسب هذه المهارة ، وكذلك اكتساب الأخلاق .

ونضرب لذلك مثلا فنقول ان اليد تملك القابلية الفطرية لاكتساب صناعة الكتابة والمهارات الصناعية والفنية المختلفة ، فتدريبها يجدي في تحقيق نسبة من الاكتساب المطلوب ،ولكن الأذن لا تستطيع أن تكتسب شيئا من ذلك ،لأنها لا تملك الاستعداد الفطري لذلك ،وكذلك الناس ، فمن لا يملك الاستعداد الفطري لاكتساب خلق من الأخلاق من المتعذر عليه أن يكتسبه بأية وسيلة من الوسائل .

والأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل لأن وجود الخلق في فطرة الانسان يدل على وجود الاستعداد الفطري فيه لتنميته بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات ، كما انه يدل على وجود الاستعداد الفطري لتقويمه وتعديله وتهذيبه بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات وتشهد لهذه القابلية التجارب التربوية على الانسان والملاحظات المتكررة على أفراد من مختلف البيئات الانسانية [1] .

ب ـ وسائل اكتساب الأخلاق

أما كيف تكتسب هذه الأخلاق بعد وجود الاستعداد الفطري لاكتسابها في انسان ما فان الاسلام الحنيف لم يلجأ في هذا الشأن الى محاولة الغاء طبائع الناس الفطرية ، أو الغاء شيء منها ليقيم محلها طبائع جديدة مكتسبة لم يكن الاستعداد لها موجودا من قبل ، كذلك لم يلجأ الى استحداث عملية تحويل مفاجئة دفعة واحدة ، رغبة في إنجاز سريع على خلاف طبائع الاشياء ، وسنن الله الكونية فيها ، ولم يفرض على الناس خلقا واحدا يتعامل به مختلف الناس ، بطريقة واحدة ، وأسلوب واحد مع اختلاف طبائعهم ، واختلاف الأحوال والبيئات ، لكنه لجأ بحكمة إلى تقويم الأخلاق وتحويلها ،وتنميتها ،ولم يدع في سبيل ذلك وسيلة نافعة لا شر فيها الا استخدمها وأمر بها [2]، لأن الناس أصناف ، وكل صنف منهم قد تلائمه وسيلة من الوسائل ، وتتناسب مع خصائصه النفسية والفكرية

---

١ انظر عبد الرحمن الميداني ـ المصدر السابق ـ الجزء الأول ص ١٨٥-١٨٦.
٢ أبي محمد عبد الله بن هشام ـ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ـ الجزء الرابع ص ٢٢ ، مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد ـ مطبعة دار الفكر (د.ت) .

فالأسلوب الذي قد يصلح هادىء الطبع قد يفسد حاد المزاج ، والأسلوب الذي قد يصلح حاد المزاج قد يفسد هادىء الطبع ، وصاحب الطمع الشديد قد يلائمه من وسائل التربية مالايلائم الضعيف القنوع ، وهكذا في سائر الطبائع .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على مراعاة الفروق الطبيعية ، واختلاف أحوال الناس ، فكان صلى الله عليه وسلم يعطي محبي الفخر شيئا مما يرضي نفوسهم ، بغية اصلاحهم ، ويعطي محبي المال شيئا مما يرضي نفوسهم بغية اصلاحهم ،ويعامل حديثي العهد بالكفر معاملة تختلف عن معاملة الذين رسخ الايمان في قلوبهم — فمن ذلك ما أعطاه أبا سفيان يوم فتح مكة ، اذ قال له العباس : ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، فاعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا مما يرضيه به ، فأمر مناديه أن يعلن : "ألا من دخل دار أبو سفيان فهو آمن" مع أن دار أبي سفيان لم يكن لها شيء من الخصوصية الحقيقية الا مجرد الاعلان بالاسم ، لأن اعلان الأمن قد كان أيضا لمن أغلق باب داره ، ولمن دخل المسجد الحرام . وقد روى البخاري رحمه الله عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بمال أو سبي فقسمه ، فاعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عتبوا عليه — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اني أعطي أقواما وأدع أقواما ، والذي أدع أحب من الذي أعطي ، ولكن أعطي لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواما الى ماجعل الله في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم عمرو بن تغلب — قال عمرو بن تغلب : فوالله ماأحب أن لي بكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم [1] . فالحديث يوضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الجزعين الهلعين مالا أصلح به نفوسهم وأعطى عمرو بن تغلب ثناء كان أحب اليه من المال الكثير فأصلح بذلك نفسه ، وقوى خلق الخير فيه .

فالأخلاق في الجملة يمكن تقويمها وتعديلها ، كما يمكن أكتساب الجيد منها ، والتخلي عن قبيحها وبالعكس ، ودليلنا على ذلك أن الشرع أمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة

---

١ محمد بن اسماعيل البخاري — المجلد الثاني ج ٤ — مطبعة دار الفكر طبعة بالاوفست على طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول ص ٥٩ .

ونهى عن التخلق بالاخلاق الرديئة ، فلو لم يكن ذلك ممكنا مقدورا عليه لما ورد به الشرع [1] .

ج – منهج تقويم الأخلاق :

وقد سلك الاسلام طرقا مثلى عدة لتقويم أخلاق البشر من أهمها :

(١) الاهتمام بترسيخ معاني العقيدة في النفس :

ان العقيدة باعتبارها وسيلة من وسائل تقويم الاخلاق لها آثر كبير في الحياة الأخلاقية من حيث أنها اكبر دافع للانسان لفعل الخير ، وأقوى رادع يكفه عن اتباع الهوى والشهوات ،ومن حيث انها المصدر الرئيسي للضوابط الأخلاقية [2] . يقول د. الكسيس كاريل [3] "فالفكرة المجرده لا تصبح عاملا فعالا الا اذا تضمنت عنصرا دينيا ، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية الى حد يستحيل معه المقارنة ، ولذلك لايتحمس الانسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق الا اذا نظر الى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الالهية" [4] .

وتعد العقيدة أهم مقومات الأخلاق لتركيزها على ترسيخ المعاني التالية :

(أ) الايمان بوجود الله الذي خلق الكون والانسان ، وخلق الموت والحياة ، وهو يعلم كل شيء عن الماضي والحاضر والمستقبل حتى انه سبحان ليعلم مايدور في خلجات الأنفس من النيات الخيرة والشريرة (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) [5] .

---

١ انظر د. عبدالكرم زيدان – اصول الدعوة ص ٨٨ – الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٦م بان

٢ انظر مقداد يالجن – الاتجاه الاخلاقي في الاسلام – دراسة مقارنة – ص ١٢٣ – مطبعة الخانجي القاهرة الطبعة الاولى سنة ١٩٧٣م .

٣ ولد بفرنسا سنة ١٨٧٣م وحصل على اجازة الطب ثم رحل الى معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك سنة ١٩٠٥م وعاد الى فرنسا سنة ١٩٣٩ – ومنح جائزة نوبل سنة ١٩١٢ – عن أبحاثه العلمية الفذة – أصدر كتب قيمة أشهرها كتابه (الانسان ذلك المجهول) لأنه يشتمل على تجاربه عن الانسان والحياة من وجهة النظر العلمية البحتة ، مات سنة ١٩٤٤م .

٤ تأملات في سلوك الانسان – ص ١٤٠ – ترجمة محمد القصاص – مراجعة د. محمود قاسم .

٥ سورة ق الآية ١٦.

(٢) ان الله تعالى منذ أن أوجد الانسان من عدم ، وعلمه مالم يعلم ، وجعله خليفة في الأرض عرفه بنفسه ، وعرفه طريق الخير والشر والحق والباطل عن طريق الأنبياء والرسل . ورحمة بهذا الانسان من الضياع في متاهات عقله المحدود الادراك ، بين الله تعالى عن طريق الوحي واجباته نحو خالقه ،ونحو المخلوقات الاخرى من الانس وغير الانس ، وبين المحرمات التي يجب اجتنابها ، وكل ذلك لتمكين الانسان من التفريق بين الحق والباطل من جهة ، والتفريق بين الخير والشر من جهة أخرى .

ج ـ الايمان بوجود حياة أخرى بعد الموت ، وان هذه الحياة اما نعيم مقيم لمن اتبع الحق وفعل الخير ، واجتنب الشر والمحرمات في هذه الدنيا ، واما جحيم وعذاب أليم يجازى به من اتبع الباطل ، وفعل الشر، وأعرض عن الخير المنزل اليه — فالنعيم لمن استقام في هذه الحياة والجحيم لمن انحرف فيها [1]. وهذه وتلك بعد حساب دقيق يقوم به اعدل الحاكمين ، سبحانه وتعالى (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) [2] ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرة يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [3] . الحياة بالنسبة للانسان ميدان عمل واختبار ، لمن يريد الخير ، ولمن يريد الشر (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أحسن عملا) [4] انه ابتلاء ، أما الحياة الأخرى فهي دار المكافأة والجزاء على الأعمال ـ فالايمان بالله واليوم الآخر ، وبقضاء الله خيره وشره بهذا المفهوم يعتبر الحذر الرئيسي لاصلاح الانسان من أعمق كيانه الداخلي ـ ذلك لأن الانسان متى أيقن ، بالله حق اليقين واطمأن الى عاقبة الأمر ، وأنه لامحال مجاز عن أعماله ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، حرص على النجاة والفلاح ـ فيلتفت يمينا ويسارا فلايجد غير التحلي بمكارم الأخلاق وسلوك السبيل الأقوم في الحياة والثقة بالله والايمان به منجيا له من سوء العاقبة .

---

١ د. مقداد ياليجن ـ المصدر السابق ص ١١٩-١٢١.
٢ سورة الاسراء الآية ١٣.
٣ سورة الزلزلة الآية ٨-٩.
٤ سورة الملك الآية ٢.

ان تقوية معاني العقيدة الاسلامية في النفس توءدي الى انفتاح النفس وتقبلها لمعانيها ، لأنهذه الاخلاق موصولة بالايمان ، ومعاني التقوى، وهذه الصلة تشتد كلما قوي الايمان في النفس ورسخت العقيدة فيها ، مما يجعل اخلاق المسلم الطيبة ثابتة راسخة لا تزول ولا تضعف لانها موصولة بالقوي العزيز ، وتجد مادة بقائها من هذا الفيض الذي لا ينضب : الايمان بالله ولوازمه ـ فالمسلم مثلا لا يمكن أن يكون ذليلا أبدا لأن الله له العزة جميعا ، وللموءمنين المتصلين به نصيب منهذه العزة (ولله العزة ولرسولـه وللموءمنين) [1] والموءمن لا يخاف مخلوقا ولا يخشاه ، ومن ثمّ لا يتملقه ولا يذل له ، ولا ينافق عنده لأن الأمور كلها بيد الله ، ومنها النّفع والضر والرزق والحياة والموت (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الآ هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) [2] وعز الموءمنين بعد هذا كله ـ لا يقترن بها ذرة من كبر أو طغيان أو جبروت أو خيلاء أو عجب بالنفس لأن هذه العزة قائمة على الايمان بالله ، والله وحده له الكبرياء والجبروت وكل ماسواه ، فهو فقير مربوب مقهور ، فاني للفقير أن يتكبر أو يتجبر على غيره [3]. ولهذا لايكون المسلم الآ متواضعا لأنه عرف قدر نفسه بعد أن عرف ربه ، ومن عرف قدر نفسه لا يتعدى حدوده ـ ومع العزة والتواضع صبر ، وثقة ، ورجاء وطمأنينة لايخالطها قلق ، لأنه يعلم أن ماهو مقدور كائن ـ فلا داعي للقلق والاضطراب ، ولأنه يعلم أن من يتوكل على الله فهو حسبه ، فانه لا يخاف ولا يخشى من أحد الآ الله ،وكذلك الحال في الشجاعة والجرأة والاقدام والثبات على الحق ،وسائر بقية الأخلاق ترسخ وتدوم وتستمر مادامت قائمة على ايمان عميق يتخلل شغاف القلب ، وتصبغ به النفس [4] ٠ ولهذا فان تعميق الايمان في النفس وتقوية معاني العقيدة وسيلة هامة للتخلق بالخلق الحسن،وللتخلي عن الخلق الرديء ٠

---

١ سورة المنافقون ×لآية ٨٠

٢ سورة الانعام الآية ١٧٠

٣ انظر عبدالكريم زيدان ـ أصول الدعوة ص ٩١٠

٤ عبدالكريم زيدان نفس المصدر ص ٩٢٠

(٢) اتخاذ القدوة الحسنة :

ومن عناصر منهج الاسلام في تقويم الاخلاق الامر باتخاذ القدوة الحسنة ، يقول الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [١] قال القرطبي في تفسيره : "الأسوة : القدوة ، والأسوة : مايتاسى به أي يتعزى به ، فيقتدى به في جميع أفعاله ، ويتعزى به في جميع أحواله" [٢] وقال الشيخ عبدالرحمن السعدى : "الأسوة ، نوعان : أسوة حسنة وأسوة سيئة ، فالأسوة الحسنة في الرسول صلى الله عليه وسلم اما الاسوة بغيره اذا خالفه ، فهو الأسوة السيئة ، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسى بهم ، انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) [٣] وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن قتادة في قوله (واجعلنا للمتقين اماما) أي قادة في الخير ودعاة هدى يوءتم بنا في الخير [٤] .

فالقدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الأخلاقي الأمثل ،وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالا حسيا مشاهدا يقتدى به ، وقد يكون حاضرا في الذهن بأخبار وسيرة وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير وقصص وأنباء وأقوال وأفعال والقدوة الحسنة بهذا المعنى تنطبق على كل من يتبع ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وطبقا لذلك يكون متبوعا في كلامه وأفعاله ، ويكون متبوعا اما لسبب تفوق بعلم أو بعبادة أو بقدم في طريق الحق والدعوة اليه – وكلها تندرج تحت اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم – وعلى مقدار هذا الاتباع تزداد نسبة الاتباع أو تنقص [٥] .

والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين ، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية . وتكمن أهمية القدوة الحسنة باعتبارها وسيلة من وسائل تقويم الأخلاق في الأسباب التالية :

---

١ سورة الاحزاب الآية ٢١.
٢ أبي عبدالله القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج ١٤ مطبعة دار الكتاب للطباعة والنشر – القاهرة سنة ١٩٦٧م – ص ١٥٥.
٣ عبدالرحمن بن ناصر السعدي – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – الجزء ٦، المطبعة السلفية القاهرة ص ١٠٢.
٤ نفس المصدر ص ١١٠٣.
٥ انظر عبدالحميد العلالي – بحث في القدوة الحسنة – مجلة المجتمع الكويتية العدد، ٥١٤ – السنة الحادية عشر في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٤٠١هـ .

(١) يحظى ذو القدوة الحسنة في المجتمع بمرتبة عالية ، محفوفة بالتقدير والثناء والاعجاب ممن حوله من الناس ، فيولد هذا في نفس الانسان الذي فقد هذه المرتبة من الاعجاب ، حافزا قويا الى تقليده ، والاقتداء بخلقه ومحاكاته ، فتتولد فيه عن طريق الممارسة العملية لتلك الفضائل عادة متمكنة ، تتحول مع المواظبة الى خلق مكتسب [1] . لهذا فانه كلما زاد عدد من يقتدى بهم في مجتمع ما ، اقترب ذلك المجتمع الى الكمال في الخلق والسلوك .

(٢) ان القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة ، تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل الخلقية من الأمور الممكنة ، التي هي في متناول القدرات الانسانية ، وشاهد الحال أقوى وأبلغ من شاهد المقال [2] .

(٣) ان مستويات الفهم عند الناس تتفاوت ، ولكن الجميع قد يتساوون أمام الرؤية بالعين المجردة كمثال حي ، لذلك فان ايصال المفاهيم الخيرة في السلوك والعمل الى المقتدين ، أيسر واجدى عن طريق القدوة الحسنة ، يدل على هذا ماكان من الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فانه لما باغتت هوازن جيش المسلمين في وادي حنين ، انهزم المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفروا من موقع القتال ، فثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وانحاز ذات اليمين ثم قال : أين أيها الناس هلموا الي أنا رسول الله . أنا ابن عبد المطلب ، فلما رأى من بقي من الصحابة ذلك ، تنادو، ونادوا من فر المسلمين ، فاجتمع المسلمون مرة آخرى وواصلوا القتال، ولولا ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم ، واقتداء من معه به ، لحدثت مقتلة عظيمة للمسلمين — فالقدوة العملية من الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أبلغ من ألف خطبة أو تذكير في ذلك اليوم [3] .

---

١ انظر عبد الرحمن الميداني — الأخلاق الاسلامية وأسسها ص ٢٠٣.

٢ انظر الميداني — نفس المصدر ص ٢٠٤.

٣ انظر سيرة ابن هشام — الجزء الرابع ص ٧١—٧٢ ، وصحيح البخاري ج ٥ ص ٩٩.

لهذه الأسباب ونحوها اتخذ الاسلام القدوة الحسنة وسيلة من وسائله لايجاد السلوك العام السوي لدى الأفراد والجماعات ، وتقويم الأخلاق ، وحث أتباعه على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتهم ، يقتدون به في أعماله وأفعاله وأخلاقه ، وجميع شمائله ، فهو خير قدوة يقتدى به الأفراد العاديون ، وذوي الطموح والهمم العالية ، لبلوغ الكمال الانساني في السلوك (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [1] ولئن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه ، فان سيرته التي تحتوي على جزئيات حياته وكلياتها في السلوك ، ماثلة أمامنا ، ويبقى على المسلمين الحرص على تتبع هذه السيرة العطرة ، وأن يعايشوا السيرة النبوية واستحضار شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله في كل حادثة مشابهة . ومن القدوة الحسنة التطلع الى سيرة أصحابه الكرام المملوءة بالخير ، وجليل الأعمال ، والأخلاق وفي ذلك تجسيد للقدوة الحسنة في المقتدين .

ان القدوة الحسنة ستظل ذات تأثير عظيم حتى في المجتمعات المنحرفة لأنها منارات شامخة ، يتطلع اليها الجميع وان كانوا لايستطيعون السير معها والاهتداء بها .

ان مسئولية القادة مسئولية كبيرة في الاسلام ، لأن أتباعهم ينظرون اليهم نظرة فاحصة ودقيقة ، ويترقبون منهم كل حركة وسكون ، وأي ذلة منهم تزل بها أقدام كثيرة فهم ركائز المجتمع ، واذا مالت الركيزة ، مالت معها جميع ماترتكز عليها ، وقد أدرك أهمية القدوة ، وعظم مسئولية صاحبها ، أبو منصور الأنباري [2] ، فانه عندما أخبر بحمل الامام أحمد بن حنبل للمأمون في الأيام الأولى لفتنة خلق القرآن ، عبر الفرات ، فوجد ابن حنبل جالسا في الخان ، فسلم عليه وقال : "ياهذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك ، فوالله ، لأن أجبت الى خلق القرآن ليجيبن باجابتك خلق من خلق الله ، وان أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هذا فان الرجل - يعني المأمون - ان لم يقتلك فأنت تموت ، ولابد من الموت ، فاتق الله ، ولاتجبهم الى شيء"

---

١ رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة - الجزء الثامن ص ١٤٩- كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

٢ انظر ابن الجوزي - مناقب الامام أحمد ص ٥٠٧ .

فجعل أحمد يبكي ويقول : "ماشاء الله . ماشاء الله" . ثم قال الامام أحمد : "يا أبا جعفر ، أعد عليّ ماقلت" . فأعاد الأنباري ، وعاد أحمد يقول : "ماشاء الله ـ ماشاء الله" [١] . وتمر الأيام على الامام أحمد ، وتشتد فتنة خلق القرآن ،ولم ينس أحمد نصيحة الأنباري . ويدخل عليه المروذي [٢] ويقول له : "يا أستاذ ، قال الله تعالى (ولاتقتلوا أنفسكم) فقال أحمد "يامروذي ، أخرج انظر أيّ شيء ترى" . فخرج المروذى الى رحبة دارالخليفة ، فرأى خلقا كثيرا من الناس لا يحصى عددهم الا الله ، في أيديهم الأقلام والمحابر في أذرعهم ، فقال لهم : "أيّ شيء تعملون ؟" فقالوا : "ننظر مايقول أحمد فنكتبه" . فقال لهم : "مكانكم" . ودخل الى أحمد بن حنبل فقال له : "رأيت قوما بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ماتقول فيكتبونه" . فقال أحمد بن حنبل للمروذي "أضل هوءلاء كلهم !! أقتل نفسي ولا أضل هوءلاء" [٣] . قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله : "هذا رجل هانت عليه نفسه في الله فبذلها ، كما هانت على بلال نفسه" [٤].

فالقدوة الحسنة هي من أنجع الوسائل الموءثرة في اعداد الافراد والجماعات خلقيا وتكوينهم تكوينا سويا من الناحية النفسية والسلوكية والاجتماعية ، ولهذا فان الله جل وعلا صنع محمدا صلى الله عليه وسلم على عينه ، وادبه فأحسن تأديبه وجعله للناس رسولا واماما وقدوة وانزل عليه القرآن فكان صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وكان مثالا وقدوة لكل الآباء والابناء والازواج ، حيث جمع الله فيه جميع الصفات الخيرة في البشر . فقد أقامه الله مقام المخرج من وطنه ، ومقام منمات له ولد وأولاد ومن كانت له زوجة وعم وابناء عم بعضهم قتلى . ومقام من فشل في المعركة ومن

---

١ الحافظ ابو الفرج بن عبدالرحمن الجوزي ـ مناقب الامام أحمد ـ الطبعة الأولى (د.ت) مطبعة السعادة بمصر ص ٣١٣-٣١٤.

٢ المروذي ـ هو أحمد بن محمد بن الحجاج أبوبكر المروذي ـ كان ورعا صالحا خصيصا بخدمة الامام احمد بن حنبل ، كان يبعثه في حوائجه ، ويقول : كل ماقلت فهو على لساني وأنا قلته ، وكان الامام أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ـ روى أحاديث ومسائل كثيرة عن الامام أحمد بن حنبل ـ وتوفى المروذي في سنة ٢٧٥هـ .
انظر ابوالفرج ابن الجوزي ـ مناقب الامام أحمد بن حنبل ط ١ ص ٥٠٦-٥٠٧ مطبعة الخانجي بالقاهرة .

٣ ابن الجوزي ـ مناقب الامام أحمد ص ٣٢٩-٣٣٠ ـ المصدر السابق .

٤ المصدر السابق ص ٣٣٠.

أوذي واستهزىء به ، ومقام من شمت فيه ، ومقام من اتهم بعرض أحب الخلق اليه ،ومقام من مرض وجرح ، ومقام من عطش وخاف وغير ذلك من الصفات والمقامات التي يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الانسان مصيبة الآ ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصيب بمثلها ،وكان له موقف مثالي منها ، فيقف مثله ان كان موءمنا والامة المسلمة مليئة بأفراد مختلفي المدارك ، ومختلفي المستويات ، ومختلفي الاختصاصات مختلفي المشارب ، منهم الغني والفقير والقائد والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم كل منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله في الصغيرة والكبيرة حتى أننا نجد النماذج المتباينة من هوءلاء ، وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يسير فيه . وكل ذلك ناتج عن الخصب في حياة الرسول التي استوعبت أحوال البشر جميعا [1] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للبشر والقدوة العليا ، واليه يرجع الكمال البشري في كل شيء ، ومنه يعرف الكمال لكل شيء ، لهذا فانه يجب على أتباعه الاقتداء به والتأسي فيه . وتاريخ الأمة الاسلامية ماخلا في عصر من عصور من نماذج يقتدى بهم ، وماذلك الآ لحرصهم على التأسي بنبيهم ، وما انحرف قط من اقتدى بالرسل ، واتباع الرسل الربانيين .

(٣) العلم بحقائق الأخلاق :

ومن ركائز منهج الاسلام في تقويم الأخلاق العلم اليقيني بالحسن والسيء من الأخلاق ، أي معرفة أنواع الاخلاق الحسنة التي أمر بها الاسلام ، وأنواع الاخلاق الرديئة التي نهى عنها لأنه من غير هذه المعرفة لا يمكن لانسان أن يعرف بأيّ خلق يتخلق ، ومن أيّ خلق يتجرد [2] . فالعلم هنا هو الميزان الذي توزن به الأعمال ، ويفرق به بين الأعمال الصالحة والأعمال الخبيثة . ومن المعارف التي ينبغي الاهتمام بها في هذا المجال مايأتي :

---

١ سعيد حوى ـ الرسول ـ الجزء الأول ص ١٣٣ـ١٣٥ ـ ط ٣ سنة ١٣٩٤هـ ـ بيروت .
٢ د. عبدالكريم زيدان ـ أصول الدعوة ـ ص ٩٠ .

(أ) العلم بما يترتب وماترتب بالفعل على ارتكاب الخطايا والوقوع في الرذائل، وقد ضرب القرآن الكريم الأمثلة لذلك من وقائع الماضي والحاضر ، وبين أن هناك أمما ضاعت وهلكت بسبب انغماسها في الرذائل والمفاسد ، (لقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، كذلك نجزي القوم المجرمين) [1] _ (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) [2] . (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) [3] فهذه الآيات توضح أن الله تعالى عاقب بعض المفسدين في الأرض باهلاكهم وافنائهم _ وهذا يعني أن الفساد قد يكون سببا مباشرا للهلاك وذلك بأن يأتي الله بعقاب مفاجيء كما حدث لتلك الأمم ، وقد يكون سببا غير مباشر للهلاك ، بأن يوءدي فساد الأفراد الى فساد المجتمع ، واهلاكه ، تماما كما يحدث المرض لعضو من أعضاء الجسم ، فان لم يعالج سرى المرض الى باقي الجسم فيكون سببا لهلاك الجسم كله [4].

(ب) التبصير بخيرية الخير وشرية الشر ، ولا يكفي أن نقول أن الفضيلة خير،والرذيلة شر بل يجب أن نوضح مدى مافي كل منهما من منافع وخيرات تعود على الفرد والمجتمع ومن مضار ورذائل وشرور تعود على الفرد والجماعة . وقد حرص القرآن على تبيين ذلك اجمالا وتفصيلا _ قال تعالى (ماكان الله ليذر الموءمنين على ما أنتم عليه حتى تميز الخبيث من الطيب) [5] _ ثم ضرب مثلا للتمييز بين خباثة الشح والبخل ، وبين طبيعة البذل والكرم _ فقال تعالى : (ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) [6] _ فالآية توضح أن البخل شر على الانسان ، لذلك يجب تجنبه [7] .

---

١ سورة يونس الآية ١٣.
٢ سورة الانعام الآية ٦.
٣ سورة البقرة الآية ٥٩.
٤ انظر د. مقداد يالجن _ التربية الاسلامية _ ص ٥٤٧.
٥ سورة آل عمران الآية ١٧٩.
٦ سورة آل عمران الآية ١٨٠.
٧ انظر د. مقداد يالجن _ نفس المصدر ص ٥٤٩.

ويدخل تحت هذه المعرفة ، معرفة مايترتب عليها من نتائج - ويعني هذا أن يعرف المسلم أن الخلق الحسن متصل بالايمان بالله ، وتقوى الله ، وسبب للظفر برضوان الله ،ودخول الجنان ، وأن الخلق السيء من امارات ضعف الايمان وسبب سخط الله ودخول النار . وتأتي أهمية هذه المعرفة من أنها ستدفعه الى التخلق بالخلق الحسن ، رغبة في رضوان الله ،كما تدفعه الى الخلاص من الاخلاق السيئة خوفا من سخط الله ، لأن من رغب في شيء سعى اليه ،ومن خاف من شيء هرب منه [1] .

ان الالتزام بمقتضى الأخلاق الاسلامية ثمرة من ثمرات الايمان ، وان العلم بحقائق الأخلاق يضفي على صاحبه الخشوع والخوف من الوقوع في الرذائل لادراكه مايترتب عليها من مضار ، ولما يعرفه من البراهين القاطعة : { إنما يخشى الله من عباده العلماء) [2] وقوله تعالى : (ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا ان كانوعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) [3] - ذلك لأنه لا يستوي من يعرف مضار المحرمات ، وقيم الفضائل المختلفة ومن يجهلها . فالذي يعرف ضرر الجمر مثلا ومضارها الدينية والاجتماعية والصحية ، لايمكن أن يتساوى موقفه مع الجاهل بتلك الحقائق . فمعرفة حقيقة الأخلاق دافع قوي الى الالتزام بالفضائل ، ورادع عن رذائلها .

---

١ انظر د. عبدالكريم زيدان - أصول الدعوة - ص ٩٠.
٢ سورة فاطر الآية ٢٨.
٣ سورة الاسراء الآية ١٠٩.

الباب الثالث

وسائل بناء الشخصيّة المسلمة

الفصل الأول

بناء الشخصية السوية من خلال الأسرة

المبحث الأول : المفهوم الشرعي للزواج في الاسلام :

استعمل الزواج في المعنى اللغوي ليدل على اقتران أحد الشيئين بالآخر، وارتباط كل واحد بالآخر ، بعد أن كانا منفصلين [١] ، ومن ذلك قوله تعالى : (وزوجناهم بحور عين) [٢] وقوله سبحانه (واذا النفوس زوجت) [٣] أي قرنت بأبدانها أو بأعمالها. ثم شاع استعمال لفظ الزواج في اقتران الرجل بالمرأة على سبيل الدوام والاستمرار لتكوين أسرة ، فصار الاطلاق لا يراد منه الا ذلك [٤] .

أما الزواج في الاصطلاح الفقهي فهو عقد وضعه الشارع يفيد حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه المشروع ، وعلى سبيل القصد [٥] . وهذا التعريف الشرعي يفيد الأمور الآتية [٦] :

(أ) إن الزوج مختص بالاستمتاع بزوجته دون غيره ، فلا يحل لغير زوجها الاستمتاع بها مادامت في عصمته .

(ب) إنه بمجرد العقد بين الزوجين يحل للزوج الاستمتاع بزوجته على الوجه المشروع بعد أن كان ذلك محرما قبل عقد الزواج .

(ج) إن استمتاع الزوج غير مقصور على زوجته ، فله أن يتمتع بغيرها من زوجات في الحد المقرر شرعا وهو أربع زوجات . أما المرأة فمحظور عليها تعدد الأزواج حتى لا تختلط الأنساب .

---

١ انظر بدران أبو العينين : الزواج والطلاق في الاسلام ص ٧ – طبعة موءسسة الكتاب بالاسكندرية (د.ت)
٢ سورة الواقعة الآية
٣ سورة التكوير الآية ٧.
٤ انظر بدران أبو العينين الزواج والطلاق في الاسلام ص ٧–٨.
٥ والتقييد بالقصد لئلا يشمل العقد الذي يفيد الحل ضمنا ، كملك اليمين بشراء أو هبة أو ميراث ، فانه يحل لمالك الجارية الاستمتاع بها .
٦ المصدر السابق ص ٩–١٠

ثم ان العقد المذكور كما يطلق عليه الزواج ، يطلق عليه لفظ النكاح ، وكثر استعمال الفقهاء والقرآن للفظ النكاح الدال على لفظ الزواج ، وعلى هذا يكون مدلول لفظي الزواج والنكاح في لسان الشرعيين واحدا [1] .

وليس المقصود من الزواج مجرد الاستمتاع بل يقصد منه ، تكوين الأسرة والتوالد والتناسل ودوام العشرة بين الزوجين ، واشتراكهما في الحياة ، وتربية الأولاد. فغاية عقد الزواج أسمى وأجل من عقود تمليك لعين أو منفعة كالبيع والاجارة . لأنه عبارة عن عهد وميثاق بين الزوجين يربط بينهما رباط المودة والرحمة ، ويحكم العلاقة بينهما مادا ما على قيد الحياة ، ويصيّرهما شخصا واحدا يدافع كل منهما عن الآخر، ويألم كل منهما بألم الآخر . وقد أرشد الى ذلك قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)[2]. ثم ان حفظ النوع الانساني لا يتحقق الا بالزواج ، باعتباره المنشئ للأسرة ، والأسرة هي اللبنة الأولى لبناء المجتمع [3] .

ولأهمية عقد الزواج ، وعظم أثره لما يترتب عليه من أحكام النسب والميراث، ولأنه من العقود المستمرة غير المقيدة بزمان أو مكان - كما هو الحال في العقود الأخرى - عني الشارع الاسلامي به عناية خاصة في جميع مراحله من وقت التفكير فيه الى وقت انشائه ،وانتهائه ، فنظم أموره ، وبين أحكامه ، ووضع الأسس التي تضمن المحافظة عليه [4] .

فالزواج نظام الهي شرعه الله تعالى لاقامة دعائم الاسرة على أسس صحيحة وسليمة، لأن الأسرة ، لبنة من لبنات الأمة ، التي تتكون من مجموعة أسر ترتبط بعضها ببعض ، ومن الطبيعي أن البناء المكون من لبنات يأخذ مما في هذه اللبنات من قوة أو ضعف .

---

١ وانظر في الصفحات السابقة من نفس المصدر ، الاستعمالات المختلفة للفظ النكاح عند فقهاء الحنفية والشافعية ،حسب المدلول اللغوي لكلمة النكاح ، حيث يطلق النكاح على العقد وعلى الوطء وعلى الضم حسّيا كان أو معنويا ، كضم محسوس الى محسوس أو ضم قول الى قول .

٢ سورة البقرة الآية ١٨٧.

٣ انظر الزواج والطلاق في الاسلام ص ١١.

٤ المصدر السابق ص ١٢.

فكلما كانت اللبنات قوية ذات تماسك ومناعة ، كانت الأمة المكونة كذلك قوية ذات تماسك ومناعة ،وكلما كانت اللبنات ذات ضعف وانحلال ، كانت الأمة كذلك ذات ضعف وانحلال[1] .

ولكل ماسبق ، كانت عناية الاسلام بالزواج والحث عليه في كثير من الآيات والأحاديث النبوية ، مرغبة في تحصيله . قال تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) [2] . وقال جل وعلا : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات)[3] . وقد جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فقال أحدهم أما أنا فاني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر ، أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله اني لأخشاكم لله ، واتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأقعد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني" [4] . وعن ابن ماجة في سننه ، قال صلى الله عليه وسلم : "النكاح من سنتي ، فمن لم يستن بسنتي فليس مني" [5] . وعن سعيد ابن جبير قال : "قال لي عبدالله بن عباس : هل تزوجت ؟ فقلت : لا . قال : تزوج فان خير هذه الأمة أكثرها نساء" [6] .

وقد دل على شرعية الزواج ، كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع الأمة . أما الكتاب فقوله تعالى : (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم) [7] . وقوله تعالى :(وانكحوا

---

١ انظر د. رمزي نعناعه – تنظيم الاسلام للمجتمع – نظام الأسرة والعقوبات ص ٣٤، الطبعة الأولى طبعة دار العلم الكويت سنة ١٣٩٧هـ .
٢ سورة النحل الآية ٧٢.
٣ سورة الروم الآية ٢١.
٤ صحيح البخاري ج ٧ كتاب النكاح – باب الترغيب في النكاح.
٥ سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٢.
٦ صحيح البخاري المصدر السابق .
٧ سورة النساء الآية ٣.

الأيامى [١] منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله)[٢].
فالآيتان اشتملتا على الأمر بالنكاح ، والأمر وان كان في اصله للوجوب ، الا أنه مصروف في الآيتين عن الوجوب الى الاباحة بدليل انه سبحانه ، علقه على الاستطاعة في الآية الأولى ،والواجب لا يعلق عليها [٣] .

وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : "يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة [٤] فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له [٥] وجاء"[٦].
وقد أجمع المسلمون من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشروعية الزواج [٧] ولكنهم اختلفوا في الصفة الشرعية للزواج ، وهو كونه مباحا أو مندوبا أو واجبا أو فرضا أو مكروها أو حراما [٨] .

وقد رجح جمهور الفقهاء على أن الزواج حال الاعتدال مندوب ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتم الزواج ، ولم يلزم به الناس كما الزمهم بالفرائض والواجبات لأن الزواج أمر متعلق بالقيام بشأن الأهل ، واعفافهن ، ورفع الفتنة عن نفسه وعنهن ورعاية الولد والأقارب والمستضعفين ،وتأديب النفس وتأهيلها للعبودية ولتكون الزوجة عونا على تلك العبودية [٩] .

---

١ الأيامى "جمع أيم وهي من لا زوج لها رجلا كان أو امرأة بكرا كان أو ثيبا" تفسير ابن كثير الآية ٣٢ من سورة النور .
٢ سورة النور الآية ٣٢.
٣ انظر الزواج والطلاق في الاسلام ص ١٤.
٤ الباءة : المراد بها التكليفات اللازمة للنكاح من اعداد البيت ، والقدرة على الانفاق ، سميت بذلك باسم مايلازمها وتقديره من استطاع منكم موؤنة النكاح فليتزوج ومن لم يستطع فليصم .
٥ الوجاء : مأخوذ من وجأ بمعنى قطع أي أن الصوم قاطع لشهوة من لم يستطع الزواج وذلك لأن الصوم قاطع للشهوات لما فيه من روحانية ، وتقوية للارادة ، وفي ذلك كف للنفس عن الحرام .
٦ صحيح البخاري - كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح .
٧ المراد بالمباح مالم يطلبه الشارع لا فعلا ولا تركا ، والمندوب ماطلب الشارع فعله من غير الزام ، فله الثواب ان فعله ولا اثم على تركه ، والواجب ماطلب على وجه اللزوم ،وكان ثابتا بدليل ظني فيه شبهة ، والفرض ماطلب الشارع فعله قطعا بدليل لا شبهة فيه . والحرام : ماطلب الشارع تركه بدليل قطعي لا شبهة فيه . والمكروه : ماثبت طلب تركه بدليل ظني فيه شبهة . الزواج والطلاق في الاسلام ص ١٥.
٨ تفصيل أقوال الفقهاء في صفة الزواج الشرعية في كتاب الزواج والطلاق في الاسلام ص ١٥-١٨.
٩ انظر الزواج والطلاق في الاسلام ص ١٨.

المبحث الثاني : أهداف الزواج في الاسلام

ان الاسلام في سعيه وحثه على الزواج ، لا يعتبره سبيلا مشروعا لتكوين الأسرة ، ولا وسيلة شريفة لانجاب الولد الصالح ، ولا سببا لغض الأبصار وتحصين الفروج أو اطفاء الشهوات واشباع الغرائز ، ليس ذلك أو غيره فحسب ، ولكنه اعتبر تكوين الأسرة سبيلا لتحقيق أهداف أكبر ، تشمل كل مناحي المجتمع الاسلامي، ولها أثرها العميق في حياة المسلمين وكيان الأمة الاسلامية [1] . ونجمل هذه الأهداف في الهدف الاجتماعي والهدف الخلقي والهدف الروحي وفيما يلي عرض موجز لهذه الأهداف الثلاثة :

(أ) الهدف الاجتماعي :

يهدف الاسلام من تكوين الأسرة الى تحقيق تماسك المجتمع وترابطه ،وتوثيق عرى الأخوة بين أفراده وجماعاته وشعوبه بالمصاهرة والنسب . وفي سبيل هذه الغاية، اعتبر الاسلام المسلمين أمة واحدة دون أيّة تفريق في الجنس أو اللون أو اللغة، فأجاز التزاوج بين العربي والعجمي ، وبين الأسود والأبيض ، وبين الشرقي والغربي [2] . وبذلك سبق الاسلام الحنيف جميع النظم الغربية والشرقية في الدعوة الى تحقيق وحدة الجنس البشري باعتراف الكثيرين من فلاسفة الغرب ومفكريه – وللاستدلال على هذا الادعاء نسوق ماقاله الأديب الانجليزي برنارد شو عن الاسلام : "... والاسلام دين حرية لا دين استعباد، وقد قرر أخوة الاسلام منذ ألف وثلاثمائة وخمسون عاما [3] وهو المبدأ الذي لم يعرف عند الروم السابقين ، ولا عند الأوربيين والأمريكيين المعاصرين" [4] . ويستطرد الأديب الانجليزي قوله : "اذا سألت العربي أو الهندي أو الفارسي أو الأفغاني : من أنت ؟ يجيبك على الفور : أنا مسلم ، أما الغربي فاذا سألته من أنت ؟ قال : أنا انجليزي أو طلياني أو فرنسي .. الغربي يترك الدين ويتمسك بالجنسية والوطنية ، في حين

١،٢ انظر حسين محمد يوسف – أهداف الأسرة في الاسلام والتيارات المضادة ص ٦٩–٧٠ مطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ دار الاعتصام – القاهرة .

٣ كتب الأديب الانجليزي رأيه هذا قبل نصف قرن من الزمان .

٤ مجلة الوعي الاسلامي عدد يونيه سنة ١٩٦٩م ص ٦ – تصدر عن وزارة الشئون الاسلامية بالكويت .

ان المسلم يقول : أنا مسلم ، بصرف النظر عن وطنيته أو جنسيته [1] وهو أكبر دليل على أن الاسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة ، دون أن يجعل أيّ فرق بينهم بسبب أوطانهم أو ألوانهم أو جنسياتهم ، ولقد نصب الاسلام شابا أسود البشرة [٢] أميرا على جيوش المسلمين ، وفيها كبراؤهم . فالحكومة الديمقراطية الصحيحة لم تعرف الا في الاسلام"[٣].

ومن أجل تقوية النسل ، وتوثيق عرى الأخوة بين أبناء الدين الواحد حث الاسلام على الزواج من الغرائب ، لأنه يتحقق بهن مالا يتحقق بزواج ذوي القربى بعضهم من بعض الذين لهم من صلة الرحم مايكفي لتعاونهم وتضامنهم ، في حين أن المرأة الغريبة يكون الزواج بها سببا في ايجاد صلات جديدة ، لم تكن قائمة من قبل ، بين العائلات والقبائل وبين الشعوب والأجناس ، وبذلك يزداد المجتمع الاسلامي قوة على قوة وأخوة على أخوة[٤].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خير قدوة في تحقيق الهدف الاجتماعي من تكوين الأسرة ، فقد تزوج بالسيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ، كما تزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين – وهكذا ارتبط بصاحبيه الكبيرين برباط المصاهرة معززا اخوته لهما في الله . ومن ناحية أخرى ، فقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته رقية لعثمان بن عفان ، فلما توفيت عقد له على شقيقتها أم كلثوم ، كما زوج ابنته السيدة فاطمة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين . وهكذا حذا الصحابة حذو نبيهم فارتبطوا فيما بينهم برباط المصاهرة ، فكان من أقوى أسباب تماسك بنيانهم ، وتآلف أرواحهم ، فغدوا كما أراد الله تعالى لهم ورسوله ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر[٥].

---

١ هذا هو المفترض في المسلم ذو العقيدة الصحيحة والفهم السليم للاسلام ، أما ماتراه اليوم في البلاد الاسلامية من تقديس الوطن والجنسية والاعتزاز بذلك دون الاسلام فهو من الأمور التي تسربت الى المسلمين في غياب الوعي الاسلامي وكرس له الاستعمار الغربي الصليبي كل جهده لتعميقه بقصد التفريق بين المسلمين واضعاف قوتهم ، ثم تمسك به من بعدهم ربائبهم من المسلمين حتى أصبح واقعا معاشا لاينكره سوى أصحاب القلوب العامرة بالايمان بالله .

٢ يقصد أسامة بن زيد رضي الله عنه الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجيش الموجه الى البلقاء بأرض الروم وفي الجيش يومئذ بعض كبار الصحابة منهم عمر رضي الله عنه وكان أسامة آنذاك يبلغ من العمر ثمان عشرة سنة .

٣ مجلة الوعي الاسلامي الكويتية – المصدر السابق ونفس الصفحة .

٤ انظر حسين محمد يوسف – المصدر السابق ص ٧٠.

٥ انظر حسين محمد يوسف المصدر السابق ص ٧١

(ب) الهدف الخلقي :

ويعتبر الاسلام بناء الأسرة وسيلة فعالة لحماية الشباب من الفساد ووقاية المجتمع من الفوضى ، ولذا اختص الشباب بقسط أوفر من الدعوة الى الزواج ، باعتباره ألـزم له وأوجب في حقه ـ فقال صلى الله عليه وسلم : "يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء"[١] وقد خص النبي صلى الله عليه وسلم الشباب بهذا التوجيه الكريم لأن توفر قوة الشهوة فيهم تجعل حاجتهم الى الزواج أشد ، والضرر من اعراضهم عنه أكبر ، سواء بالنسبة لأنفسهم لاحتمال انحرافهم عن طريق الفضيلة والطهر ، أو بالنسبة للمجتمع الذي يـؤدى فيه الاعراض عن الزواج الى انتشار الفاحشة ، وذيوع المنكرات ، وتفشي الأمراض الخبيثة وكثرة أولاد الزنا [٢] ، كما هو الحال فعلا في المجتمعات العصرية ولا سيما المجتمع الأمريكي حيث انتشرت الاباحية بين الجنسين .

(ج) الهدف الروحي :

ويعتبر الاسلام بناء الأسرة خير وسيلة لتهذيب النفوس وتنمية الفضائل الخلقية ، حيث تقوم الحياة في محيطها على التعاطف والتراحم والتضحية والايثار ، وحيث يتعود أفرادها تحمل المسئوليات ، والتعاون في أداء الواجبات قال صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكل مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته" [٣] ثم ان قيام الآباء بأود الأبناء والعناية بتنشئتهم ، وتحمل الشدائد في سبيل عيشهم ومؤونتهم ، كل ذلك وماشابهه من موجبات رحمة الله تعالى وعفوه فضلا عما فيه من صقل للأرواح ، وتصفية للقلوب ، ورفع للدرجات . وفي هذا المعنى يقول سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : "ان من الذنوب

---

١ رواه البخاري ج ٦ ص ١١٧ ـ صحيح مسلم ج ٤ ص ١٢٨ .

٢ انظر حسين محمد يوسف ـ المصدر السابق ص ٩٩-١٠٩ .

٣ البخاري ـ الأدب المفرد ج ٢ ص ٣٣، ٣٤ .

ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفرها الهم في طلب المعيشة" [١] وقال صلى الله عليه وسلم في الحث على التفاني في تربية البنات واكرامهن : "من كانت له بنت فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه ، كانت له سترا أو حجابا من النار" [٢] . أما اذا قدر لبعض الأبناء أن يموتوا في حياة آبائهم فان في ذلك خير وبشرى للآباء والأمهات بنجاتهم من النار "يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم" [٣] فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مامن مسلمين يموت لهما أربعة من الولد لم يبلغوا الحنث الا أدخلهما الله عز وجل الجنة . قالوا : يارسول الله ، وثلاثة ؟ قال : وثلاثة - قالوا : يارسول الله واثنان ؟ قال : واثنان" [٤] . وقال صلى الله عليه وسلم : "مامن مسلم يموت له ثلاثة من الولد الا جئ بهم يوم القيامة فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فيقولون : حتى يدخلها آباؤنا . فيقال لهم : في الثالثة أو الرابعة : ادخلوا انتم وآباؤكم"[٥].

وبوجه عام فان حياة الرجل في أسرته ، تعد من أعظم القربات الى الله ،فرعايته لأبنائه صدقة ، وموآنسته لهم صدقة ، وسقيه الماء لزوجته صدقة ، ووضعه اللقمة في فيهما صدقة ، بل وان في اتصاله بها صدقة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق نبي هذه الأمة حيث قال : " ... في بضع أحدكم صدقة . قالوا يارسول الله : أياتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر" [٦] .

ومن ناحية أخرى فان الاسلام في عدالته وسماحته ، جعل للنساء من الأجر في تكوين الأسرة ، مالا يقل عن أجر الرجال ، وذلك عوضا عما يتحملن من مشقة الحمل والولادة والرضاع والسهر على الولد. فقد جاءت سلامة حاضنة ابراهيم من رسول الله صلى الله

---

١ عزاه العجلوني في كشف الخفاء ج ١ ص ٢٥٤ الى الطبراني من حديث أبي هريرة مرفوعا
٢ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ١١٨ وصحيح مسلم ج ٨ ص ٣٨.
٣ سورة الشعراء الآية ٨٨،٨٩.
٤ البخاري - الأدب المفرد ج ١ ص ٢٥ ، وصحيح مسلم ج ٨ ص ٣٩.
٥ ابن الأثير، أسدالغابة ،ج٧ ص ٦١ وصحيح مسلم ج٨ ص ٤٠ برواية قريبة من هذه الرواية .
٦ مسلم - صحيح مسلم ج ص

عليه وسلم وقالت : "يارسول الله انك تبشر الرجال بكل شئ ولا تبشر النساء . فقال : أصويحباتك دسسنك لهذا ؟ قالت : أجل هن أمرنني . قال : ألا ترضي احداكن انها اذا كانت حاملا من زوجها – وهو عنها راض – أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله عز وجل ، واذا أصابها الطلق ، لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين"[١].

وحياة الأسرة فيها من الترويح عن النفس والائتناس بالزوجة ، مايساعد العبد في اقباله على الله ، ويقوي همته في العبادة . يقول الامام الغزالي في هذا المعنى: "ان النفس ملول ، واذا روّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت ، وفي الائتناس بالنساء من الاستراحة مايزيل الكرب ، ويروح القلب ، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى (ليسكن اليها)" [٢] .

وقد أدرك السلف الصالح أهمية تكوين الأسرة ، ومكانتها من المجتمع الاسلامي، وآثرها في صلاح شئون الدين والدنيا ، فحرصوا على الزواج ،وسارعوا اليه استكمالا لدينهم ،واتباعا لسنة نبيهم ، وتوثيقا لعرى الأخوة بينهم وبين اخوانهم ، وتقربا الى الله بتنشئة الأبناء ورعايتهم ، وزيادة شوكة الاسلام بكفاحهم وجهادهم ، فضلا عما فيه من تحصين لنفوسهم ، وتصفية لقلوبهم [٣] .

فهم السلف الصالح – رضي الله عنهم – كل ذلك حق الفهم ، حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليقول : "لا يمنع من الزواج الا عجز أو فجور"[٤] . وقد بلغ بكراهية السلف الصالح للعزوبة ونفورهم منها ماروى عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه كان يقول : "لو لم يبق من عمري الا عشرة أيام ، لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا" [٥] . وروى عن الامام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – أنه تزوج في اليوم التالي

---

١ ابن الأثير – أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٧ ص ١٤٤.
٢ الغزالي في احياء علوم الدين كتاب آداب النكاح .
٣ انظر حسين محمد يوسف المصدر السابق ص ١٣٠-١٣١.
٤،٥ الغزالي المصدر السابق .

لوفاة أم ولده عبدالله ، وقال : "أكره أن أبيت عزبا" [١] وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه - في الطاعون ، وكان هو نفسه مصابا به ،ومع ذلك فقد بلغ من حرصه على الحياة الزوجية أنه قال : "زوجوني ، فاني أكره أن ألقى الله تعالى عزبا" [٢] . وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : "لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج" [٣] .

هكذا فهم السلف الصالح - رضوان الله عليهم - رسالتهم ،وهكذا كان ايمانهم بالله تعالى ، وحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحرصهم على اقامة سنته ، ثقة منهم أن الخير كل الخير في الاتباع ، وأن الشر كل الشر في تحكيم الأهواء ، والنكوص عن تحمل المسئوليات والتقصير في اداء الواجبات .

١-٣ الغزالي احياء علوم الدين كتاب آداب النكاح .

المبحث الثالث : الحقوق الشرعية للأبناء :

حيث كان الأولاد في هذه الحياة هم رجال المستقبل ، وعليهم يعتمد استمرار عمارة الكون ، عنيت بهم الشريعة الاسلامية عناية كبيرة ، فشرعت كثيرا من أحكام الطفولة ، وأبانت تلك الأحكام بدقة من حين أن يدب الطفل في الحياة وهو لما يزال في بطن أمه الى أن يشب ويترعرع ، وكل هذه محافظة لأفراده من الفساد .

وكما تقدم ذكره في مبحث - المفهوم الشرعي للزواج - فان من أهم مقاصد الزواج نقاء النسل وصيانة الأنساب من الاختلاط ، وهذا يتطلب الحرص والدقة من الآباء في اختيار أمهات الأولاد حتى اذا ماولد الطفل حافظت عليه هذه التشريعات من الذل ، وحصنته من الضياع ، وأبعدته من العار ، فاثبتت له النسب لوالديه ، فكان هذا أول حق يثبت له بعد انفصاله من أمه ، ولما كانت الوسيلة لتغذيته ونقائه وهو في مهده هو لبن أمه أوجبت الشريعة حقا ثانيا هو الرضاع ، محافظة عليه من الهلاك بسبب الجوع .

وحيث كان الطفل من حين ولادته الى أن يبلغ مبلغ الرجال يمر بمرحلتين :

أولاهما : مرحلة الحاجة الى تربيته ، والقيام على محافظته ، والعناية باصلاحه ، وهي فترة الحضانة ، فكانت هذه ثالثة الحقوق التي ثبتت للطفل .

وثانيهما : مرحلة الضم الى الولي ، وتبدأ من حين انتهاء حضانة النساء وتنتهي بالبلوغ مع العقل ، والاستغناء عن الولي ، وهذه الولاية سلطة تجعل للولي مباشرة التصرفات التي تتعلق بنفس الطفل من صيانة وحفظ ، وتعليم وتزويج ، كما تثبت له على الطفل ولاية أخرى هي الولاية على المال ، فيكون للولي قدرة على التصرفات التي تتعلق بمال الصغير كالبيع والاجارة والرهن وغيرها من التصرفات . فثبت في هاتين المرحلتين حقان آخران :

أحدهما الحضانة لاحتياج الأولاد في فترة طفولتهم الى من يرعى شئونهم في الأكل والملبس والنوم وغير ذلك .

وثانيهما الولاية على النفس والمال ان كان الأولاد قبل بلوغهم سن الرشد يحتاجون الى

من يرعى شئونهم في التعليم والتزويج والتأديب . واذا كان للأولاد مال ، فهم في حاجة الى من يقوم بحفظه واستثماره .

وخامس الحقوق للأولاد ، النفقة ، لأن هؤلاء في فترة طفولتهم غير قادرين على التكسب وفي حاجة الى من ينفق عليهم حين لا يكون لهم مال يكفي لنفقتهم .

وفيما يلي أعرض لهذه الحقوق التي كفلها الاسلام للأبناء لايجاد جو صالح، وبيئة نقية لهم ، فينشأوا نشأة سوية ، ويكونوا أفرادا صالحين في المجتمع ، دون اللجوء الى التفصيلات الفقهية ، حيث أن الفقهاء في كل العصور ، عنوا بهذه الحقوق عناية فائقة ،وجاءوا منها بتفصيلات وتفريعات فقهية دقيقة ، ومطولة ، ليس من اختصاص هذا المبحث ذكرها بصورتها تلك :

١- حق النسب :

وهو رابطة وصلة عظيمة أحاطها الشارع الكريم بسياج منيع ليحميها من الفساد والاضطراب . فقد قضت سنة الله تعالى في خلقه أن يوجد المخلوق طفلا لايستقل بنفسه ، ولا يقدر أن يشب من غير معين ، فكان من عظيم رحمته أن يودع في الآباء حب الأبناء، فيظلوا مدفوعين بعامل خفي على رعاية أبنائهم يحدوهم الى ذلك وازع الحنو لايشاركه فيه أجنبي يقلل عطفه ، ولا دخيل يشاركه حنانه ، فأقام نبيهم رابطة النسب وعدّها احدى نعمه التي أنعم بها على عباده ، ومظهرا من مظاهر قدرته [١]. فقال تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا ، وصهرا وكان ربك قديرا) [٢] .

وحق النسب من أهم حقوق الأولاد على أبيهم ، لأنهم ثمرة من ثمرات الزواج بين أبويهم ، وقد خص القرآن الكريم الأب بالذكر في قوله تعالى : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) [٣] ويمكن الاستدلال بهذه الآية للدلالة على أن المختص بنسبة

---

١ انظر د. سعاد ابراهيم صالح - علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية ص ٥٠ - دراسة فقهية مقارنة ط أولى - مطبعة تهامة بجدة سنة ١٤٠١هـ ، وحقوق الأولاد في الشريعة والقانون ص ٣ طبعة موسسة شباب الجامعة الاسكندرية الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٢ سورة الفرقان الآية ٥٤.

٣ سورة البقرة الآية ٢٣٣.

الولد اليه هو الأب دون الأم ، لأن نسبة الولد الى الأم لا يتوقف عليه شيء ، لأن الولادة قد تكون من زواج صحيح أو زواج فاسد أو سفاح أو وطء يشبهه كمخالطة الرجل لامرأة زفت اليه ، قيل له انها زوجته . وليست هي الزوجة المقصودة ، أو مخالطته مطلقته ثلاثة في عدتها خطأ أو جهلا [١] .

وقد سن الاسلام تشريعات وضوابط لحماية رابطة النسب ومنها :

(أ) أنه قضى على التبني الذي كان شائعا بين العرب في جاهليتهم قبل أن يسطع عليهم نور الاسلام . فقد كانوا يدّعون أبناء غير أبنائهم ، وينسبون اليهم ، ويجرون عليهم أحكام الأبناء الصلبيين من تحريم زواج وغيره ، فلما جاء الاسلام وهم على تلك الحالة ، أبطل تلك العادة ، وألغى ماكانوا يرتبون عليها من أحكام[٢] فقال تعالى في محكم تنزيله : (وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) [٣] .

(ب) أمر الله أن ينسب الأولاد الى آبائهم ان عرفوا ، فمن لم يعلم لهم أب كان مولى أو أخا في الدين [٤] ، لقوله تعالى : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم ، فاخوانكم في الدين ومواليكم) [٥] . ففي الآية الكريمة أمر منه سبحانه ، برد أنساب الأدعياء الى آبائهم ان عرفوا ، فان لم يعرفوا فهم اخوانهم في الدين ومواليهم عوضا عما فاتهم من النسب . قال ابن كثير رحمه الله : "وهذا أمر ناسخ لما كان ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الادعياء . فأمر تبارك وتعالى بردنسبتهم الى آبائهم في الحقيقة وان هذا هو العدل والقسط والبر" [٦] وفي سبب نزول هذه الآية ذكر ابن كثير في تفسيره رواية عن صحيح البخاري ، أن عبدالله بن عمر قال "ان زيد بن حارثة

---

١ علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية ص ٥١.
٢ انظر حقوق الأولاد في الشريعة والقانون ص ٣-٤.
٣ سورة الأحزاب الآية ٤.
٤ صحيح البخاري م ٣ ج ٦ ص ١٢٢ كتاب النكاح
٥ سورة الأحزاب الآية ٥
٦ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٣ ص ٤٦٦.

رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماكنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله)[١] . فقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء في كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك ... ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعيّ . وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقال عز وجل : (لكي لايكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطر)[٢] وقال تعالى في آية التحريم : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)[٣] احترازا عن زوجة الدعي ، فانه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعا لقوله صلى الله عليه وسلم : "يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب"[٤] أما دعوة الغير على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نهى عنه[٥].

(ج) وقد نهى الله تعالى الأبناء أن ينتسبوا الى غير آبائهم ، وحرم عليهم الجنة ان هم فعلوا ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم : "من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه محرمة"[٦] ولعل الحكمة في ذلك أن انتساب الولد الى غير أبيه عقوق للأب ، واساءة اليه وترك لشكر نعمته[٧] .

وكذلك نهى الشارع الحكيم عن انكار نسب الأولاد ، وتوعدهم على ذلك بالعقاب والعذاب ، كما حرم على المرأة أن تنسب الى زوجها من تعلم أنه ليس منه . وفي توضيح هذا المعنى يقول شاه ولي الله الدهلوي : "من الناس من يقصد مقاصد دنية ، فيرغب عن أبيه ، وينسب الى غيره ،وهو ظلم وعقوق لأنه تخييب أبيه ، فانه طلب بقاء نسله المنسوب اليه المتفرع عليه ، وترك شكره ،واساءة معه . وأيضا فان النصرة والمعاونة لابد منها في نظام الحي والمدينة ، ولو فتح باب الانتفاء من الأب لأهملت هذه المصلحة ، ولاختلطت أنساب القبائل . وقال صلى الله عليه وسلم "أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ،

---

١ ابن كثير المصدر السابق ص ٤٦١ ، وصحيح البخاري ج ٦ ص ٢٣ – كتاب التفسير .
٢ سورة الأحزاب الآية ٣٧.
٣ سورة النساء الآية ٢٣.
٤ صحيح البخاري ج ٦ ص ١٢٤ ، باب امهاتكم اللاتي أرضعنكم .
٥ تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٦٦.
٦ البخاري – المصدر السابق نفس المكان .
٧ انظر حقوق الأولاد في الشريعة والقانون ص ٤.

فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله الجنة . وأيما رجل جحد ولده ، وهو ينظر اليه احتجب الله منه ، وفضحه على رؤوس الخلائق" [1] . ولعل هذا ، لما يترتب على انكار الأب ولده من تعريض الولد وأمه للذل والعار الذي لا ينمحي [2] ، وفي هذا ضرر بالغ يجب دروءه قبل وقوعه لخطورته ، واستمرارية آثاره .

وقد وضع الشارع لثبوت النسب ، سببا واضحا هو الاتصال بالمرأة ومخالطة رجل لها بطريق من طرق الحل ، كالزواج أو ملك اليمين ، فاذا تحقق ذلك الحل ، ووجدت تلك المخالطة بين الزوج ، وزوجته ، كان الرجل أبا للولد الذي هو ثمرة هذه المخالطة [3].

وهكذا نجد أن الشرع الحنيف قد حرص كل الحرص على اثبات النسب للولد لاحتياجه الى دفع العار على نفسه بكونه ولد زنا ، ولأن ثبوت نسبه ، يستتبع له حقوقا أخرى منها : حق الرضاعة ، وحق الحضانة ،وحق النفقة ، وحق الارث ،وغيرها من الحقوق التي لا غنى للأولاد عنها حتى يشبوا عن طوقهم .

(٢) حق الرضاع [4]

الرضاعة حق من حقوق الولد ، وكونها حقا للولد لها اعتباران :

الاعتبار الأول : أن الرضاعة متصلة بالنفقة فتهيئة أسبابها واجبة على من تجب عليه نفقة الصغير ، وأول من تجب عليه نفقة الصغير هو أبوه ، لأنه منسوب اليه ، ولأنه جزوءه على ما بينته في حق النسب .

والاعتبار الثاني : أن الرضاعة هي أفضل وسيلة لتغذية الولد في مرحلة الطفولة ، وبما أن الأم هي أقرب الناس الى ولدها ، وأن لبنها هو الغذاء الأفضل باتفاق

---

١ أحمد ـ المعروف بشاه ولي الدين بن عبد الرحمن المحدث الدهلوي ـ حجة الله البالغة ج ٢ ص ١٤٤ ـ جزءان ـ طبعة دار التراث الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥هـ قام بنشره جماعة من محبي العلم والصلاح .
٢ انظر الزواج والطلاق في الاسلام ص ٤ ـ وعلاقة الآباء بالأبناء في الشريعة ص ٥٢.
٣ المصدرين السابقين نفس الصفحات .
٤ الرضاع والرضاعة بكسر الراء فيهما وفتحهما ـ (وانكر الأصمعي الكسر مع الرضاعة) .. ومصدره رضاعا ورضاعة بالفتح ومعناه في اللغة مص اللبن من الثدي ـ مختار الصحاح ص ٢٦٥ .

الأطباء لملاءمته حال الطفل ، وانها أعظم الناس شفقة على وليدها جاءت النصوص الصريحة بأمر الوالدات بارضاع أولادهن فقال تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) [١] واعتمادا على هذا النص "أجمع فقهاء المسلمين على وجوب الرضاع على الأم ديانة [٢] ، سواءا كانت متزوجة بأبي الرضيع أم كانت مطلقة منه وانتهت عدتها ، ولكنهم اختلفوا في وجوب الارضاع عليها [٣] قضاء" [٤] .

فاذا أرضعت الأم ولدها فليس لها أجر على ذلك ، ان كانت الزوجية قائمة بينها وبين أبيه ، أو كانت مقيدة من طلاق رجعي من الأب ؛ وتجب لها قطعا اذا كانت أجنبية عن الأب ، بأن لا يكون هناك زوجية ولا عدة ، وهذا يعني أن أجرة الرضاعة ليست أجرة خالصة ، أي ليست عوضا خالصا ، بل هي مئونة ونفقة ، ولذا لا تجب على الأب اذا كانت الأم في عصمته أو في عدة الطلاق الرجعي [٥] لأن عليه نفقة والمئونة بمقتضى الزوجية ولا تجب للمرأة نفقتان ، وان تعددت أسباب الوجوب [٦] .

---

١ سورة البقرة الآية ٢٣٢.

٢ ديانة : أي انها تأثم فيما بينها وبين ربها ان كانت قادرة على ارضاع ولدها وتركت الارضاع من غير عذر مسوغ لذلك .

٣ قضاء : أي أن يستصدر أبو الرضيع أو وصيه أمرا من القاضي باجبارها على الارضاع .

٤ يرى فقهاء الحنابلة والمالكية والظاهرية انه يجب على الأم ارضاع ولدها ديانة وقضاء واستثنى المالكية الأم التي تكون من طبقة نساوءها لا يرضعن أولادهن بأنفسهن أما الحنفية والجعفرية من الشيعة فيرون انه يجب عليها ديانة ارضاع ولدها ، ولاتجب عليها قضاء الا في الحالات التي يخشى على الولد الهلاك ان لم ترضعه امه مثل عدم وجود مرضعة أو عدم قدرة الأب عن أن يستأجر مرضعة أو عند امتناع الطفل عن أن يلتقم سوى ثدي أمه انظر البحث القيم في أقوال فقهاء المذاهب في المسألة للدكتور بدران أبو العينين المصدر السابق ص ١٩-٢٢.

٥ واختلفوا على عدة الطلاق البائن من الأب ، فمن الفقهاء من قال تجب لها أجرة الارضاع لانقطاع العلاقة الزوجية ، أي انها صارت أجنبية عنه . ومنهم من قال ان المعتدة من الطلاق البائن كالمعتدة من الطلاق الرجعي ، فلا تجب لها الأجرة لأن على الأب النفقة عليها مادامت معتدة ولا تجب نفقتان وان تعددت الأسباب . وهذان القولان عن الحنفية والراجح عندهم الرواية الثانية ـ انظر أبو زهرة ـ المصدر السابق ص ٤٧١.

٦ انظر محمد أبو زهرة المصدر السابق ص ٤٧١ .

ثم إن الأم تستحق الأجرة في مدة الرضاع في الحالات التي تستحق فيها الأجر[1] على الارضاع ، من غير اتفاق على مقدارها بينها وبين أبي الرضيع أو وصيه ،وتبدأ الأجرة من وقت قيامها بالارضاع ، لأن القرآن الكريم جعل استحقاقها الأجرة مرتبا على الارضاع لا على الاتفاق لقوله تعالى : (فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) [2] فان وجد ارضاع وجبت لها الأجرة لأن الأم مضطرة الى ارضاع الولد ديانة ، لحفظه من الضياع فاذا لم توجب لها الأجر الا اذا كان هناك عقد أو اتفاق بينهما وبين الأب ترتب على ذلك تعريض الولد للضياع ، ولأن ارضاع الأم للصغير أمر بمعروف ، والمعروف عرفا كالمشروط شرطا[3].ولاتستحق الأم أجرة رضاع لأكثر من سنتين لقوله تعالى : (والوالدات يرضعن حولينكاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) قال ابن كثير رحمه الله "هذا ارشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن كمال الرضاعة وهي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك" [4] وذكر رحمه الله أن قول الجمهور وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائرأزواج النبي صلى الله عليه وسلم سوى عائشة رضي الله عنها على أنه لا يحرم من الرضاعة الا ماكان دون الحولين ، فلو ارتفع المولود وعمره فوقهما لم يحرم [5] .

والأم أولى بارضاع ولدها ، فاذا رغبت الأم في أرضاع ولدها طلبت أجرا على ارضاعه ففي الحالات التي تستحق فيها الأجرة تكون لها أجرة المثل وليس على الأب الرفض اضرارا بالأم فان طلبت الأم أجرا أكثر من أجر المثل أو تبرعت امرأة غيرالأم بارضاع الطفل بدون أجرة أو رضيت أن ترضعه باقل من أجر المثل فلا تجاب لطلب الأم لقوله تعالى : (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده)[6].

---

١ وسيأتي توضيحها عند ذكر المرضعة غير الأم التي ترضع بأجرة وهي (الظئر)

٢ سورة الطلاق الآية رقم ٦٠

٣ انظر د. بدران أبو العينين – المصدرالسابق ص ٥٧ – وانظر أبو زهرة المصدرالسابق ص ٢٧٢٠

٤،٥ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم الجزء الأول ص ٢٨٢–٢٨٣٠

٦ اجرة المثل : هي الأجرة التي تقبل امرأة غيرالأم أن ترضع الولد في مقابلها .

٧ سورة البقرة الآية ٢٣٢٠

فالآية تفيد النهي عن الاضرار بالوالدة بسبب ولدها ، وعن الاضرار بالوالد بسبب ولده ، ومن الاضرار بالوالد أن يلزم بالأجرة التي تطلبها الأم مع وجود من تتبرع بالارضاع أو وجود من تأخذ أقل من أجر الأم ولا فرق في ذلك بين أن يكون الأب موسرا أو معسرا ولا بين أن تكون الأجرة من مال الصغير أو من مال الأب [١] .

أما بالنسبة للأب ، فانه من حق الولد عليه ، اذا امتنعت الأم عن الارضاع ، أن يستأجر امرأة لترضع الولد [٢] ، احياء له ، وحرصا على حياته وتسمى تلك المرأة ظئرا وهذا الأجر يكون على الأب لقوله تعالى : (فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) فالرضاع هو الغذاء الذي يحتاج اليه الطفل في مبدأ حياته ، فهو بالنسبة اليه كالطعام بالنسبة للكبير وعلى هذا فان أجرة الرضاع تكون على من تجب عليه النفقة والذي تجب عليه النفقة هو الأب ، وقد وصى الله تعالى الأب جانب الأم حتى تكون قادرة على رعاية مصلحة الطفل ، فأمره برزقها وكسوتها بالمعروف بما يكفيها في طعامها وكسوتها والكفاية هنا يحددها العرف الجاري ـ فالأم عليها ارضاع ولدها والأب عليه الانفاق ان كانت زوجة أو في حكم الزوجة ، واعطاؤها الأجر ان لم تكن زوجة ولا في حكم الزوجة [٣] .

ونخلص مما تقدم الى ان الرضاع من حقوق الطفل الثابت بمقتضى النصوص الشرعية . وأن الأقوال المختلفة الواردة فيه ناتجة من طبيعة فهم هذه النصوص . أما اختلاف الفقهاء في بعض الفروع فسببه كيفية تحقيق هذا الحق وتحديد المسئولية فيه دون أن يمس جوهر الحق الأصلي المقرر .

٣ـ <u>حق الحضانة</u> [٤] :

الحضانة في اصطلاح الشرعيين هي تربية الطفل ورعايته والقيام بجميع شؤونه من تدبير طعامه وملبسه ونومه ، والاهتمام بنظافته في سن معينة ممن له حق تربيته

---

١ انظر تفسير ابن كثير تفسير الآية قم ٣٢ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٨٤ وانظر الزواج والطلاق في الاسلام ص ٥٨ـ٥٩ والأحوال الشخصية ص ٤٧٣ .

٢ وعلى المرضعة المستأجرة أن ترضع الولد عند أمه لأن الحضانة حق للأم وامتناعها عن الارضاع لا يسقط حقها في الحضانة لأن كلا منهما حق مستقل عن الآخر فلا يترتب على سقوط أحدهما سقوط الآخر ، انظر المصدرين السابقين ـ نفس الصفحات .

٣ د. سعاد ابراهيم صالح ـ المصدر السابق ص ٨٦ـ٨٧ .

٤ الحضانة في اللغة بفتح الحاء وكسرها ـ معناها الحضن وهو الجنب أو الصدر =

شرعا وهي حق للأم ثم لمحارمه من النساء [١] .

وقد وردت الحضانة في القرآن بلفظ آخر يفيد نفس المعنى وهو الكفالة وذلك قوله تعالى : (وماكنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) [٢] وقوله سبحانه (اذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله) [٣] أي يتعهده بالرعاية والحفظ والتربية والتنمية .

وقال الجصاص في معنى قوله تعالى : (لا تضار والدة بولدها) [٤] "وفي هذا دلالة عن أن الأم أحق بامساك الولد مادام صغيرا وان استغنى عن الرضاع بعد مايكون ممن يحتاج الى الحضانة ، لأن حاجته الى الأم بعد الرضاع كما هي قبله . فاذا كانت في حالة الرضاع أحق به وان كانت المرضعة غيرها ، علمنا أن في كونه عند الأم حقا لها وفيه حق للولد أيضا : وهو أن الأم أرفق به وأحنى عليه . وذلك في الغلام عندنا الى أن يأكل وحده ويشرب وحده ويتوضا وحده وفي الجارية حتى تحيض" [٥] ثم قال : "حكمت الآية أيضا ان الأم أحق بامساك الولد من الأب" [٦] .

وقال الدكتور بدران أبو العينين [٧] : "الصحيح أن حق الحضانة حق مشترك بين الصغير والحاضنة ، فليس حقا خالصا للصغير ، وليس حقا خالصا للأم ، غاية الأمر أن حق الصغير أقوى لأن مصلحته مقدمة على مصلحة أبويه ، وأنه يجب العمل بما هو أنفع وأصلح للصغير في باب الحضانة" وقال : "فاذا أسقطت الأم حقها بقي حق الصغير لأن من حق الولد أن يعنى به والداه منذ ولادته ، ومن هذه العناية حفظه والقيام بشوءونه ، وهذا مايكون

= والعضدان ومابينهما يقال حضن الطائر بيضه اذا ضمه الى نفسه تحت جناحه ، وحضنت الأم ولدها اذا ضمته الى جنبها أو صدرها ، وقامت بتربيته وتسمى حينئذ حاضنته . انظر مختار الصحاح ص١٤٢ - وانظر لسان العرب مادة حضن .

١ انظر د. بدران أبو العينين المصدر السابق ص ٦١ وانظر محمد أبو زهرة المصدر السابق ص ٤٧٤ .
٢ سورة آل عمران الآية ٤٤ .
٣ سورة طه الآية ٤٠ ، انظر معجم ألفاظ القرآن د. سعاد ابراهيم ، ص ٩٢ .
٤ سورة البقرة الآية ٢٣٢ .
٥،٦ أحمد بن علي أبي بكر الرازي الجصاص الحنفي أحكام القرآن ج ١ ص ٤٠٥ ، المطبعة البهية المصرية القاهرة سنة ١٣٤٧هـ .
٧ المرجع السابق ص ٦١-٦٢ .

في الفترة الأولى من حياته واجبا على الأم ، لأنها أقدر على هذا من الأب" [1] .

وقد وردت الآثار الصحيحة في السنة بأن النساء أحق بالحضانة ومن ذلك ماروى أن امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت : يارسول الله هذا ابني كان بطني له وعاء ، وحجري له حواء ، وثدي له سقاء ، وان أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني.فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أحق به مالم تتزوجي" .

ويعتمد حق الحضانة على قوة القرابة ، مع كثرة الشفقة الداعيان الى رعاية مصالح الطفل ، وتوفير مافيه نفعه وصلاحه ،والقيام على حفظه وتدبير شئونه كلها،ولما كانت النساء فيهم رفق وقوة عاطفة أكثر من الرجال ، جعل الله لهن حق الحضانة على درجات متفاوتة ، فاذا لم يوجد من النساء محرم للصغير انتقل حق الحضانة الى الرجال تبعا لترتيبهم في الارث [2] .

فقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تقديم الأم على غيرها [3] ، وان لم توجد الأم أو وجدت ولم تكن أهلا للحضانة تنتقل الحضانة الى قرابة الأم دون قرابة الأب قياسا على تقديم حق الأم في الحضانة على حق الأب لأن مبنى الحضانة الشفقة والصبر على القيام بشئون الصغير . فاذا لم توجد من النساء محرم للصغير انتقل حق الحضانة الى المحارم من العصبة على حسب ترتيبهم في الارث . فاذا لم يوجد أحد من العصبات المحارم أو وجد ولم يكونوا أهلا للحضانة انتقل حق الحضانة الى المحارم من غير العصبة ، فان لم يوجد واحد من هوءلاء كان الأمر مفوضا لرأي القاضي فيضع الولد عند من يثق به من الرجال أو النساء .

---

١ د. بدران أبو العينين بدران المصدر السابق ص ٦١-٩٢.

٢ د. بدران أبو العينين - نفس المصدر ص ٩٢

٣ والدليل على ذلك أن عمر بن الخطاب لما طلق زوجته أم عاصم وأراد أن يأخذ ولده عاصما منها ، أبت عليه ذلك وتخاصما الى أبي بكر فقضى أبوبكر رضي الله عنه لأم عاصم والصحابة شهود ولم ينكر عليه أحد منهم فكان اجماعا منهم على تقديم الأم على غيرها ولو كان أبا .
انظر - المغني لابن قدامة ج ٩ ص ١٣٣.

وحيث كانت تربية الطفل تتطلب عناية خاصة ومقدرة معينة ، شرط الشارع في استحقاقها شروطا باجتماعها يمكن الوصول الى التربية المنشودة وبفقدان واحد منها يتطرق الخلل الى تربية الصغير . وهذه الشروط بعضها عام في كل من يثبت له حق الحضانة لا فرق في ذلك بين النساء والرجال وبعضها خاص بما اذا كانت الحاضنة امرأة ، وبعضها خاص بما اذا كان الحاضن رجلا [1] . وكل ذلك مرجعه الى الاحتياط للولد وتحري مافيه مصلحته والابتعاد عما فيه ضرره ومايحتمل أن يوءدي الى هذا الضرر . فالحضانة انما شرعت لنفع الولد وجر المصلحة له ودفع الضرر عنه وأيّ جهة يمكن أن تكون موردًا للهلاكه فقد احتاط له الشارع الحكيم لأن الولد في حياته الأولى يكون عاجزا عن القيام بمصالح نفسه غير مدرك لما يضره وماينفعه فوجب وضع الضوابط اللازمة لصيانته وعدم ضياعه وهلاكه .

(٤) حق النفقة [2] :

والنفقة هي مايحتاج اليه الانسان من طعام وكسوة ومسكن ، ومايتبع ذلك من ماء شرب وطهارة ، وغير ذلك من زوجة وأقارب ومماليك وغيرهم بحسب العرف .

---

١ أما الشروط العامة فهي البلوغ والعقل والحرية والامامة وعدم الفسق والقدرة على تربية المحضون وحفظه ورعاية شئونه . واما شروط استحقاق النساء للحضانة فهي أن تكون الحاضنة غير متزوجة بأجنبي عن الصغير أو بقريب غير محرم له ،وكون الحاضنة قريبة للطفل ذات محرم من الصغير كأمه أو خالته أو اخته .. الخ وألا تقيم الحاضنة بالولد في بيت يتضرر فيه ، لأن الحضانة شرعت لمصلحة الصغير وصيانته ،وألا تكون الحاضنة مرتدة عن الاسلام أما اتحاد الدين بين الحاضنة والمحضون فليس شرطا عند أكثر الفقهاء لأن الحضانة تقوم على أساس الحنان والشفقة واختلاف الدين غيرموءثر في ذلك . فالأم الكتابية أحق من غيرها بحضانة ولدها المسلم من زوجها المسلم. الى أن يعقل الولد الأديان . وأما الشروط الخاصة بحضانة الرجال زيادة على الشروط العامة السابقة فهي أن يكون الحاضن ذا رحم محرم على الصغيرة واتحاد الدين بين الحاضن والمحضون فلا حضانة لكافر على طفل مسلم . وللمزيد يراجع آراء الفقهاء في هذه المسألة سبل السلام ج ٣ ص ٢٢٦ ومابعدها ، ونيل الأوطار ج ٦ ص ٣٦٩ ومابعده والمغنى ج ٩ ص ١٣٣ ومابعده . والأحوال الشخصية ـ محمد أبو زهرة ص ٤٧٤-٤٨٣ وعلاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية ـ ص ٨٩-١١٩ وحقوق الأولاد في الشريعة ص ٦١-٩٠.

٢ الأمور التي توجب النفقة هي الزوجية والقرابة والملك والذي يهمنا في هذا البحث هو النفقة بسبب القرابة . والقرابة التي تجب بسببها النفقة نوعان : قرابة الولادة : وهي قرابة الأصول والفروع . والأصول هم الآباء والأمهات والأجداد والجدات وان علو . والفروع هم الأولاد وأولاد الأولاد وان نزلوا . والقرابة غيرالولادة والمراد بها القرابة المحرمة بالنسب . انظر بدائع الصنائع ج ٥ ص ٢٢٢٨ "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ـ للكاساني وهو علاء الدين بن مسعود الكاساني ت ٥٨٧هـ ـ مطبوع في ١٠ أجزاء مطبعة العاصمة بالقاهرة سنة ١٣٢٨هـ .

وقد ثبتت مشروعية النفقة للأبناء (الفروع) بالكتاب والسنة :

١- من الكتاب :

أ - قوله تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لايكلف الله نفسا الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا) [1] .
قال ابن الجوزي في معنى الآية : "أمر أهل التوسعة أن يوسعوا على نسائهم المرضعات أولادهن على قدر سعتهم" [2] .

ب - قوله تعالى : (وعلى المولود له رزقهم وكسوتهن بالمعروف) [3] قال الجصاص :
"حوت الآية للدلالة على معنيين : أحدهما : أن الأم أحق برضاع ولدها فيالحولين، وأنه ليس للأب أن يسترضع له غيرها اذا رضيت بأن ترضعه . والثاني : أن الذي يلزم الأب في نفقة الرضاع انما هو سنتان .وفي الآية دلالة على أن الأب لايشارك في نفقة الرضاع لأن الله تعالى أوجب هذه النفقة على الأب للأم وهما جميعا وارثان - ثم جعل الأب أولى بالزام ذلك من الأم مع اشتراكهما في الميراث . فصار ذلك أصلا في اختصاص الأب بالزام النفقة دون غيره . كذلك حكمه في سائر مايلزمه من نفقة الأولاد الصغار والكبار الزمني هو بايجابه عليه دون مشاركة غيره فيه لدلالة الآية عليه" [4] .

ج - قوله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكمقياما وارزقوهم فيها واكسوهم) [5] أي اجعلوا لهم فيهاأو افرضوا لهم فيها ،وهذا فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجته وبنيه الأصاغر . فكان هذا دليلا على وجودنفقة الولد على الوالد ، والزوجة على الزوجة .

---

١ سورة الطلاق الآية ٠٧
٢ ابن الجوزي - زاد املسير في علم التفسير ج ٨ ص ٢٩٧٠
٣ سورة البقرة الآية ٢٣٣٠
٤ الجصاص ج ١ ص ٤٠٤٠
٥ سورة النساء الآية ٠٥

(٢) من السّنّة :

أ ـ ماروى عن ثوبان أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته في الله ، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله . قال أبو قلامة وبدأبالعيال وأي رجل أعظم أجرا من رجل ينفقه على عيال صغار ، يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم" [٢] .

وفي الحديث دليل على الحث على العيال . وبيان عظمة الثواب فيه لأن منهم من تجب نفقته بالقرابة ، ومنهم من تكون مندوبه وتكون مندوبة وصلة . ومنهم من تكون واجبة بملك النكاح أو بملك اليمين . وهذا كله فضل محثوث عليه . وهو أفضل من صدقة التطوع . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في رواية ابن شيبة "أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك" [٣] .

(ب) ماروى عن عائشة رضي الله عنها أن هند زوجة أبي سفيان قالت : "يارسول الله ان أبا سفيان رجل شحيح ، ولا يعطيني من النفقة مايكفيني وولدي الا ما أخذت من ماله بغير علمه . فقال صلى الله عليه وسلم : خذي مايكفيك وولدك بالمعروف" [٤] فدل الحديث على وجوب نفقة الزوجة والأولاد على الزوج . وأن الواجب الكفالة من غير تقدير النفقة ، وان من تعذر عليه استيفاء مايجب له من نفقة أن يأخذه لأن صلى الله عليه وسلم أقرها على الأخذ في ذلك لاسيما مع تمرد الأب ، وأن للأم ولاية على ولدها [٥] .

بالأصل في الانفاق ، أن نفقة الانسان تجب في ماله صغيرا أو كبيرا فمن كان له مال ،فلاتجب على أحد أن ينفق عليه ، اذ أنه من شروط النفقة أن يكون المنفق عليه

---

١ القرطبي مج ٢ ص ١٦٠٢ الجامع لأحكام القرآن .
٢ صحيح مسلم مج ٢ ج ٣ ص ٠٧٨
٣ المصدر السابق نفس الصفحة .
٤ ابن دقيق العيد ـ الأحكام في شرح أصول الأحكام ج ٢ ص ٠٢٧٠
٥ انظر علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية ص ٠١٤٦

لا مال له ولا كسب يستغني به عن انفاق غيره . فان كان موسرا بمال أو كسب يستغني به فلانفقة له ، لأنه تجب للحاجة والمواساة ، ومن كان له مال لا يحتاج إلى من ينفق عليه[١].

وعلى ذلك اذا كان للولد الصغير مال لا تجب نفقته على أحد ، ولو كان أباه بل تجب نفقته في ماله الخاص ، وان أنفق أبوه عليه من ماله هو لا يرجع عليه من ماله ، الا اذا كان بأمر القاضي ، أو كان قد أشهد أنه أنفق عليه ليرجع في ماله ، فانه من المعتاد أن ينفق الأب على ولده ، ولو كان للولد مال خاص ، فان لم يشهد ، فان الانفاق يكون على مجرى العادة[٢] .

ويشترط عجز من يطالب بالنفقة ، الا في النفقة الواجبة للأصول على فروعهم ، فان العجز عن الكسب ليس بشرط ، فتجب نفقة الأب على ابنه مادام محتاجا ، ولو كان قادرا على الكسب[٣] .

والعجز يكون بالصغر والأنوثة ، فالصغير والأنثى عاجزان ، ويكون بالمرض المزمن الذي يقعده عن الكسب ، والعمى ، ويكون بالخرق ، بأن يكون أخرق لا يحسن صناعة[٤] .

ولا يشترط يسار المنفق في نفقة أحد الأبوين على الابن ، وانما الشرط في الوجوب على القدرة فقط ، ولو كان معسرا ، ولا يسقط الوجوب في هذا النوع من النفقة الا اذا كان الأب عاجزا بحيث تكون نفقته على غيره من الأصول أو الفروع ، لأنه في هذه الحالة ، يعتبر في حكم المعدوم ، ولأنه لا يسوغ عقلا أن توجب عليه نفقة غيره ، وهو يأخذ نفقة من غيره[٥] .

وعلى هذا قالوا بالنسبة لنفقة الولد على أبيه أنه لا يشارك الأب في الانفاق على ولد أحد ، ولو كان معسرا ، لأنه منسوب اليه ، وهو جزء منه ، فالانفاق عليه يسقط

---

١ علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية ص ١٤٩-١٥٠.
٢ انظر محمد أبو زهرة الأحوال الشخصية ص ٤٨٧.
٣ المصدر السابق ص ٤٨٧.
٤ المصدر السابق ص ٤٨٩.
٥ المصدر السابق ٤٨٩-٤٩٠.

عنه ، فكذلك احياء ولده واجب عليه لا يسقط عنه الا عند العجز التام عن الكسب . فاذا تم الانفاق من غير الأب ــ في هذه الحالة ــ تكون هذه النفقة دينا على الأب يرجع عليه من انفق عند اليسار ، فمثلا اذا كان من تجب عليه النفقة هو الأم تنفق ، وترجع عليه عند الميسرة ، وان كان من تجب عليه النفقة هو الجد ينفق ويرجع على الأب عندالميسرة أيضا ، واذا كان من تجب عليه النفقة هو الأخ ، تكون النفقة بمقتضى القياس الفقهي دينا على الأب يرجع اليه عند اليسار [1] .

فالآباء لا يشاركهم أحد في نفقة أولادهم الصليبيين ، لأن الأولاد جزء من الوالد، فالانفاق عليهم كالانفاق على نفسه ، احياؤهم كاحياء نفسه ، فالشرع أوجب النفقة على الأب لانتساب الولد اليه ، ولما لم يشاركه أحد في هذه النسبة ، فلا يشاركه أحد فيما ينبني عليها ، وهو النفقة ، لأن من له غنم النسب ، يكون عليه غرم النفقة [2] .

(٥) حق الصغير في الرعاية المالية :

ان المولود من حال ولادته تثبت له ثلاث ولايات :

١- التربية الأولى وهي الحضانة وقد سبق الكلام عنها في الحق الثالث .
٢- ولاية المحافظة على النفس وتثبت على الطفل بعد تجاوز سن الحضانة الى بلوغه .
٣- الولاية على المال .

أولا : الولاية على النفس وتعنى ضم الطفل الى من له الولاية على نفسه ، وتبدأ من حين تنتهي حضانة الطفل ، وعمل الولي على النفس أمران [3] :

أحدهما : تتميم تربية الطفل التي بدأت بالحضانة .

ثانيهما : الحفظ والصون بعد البلوغ ، وتولي الزواج لمن كان قاصرا.

---

١ انظر الأحوال الشخصية ص ٤٩٠.
٢ انظر بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج ٥ ص ٢٢٣٣.
٣ انظر الأحوال الشخصية ص ٥٣٦.

ومن هنا كانت مهمة الولي عن النفس مهمة عظيمة وخطيرة لتعلقها بحياة الولد، ولأثرها الكبير في تربيته ، فللصغير من قوة التقليد والتأثر بغيره مايجعل لمهمة الولي حساسية ودقة - فالولي على الطفل يبعده عن سبل الشر ، ويوجهه في طريق الشر - لذا عني الشرع عناية كبيرة باختيار الولي من أقرب الناس الى الصغير وأحبهم لخيره ، كما عني برقابة الأولياء وتصرفاتهم حتى تكون محققة لمصلحة من تحت ولايتهم[1].

اذا بلغ الصغير سن انتهاء الحضانة ضم الى الولي على النفس ، وهو الأب ، والجد وسائر العصبات المحارم للطفل ، مثل الأخ والعم ، وابن الأخ سواء في ذلك أن يكون الصغير ذكرا أو أنثى [2] ، فان كان العاصب غير محرم كابن العم ضم اليه الصغير ان كان غلاما ، فان كان بنتا لا تضم اليه ، بل كان للقاضي أن يبقيها لدى الحاضنة ، أو يختار لها شخصا أمينا يضعها عنده [3] .

واذا بلغ الصغير عاقلا [4] ، واستغنى عن الأب ، وكان مأمونا على نفسه صار لا حق للأب في امساكه ، وصار أولى بنفسه يذهب حيث يشاء ، والبنت كذلك ان كانت ثيبا ومأمونة على نفسها ، أي يصبح لا حق للأب في امساكها ، وعليه أن يخلي سبيلها ، فتكون حيث أرادت ، فان كانت غير مأمونة على نفسها أو كانت لا تزال بكرا ، يستمر للأب حق امساكها حفظا وصيانة لها من الفساد والطامعين فيها ، الا اذا كانت البنت البكر مسنة واجتمع لها رأي ، فانها تكون حيث أحبت اذ لا خوف عليها (هذا عند الحنفية)[5].

وهذا الحق الذي للأب في استمرار ضم الصغيرة عند بلوغها في الحالات المتقدمة يكون للجد أيضا بالاتفاق بين فقهاء الحنفية ، كما يكون لغيرها من العصبات المحارم أيضا ، كالأخ والعم ، وكل ذي رحم محرم منها مالم يكن مفسدا ، فان كان كذلك وضعها القاضي عند امرأة ثقة أمينة [6] .

---

١ انظر حقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ص ١٣٨.
٢ المصدر السابق ص ١٣٩.
٣ انظر بدائع الصنائع ج ٤ ص ٤٣ - وحاشية ابن عابدين ج ٢ ص ٦٥٦.
٤ أما أحوال الصغير أو الصغيرة اذا بلغا سن البلوغ وهما معتوهان أو أصابتهما العتة أو الجنون أو السفه بعد سن البلوغ ، فللفقهاء في ذلك أقوال يرجع اليها في مظانها عند الحاجة .
٥ حاشية ابن عابدين ج٢ ص ٦٥٨ - وحقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ص ١٤٠.
٦ انظر حقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ص ١٤٠، والأحوال الشخصية ص ٥٣٧.

هذا ، والصغير يبقى لدى من له الولاية على النفس حتى يبلغ عاقلا ،ويستغني عن رعايته وتوجيهه ـ ويعرف هذا البلوغ بظهور أعراض الرجولة فيه ، وفي البنت بظهور أعراض الأنوثة والا فببلوغه ثمان عشرة سنة ، وبلوغها سبع عشرة سنة عند أبي حنيفة ـ وببلوغ كل منهما خمس عشرة عند صاحبي أبي حنيفة [1] .

وهذا البلوغ يصل الصغير اليه قبل بلوغه سن الرشد المالي الذي يجعل له الحق في تسلم أمواله ، وادارتها بنفسه ، والذي حدد له من الناحية المالية احدى وعشرين سنة [2] .

ثانيا : الولاية على المال :

الولاية المالية تثبت على المحجور عليهم ، وهي تختلف باختلافهم وتتبع في ثبوتها نوع الحجر ، فان كان الحجر بقرار من القاضي ، فان القاضي المختص هو الذي تكون له الولاية ، أو لمن يعينه القاضي ، اما اذا كان الحجر مستندا الى عجز المولى عليه وقصر طبيعي كالصغر والعنة والجنون ، فان الولاية تثبت أولا للمولى الشرعي ووصيه ، فتثبت الولاية للأب ثم وصيه ، ثم الجد ثم وصيه ، ثم القاضي من بعد ذلك [3].

ولا شك أن الأب والجد لهما من وفرة الشفقة ورعاية المصلحة مايجعلهما أحق بتولي أمر ولدهما من أجنبي ، خاصة في حالة ضعفه ومرضه وحيثما ثبتت الولاية للأب أو الجد فانها تثبت له في حياته ويجوز أن يوص بها الى غيره بعد وفاته ، ويسمى بالوصي المختار ، ثم للجد ثم وصيه ويسمى أيضا الوصي المختار ، فان لم يكن وصيا للجد ولا للأب ، كانت الولاية المالية للقاضي [4] .

وتثبت الولاية للأب على أولاده الصغار ، بشرط أن يكون هو عاقلا رشيدا غير محجور عليه ويشترط أن يكون متحد الدين مع ولده فان كان غير مسلم ، وأولاده مسلمون ، فان

---

١ انظر حقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ص ١٤٠ ، والأحوال الشخصية ص ١٤٠ وص ٥٣٨.
٢ المصدرين السابقين ص ١٤٠ وص ٥٣٨.
٣ الأحوال الشرعية ص ٥٤٢-٥٤٣ ـ وحقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ص ١٤٣.
٤ الأحوال الشخصية ص ٥٤٧.

الولاية لا تثبت له عليهم ، كأن تكون أمهم قد أسلمت وهم صغار ، فتبعوها في دينها ، وبقي هو على دينه فانه في هذا الحال ، لا يثبت له ، ولاية مالية عليهم ، ويشترط أن يكون أمينا غير مبذر لكي تستمر ولايته [1] .

وعلى ذلك فالآباء ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أب غير أمين مبذر لماله ، ويستحق أن يحجر عليه في شئون ماله ، وهذا تسلب ولايته على ابنه ، ويعيّن القاضي وصيا يتولى الولاية عليه فعلا ، لأنه في هذه الحال يكون غير أمين على مال ولده ، أو ليست يده حافظة تصونه ، فتسلب ولايته [2].

القسم الثاني : أب أمين غير مبذر ولا متلف ، وهو حسن الرأي والتدبير أو يكون مسئول الحال ، وهذا تطلق يده في مال ولده فتجوز منه كل التصرفات السائغة شرعا ولا يحدها الا مايثبت أنه ضرر محض كالتبرع بعين مال الولد ، فانه يعد ضررا محضا [3].

القسم الثالث : وهو الأب الأمين السيء التدبير ، وهذا تثبت له الولاية على مال ولده القاصر ، ولكن لنقص تدبيره ، وفساد رأيه قيدت تصرفاته بالمصلحة الظاهرة ، فان كانت المصلحة ظاهرة واضحة في التصرف نفذ ، والا لم ينفذ [4] .

والمقصود من هذا انه لأمانته تبقى يده الحافظة ، ويتقى سوء رأيه ، وفساد تدبيره بمنعه من التصرف في الأعيان من ملك الولد ، احتياطا من مال الولد من الضياع [5] .

وخلاصة القول في الولاية على الصغير ، ان بعض الأولياء لهم الولاية على النفس والمال جميعا ، وبعضهم تكون له الولاية على النفس دون المال ، وبعضهم تكون له الولاية على المال دون النفس ـ ولكل من ذلك أسباب تقتضيه ـ فالذين لهم الولاية على

---

١ الأحوال الشخصية ص ٥٤٧ـ٥٤٨.
٢ المصدر السابق ص ٥٤٨.
٣ المصدر السابق ص ٥٤٨.
٤ المصدر السابق ص ٥٥٣.
٥ المصدر السابق ص ٥٥٤.

النفس والمال معا هم : الأب ثم الجد ثم القاضي ، فالأب لأنه أقربهم الى الصغير وأشفقهم عليه ، والجد لأنه يلي الأب في هذه الصفات ، والقاضي لأنه ولي من لا ولي له ، كما هو معروف [١] .

والذين لهم الولاية على النفس فقط ، هم سائر أقارب الصغير والصغيرة ، ولكنهم في هذه درجات ، يجئ بعضهم بعد بعض بترتيب خاص وشروط حددها الفقهاء بدقة ووضوح [٢].

---

١ حقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ص ١٣٨.
٢ المصدر السابق ص ١٤٠ ومابعده .

المبحث الرابع : مسئولية البيت في التربية :

اهتم الاسلام بأمر تَرْبِيَة الطفل قبل أن يتزوج أبوه أمه ، لأنه يخطط لنشأة ولد صالح سوي . فما هي هذه الرعاية التي يقدمها الاسلام ؟! انها اختيار الزوجة الصالحة الطيبة المنبت والخلق ، وأول ماتجب مراعاته لدفع زواج فاشل وولد تعيس هو ملاحظة صلاح كل قرين لقرينه ، لأن صلاح الزوجين كل منهما للآخر توفر عنصر الانسجام والتوافق بينهما وبالتالي تحقيق التعاون والمشاركة من أجل خلق حياة زوجية مستقرة يتربى في ظلها الأولاد تربية صالحة [١] . والمقياس الصحيح للصلاح الزوجي يكون بمراعاة الخلق والدين وهما جماع فضائل النفس والسلوك ،وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى ذلك بقوله "تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك" [١] . فالدين هو جماع الخير كله ، وأفضل مقياس يقاس به صلاح الزوج لزوجه . ومن هنا صحّ للمرأة ان رأت قرينا موافقا لها ، خاضعا لهذا المقياس المستقيم أن تعرض عليه رغبتها في الزواج منه ، أو على من يستطيع تحقيق رغبتها ، ففي رواية عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن امرأة عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فضحكت ابنة أنس وقالت : ماكان أقل حياءها . فقال لها أنس : هي خير منك ، عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم [٢] . وعلى ولي أمرها أن يبحث لها عن قرين صالح ، واذا وجده لا يستحي أن يعرض عليه زواجها كما صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه لما تأيمت حفصة عرض زواجها على عثمان رضي الله عنه . فقال عثمان : مالي في النساء حاجة ، وسأنظر ، فلقي أبابكر فعرض زواجها عليه ، فسكت ، فوجد عمر في نفسه على أبي بكر ، فاذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطبها [٣] . وهذا يدل على أن احسان اختيار الزوجين لبعضهما مطلب هام لتنشئة الأولاد تنشئة سوية صالحة تقر لهم الأعين .

---

١ سنن النسائي جـ ٦ ص ٦٨.
٢ المرجع السابق جـ ٦ ص ٨٧.
٣ المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٥.

وقد أرشد الرسول الكريم المقبلين على الزواج بالدقة في الاختيار والتعرف على صفات الشخص والأسرة التي يريدون الزواج منها . فقال صلى الله عليه وسلم : "تخيروا لنطفكم فان العرق دساس" حتى اذا ماتبين لهم خلو الأسرة من أيّ ضعف وراثي جسميا كان أو عقليا أقدموا على الزواج ، وجنبوا أنفسهم وذريتهم عقابيل الصفات والأمراض الوراثية فالوقاية خير من العلاج ، ومصداق ذلك ماروواه كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة من بني غفار ، فلما دخل عليها ووضع ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكشحها بياضا ، فأماط عن الفراش ، ثم قال خذي عليك ثيابك ولم يأخذ مما آتاها شيئا [1] .

فمن المعلوم أن الأبناء يرثون صفات آبائهم الجسمية والعقلية ، فزواج الأشخاص الأصحاء الأذكياء يوءدي باذن الله في الغالب الى انجاب أطفال أصحاء أذكياء ، كما أن زواج الضعفاء الأغبياء يوءدي في الغالب إلى إنجاب أطفال ضعفاء وأغبياء ، هذا فضلا عن أن قوة البنية والذكاء يضفيان على الحياة الزوجية الحيوية والنشاط ، بسبب النضج العقلي فيهما ، والقدرة على حل المشاكل قبل تفاقمها مما يوءدي الى أن يسود البيت المودة والاحترام بين الجميع فينشأ الأبناء نشأة سوية صالحة [2] .

وكما اهتم الاسلام باختيار الأم الصالحة ذات الدين والخلق ، حث الاسلام على أن يهيأ للفتاة الرجل ذو الخلق والدين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" [3] ونلاحظ في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (من ترضون دينه) لا من كان خلقه كذا .. وذلك لضمان الانسجام والاطمئنان على مستقبل الأبناء ، فلا مصيبة أعظم على الأبناء من أبوين غير متفقين في أسس التربية الاسلامية ومقاييسها [4] . ثم أعطى الاسلام الحق للفتاة في رفض

---

١ ابن القيم الجوزية – زاد المعاد ج ٤ ص ٠٤٢

٢ انظر محمد عبد الحكيم الخيال ومحمد محمود الجوهري – الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية ص ٣٦٤.

٣ أخرجه الترمذي الحديث رقم ١٠٨٤ في النكاح باب اذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه .

٤ انظر الاسلام والطفل ص ٠٨

من لا تريده زوجا لها بسبب نفورها منه أو لعلمها أنها لن تستطيع العيش معه . كما حدث لامرأة ثابت بن قيس اذ قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب نفورها منه ، وطلبها الافتراق منه : "رفعت جانب الخباء في ليلة الزفاف ، فأقبل في عدة من الرجال فاذا هو أشدهم سوادا ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها ، وبي من الجمال ماترى ، ولست أعتب عليه يارسول الله في خلق ودين ، ولكني أكره الكفر في الاسلام ، تعني اذا لم يطلقها تخاف من الارتداد عن الاسلام حتى يفرق بينهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ، وكان صداقها الحديقة [1] .

هكذا يهيئ الاسلام الجو الصحي السليم للطفل قبل سنة أو سنتين من مولده ليحصل على الفرد الصالح الذي يسعى في تعمير الأرض دون أن يتعدى على حرمات الله وحرمات بني آدم .

وفي الزواج يلتقي الزوجان المسلمان ، فيصليان لله شكرا وحمدا على نعمائه ، ويدعوان الله أن يهديهما الطريق المستقيم لتكون السعادة في هذه الدنيا وفي الآخرة ، يدعوان الله عز وجل ، يقول الزوج متمنيا الآية الكريمة : (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما" [2] ويقول الزوج قبل المباشرة وعند أول لقاء بها : "اللهم اني أسألك من خيرها وخير ماجبلت عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ماجبلت عليه" ويقول عند كل مباشرة للزوجة : "اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان مارزقتنا" [3] فيستجيب الله الدعاء باذنه وفضله ، فيخرج الطفل من بطن أمه بذرة طيبة باذن ربه . فتتعهده الأم بالرعاية فترضع طفلها تنفيذا لأمر الله تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) [4] وقد ثبت أن لبن الأم أنفع غذاء للطفل مما يساعده على النمو الطبيعي خاليا من التعقيدات النفسية التي تصيب الأطفال في أولى حياتهم لفقدهم لحنان الأم ، أضف الى هذا أن لبن الأم يقي الطفل عن

---

١ انظر محمد عبد الحكيم خيال ومحمد محمود الجوهري : الاخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية ص ٣٦٤-٣٦٥.
٢ سورة الفرقان الآية ٧٤.
٣ انظر ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج ٧ ص ١٩٥.
٤ سورة البقرة الآية ٢٣٣ . فالآية الكريمة تدل على الأمر وان كانت قد وردت بصيغة الخبر .

الأمراض في الستة أشهر الأولى من حياته لما تحمله من مضادات حيوية تحفظ الطفل من أمراض الزكام والالتهابات في الأذن والأنف والحنجرة وأمراض الصدر ، وقد أثبت الطب الحديث أن الطفل الذي يأخذ الحليب من القنينة أكثر تعرضا للأمراض من الطفل الذي يرضع اللبن من شدي أمه ، كما ثبت أن الذين يرضعون من أمهاتهم يألفون ويوءلفون ويقبلون النصح وتوجيه أولياء أمورهم وتحمل المسئولية أكثر من الجماعة الذين لا يتيسر لهم ذلك لأيّ سبب من الأسباب . وقد ثبت بفحص مايزيد عن ستة آلاف جندي مكلف ، أن الذين كانوا يرضعون من أمهاتهم أكثر كفاءة بدنية وعقلية من أقرانهم ، بل وجد أن هذه الكفاءة تتناسب مع مدة الرضاعة [1] .

بعد الولادة :

ثم ان من واجبات الأبوين نحو أطفالهما رعايتهم رعاية مستمرة ، وذلك بالاهتمام بنظافتهم ، وتعليمهم أن ذلك من الايمان فضلا عما يجلبه من الصحة والنشاط ، والاهتمام كذلك بطعامهم وشرابهم وألعابهم وتوجيههم الى مايفيدهم من الألعاب دون اكراههم لذلك – وذلك لأن الاسلام وضع نصب عينيه اعداد الطفل للمستقبل بشتى الوسائل التربوية وفيها الألعاب ، فكان للذكر من الألعاب مايهيئه لعمله في المستقبل كرجل يحمي الديار ، هيأه ليكون فارسا راميا فحث النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم الأطفال الرماية والسباحة فللطفل الذكر البندقية والمدفع وغيرهما من عدة الحرب ، وكذلك يعطى له من الألعابماينمي مداركه وعقله ، ويزيد من روح الأخوة والتعاون وحياة الجماعة ، أما الأنثى من الطفل فتعلمها أمها كيف تكون أما صالحة في المستقبل فتعطيها من الألعاب مايهيئها لذلك فتلبس لعبتها وتغسلها وربما تطعمها ، وتعنى بمكان نومها ، حتى اذا كبرت وربتها أمها على بعض أعمال البيت حسب قابليتها وعمرها [2] . فالمقصود من هذا أن لايضيع اللعب وقت الطفل عبثا ، بل بقليل من التوجيه يمكن أن يكون اللعب وسيلة ناجحة لغرس بعض الصفات الخلقية والسلوكية الهامة في الأطفال ذكورا كانوا أو اناثا .

---

١ انظر مجلة الطبيب العمومي التي تصدر بالانجليزية – عدد اكتوبر ١٩٦٨م – والاسلام والطفل ص ١٧–١٩.

٢ انظر الاسلام والطفل ص ٣١–٣٢.

والطفل بعد عامه الثاني يسعى لمعاونة أمه واخوته وتراه في حركة دائبة بين غرف البيت ، يمس هذا الاناء ويقلب ذاك ، ويتدخل في كل أمر من أمور البيت قولا بالأسئلة وفعلا بنشاطه ، لذلك فان الفترة مابين الثانية والخامسة من عمره تعتبر من أهم فترات حياته من حيث آثرها في أخلاق الطفل وعاداته في مستقبله ،فاذا اكتسب في هذه المدة أخلاقا وعادات طيبة فانه مهما ينحرف عنها يرجع اليها ، وكذلك العكس فان الطفل الذي يتلقى عادات سيئة ويتعلم الكذب أو السرقة أو أيّ رذيلة في هذه الفترة أو يلقن دينا غير دين أبيه أو يألف جماعة تختلف عن محيطه الأصلي في أسرته ومجتمعه فان هذا الطفل سيحتفظ بكثير من تلك العادات والأخلاق ويحنّ اليها مهما بذل الأبوان في اصلاحه ، ومن هنا يبرز جرم الأبوين اللذين يتركان طفلهما في حضانة أو روضة تلقنه عادات غير عادات مجتمعه وأسرته بل قد تعلمه دينا غير دينه الفطري [1] ، ولعل هذا من العلل التي جعل الاسلام الحنيف يمنع زواج المرأة المسلمة من الكتابي أو الكافر .

فالأبوان مسئولان أمام الله على تربية طفلهما وحفظه من الانحراف ، لهذا فانه يجب عليهما السعي للاستفادة من طبيعة التقليد عند الطفل ، بتعليمه الصلاة وقراءة بعض سور القرآن ، وتعليمه شيئا من الآداب الاسلامية في كيفية السلام والاستئذان وطريقة تناول الطعام والنظافة الى غير ذلك مما يمكن تعليمه بأقل جهد ممكن [٢] .

ومن الأمور الهامة في هذه المرحلة من عمر الطفل الاهتمام بالعقبات التي تعترض سبيل الطفل ، ومن أهمها الخوف ، والخوف غريزة فطرية في حدود معينة ، فلابد من كمية من هذا الخوف لادامة حياة آمنة . فالطفل الذي لايخاف أبدا لابد أنه مصاب بانحراف في عقله والخوف ضروري لبناء شخصية الطفل ووقايته من الحوادث ، ومن الخوف مايكون مكتسبا يتعلمه الطفل من أهله ومن يعاشرهم ومن هذا الخوف ماهو ضروري لحفظ الطفل من التعرض للمخاطر كالابتعاد عن النار والآلات الجارحة ، والأدوات الكهربائية وتلقينه الحذر عند عبور الشارع [٣]... الخ .

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٢١-٣٢.
٢ انظر المصدر نفسه ص ٣٤.
٣ انظر المصدر نفسه ص ٣٥.

ان تخويف الطفل وسيلة ليتخلص الأبوان منه اذا ماخرجا أو تهديدا لردعه عن عمل ما ، خطأ بالغ خاصة عندما يخوفون الطفل من الطبيب والشرطي وهما المسئولان عن الصحة والأمان ، والأبوان بهذا يسببان الأذى للطفل،وقد يتعذر معالجته أو أخذه للطبيب لشدة خوفه فيدفع ثمن سوء التوجيه وهو التعرض للخطر أو الموت بسبب ذلك . وقد يخاف الطفل من الظلام أو الشيء المجهول أو من وجوده في غرفة لوحده أو يخاف من الكلب أو القطة وهذا مايسميه بعض علماء النفس بالخوف الشاذ ، وهذا النوع من الخوف مكتسب في الغالب نتيجة سوء تصرف الأم أو جهلها أو يصيب عادة الأذكياء من الأطفال وعلاج ذلك يكون بتدريبه على الذهاب للظلام أو البقاء في غرفته لوحده بصورة تدريجية وتشجيعه على ذلك بمنحه مكافأة ، وعلى الأم تفهيمه أن الطبيب ضروري لعلاج المرضى فلابدللمريض أن يزور الطبيب ليكتب الله له الشفاء على يديه . وعلىالأم أو من يرعى الطفل اظهار الشجاعة لتكون قدوة حسنة [1] .

والاسلام وقد عالج الخوف معالجة جذرية ، فحرم الكذب ، وسد بذلك أبوابا كثيرة من أبواب الخوف ، وكذلك أمر الاسلام بتدريب الطفل على الخوف من الله وهذا يعني أن لا أحد يضر ولا ينفع الا الله عز وجل ، وباذنه تبارك وتعالى ، فاذا فهم ذلك تدرب على أن يجعل العلاقة بينه وبين الله كما يريد الله ، فيقال له ان الله معك ان أحسنت في عملك وأخلاقك ، ولا يضرك بشيء فيطمئن كما أنه وهو صغير يعلمه أبواه بعض الآيات القصار كالمعوذتين وسورة الاخلاص وبعض الأدعية والأحاديث يقرأها حين يخاف فيزول خوفه باذن الله [2] وترشده أمه الى تجنب ماقد يسبب له الضرر ،وتستدل بالآية والحديث مثل قوله عز وجل في سورة النساء (وخذوا حذركم) أو تستدل بالحديث "من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه" .

وهكذا يرتبط الطفل بالاسلام ، فيرى في العمل بالقرآن وسنة رسوله الطمأنينة والخير ، وان ذلك ليحصل للطفل من بعد سن الثانية الى الخامسة اذ يستطيع في هذه

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٣٤-٣٦ .

٢ انظر نفس المصدر ص ٣٧ .

السن أن يتعلم ويفهم مايقال له ويربط الحوادث بعضها ببعض أو يربطها بما يلقنه أبواه من كلام .

ان الفترة مابين الثانية والخامسة من عمر الطفل تعتبر من أهم فترات حياته لكونها تعيّن اتجاه الطفل في مستقبله لذلك من الضروري وضع الخطوط العريضة في تربية الطفل في هذه الفترة . ولقد ثبت بدراسات مختلفة أن مايكسبه الطفل من عقيدة وخلق يبقى متأثرا به فان تعلم الأخلاق والعادات الحسنة فانه مهما زاغ أو انحرف عنها فسيرجع الى الطريق الذي تعوده من قبل ، وكذلك العكس ، ولذلك اهتم الاسلام بتربية الطفل منذ نعومة أظفاره بعد عامه الثاني ، حيث يكون قد وعى وميّز من الأمور مما حوله [١] .

ان الاسلام الحنيف يقرر أن الطفل يولد على الفطرة - أي أن الطفل مجبول على الخير لا على الشر كما هو وارد عند علماء النفس الغربيين [٢] ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" [٣] . فالمحيط له آثره في خلق الطفل ، واذا جاز أن يرث الطفل بعض عوامل الخلق السيء كما أيدت التجارب ذلك في تتبع الأسر المجرمة ، فان المحيط له آثره في افساد البريء ، وتعديل المجرم واصلاحه واحباط هذه العوامل الوراثية الفاسدة ان وجدت [٤] .

ان الطفل يولد وهو لا يعلم شيئا كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) [٥] ولذلك أمر الاسلام بتعليم الطفل وتدريبه وتهذيب غرائزه الفطرية فلا تكبت ولا يترك لها الحبل على الغارب ، بل لا بد من أن توجه غرائز الطفل الوجهة

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٤٣.
٢ انظر مجلة صحة الطفل الأمريكية عدد يناير سنة ١٩٦٠م Life & Health Jan. 60
وانظر الاسلام والطفل نفس الصفحة .
٣ صحيح البخاري .
٤ انظر الاسلام والطفل ص ٤٤.
٥ سورة النحل الآية رقم

الصحيحة ، ولعل أول الخطوط العريضة في التربية التزام الصدق مع الطفل في كل شيء وبقدر مايفهم ومصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : "عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر ،والبر يهدي الى الجنة ، واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار" [١] وما من شيء يضمن الثقة بين الأبوين والطفل مثل الصدق، واذا ثبتت الثقة أخرجت من ثمارها الطاعة والمحبة ولا يجوز الكذب على الأطفال فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة تنادي طفلا تعال أعطيك فنظر عليه الصلاة والسلام الى يدها فوجد ثمرة فقال : "لو لم تكن هذه التمرة لكتبت عليك كذبة" [٢] .

والعدل بين الأولاد خط عريض آخر في التربية قال صلى الله عليه وسلم : "اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم" [٣] العدل بين الأولاد يجتث البغضاء والشحناء والحقد والحسد.

وكذلك من أصول التربية المحبة والرفق ، فالأبوان اللذان يحبان أولادهما ،ويظهران العطف ينبتان السعادة والطاعة . فالرفق في طلب العلم والرفق في علاج أيّ مشكلة عند الأطفال فيما بينهم أو مع من يرعاهم . قال عليه الصلاة والسلام : "ماكان الرفق في شيء الا زانه" [٤] .

ويجب مراعاة أن الاسلام أقر الغرائز ، لكنه هذبها بالتعليم والتربية فوضع قواعد لآداب الطعام والملبس ، وكذلك بين الاسلام آداب الفرد والجماعة وكل ذلك يجب تعليمه للطفل وهو صغير وبصورة تدريجية حسب عقله وادراكه . ومن الغرائز حب التملك ، يقول الاسلام للطفل انك تحب التملك ، وهو غريزة وهو حق ولكن التملك يجب أن يكون نتيجة العمل وأنت لا تستطيعه الا قليلا، فلك أن يشتري أبواك حاجاتك من طعام وشراب وملبس وألعاب ، وكل مايجلب لك السرور وهذا واجب على الأب لا منة عليك ولا دينا ، ولك أن تملك ماتحصل عليه من عمل بسيط في معاونة أبويك أو في شئون البيت ، والاسلام الذي يعطيك هذا الحق

١
٢ صحيح مسلم .
٣ البخاري .
٤ صحيح مسلم .

يقول لك لا تتجاوز حدود هذا الحق فتطمع في مال غيرك فتصاب برذيلة الحسد وهي أساس البغضاء بين الأخوة [1] .

ومن الأمور الهامة التي يجب مراعاتها في هذه المرحلة موضوع التربية الجنسية للأطفال وتوجيههم بمنهج القرآن الكريم - فالمعروف أنه ليس للرضيع توجيه خاص في التربية الجنسية ، ومازعمه بعضعلماء النفس أن الرضاعة عمل جنسي لم يقبله العلم [2] ، على أن الطفل في عامه الأول أو الثاني قد يفعل بعض الأعمال الجنسية ، فالذكر يعبث بعضوه والأنثى تستلقى على ظهرها ، وتؤدي بعض الحركات التشنجية ، وعلى الأم أن تتغافل عن هذا الا اذا رأت كثرة التكرار فعليها أن تزجره وتهتم برعايته وذلك بشغله ببعض اللعب أو نحو ذلك . فاذا بلغ الطفل العامين ينظر الأبوان في أمره فهل يبقى في غرفة أبويه أم يخرج أو يوضع الحجاب بينهما . يأتي القرآن الكريم ليضع القاعدة الثابتة لهذا التساؤل يقول الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ،ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . واذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) [3] .

قال القرطبي في تفسيره "ان الذي يستأذن في الأحوال الثلاثة هو الذي عقل معاني الكشف" [4] فالآية الأولى تطلب أن لا يدخل الطفل المميز على أبويه أو أحد من أهله من غير استئذان في أوقات ثلاثة ، فترة النوم من بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجر وكذلك وقد القيلولة ظهرا حيث يغلب أن يكون الأبوان قد نزعا ثيابهما أو تكون الأم في وضع

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٤٣-٤٦ .

٢ انظر الاسلام والطفل ص ٤٨ .

٣ سورة النور الآيتان ٥٨ و ٥٩ .

٤ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - تفسير الآية ٥٨ و ٥٩ من سورة النور .

لا يجوز أن يراها طفل مميز ، لذلك يجبأن يخرج الطفل المميز من غرفة نوم الأبوين أو يوضع بينه وبينهما حجاب .

ولم يذكر القرآن الكريم سن التمييز بل تركه لرب البيت الذي يقرر متى يمنع طفله بالنسبة الى ذكائه وظروفه ومن يحيط به ومقدار تعلمه واطلاعه لا سيما بالنسبة الى الأسئلة التي يوجهها على أن الطفل دون الثانية لا يميز ولذا يجوز أن يبقى في غرفة نوم أبويه ، وأن يدخل على أهل البيت في أيّ وقت دون استئذان ، ولعل سن الرابعة هي المعدل ، وربما منع الطفل في الثالثة أو قبلها أو سمح لطفل حتى الخامسة[١]. فالذي يجب اعتماده والعمل به أنه متى بلغ الطفل الحلم وجب على ذويه معاملته معاملة البالغ في الاستئذان في كل وقت كما نصت الآية من سورة النور : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[٢] .

ولعل من الجائز الاستنباط من الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم .. .. الآية) [٣] تعيين موعد الالتقاء بين الزوجين والتعري الجزئي ، وأن تكون المرأة من غير هذه الأوقات الثلاث في وضع صحيح معقول فلا تكشف عن عورتها لأنه قد يسمح للطفل المميز الدخول عليها من غير استئذان ، فان كان شيء من اظهار عورة أو أيّ عمل من الزوج والزوجة يجري في النهار فلابد أن يتخذ الزوجان مايحجب عنهما الطفل المميز [٤].

ومما علمنا القرآن الكريم في تربية الطفل ، عدم اظهار زينة المرأة للطفل الذي يفهم ويعقل شيئا عن زينة المرأة وجمالها . قال تعالى : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٤٩-٥٠.

٢ سورة النور الآية رقم ٢٧.

٣ سورة النور الآية ٥٨ - تقدم ذكر الآية كاملة .

٤ انظر الاسلام والطفل ص ٥٠.

أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غيرأولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ....الآية) [١] .

وعلمنا نبي هذه الأمة الخيرة أن لا نسمح لمن بلغ سبع سنوات من عمره أن ينام في غرفة أخته أو أقاربه الا أن يكون حاجز بينه وبينها ففي الحديث الصحيح :"مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، وأضربوهم لعشر ، وفرقوا بينهم بالمضاجع" [٢] .

ويجب أن نجيب على أسئلة الطفل الجنسية بالصدق ، ولكن بالتلميح والكناية بقدر الامكان [٣] ، فمثلا لو سأل كيف وجدت في هذه الدنيا فتقول مختصرا ، خرجت من بطن أمك وتوجهه حالا الى القرآن : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا)[٤]. وقد كنى القرآن الكريم عن الجماع بالمباشرة واللمس كما أن أيّ اشارة الى أمر جنسي يربطه القرآن بالتقوى مثل قوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله وأعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) [٥] وعلى كل حال ، فان وجود الطفل في بيئة مسلمة يبعده عن الزلل ، فاللباس في البيت محتشم ، ولا كلام بذيء ولا مجلة أو كتاب خليع ، هذا عدا ما يتعلمه في بيت أبويه من القرآن وحفظ بعض السور التي تتناسب وعقله وسنه ، والاهتمام بتعليمه السور التي تبحث في تربية الأسرة مثل سورة النور وسورة الأحزاب وسورة الحجرات .

ومن الأمور الهامة التي يجب مراعاتها عند تربية الطفل في الفترة مابين الخامسة الى العاشرة من عمره موضوع عقاب الطفل ، فالاسلام قد ذكر عقوبة الطفل بعد السابعة في الحديث الذي سبق ذكره : "مروا أولادكم بالصلاة لسبع وأضربوهم لعشر" ، على أن العقوبة جائزة على الطفل حتى بعد عامه الأول ولكن بقدر فهمه وادراكه ، ولا بد من توجيه الطفل

---

١ سورة النور الآية رقم ٣١.
٢ رواه أبوداود .
٣ بما أن حياة الطفلة متصلة لا يحدها زمان ولا تفصلها فواصل زمنية ، فقد انتقلنا مع حياة الطفل من المرحلة الثانية من حياته (التي تبدأ من السنة الثانية الى الخامسة) الى المرحلة التالية وهي مابين الخامسة والعاشرة وهو تدرج تلقائي يتطلبه نمو الطفل التدريجي وانتقاله من مرحلة الى أخرى .
٤ سورة النحل الآية ٧٨.
٥ سورة البقرة الآية ٢٢٣.

ليكون عضوا نافعا في المجتمع ، والعقاب وسيلة يضطر لها الانسان حين يحيد الطفل عن الطريق المستقيم ويتجاوز حدود حريته . لقد قال بعض العلماء بأن لا ضرورة للعقاب أسلوبا للتربية ولكن الغالب من العلماء أقر العقاب وسيلة اجتماعية لحفظ الطفل في خط المجتمع ، وتأمين حياة طيبة له في المستقبل ، فتجاوز الطفل حدود حريته وواجباته واهمال العقوبة يعرضه للفوضى والفساد ، وكذلك الضغط الشديد على الطفل يعرضه للتمرد والعصيان والفوضى ، فالأم أو الأب الذي يكثر من الأوامر والنواهي باسم الأدب والنظام والتربية السليمة ، قد يوجدالطفل المعاند ، أو الطفل العصبي العاصي له ولأوامر المجتمع ، أو قد يجعل طفله جبانا شديد الخوف منزويا ومنطويا على نفسه ، فهو لا يكاد يؤدي أمرا حتى ينتظر آخر ويخشى القيام بأيّ عمل لئلا يكون من الممنوعات ، لذلك يجب أن تكون هذه القواعد التنظيمية قليلة جدا ما أمكن ، وبحسب عقلية الطفل ، فقد يعمل الطفل شيئا هو طبيعي بالنسبة الى عمره ، ولكن والديه يحاسبانه أو يعاقبانه قياسيا على عقلية وادراك البالغ . واذا وضعت القاعدة فيجب أن يستمر لأن تغيير الأوامر بسرعة يربك الطفل . ولا بد من الاشارة الى أن النظام يتم بالمحبة والتفاهم لا بكثرة العتاب والعقاب [1] .

ان الاسلام لايرى فيالعقاب الا احدى الوسائل الاضطرارية لتنظيم الطفل والعودة به الى السلوك الأقوم ، لذلك فانه لا يلجأ للعقاب الا بعد أن يتخذ جميع الوسائل الأخرى ، فيبدأ أولا بالموعظة الحسنة فيوجه كلاما لينا حكيما يختار فيه الناصح المرشد الكلمات اللائقة المؤثرة [٢] ، ومن أساليبالتربية قبل العقاب أسلوب خلق العادة الصحيحة في الطفل وذلك بتدريبه على تكرار العمل الطيب حتى يصير عادة عنده ، وكذلك يتخذ الأبوان من الحوادث مايثبت عند الطفل الخلق الحسن أو يبعد عنه الخلق السيء [٣] .

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٥٦-٥٨ .
٢ ورد في القرآنالكريم آيات كثيرة في مراحل العقوبة منها ماورد في قوله تعالى في نشوز الزوجة – قال تعالى : (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ...) الآية رقم ٣٤ سورة النساء .

٣ انظر المصدر نفسه ص ٥٨ .

ويبدأ العقاب بالانذار ومن ثمّ بالتهديد بعقوبة موءجلة وبعدها يهدد بعقوبة عاجلة ، ثم تنفذ العقوبة ، فاذا أصدرت فلتكن ضربا غير مبرح ، ولا يقبل الاسلام التشهير بل يجب الستر لا سيما ، وقد نال الخاطىء عقوبته وهذه حكمة عظيمة ، ذلك أن الطفل الذي تفضحه أمه وتتباهى أنها عاقبته لارتكابه الجرم الفلاني قد تجرحه في نفسيته فيثور ويعاند ويستمر في اجرامه ، واذا كانت بعض العقوبات تنفذ في الاسلام علنا فهي للبالغين كحد الزنا والسرقة ٠

ولأن الاسلام قد أمر بالعدل بين الأولاد ، فلا يجوز أن يعاقب طفل ويترك آخر ارتكب نفس الجرم ، أو يعاقب محل الآخر ، فان فعل الأب ذلك ، سبب الحقد والضغينة والحسد بين الأولاد ، وهكذا يكون الاسلام طباوقائيا يحفظ البيت من الخراب والأمراض النفسية ٠

ومن الأمور الهامة أنه يجب على الأبوين تفهيم الطفل سبب العقوبة ، والتوضيح له أن الغاية منها اصلاحه ، وأن الأب قد اضطر ، وهو متألم جدا أن يوقع العقوبة في ولده ، لعدم جدوى الاجراءات الأخرى ، وأن العقوبة هي نتيجة محبة الأب لابنه لا كرها له [١] . ولابد للأب الذي يقسو على أولاده ويضربهم ويعاقبهم لأتفه الأسباب ولا يعدل بينهم أن يعلم أن قوته وسطوته لن تدوم عنده ، فسرعان مايصيبه المشيب وتأتيه الشيخوخة ، وعند ذلك يحصد ماقد زرع في سالف أيامه ، ان خيرا وجد خيرا زرعه ،والعكس صحيح ولات ساعة مندم ٠

ومن الأمور الهامة في هذه المرحلة بدء عملية التعليم ، والغاية من تعليم الطفل في هذا السن ، هي ابراز القيم الاجتماعية في شعور الفرد وحفز المواهب الفردية الى النمو واعداد الفرد للحياة الاجتماعية ٠ ولأن عملية التعليم تتم في الغالب الأعم في المدرسة فقد رأيت من المستحسن ارجاء الكلام فيه ، الى الفصل الثاني من هذا الباب حيث يقتضي المجال التوسع فيه ٠

---

١ انظر الاسلام والطفل ص ٥٨-٥٩٠

الفصل الثاني

بناء الشخصية السوية من خلال التربية والتعليم

المبحث الأول : مفهوم التربية الاسلامية وأهدافها وفلسفتها

(١) مفهوم التربية الاسلامية :

تقول المعاجم اللغوية [١] أن التربية تعني ولاية الطفل ورعايته وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤديه ، وهذا أقرب المعاني الى موضوع بحثنا .

وعند علماء التربية هي : فن تحقيق اللقاء الناجح بين طفل غير ناجح، وغير عالم وغير قادر ، وبين مجتمع فيه التعقيد والحضارة ، ورقي الثقافة ، وتعدد المناشط، وتشابك العلاقات الشيء الكثير الذي يطالب المتعلم به ليتكيف مع المجتمع ، ويسهم في سيره وسلامته ورقيه ورفع مستوى المعيشة فيه ، وذلك نتيجة لما تزوده التربية به من خبرات الحياة ، ومايلزمها لممارستها من صحة وقدرة وعلم ومهارة ، وارادة وتذوق[٢]، أو بعبارة أخرى " هي عملية تعلم تهدف الى استثمار طاقات الفرد ، واستخدام قدراته ومواهبه من أجل تكوينه وبنائه ، ومن أجل مجتمعه الذي ينتمي اليه ، وبعبارة ثالثة إن التربية تعني أن يصبح الانسان انسانا فيه خصائص الكائن الانساني من التفكير والارادة والوجدان ، وهي تأخذ داخل الفرد ، وتمثل انعكاسا للنمو الاجتماعي وللثقافة التي يعيشها" [٣] .

ذلك هو مفهوم التربية بمعناها الحديث ، وهي كما هو واضح ، تعلم وتدريب وتوعية ، وتثقيف يهدف الى تحقيق التكيف والتعايش الصحيح بين الفرد والمجتمع [٤].

أما التربية الاسلامية فهي أسلوب صناعة الانسان وبناء المجتمع على أساس من وحدة العقيدة وقوة الفضيلة وهي بهذا المعنى ذات طابع خاص يعمل على خلق الانسان المتوازن المتكامل من جميع جوانبه العقلية والوجدانية والجسدية والاجتماعية [٥] .

---

١ انظر المعجم الوسيط مادة ربى
٢ انظر د. أبو الفتوح رضوان ، منهج المدرسة الابتدائية ص ٣.
٣ صلاح مجاور ـ تدريس التربية الاسلامية ص ٢٧.
٤ انظر د. محمد نبيل غنايم ـ المبادىء التربوية في الاسلام ص ٣٩٧.
٥ انظر تدريس التربية الاسلامية ص ٢٩.

(٢) أهداف التربية الاسلامية :

ان النظم العلمانية اللادينية للتعليم تتجه الى تكوين المواطن الصالح ، أما التربية الاسلامية فانها تهدف الى بناء الانسان الصالح ليبني المجتمع الصالح الذي يعين الانسان على تحقيق رسالته في هذه الحياة ، خليفة لله في الأرض ، خاضعا له بالعبادة والتسليم والحكم ، راغبا اليه في كل لحظة من لحظات وجوده حتى تنتهي رحلته في هذه الحياة [1]. والفرق واضح بين الهدفين ، فبينما نظم التعليم اللاديني المعاصر يقصر دوره في اطار القومية الضيق ، وعلى مقدار النفع المادي الذي يمكن أن يعود على الفرد أو على المجتمع الذي يعيش من اكتسابه لقدر من المعلومات أو لعدد من المهارات ، فان التربية الاسلامية تتطلع الى مجال الانسانية الرحبة ويؤكد على معاني الأخوة بين الناس ،وتضع صلاح الفرد في اطار يشمل كل الجوانب المادية والمعنوية في الكون [2] .

فالانسان الصالح الذي يشكل هدف التربية هو انسان يعرف ربه ويدين له بالطاعة والعبادة ،ويعرف نفسه ويقدرها حق قدرها ، في حدود العبودية لله وحده ويعرف رسالته وانه خليفة لله في الأرض يعمر الحياة فيها في ظل من حكم الله وشريعته وهداه ،ويجتهد في الوصول الى الكمال الانساني الذي رسمه له الله ، اجتهادا اختياريا واعيا مستخدما في ذلك كل ماوهبه الله من قدرات وماحباه الله من علم ، سواء كان علما عن طريق الوحي أو علما مكتسبا عن طريق النظر في الكون بتفكر وتدبر وبصيرة أو موروثا عن هذين المصدرين ، وهو في كل ذلك مطالب بتحكيم العقل فيما لا نص فيه ، ومنهي عن التقليد الأعمى والجمود على المفاهيم الخاطئة لمجرد أنها موروثة ،ويعرف مصيره بعد هذه الحياة

---

١ انظر د. عجيل جاسم النشمي ، معالم في التربية الاسلامية ص ١٤٣ - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م مكتبة المنار الاسلامية بالكويت .

٢ ويشمل الجوانب المادية والمعنوية في الكون - الايمان الصادق ، والعمل الصالح والخلق القويم ، وانعكاسات ذلك كله على الحياة بكل أبعادها وعلى الأفراد والجماعات أينما وجدوا ومهما تباينت الألوان والألسنة واللهجات .

فهو موت ثم بعث ثم حساب على كل ماقدمت يداه ، ثم حياة خالدة قدرها له الله ، يجزى فيها عن قيامه بتبعات التكليف والأمانة التي حملها في هذه الدنيا ان خيرا فخير وان شرا فشر [١] .

ان انسانا هذا شأنه ، يدرك أنه لم يخلق عبثا ، وان حياته ليست لهوا ولا لعبا ، وأنه محاسب على كل لحظة من لحظات عمره ، وعن كل نشاط قام به عقله وعن كل فائدة أفادها علمه ، وعن كل كلمة تحركت بها شفتاه ، انه انسان يدرك مسئولياته تجاه مجتمعه وأمته وبني جنسه ، ويدرك حقوقه عندهم كما حددها له الله ، وان الدنيا مزرعة الآخرة ، هذا الانسان لبنة صالحة لبناء المجتمع الصالح التي تحكمه خشية الله وتقواه وكل مايتبع ذلك من قيم وخلق وعدل اجتماعي ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا في ظل نظام تربوي قائم على أساس اسلامي صحيح [٢] .

(٣) فلسفة التربية الاسلامية :

أما فلسفة التربية الاسلامية فتقوم على التصور الاسلامي الصحيح للانسان والكون والحياة ، ولمعنى الألوهية لله ، ويمكن ايجاز هذه الفلسفة في النقاط التالية [٣] :

١- ان الله تعالى خلق الانسان من طين ونفخ فيه من روحه ، وجعله في الأرض خليفة ، وعلمه من علمه وأودع فيه القدرة على التعليم ،واكتساب المعرفة ليعينه ذلك على استمرار خلافته لها ، والقيام بمسئولياته فيها ومن هنا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم .

٢- الانسان جزء من هذا الكون المادي الذي خلقه الله بعلمه وحكمته وقدرته ، وهو كل مركب من جسد وروح ، وعقل وعاطفة ، وأحاسيس ومشاعر ، وعلى التربية الاسلامية أن تنهض بكل هذه الجوانب ، فتهتم بتزكية الروح اهتمامها ببناء

---

١ انظر د.زغلول راغب النجار - أزمة التعليم المعاصر ص ١١٥-١١٧ - الطبعة الأولى ١٤٠٠ ط مكتبة الفلاح بالكويت - وانظر المصدر السابق ص ١٤٥.
٢ انظر د.زغلول راغب - نفس المصدر ص ١١٦-١١٧- والمصدر السابق ص ١٤٧-١٤٨.
٣ انظر نفس المصدر ص ٩٧-١١٥.

الجسد ، وبتأديب النفس اهتمامها بتثقيف العقل ، وعلى هذا فالتربية الاسلامية تربية شاملة لكل مكونات الانسان وقدراته ومواهبه ، وهي الى جانب هذا عملية مستمرة لا يحدها زمان أو مكان .

٣- ان الخير أصيل في الانسان ، والشر طارىء عليه ، وقد وهب الله الانسان القدرة على التمييز بينهما . والانسان يولد على الفطرة السليمة ، ثم تتفاعل قابليته وميوله وقدراته مع المجتمع الذي يتربى فيه ، فتنمو في الاتجاه الصحيح أو الخاطىء حسب مايتلقى من توجيه ، ومن هذا تظهر أهمية التربية الصحيحة الموافقة للفطرة السليمة ، ودورها الأساسي في السير بالانسان الى تنمية الخير الذي أودع فيه .

٤- ان أفضل وسيلة لتنمية الخير في الانسان هو الخضوع لله تعالى واظهار العبودية له سبحانه ،وأن يوءمن هذا الانسان بأنه لا سلطان في هذا الكون لغير الله تعالى - ومن ثمّ فالعبودية لغيره تعالى هي اهدار لكرامة الانسان واذلال لانسانيته . وواجب التربية الاسلامية ترقية الخير الذي فطر عليه الانسان وتنميته وتزكيته باستمرار ، فالتعليم من غير تزكية النفس تعليم ناقص ولهذا قال ربّ العزة على لسان ابراهيم عليه السلام : (ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) [1] .

٥- ان الأفراد متفاوتون في قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم وأن هذا التفاوت بين الأفراد يجب أن يوءخذ في الاعتبار في العملية التربوية ، فلا يكلف انسان فوق طاقته لأن الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، واذا كان هذا منهج ربّ العزة مع البشر ، فمن باب أولى أن يراعي البشر ذلك فيما بينهم . فالتربية في الاسلام تربية فردية ، وان وضعها في قواعد موحدة جامدة تفقدها طبيعتها الانسانية ،

---

١ سورة البقرة الآية ١٢٩.

الانسانية ، ومن الأفضل أن يعطى للمربين حرية استخدام الوسائل المناسبة لتوجيه طلاب العلم لديهم وعلى أسس من خشية الله وابتغاء رضوانه .

٦- ان مصادر المعرفة الانسانية في الاسلام هي الوحي السماوي المنزل ، والعلم الفردي أو الجماعي المكتسب ، والتراث البشري الموروث في كل من هذين المجالين ، وعليه فان التربية الاسلامية لابد أن تستمد منهجها ومحتواها من هذه المصادر الثلاثة ، واهمال أيّ منها يوءدي الى معرفة غير متكاملة أو الى تربية ناقصة .

٧- ان العلوم الكونية في منهج التربية الاسلامية شيء أساسي ، لأنه من خلال هذه العلوم يتعرف الانسان على خصائص المادة والطاقة والأحياء ، وعلى الظواهر الطبيعية والسنن التي تحكمها ، ويضع الفروض والنظريات اللازمة التي تعينه على تسخير الكون وسننه في عمران الحياة على الأرض والقيام بخلافة الله فيها .

٨- ان العلم الذي يتعلمه الانسان يجب أن يقترن بالعمل ، كما أن الايمان الصادق مقرون بالعمل الصالح . فالعلم المجرد لا يكفي ولا يعتبر نافعا مالم يقترن بالعمل . وعلى هذا فان التربية في الاسلام ليست نظريات تطرح أو آراء تقال في معزل عن مجال التطبيق وواقع الحياة ، انما هي وسيلة الى ممارسة فعلية تتجسد فيها كل الأخلاق والقيم التي تقوم عليها .

٩- ان التربية في الاسلام ضرورة انسانية تقصد لذاتها ، لا للمردود المادي أو الاجتماعي الذي يمكن أن يعود على الانسان من وراء تحصيلها - وان كان ذلك في حد ذاته ليس مستنكرا - ، ولا لمجرد الترف الفكري المنفصل عن التطبيق في الحياة ، كما هو الحال في أنظمة التعليم العلمانية اللادينية .

هذه بايجاز أهم النقاط التي تتناولها فلسفة التربية الاسلامية وتهدف اليها ،

وهي كما هو واضح قائمة على التصور الاسلامي للانسان ورسالته في هذه الحياة ، ونظرة الاسلام للكون ، ولعلاقة الانسان بخالقه ، وبمعنى الألوهية وتفرد العبادة له سبحانه ، وهذه الفلسفة انعكاس لأهداف التربية الاسلامية وتوضيح لها .

المبحث الثاني : أثر المدرسة الاسلامية في التربية والتعليم :

فطن النبي صلى الله عليه وسلم منذ أول ظهور الاسلام الى أهمية التربية فوجه النظر اليها ، وأمر بتعليم القراءة والكتابة ، فمن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة [1]،ومن وصايا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يعلم المسلمون أبناءهم السباحة والرماية والفروسية والحسن من الشعر والأمثال [2] . ولم يكد القرن الثاني الهجري يطلع حتى كان ثمّة جهاز تربوي متغلغل في كل ناحية من نواحي المجتمع الاسلامي الأول ابتداء من الكتاتيب[3] حتى مجالس العلم الخاصة بالكبار .

وقد جمعت التربية الاسلامية منذ أول ظهوره بين تأديب النفس ، وتزكية الروح وتثقيف العقل ، وتقوية الجسم ، فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأيّ نوع منها على حساب الآخر . وقد بدأت أول مابدأت في البيت عن طريق المحاكاة والتلقين ،ذلك أن الطفل ينشأ فيرى آباءه يقرءون القرآن ويقيمون الصلاة ويصومون رمضان ، وغير ذلك من الشعائر الدينية المختلفة ، فتنطبع في ذهنه هذه الصورة وتنصلح حاله بالتقليد. غير أن الاسلام مع اتساع العمران ، وارتفاع شأن الحضارة، قد اضطر الى تنظيم أمر التربية التي خرجت من نطاق البيت الى مجال المدرسة ، حيث يشرف على أمر التربية معلمون احترفوا هذه الحرفة ، واختصوا بهذه الصناعة ونشأت من أجل ذلك ثلاثة أنواع من المؤسسات التعليمية وهي : الكتّاب والمدرسة والمسجد [4].

أما الكتّاب فهو بالمدرسة الأولية أو الابتدائية أشبه ، ولم تكن الدولة هي التي تعين الكتاتيب ، وتنفق عليها ، وتدير أمر خطة التعليم فيها ، بل ظلت الكتاتيب ،

---

١ المبرد : الكامل ص ١٧١.

٢ الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢ - القاهرة سنة ١٣٣٢هـ .

٣ الكتاتيب : جمع كتّاب ويقصد به لمكان الذي يتعلم فيه الأطفال والصبيان مبادىء القراءة والكتابة مع أجزاء من القرآن أو جميعه . والكتّاب يقابل المدارس الابتدائية في عصرنا هذا . ويقول صاحب لسان العرب "الكتّاب موضع تعليم الكتابة" ج ٢ ص ١٩٢.

٤ انظر - د. أحمد فواد الأهواني : التربية في الاسلام ص ٨-١٠ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م .

منذ أنشئت قديما مع ظهور الاسلام ، نظاما حرا يعتمد على استقلال بعض المعلمين بافتتاح أماكن للتعليم ، وكانت في بعض العصورتعان من ذوي اليسار ، أو من الأوقاف التي يحبسها أغنياء المسلمين - وكان الغرض الأساسي من الكتّاب هو تعليم الصبيان القرآن والقراءة والكتابة وبعض النحو والعربية والحساب ، وقد جرت العادة أن يكون معلم الكتاب من الذين يحفظون القرآن والعلوم الدينية والعلوم الكتبية والفقهية ، فهو فقيه أتم تعليمه على شيخه ، وأخذ منه اجازة [1] بالتعليم . ولهذا يمكن القول أن الكتاتيب في هيئتها التي أوشكت أن تندرس ، كانت نواة التربية الاسلامية الصحيحة مادام القائم على أمر التعليم فيها فقيها في الدين [٢] .

أما المدارس المدنية الحديثة - وهي التي تسمى بالمدارس الالزامية ، وتارة بالابتدائية ، وأخرى بالأولية ، أو مدارس المرحلة الأولى الموازية لتعليم الكتاتيب - فان نصيب التربية الاسلامية فيها أقل بطبيعة الحال مما كان في الكتاتيب : وذلك بحكم اتجاهها نحو العلوم الحديثة من جهة ، وازدياد عدد تلاميذ كل مرحلة ، وعدد تلاميذ كل فصل من جهة أخرى ، بحيث لا يتمكن المعلم من العناية بجميع التلاميذ ، وبحكم عدم وجود أماكن للقيام بالعبادة كالصلاة في أوقاتها في هذه المدارس الضيقة ، لذا وجب انشاء مسجد صغير ملحق بكل مدرسة ابتدائية حتى تتم التربية الاسلامية بطريقة عملية لا نظرية فقط [٣] .

وبعد ظهور المدرسة الحديثة بصورتها هذه ، قام الفقهاء من أهل السنة يبحثون في أمر التربية : أتكون الزامية بالنسبة لجميع أفراد الأمة ، وهل يعلم البنات كما يعلم الصبيان في الكتاتيب ، وهل يأخذ المعلم أجرا عن التعليم أو لا يأخذ ، وكيف يعاقب

---

١ الاجازة في اصطلاح الفقهاء : هي الاذن بالرواية لفظا أو كتابة . وصورتها أن يقول الشيخ لأحد طلابه : "أجزت لك أن تروي عني - مثلا - صحيح البخاري" وللاجازة خمسة أنواع يرجع لها في مظانها لمزيد من التفصيل .
انظر د. محمود الطحان : تيسير مصطلح الحديث ص ١٥٩.

٢ انظر د. أحمد فؤاد الأهواني : المصدر السابق ص ١١-١٢.

٣ انظر المصدر نفسه ص ١٢ - وانظر د. أحمد شلبي : تاريخ التربية ص ٥٣-٥٤ ط ٥ سنة ١٩٧٧م مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .

التلاميذ ، الى آخر هذه المسائل التي تضرب في التربية الى الصميم [1] .

وكتب في القرن الهجري أبو الحسن القابس [2] رسالة في هذا الموضوع [3] ، نادى فيها بأمرين سبق فيهما علماء التربية في الغرب الحديث ، وهما أن التعليم حق لكل صبي وواجب على الدولة وهي مكلفة – اذا لم يكن أهله قادرين على الانفاق عليه ودفع أجر معلم الكتّاب – أن تنفق عليه من بيت مال المسلمين. والحجة في ذلك أن الدولة مكلفة بتعليم جميع المواطنين الدين ،وسبيل تعليم الدين هو تعليم القرآن قراءة وكتابة ، وتعلم القرآن واجب لضرورته في الصلاة ، والصلاة مفروضة على جميع المسلمين أما تعليم البنات فهو واجب ، لأن الدين الاسلامي عام لجميع المسلمين ، وقد خاطب الله في كتابه العزيز المسلمين والمسلمات ، والموءمنين والموءمنات ولم يقصر الاسلام على الذكور دون الاناث [4] .

وقد عدلت بعض الدول الاسلامية عن نظام الكتاتيب الى نظام المدارس الأولية أو الابتدائية مثل مصر والشام وحذا حذوها الدول العربية الاسلامية الأخرى ، ولكن لاتزال دولا اسلامية أخرى مثل الهند وبعض مناطق المغرب – مستمرة على نظام التعليم في الكتاتيب وأكبر الظن أنها سائرة في طريق الانتقال الى نظام المدارس الحديثة كما فعلت مصر وغيرها من الدول الاسلامية مع تطور الحياة الحديثة [5] .

وكان حفظ القرآن أو حفظ ذلك القدر غير اليسير منه ، كافيا في طبع الأبناء على التربية الاسلامية الصحيحة ، فالقرآن ديوان المسلمين ، فيه جوهر العقيدة ، وفيه تفصيل العبادات ، وفيه ارشاد للسلوك الفاضل والطريق المستقيم . ثم ان العقائد الاسلامية

---

١ انظر المصدر السابق ص ١٢

٢ وهو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابس – الفقيه القيرواني ولد سنة ٣٢٤هـ وتوفي سنة ٤٠٣هـ – أما القابس فنسبة الى قابس بلدة بالقرب من القيروان . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان – الترجمة رقم ٤١٩.

٣ سماها : أحوال المعلمين والمتعلمين . وحول هذه الرسالة كانت رسالة الدكتوراه التي تقدم بها الأستاذ أحمد فوءاد الأهواني ونشر معها بحثا قيما عن التعليم في رأي القابس من علماء القرن الرابع . قامت بنشرها دار المعارف بمصر .

٤ انظر التربية في الاسلام ص ١٢–١٣.

٥ المصدر السابق ص ١٣.

ليست من التعقيد بحيث يحتاج المرء الى اعمال فكر ليظفر بسرها . وأصدق صفة يوصف بها الاسلام أنه دين الفطرة وانه دين البساطة ، وأنه دين العقل السليم ، وهذا هو السبب في انتشاره بين ملايين الملايين من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وهو سر تمسك أهله به ، فاذا زاد المسلم للقرآن حفظا ، زاد للاسلام فقها [١] .

والايمان بالله والاقرار بوجوده ،والاعتراف باطلاعه على أعمال العباد ، وخشية المؤمن جزاء الله العادل ، على مايرتكب من خير أو شر ، هو حجر الزاوية في التربية الاسلامية . ولا يلبث الصبي المسلم بعد رسوخ العقيدة في نفسه ، أن يسلك بوحي من ضميره ،فيميز بين الحلال والحرام ، وأن يقبل على الخير ويبتعد عن الشر ، وأن يعمل على البر بأهله ، ومساعدة الضعيف ، واطعام اليتيم والمسكين ثم هو لا يقف في دائرة العمل عند حد نفسه ، بل يتجاوز ذلك الى المجتمع بأسره بحسب القاعدة الاسلامية وهي اقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالذي يميّز التربية الاسلامية في جوهرها ، هو هذا الضمير المستمد من مخافة الله بعد معرفته حق المعرفة ، حتى يصبح سلوك المسلم صادرا عن وحي الضمير في السر والعلانية [٢] .

وينشأ هذا الضمير الديني ، المستمد من التربية الدينية ، والذي يصبح فيما بعد أساس الضمير النفساني والخلقي ، من المعرفة النظرية ، ومن التأديب العملي . ولذلك كان يقال عن معلم الصبيان ، انه (مؤدب الصبيان) في الاصطلاح القديم ، وهو الذي يسمى (المربي) في الاصطلاح الحديث . والمؤدب هو الذي يطبع الطفل على العبادات وهو الذي يزرع في نفسه العادات ، وأدب السلوك في الاسلام مستمد من الدين نفسه علما وعملا ، عقيدة وعبادة . وجوهر الاسلام يجعل الدنيا سبيل الآخرة ولا يحرم زينة ،والتربية الاسلامية تأمر بالجانبين معا ، لذلك فان تعويد الأطفال من الصغر على العبادات الاسلامية هو التربية بمعنى الكلمة ، إذ تطبعهم على طهارة النفس وتصفيتها وصفائها فيضرب في الأرض وكأن بين يديه نورا يهديه الى الحق الذي هو الاسلام [٣] .

---

١ المصدر السابق ص ١٣.
٢ المصدر نفسه ص ١٣-١٤.
٣ انظر د. أحمد شلبي – تاريخ التربية في الاسلام ص ٥٨-٦٢ ، والمصدر السابق ص ١٥.

والكلام عن التربية الاسلامية الصحيحة يقودنا الى الكلام عن الحرية في التربية ، والى أيّ مدى ينبغي أن نذهب في هذه الحرية ، سواء في العلوم التي تفرض تعليمها على الطفل أو ايثاره اللعب ، أو في ميله الى نواحي النشاط المختلفة . ولا نزاع في أن الحرية فوضى ، وأن ثمّة أمورا يجب على كل مواطن اكتسابها حتى يصبح مواطنا صالحا ، ينفع نفسه ، وينفع أمته . ومن هذه الأمور تعلم اللغة وقواعدها ، والدين وأصوله ومبادىء الحساب وكذلك مبادىء العلوم المختلفة . ولو ترك الصبي على هواه ماتعلم شيئا ، وبخاصة لأن عقله الصغير لا يفهم قيمة هذه العلوم ، ولا يدرك أهميتها في تقدم الأمم وقوتها . بل الأمر كذلك في الدين نفسه ،وفي القرآن الذي هو أساس الدين ، فان عقل الطفل الصغير لا يمكن أن يرتفع الى ادراك ماتحمله ألفاظه من معان سامية دقيقة وقد عرض القدماء لهذه الحرية ، ونادوا بالأخذ بما يلائم عقلية الطفل ، والتدرج معه في التعليم ، ومن ذلك أن يتأخر تعليم القرآن وتحفيظه الى أن يكبر الصبي ويعقل[1]. وعلق ابن خلدون على هذه الطريقة فقال : "وهو لعمري مذهب حسن ، الا أن العوائد لا تساعد على ذلك" [2] . ذلك أن حفظ القرآن في الصغر هو أساس الدين وعماد اللغة .

واذا كانت الحرية بالنسبة للطفل غير ميسورة في المرحلة الأولى من التعليم ، فله بعد ذلك حرية تكاد تكون مطلقة ، حين ينتقل التعليم من الكتّاب الى المدرسة ومن المدرسة الى المسجد ، فقد كانت المساجد في الاسلام ولا تزال أماكن العبادة ومراكز التعليم . والجامع الأزهر خير عنوان لذلك ، كما هو معروف . وقد نشأ بين الكتّاب والمسجد نوع من المؤسسات التعليمية يسمى المدرسة ، وكان يلحق عادة بالمسجد كما تقدم ذكره ، ويتلقى فيه الطلبة التعليم المتوسط الذي هو أرفع من تعليم الكتاب وأقل من تعليم المسجد ، ويمتاز بخضوعه للنظام كما هي الحال في الكتاتيب [3] .

أما التعليم في المسجد فهو حر حرية مطلقة ، ليس هناك موعد لحضور الطلاب أو انصرافهم ، وليس الطالب مقيدا بالاستماع الى أستاذ معين أو دراسة علم معين . وليس

---

١ انظر التربية في الاسلام ص ١٦-١٧.
٢ ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٢.
٣ انظر الأهواني : المصدر نفسه ص ١٦.

الشيخ مقيدا بمنهج ثابت فكان الطلاب ، ومعناهم الأصلي طلاب العلم يحضرون على الشيخ الذي يروقهم في حلقته ، فاذا أحب طالب دروس شيخ لزمه ، وأخذ عنه حتى يتخرج على يديه ويجيزه للتدريس فيما بعد [١] . يقول الدكتور أحمد فوءاد الأهواني : "تلك لعمري الطريقة الجامعية الصحيحة التي تفسح المجال للتقدم والبحث" [٢] .

والى جانب مبدأ الحرية في التربية ، نجد مبدأ آخر هو التطور ، وهو مبدأ مستمد كذلك من طبيعة الاسلام. ذلك أن تعاليم الاسلام عامة صالحة لكل زمان ومكان وتتمسك فقط بالأصول الكبيرة كالايمان وأركان الاسلام الخمسة . أما صور التربية أتكون في البيت أم المدرسة ، أتكون في الصباح أم بعد الظهر أم في المساء ، أيتعلم المسلم علوما دنيوية الى جانب العلوم الشرعية أم لا ، كل ذلك لا يقف الاسلام في سبيله بل يحث عليه مادام فيه مصلحة المسلم . وقد تعددت صور التربية الاسلامية بتعدد الثقافات التي اتصل بها الاسلام خلال تاريخه الطويل ، فأخذ عن الفرس كما أخذ عن الروم ، وتطور بما أخذ عنهما ، ثم جمدت التربية في عصور التأخر [٣] .

وصفوة القول أن التربية الاسلامية تطبع شخصية المسلم بطابع خاص يميزه عن أيّ لون آخر من ألوان التربية . ولذلك يتعارف المسلمون في اندونيسيا مع المسلم في مصر مع ابتعاد الشقة واختلاف اللسان . وانما جاء التقارب من طبع الشخصية بطابع خاص في العقيدة والأخلاق والاتجاهات النفسية ، والنظرة الى الحياة . كل ذلك لأن المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يحفظون كتابا واحدا ، ويعبدون الها واحدا يركعون له ويسجدون ويتخذون شعارا واحدا هو قول : الله أكبر .

ورغم أنه ثبت أن التربية الاسلامية أفضل وسائل التربية بما حققته من نتائج مذهلة في واقع الحياة ، الا أنه وبسبب جمود التربية الاسلامية ووسائلها في عصور الانحطاط اتجه المسلمون الى الأخذ بأساليب التربية الحديثة التي انتهت اليها تجارب علماء

---

١ انظر الأهواني – المصدر نفسه ص ١٦–١٧.

٢ المصدر نفسه ص ١٧.

٣ المصدر نفسه ص ١٦–١٧.

الغرب من الانجليز والأمريكان والفرنسيين . وبدلا من أن يستفيد أبناء المسلمين من هذه التجارب ، في طرق الحفظ ، وأساليب التربية ، ونظام المدرسة وخطط الدراسة ونظم الاختبارات وغير ذلك من الأمور التي أصبحت مقررة علميا ، وخاضعة لقوانين نفسانية ، فقد نقلوا وسائلهم وفكرهم الى بلدان المسلمين اما عن طريق علماء الغرب أنفسهم ، أو عن طريق أبناء المسلمين الذين درسوا في الغرب ، وتشربوا بطريقة حياة أولئك وفكرهم ، فأصبحت التربية الاسلامية التي كانت مفخرة العرب والمسلمين قاطبة ، مسخا مشوها ، لا ينتج في دارسيها فكرا اسلاميا ، ولا أخلاقا اسلامية ولا سلوكا متمشيا مع تعاليم الاسلام . وقد عقدت مبحثا موجزا لتوضيح ذلك .

المبحث الثالث : مزالق التعليم المنهجي في العالم الاسلامي

(١) مزالق السياسة التعليمية :

تمكن أعداء الاسلام والمسلمين من وضع مخطط بالغ المكر والكيد لغزو المسلمين عن طريق التعليم المنهجي والتثقيف العام غزوا فكريا ونفسيا وخلقيا وسلوكيا خطيرا ينسخ شخصيتهم الاسلامية نسخا كاملا ، ويقيموا بدلها شخصية أخرى تتلاءم مع شخصية الغازي نصرانيا كان أو يهوديا أو ملحدا لا دين له أو وثنيا مشركا أو يقيم بدلها مسخا مشوها فيه مزيج من صور شتى وأخلاط مختلفات لا تناسق بينها ولا تتلاءم . وقد تعرض التعليم في العالم الاسلامي لصور شتى من وسائل الغزو في مجال التعليم المنهجي نجملها فيما يلي :

أ ـ حيادية التعليم :

كان أول مدخل دخل منه أعداء الاسلام الى توجيه السياسة التعليمية عند المسلمين الوجهة التي يريدونها هي دعوى حيادية التعليم . وقد وقعت الدول العربية والاسلامية فريسة لهذا الادعاء حيث جردوا السياسة التعليمية من صيغتها العقيدية واستعاضوا عنها بفكرة قومية التعليم ، وكان من نتائج هذا الاتجاه أن تغلغلت الأفكار والمفاهيم والعقائد السائدة عند أعداء الاسلام الى البلاد الاسلامية ، فالعلوم الانسانية والفلسفية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد والتاريخ والأخلاق والنظم الاجتماعية لا يمكن أن تكون علوم حيادية مجردة ، لأنها تقوم على نظريات وآراء نابعة من عقائد وأفكار ومفاهيم العلماء الذين يضعون آسسها ، والعلوم الحيادية حقا هي تلك العلوم الخالية من التعليلات والتفسيرات الاستنتاجية كالرياضيات (الهندسة والحساب) ،والكيمياء التطبيقية والفيزياء والميكانيكا وكذلك العلوم الخالية من التعليل الفلسفي ـ وهي التي تصف الأشياء كما تثبتها المشاهد الحسية . أما العلوم الانسانية العالمية ذات التراث البشري المشاع فان كبار التربويين في العالم لم يقبلوا باستيراد المناهج المتعلقة بها لأن استيراد العلوم والآداب التي نشأت في أحضان مذاهب وعقائد ومفاهيم غريبة عن أمتهم انما هو عبث بمفاهيم آجيالهم وعقائدهم [1] ، حتى الدول الغربية التي

---

١ انظر عبدالرحمن حسن حنبكه الميداني: غزو في الصميم ص ١٦ـ١٨ ط ١ ١٤٠٢ ،مطبعة دار القلم بيروت .

اشتهرت معظمها بالعلمانية ، وبالحياد تارة وبالالحاد أخرى نظرت الى التعليم على أنه قنطرة تصل الحاضر بالماضي ، وتصل المعلومات بالعقائد وتدعم العقيدة الموروثة بالعلم والمنطق والدليل والحجة أما الدول الشيوعية فكانت أشد حذرا ونفرة وعنادا في رفض واستيراد العلوم الانسانية والآداب لأنها كانت حريصة على أن تكون هذه العلوم موءيدة لعقيدتهم الشيوعية وقيمها الأخلاقية القائمة على الالحاد وانكار ماينافي ذلك من قيم وأخلاق [1] . وفيما يلي نورد قول أحد كبار علماء التربية الأمريكيين وهو الدكتور ج. ب. كونانت يقول أستاذ التربية الأمريكي : "ان عملية التربية ليست عملية تعاط وبيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر الى الخارج أو تستورد الى الداخل ، اننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية والأوربية الى بلادنا الأمريكية" [2] .

أما الأمة الاسلامية فقد ظلت نهبا مقسما بين الشرق والغرب ، تستورد نظمها التعليمية والتربوية ، كما تستورد السلع الجاهزة – تارة من الغرب وتارة من الشرق دون تمحيص ولا نقد ولا تجربة مما جعل أجيالها تعيش في دوامة القلق والاضطراب والانقسامات الفكرية وقابلة للارتداد عن دينها ، وتعتنق المذاهب الفكرية الباطلة المتنافرة المتصارعة التي تسللت الى عقولهم من خلال المناهج التربوية .

ب – مدارس التبشير النصرانية :

أسست مدارس التبشير بدعم من الدول الاستعمارية في كثير من بلدان العالم الاسلامي لتنشىء من أبناء المسلمين أجيالا تتحلل من دينها عقيدة وسلوكا وولاء ، وتتحلل من أمتها ولاء وارتباطا ، وتقتبس السلوك الفردي والجماعي الذي يدربها عليه المعلمون المبشرون ، وتتنصّر أو تكون ملحدة أو علمانية لا تهتم بالدين ولا بأيّة قضية ذات صلة به ، ويكون ولاوءها للدول التي تنتمي لها تلك المدارس التبشيرية .

---

١ عبد الرحمن الميداني – المصدر السابق ص ١٨.

٢ نقلا عن محاضرة عامة ألقاها في قاعة المحاضرات بجامعة الرياض العلاقة الشيخ أبو الحسن علي الندوي . ولمزيد من الأقوال والمشاهد في هذا الموضوع الحيوي انظر عبد الرحمن الميداني : المصدر السابق ص ١٨–٢١.

وقد ظهرت الأهدافالتي قامت عليها مدارس التبشير من الواقع الفعلي وممّا انتجته تلك المدارس من أجيال كانت منطلق التحول عن الاسلام تحولا كليا أو جزئيا وكانت منطلق تأصيل أتباع الغرب في كل مايقرره من أفكار ومذاهب ، وسلوك فردي واجتماعي، وعادات وتقاليد ونظم ومبادىء ، وظهرت أيضا من طائفة من أقوال المبشرين المؤسسين لهذه المدارس منها :

١- قول المستشرق والمبشر هنري هريس جست : "ان التعليم في الارساليات انما هو وسيلة الى غاية ، هذه الغاية هي قيادة الناس وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية ، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وعلماء طبقات الأرض ،وعلماء النبات وخيرة الجراحين في الزهو العلمي ... فاننا لا نتردد حينئذ في أن نقول : ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري الى مدى علماني محض ، والى مدى علمي دنيوي ..."[١].

٢- ويقول نفر من المبشرين : "انأهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الارساليات فيجميع البلاد كانت دائما متشابهة . ان المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى وسيلة لتحقيق أهداف التبشير ... حتى ان الموضوعات العلمية البحتة التي تعلّم من كتب غربية وعلى أيدي مدرسين غربيين تحمل معها الآراء التبشيرية.."[٢] .

٣- وفي مؤتمر القاهرة التبشيري [٣] سمع القسيس الدكتور (صموئيل زويمر) قطب التبشير الصليبي شكوى عدد من المبشرين من استعصاء المسلم عليهم ، وعجزهم عن التأثير في قلبه ، فأبان لهم فيتعقيبه : "انه ليس غرض التبشير التنصير فقط ،ولكن أقصى مايجب على المبشر عمله ، هو تفريغ القلب المسلم من الايمان بالله .." ، ثم بين لهم : "ان أقصر طريق لذلك هو اجتذاب الفتاة المسلمة الى مدارسهم بكل الوسائل الممكنة ، لأنها هي التي تتولى عنهم مهمة تحويلالمجتمع الاسلامي وسلخه من مقوماته.."

---

١ د. عمر فورخ وخالدين : التبشير والاستعمار ص ٦٦.
٢ د. عمر فروخ وخالدين : نفس المصدر ص ٦٦.
٣ الذي عقد سنة ١٩٠٦م .

ويقول زويمر نفسه : "مادام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، فلابد أن ننشيء لهم المدارس العلمانية ، ونسهل التحاقهم بها في هذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الاسلامية عند الطلاب ..." [1] . والأمثلة على أن التعليم أثمن وسيلة استغلها ويستغلها المبشرون في سعيهم لتنصير المسلمين أو ابعادهم عن الاسلام كثيرة ولمزيد من الايضاح نحيل الى المصادر التي اهتمت بتعداد وسائل المبشرين في محاربة الاسلام والمسلمين [2] .

ج ـ الاستعمار الصليبي للبلاد الاسلامية :

استطاع الاستعمار الصليبي فرض سيطرته على البلاد الاسلامية ، وتوجيه المناهج الصليبية وبرامجها عن طريق المدارس العلمانية التي أنشئت لهذا الغرض ، أو المدارس الوطنية التي ألزمت بمناهجها . وقد تمكن من تربية أجيال من أبناء المسلمين تدين بالولاء والطاعة للمستعمرين ، وتنسلخ من ولائها للاسلام وللأمة الاسلامية ، وتقتبس المفاهيم والعادات الغربية ، وكل أنواع السلوك التي يأتي بها المستعمرون [3] . والأمثلة لهذا الأثر كثيرة : فالاستعمار الفرنسي طبع أصبعه وأهدافه بوضوح في الجزائر والمغرب ولبنان وسوريا . أما الاستعمار البريطاني فنجد أثره بوضوح في مصر والسودان وفي الهند وفي باكستان .

د ـ التعليم المعادي للاسلام :

ومن الآثار المباشرة لمدارس التبشير النصرانية أو التعليم الذي فرضته الدول الاستعمارية أو أولئك الذين درسوا في الغرب أو الشرق الأوربي أن نشأ جيل من أبناء جلدتنا متأثر بمذاهب وأفكار وطرائق حياة أولئك ، ومتحرر من المبادىء والقيم الاسلامية ، ومستهين بتعاليم الاسلام ، وتسنى لهؤلاء تولي مراكز قيادية في التعليم

---

١ محب الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي ص ٨١-٨٢.
٢ د. عمر فروخ وخالدين : التبشير والاستعمار
محب الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي
د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية المعاصرة (جزءان) ، وحصوننا مهددة من الداخل للمؤلف نفسه
الشيخ محمد محمود الصواف : المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام.
٣ انظر الميداني : المصدر السابق ص ٣٣.

في علمانية التعليم ، وحاولت طمس معالم الأزهر الدينية بتذويب ملامحه المتميزة بتوسيع مناهجه وشمولية التعليم فيه من طب وهندسة ... الخ . ثم ألغيت المحاكم الشرعية كما فعل أتاتورك وفرض على مصر نظام قضائي موحد ، فتقلصت فرص الأزهريين في التوظيف ، فتقلصت بذلك الكليات الدينية لانصراف الأذكياء من الطلاب عن الدراسات الاسلامية الى التعليم الأكاديمي العام [١] . وقل مثل ذلك في سوريا ولبنان وباقي البلاد الاسلامية مثل العراق والسودان [٢] والهند [٣] وباكستان [٤] .

(٢) مزالق المناهج الدراسية :

المناهج الدراسية هي الترجمة العملية للسياسة التعليمية ، ولذلك فان المنهج يجب أن يكون وفق ماتمليه السياسة التعليمية ، وبما أن أعداء الاسلام في الخارج والداخل قد تمكنوا من وضع المخطط التعليمي للدول الاسلامية في غيبة الوعي الاسلامي فانهم سلكوا نفس أسلوب المكر والخديعة في وضع المواد الدراسية لتتمشى مع المناهج الدراسية في السياسة التعليمية الموضوعة ، وهي سلخ الأجيال المسلمة عن دينهم. وصور المكر في وضع هذه المناهج - لتحقيق أهدافهم - عديدة يمكن ايجاز بعضها في النقاط التالية [٥] :

(أ) تشويه الحقائق الاسلامية ،ومحاولة طمس المعالم التي تتميز بها وذلك بالتحريف أو التغيير أو الدس فيها بالنقص أو الزيادة ومن صورها :

- اختيار المسائل التي كثر الخلاف والجدل فيها بين المسلمين كمسائل المعتزلة وآفكار بعض غلاة الصوفية .

---

١ انظر تقرير الدكتور صوفي أبو طالب عن التعليم في مصر والمقدم الى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الاسلامي الذي انعقد في مكة المكرمة عام ١٩٧٧م.

٢ انظر تقرير الاستاذ مندور المهدي - رحمه الله - عن التعليم في السودان - وهو بحث مقدم للمؤتمر العالمي الأول للتعليم الاسلامي بمكة المكرمة سنة ١٩٧٧م .

٣ انظر البحث الذي قدمه واضح رشيد الندوي للمؤتمر العالمي الأول للتعليم الاسلامي في مكة سنة ١٩٧٧م تحت عنوان "حركة التعليم الاسلامي في الهند وتطور المنهج" .

٤ انظر بحث "التربية الحديثة في العالم الاسلامي "تقرير ميداني" مقدم الى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الاسلامي المنعقد في مكة سنة ١٩٧٧م - قدمه د. سيد علي أشرف .

٥ للمزيد انظر الميداني - المصدر السابق ص ٥٥-٥٩.

- اختيار ثغرات النقص أو الانحراف من تاريخ المسلمين وتجميعها من مختلف العصور ، وجعلها هي الممثل لتاريخ الأمة الاسلامية مع طمس صور أمجادهم العظيمة أو تجاهلها والاعراض عنها ، ومن ذلك التركيز على التاريخ السياسي واهمال التاريخ الاجتماعي والعلمي والحضاري بوجه عام .
- تصيد الآراء الشاذة أو المذاهب المنحرفة التي أخذت بها بعض الفرق المنتسبة الى الاسلام واعتبارها مفاهيم اسلامية .
- اختيار الموضوعات التي تشترك فيها جميع الأديان ، ولا يختص بها دين الاسلام كبعض مفردات الأخلاق .
- اختيار أعقد الموضوعات التي يصعب فهمها ولا تناسب المستوى الدراسي الذي يوضع له المنهج .
- اختيار الموضوعات التي غدت من الآثار التاريخية ، وليس لها في الواقع العملي أيّ تطبيق .

(ب) توجيه الاهتمام الأشد ، وبشكل مركز لمناهج المواد الحيادية التي لا تتضمن تأسيسا أو شرحا أو دعما للعقائد والأخلاق والشرائع والنظم الاسلامية أو أمجاد المسلمين حتى تطغى دراسة هذه المواد على المواد الاسلامية ، فتستهلك الأوقات اللازمة لها ، وتصرف الطالب عنها ، نظرا لأن المواد الأخرى قد امتصت كل اهتماماته ومعظم طاقات دراسته [1] .

(٣) مزالق الكتاب :

في غفلة الجماهير المسلمة وعلمائها ، أو تهاونهم أو تساهلهم في الحذر من أعداء الاسلام خارج البلاد الاسلامية ، وأنصارهم في البلاد الاسلامية ، تكون الرقابة الادارية ضعيفة على هذه الفئات ، بدلا من تشديد الرقابة عليها ، وتستغل هذه الفئات هذه الغفلة فتنفث سمومها على الكتب المقررة في جميع المستويات الدراسية من دور الحضانة حتى

---

١ انظر الميداني : المصدر السابق ص ٥٨ .

نهاية المراحل الدراسية [١] . انهم يحاولون التسلل الى المواد الدراسية عن طريق الكتاب حينما يفشلون في توجيه السياسة التعليمية ـ ومن وسائل المكر في هذا المجال :

أ ـ التمييز في اعداد الكتب الدراسية بتوجيه العناية لكتب المواد غير الاسلامية أو المواد الحيادية التي ليس فيها تأييد للاسلام في عقيدة أو نظام أو تشريع ، وذلك بتجويد تأليف هذه الكتب وجعلها مصوغة بأسلوب العصر وباتقان كتابتها وتزويدها بالصور التوضيحية والجداول البيانية والوسائل التعليمية المؤثرة الجذابة ، واهمال كتب التربية الاسلامية وكتب المواد التي تشتمل على موضوعات أو معلومات أو أفكار يخدم الاسلام أو تاريخ المسلمين أو الحضارة الاسلامية الرفيعة [٢] .

ومن صور الاهمال أو المكر صياغتها بعبارات ركيكة أو معقدة أو بأسلوب ومضامين أعلى من مستوى الطلاب أو تجميدها على عبارات مؤلفات العصور الغابرة التي قد لا تتناسب مع أسلوب العصر الحاضر ومنهج بيانه في الكتابة [٣] . وبسبب ذلك ينصرف الطلاب الى الكتب المصاغة بأسلوب عصري بسيط وتتعلق قلوبهم وأفكارهم بها ، وتزهد في الكتب التي حظيت بالاهمال وعدم العناية أو الجمود المقصود أو غير المقصود أحيانا .

ب ـ التمييز في كتابة الموضوعات ضمن الكتاب الواحد ، فتبسط في الكتاب الواحد الموضوعات غير الاسلامية بسطا واسعا يتناول تفصيلات جزئية لا لزوم لها ، حتى تشغل مساحات واسعة في الكتاب ، وفي الوقت نفسه تضغط وتختزل الموضوعات الاسلامية بصورة مخلة حتى لاتؤدي الغرض المنشود من وضعها في ذلك الموضع . ويمكن التمثيل عن ذلك بكتب التاريخ المدرسية : ففي تلك الكتب نجد الاهتمام البالغ بالشرح والتفصيل للعصر الجاهلي ، فاذا جاء

---

١ انظر الميداني : المصدر السابق ص ٥٩ .

٢ المصدر نفسه ص ٥٩-٦٠ .

٣ المصدر نفسه ص ٦٠ .

دور شرح العصور الاسلامية جاء البيان مختصرا اختصارا مخلا لايفي بالغرض الا تلك الجوانب المتعلقة بالخلافات والفتن والأحداث التي مرت على تاريخ الاسلام فالتاريخ الاسلامي يعرض عرضا سيئا بحيث لا يغرس في النفوس الاعتزاز أو الاعجاب بتاريخ أمجادهم والتأسي بهم [1] . وقل مثل ذلك في الأدب الجاهلي والشعر الجاهلي والشعر في العصور الاسلامية ، واذا ذكر الشعر في العصور الاسلامية يختار منه مايتعلق بالغزل أو المدح المذموم بقصد تنشئة النشء على الصفات الخلقية الذميمة .

(٤) مزالق المعلم :

أدرك أعداء الاسلام والمسلمين في الداخل والخارج ، أهمية المعلم في توجيه السياسة التعليمية ، فاعطوا عناية فائقة لانتقاء أو تدريب المعلمين المؤهلين الذين يؤمنون بسياستهم التعليمية التي يعلنونها أو يكتمونها في المؤسسات التعليمية والتربوية التي ينشئونها لتعليم أبناء المسلمين وهي تهدف أن تخرج أجيالا هم للكفر أقرب منهم للايمان [2] .

ففي احدى المؤتمرات التبشيرية [3] عهد المؤتمر الى أحد أعضائه البارزين ويدعى (هـ دانبي) ليضع كتابا توجيهيا يتضمن ما وصل اليه المؤتمرون من الملاحظات والآراء، فكتب هذا ، كتابا جاء فيه أنه لا يكفي من الملاحظات والآراء أن يكون المعلم مسيحيا ، بل يجب أن يكون مسيحيا من قلبه ، وأن يطبق المسيحية على المبادئ الاجتماعية والسياسية الدولية . يقول هـ . دانبي في كتابه هذا :

"ثم يتسع الشك على كل حال ، حينما نأتي الى استخدام معلم غير مسيحي ، ليعلم موضوعات لا نجد لتعليمها معلما مسيحيا .

"أجل . ان البراعة في التعليم لا صلة لها بدين المعلم ، ومما لا ريب فيه أن

---

١ انظر الميداني : المصدر السابق ص ٦٠-٦٣ .

٢ المصدر نفسه ص ٦٤ .

٣ المؤتمر التبشيري الذي عقد في القدس في شهر نيسان سنة ١٩٣٥م .

معلما مسلما ذا خبرة ، وذا كفاية يمكن أن يكون له من الجانب الشخصي وقوة الخلق والشعور بالواجب مايجعل منه معلما يبعث الحياة في طلابه أو مربيا صالحا ، ثم هو يمكن أن يوءثر في طلابه أكثر من المعلم المسيحي المجرد من الصفات التي يتصف بها ذلك المعلم المسلم . ولكن اذا كانت الغاية من التعليم في المدارس المسيحية - كما يجب أن تكون - انما هي تزويد الطلاب باستشراق مسيحي للحياة ، وتمرين لهم على ممارسة المبادئ المسيحية وتقريبهم من اختبار شخصي للايمان المسيحي ، فكيف يمكن للمسلم الأمين أن يعاوننا على بلوغ هذه الغاية .

"ثم اذا كان هو يعتقد بهذه الغاية - لأنه ضعيف الشخصية خنوع - ولكنه لا يخطو خطوة يصبح فيها مسيحيا ، أفلا يكون له حينئذ على تلاميذه تأثير سلبي ، فيستنتجون من سلوكه أن الدين ليس ذا أهمية حاسمة" [١] .

وخطط الكيد الذي يكيده أعداء الاسلام والمسلمين عن طريق المعلم كثيرة نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر بايجاز [٢] :

أ - اختيار المعلمين من العناصر الموءمنة بأهدافهم وتأهيلهم التأهيل اللازم الذي يمكنهم من أداء دورهم المنوط بهم .

ب - عند الاضطرار لاستخدام معلمين مسلمين لعدم وجود معلم آخر للمادة الدراسية مثل اللغة العربية ودروس الدين الاسلامي ، فانهم يحرصون على اختيار أبعدهم سلوكا والتزاما بتعاليم الاسلام ، أو أضعفهم شخصية وقدرة على التدريس وأكثرهم تنفيرا للاسلام لتخدم الموءسسة التعليمية أهدافهم بأقل قدر ممكن من التوعية الاسلامية .

ج - في الموءسسات التعليمية الاسلامية يحاول أعداء الاسلام دس المعلمين الموالين لهم ممن اكتسبوا خبرة في هذا المجال لينفثوا سمومهم بين الطلاب في غفلة المسئولين عن هذه الموءسسات .

د - عند حدوث تغييرات سياسية عن طريق أجرائهم ، فان المكيدة تبدأ باحكام

---

١ د. عمر فروخ وخالدين : التبشير والاستعمار ص ٦٨-٦٩.

٢ انظر الميداني : المصدر السابق ص ٦٦-٧١.

مخططاتها لتحويل الموءسسات التعليمية عما كانت عليه ، وتبدأ بمطاردة المعلمين المسلمين بابعادهم عن هذه الموءسسات ، وتصفية وجودهم حتى لا يكون لهم تأثير اسلامي في الأجيال الناشئة ، وقد تصل تصفية المدرسين المسلمين الى مستوى التصفية الجسدية من المجتمع كله ، بالقتل أو التشريد أو السجن الطويل أو اتلاف طاقات العمل في الانسان ٠

المبحث الرابع : طرق العلاج :

(١) تعميق المفهوم الاسلامي للتربية والتعليم :

ان الاسلام يمنح الانسان نظام حياة كاملا مفصلا في القرآن والسنة ، لذلك فان الانسان اذا اتبع هذا النظام بفهم سليم ،وصورة صحيحة ، يكون جديرا بأن يكون خليفة الله في الأرض ، ولأن وجود الانسان كخليفة الله في الأرض يحتاج الى وعي بحقيقة وجوده فانه يحتاج الى تربية ينشأ عليها منذ طفولته في البيت ، والمجتمع الذي يعيش فيه وان تكون هذه التربية شاملة لكيانه كله ، روحه وعقله ، وخياله ، وحواسه غير مقتصرة على جانب واحد منها ولا مهملة لجانب من الجوانب [١] .

ثم ان إيمان الانسان بهذا لنظام ، وسلوكه وفقا لهذا الايمان ، لايمكن أن يتم الا اذا كانت تربيته قادرة على أن تجعل حياته الروحية مسيطرة على الجوانب الأخرى من ذاته ، لأنها هي وحدها التي يمكن أن تتلقى الايمان وتقويه ، وتنمي في الانسان قوة الارادة وتهديه لصالح الأعمال [٢] .

ونظرا لأن التصنيف الغربي للمعارف ، الذي يهيمن على الأنظمة التربوية الحديثة المتبعة في البلاد الاسلامية ، قائم على مفهوم علماني – لا ديني – متجاهل لما يراه الاسلام ضروريا ، ويعتقد أن تنمية شخصية الانسان يمكن أن تتم بتربية عواطفه وخياله وعقله ، بتعليم العلوم الطبيعية والتطبيقية ، والعلوم الاجتماعية والانسانية فحسب ، وحيث أن البلاد الاسلامية بعد استغلالها عن سلطان المستعمر ، لم تستبدل المفاهيم المضادة للاسلام بمفاهيم اسلامية ، فانه من الضروري اعادة النظر في تصنيف المعارف وتنظيم التعليم المنهجي كله على آساس جديد وقيم جديدة غير التي بنيت عليها هذه المعارف [٣] .

ان اعادة النظر في تصنيف المعارف على أسس اسلامية صحيحة تتطلب من القائمين على تنظيم العملية التعليمية مراعاة مايلي :

١،٢ انظر ديباجة توصيات اللجنة الأولى للموءتمر الأول للتعليم الاسلامي المنعقد بمكة المكرمة سنة ١٣٩٧هـ .

٣ انظر توصيات اللجنة الأولى من الموءتمر المذكور .

(١) أن يكون الهدف من التربية تنمية الذات الانسانية بكاملها تنمية متوازنة ويتحقق ذلك بتربية روحه وعقله وفكره وحواسه الجسدية ، وعلى هذه التربية أن تجعل الايمان متغلغلا في كل جوانب شخصيته ، وأن تبعث في وجدانه حب الاسلام والتعلق بـــــه ، وتمكنه من اتباع القرآن والسنة وتحكيم المعايير الاسلامية في كافة جوانب حياته ،برغبة صادقة ، واقبال نابع من مخالطة بشاشة الايمان قلبه ، حتى يحقق في ذات نفسه المكانة التي هيأها الله له بوصفه الخليقة الذي وعده الله بتسخير مافي هذا الكون لصالحه [1].

(٢) ينبغي أن يكون التخطيط التربوي قائما على تصنيف للمعارف يجعلها تندرج تحت نوعين من المعرفة [2] :

أ ـ المعرفة المستمدة من الوحي ـ القرآن والسنة واجماع المسلمين ـ والعلوم المتفرعة عن هذه الأصول .

ب ـ المعرفة المكتسبة التي تتعرض في طبيعتها للنمو والتعدد الكمي والكيفي، وقدر من التبدل والتأثر بين شتى الثقافات بشرط أن تكون موافقة للشريعـة التي ينبغي أن تظل مصدر القيم والمعايير كلها .

(٣) على التربية المنشودة أن تغرس التقوى في النفوس ، بتقديم القاعدة والمثال مـــعا ، وأن تحث على الطهارة ، لكي يكون ذلك أداة للمسلم لكشف أسرار الكون ، ولكي يفتح قلبه لحب الله ومخافته ، وتقدير الله حق قدره .

(٤) ينبغي على هذه التربية أن تزود الانسان بالدوافع التي تمكنه من التحكـم في نفسه ، وفي الكون كعبد حقيقي لله وحده ، لا بالتصارع مع الطبيعة ، ولكن عن طريق فهم السنن الربانية التي أودعها الله فيها ، وبالتالي تسخيرها من أجل تنمية شخصيـة انسانية متناسقة مع الطبيعة.

(٥) ينبغي أن يكون هناك قدر من المعرفة الأساسية يفرض على كل مسلم تعلمــــه وتحقيقا لهذا الهدف ، ينبغي تكوين فريق من الخبراء لصياغة المعارف الأساسية علـــى

---

١ انظر غزو في الصميم ص ٢٧٨.

٢ انظر أزمة التعليم المعاصر ص ١٠٥-١٠٦.

أساس المفاهيم والقيم الاسلامية وأن تتناسب ومستويات المراحل التعليمية المختلفة ، مع توفير التعليم الابتدائي المجاني لجميع الأطفال لضمان وصول الحد الأدنى من المعرفة لكافة أبناء المسلمين في العالم الاسلامي .

(٦) الاحتفاظ بنظام الكتاتيب في الأماكن التي لم يندرس فيها هذا النظام — كما في المغرب وموريتانيا — وتحسين أوضاعها فيها ، والرجوع الى نظام الكتاتيب في البلاد التي اندرس فيها هذا النظام وجعله أساسا للمدارس الابتدائية ، وتهيئة الوسائل اللازمة للقيام بهذه المهمة بصورة فعالة ، وضرورة العناية بالقرآن الكريم والحديث الشريف حفظا وتفسيرا واعتبارهما مادتين أساسيتين في جميع مراحل التعليم ، مع الاستفادة من نظم وأهداف التربية الحديثة عند الأخذ منهما [١] .

(٧) لا تكون التربية — عند التخطيط والتنفيذ — اسلامية الطابع مالم تكن من ورائها الدولة ، تعتمد نظام الاسلام وتتبناه ، ولذلك فان جميع البلاد التي يشكل فيها المسلمون الكثرة ، مدعوة الى اعتماد الشريعة الاسلامية منهجا لأنظمتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتشريعية وفق نظام الاسلام المعتمد على القرآن والسنة ، ومايستنبط منهما ، فتتضافر البيئة المحيطة بالموءسسات التعليمية مع أسس التخطيط للتربية والتعليم ، ويسيران في اتجاه واحد نحو بناء المجتمع المسلم وفق منهج الله القويم [٢] .

(٢) <u>صياغة المناهج وفق تعاليم الاسلام</u>

<u>مفهوم المنهج</u> :

في ظل التطورات العلمية والاجتماعية تطور مفهوم التربية ، وتطور بالتالي مفهوم المنهج المدرسي ، فلم تعد التربية تعليما ومعرفة ، ولم يعد المنهج كتابا يقرأ ونصوصا تحفظ أو تفهم ، وانما أصبحت التربية تعنى بناء المواطن الصالح بناء

---

١ انظر ديباجة اللجنة الأولى للمؤتمر الأول للتعليم الإسلامي المنعقد بمكة ١٣٩٧هـ .

٢ انظر توصيات اللجنة الأولى من المؤتمر المذكور .

يتناول شخصيته من جميع جوانبها البدنية والنفسية والروحية والعقلية والاجتماعية، بناء يؤهله للتأثير فيما حوله والتكيف معه، ويؤهله للعطاء والانتاج بقدر مايؤهله للبحث والافادة المستمرة ، وفي ظل هذا المفهوم الجديد للتربية أصبح المنهج الدراسي يعنى كل الوسائل التي تساعد على نجاح التربية في بناء ذلك الانسان وهذا المواطن ، ويعني كذلك مجموع الخبرات العلمية والعملية والأخلاقية والسلوكية ، والروحية، التي تجعل الفرد مواطنا فعالا في مجتمع متكامل متكافل ، يقوم قبل كل شئ على العمل والسلوك لا على الألفاظ والخطب [1] .

أهمية المنهج وبناؤه :

ومادمنا نتحدث عن التربية الاسلامية والتعليم ، فلابد أن يكون المنهج الدراسي في ظل هذه التربية منهجا اسلاميا ، والمنهج الاسلامي بما فيه من شريعة وعقيدة وايمان وعمل ، هو المنهج الوحيد الذي يتمشى ويتفق مع ماوصلت اليه التربية بمفاهيمها الحديثة .

ان المنهج الاسلامي يسعى لبناء الانسان بناء صحيحا متوازنا تتحدد فيه علاقاته مع ربه ، ومع نفسه وأهله ، ومع الناس، ومع سائر الكائنات ، ومادام أن التربية الحديثة والمنهج الحديث يسعيان الى تحقيق نفس أهداف المنهج الاسلامي لبناء الانسان فلابد أن يقوم المنهج المدرسي في ظل التربية على أسس اسلامية يستنير من هذه الأسس ويسعى نحو ترسيخ تلك الأسس ، وتثبت قواعدها ايمانا بأن المنهج الدراسي القائم على الأسس الاسلامية هو أمثل الأساليب في بناء الانسان الصالح [2] .

ويمكن تلخيص المنهج الدراسي الواجب اتباعه في البنود التالية [3] :

الأول : ضرورة الأخذ بوحدة المعرفة وترابط موادها، وربطها بالحياة والغاء الحواجز المصطنعة بين علوم الدين الاسلامي وبعض العلوم الأخرى المكتسبة بالوسائل

---

١ انظر المبادئ التربوية في الاسلام ص ٤٤٠ .
٢ انظر نفس المصدر ص ٤٤١ .
٣ انظر غزو في الصميم ص ٢٥٣-٢٥٥ .

ووضع الوسائل الكفيلة لزيادة معارفهم الاسلامية لتمكينهم من صبغ هـــذه العلوم بصبغة اسلامية .

(ج) ضرورة البدء في اختيار وإعداد طبعات منقحة لكتب التراث الاسلامي المتصلة بكل فرع من فروع العلوم الاجتماعية ، تكون نواة لوضع موسوعة العـلـوم الاجتماعية الاسلامية تكون مرجعا لكل الباحثين والمهتمين بدراسة العلوم الاجتماعية .

خامسا : <u>في مجال العلوم التطبيقية</u> :

إن هدف تدريس العلوم الطبيعية (البحتة والتطبيقية) هو حث الانسان على التبصر والتفكر في الكون وفي طبيعة المخلوقات واكتشاف سنن الله في الكون ، واستخدامهـا في عمران الحياة على الأرض والقيام بواجبات خلافة الله عز وجل فيها ، والتعرف على قدرته مما يحقق عبودية الانسان لله تعالى ،ولذا كانت دراسة هذه العلوم في نظر الاسلام لا تقل أهمية عن دراسة العلوم الشرعية والعلوم الانسانية ،ومن ثمّ واجب صياغتها بتصور إسلامي يؤدي إلى تكوين الشخصية الاسلامية المتكاملة ، حيث أنه لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الاسلام وأيّ حقيقة علمية تؤكد قدرة الخالق وعظمته [1] .

لذلك يجب أن تضم مناهج التعليم في العالم الاسلامي في كافة مراحلها تدريـس تاريخ العلوم والمعرفة لدى المسلمين ، ودورهم في تطوير هذه العلوم علمياواجتماعيا ومنجزاتهم العلمية في كل منها ، وأهمية ماقدموه للفكر البشري في المجال العلمـي، وتوكيد الحقيقة التاريخية من أن المسلمين هم الذين قدموا للبشرية المنهج التجريبي في البحث العلمي ، وأن النهضة العلمية الأوربية قد قامت على أساس منهج المسلمين في البحث ، وعلى العلوم الاسلامية وخاصة في الطب والفلك والفيزياة والكيميـاء والرياضيات مع التركيز بصفة خاصة على أسباب نمو العلوم في عصر النهضة الاسلاميـة

---

١ انظر ديباجة توصيات اللجنة الثالثة من الحلقة الثانية للمؤتمر الأول للتعليم الاسلامي بمكة سنة ١٣٩٧هـ .

الانسانية . والعمل على وضع مناهج قائمة على تدريس علوم الدين الاسلامي والعلوم الأخرى دون أن يكون بينها أيّ تناقض ، كما هو واقع الحال الثابت في كل منهما حاليا .

الثاني : ينبغي تصفية مايقدم من علوم كونية في المناهج الدراسية من الأفكار والمذاهب المتعارضة والمصادمة للحقائق الثابتة في الاسلام ، علما بأن هذه الأفكار والمذاهب المصادمة للحقائق الاسلامية هي من قبيل الفرضيات التي ليس لها قيمة علمية ، أو هي من قبيل النظريات القابلة للتعديل والتبديل .

الثالث : ينبغي تقديم العلوم الاسلامية مدعمة بأداتها الشرعية المعتمدة عند علماء المسلمين وبما لدى الفكر والحس والعلوم المكتسبة بالوسائل الانسانية التجريبية والاستنباطية من تدعيم لها .

الرابع : في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية يلاحظ أن العلوم التي تدرس في جامعات البلاد الاسلامية في أغلب الأحيان صورة مكررة بما يجري عليه الحال في الجامعات الأوربية والأمريكية ، فالمدرسون يدرسون بأسلوب غربي ولا يتلقون تدريبا اضافيا في مجال الاسلاميات بعد أن يكونوا قد تشبعوا بالآراء والنظريات الغربية ، والكتب الدراسية إما أنها هي ذاتها التي تستخدم في الجامعات الغربية أو أنها ترجمة لها أو اقتباس عنها بطريقة سطحية قصد بها تقديم أفكار غربية في ثوب اسلامي ، وقد أدى هذا الوضع إلى إبعاد الشباب المسلم عن ثقافتهم وعن مجتمعهم ، ولأن الخطر مازال قائما فانه من الضروري مراعاة مايلي :

أ ـ إعداد دراسات شاملة لجميع المؤلفات الاسلامية وغير الاسلامية في مجال العلوم الاجتماعية وعمل تحليل ومقارنة بينها بغية إعادة صياغتها وصبغها بالصفة الاسلامية ورفض الترقيع أو التصرف السطحي .

ب ـ اعادة النظر في الكوادر التي تقوم بتدريس العلوم الاجتماعية التي تشمل العلوم السياسية وعلم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والعلوم الانسانية الأخرى مثل الفلسفة وعلم النفس وعلم الانسان (الانثروبولوجيا)

وأسباب تخلفها فيما بعد ، وحث الطلاب على استعادة الروح العلمية التي كانت لأجدادهم وقت الازدهار [١] .

سادسا : <u>في مجال العلوم التطبيقية</u> :

يعتقد العلماء في الغرب أن العلوم التجريبية ، هي علوم محايدة ومجردة لا صلة بينها وبين الأديان ، لذلك فقد أحدثوا بينهما جفوة مفتعلة مما جعل دارس العلوم التطبيقية والقائمين على أمرها سواء في الغرب أو الشرق الاسلامي لا يعيرون التفاتا لكل ما لا يثبت تجريبيا ، لذلك فانه يجب على المسلمين السعي لجعل العلوم التطبيقية مرتبطة بالاسلام ووضعها تحت المظلة الاسلامية وذلك باعادة صياغة العلوم التجريبية صياغة اسلامية تربطها بالعقيدة وتعمق الوجدان عند الدارسين وتشعرهم بعظمة الخالق وقدرته المعجزة بما يحقق قوله تعالى : (إنّما يخشى الله من عباده العلماء) ويزيل تلك الفرقة المصطنعة بين الدراسات الشرعية عند البعض من ناحية والعلوم البحتة من ناحية أخرى ، تلك الفرقة التي سرت إلينا من اتخاذ المناهج اللاإسلامية في تدريس تلك المواد [٢] .

ثم إنه يجب التنبه إلى ضرورة تنقية مناهج تلك العلوم وكتبها المقررة ، مما يندس في ثناياها من أفكار واتجاهات تصادم العقيدة الاسلامية ، أو تخالف التصور الاسلامي الصحيح ، وضرورة الفصل بين الحقائق العلمية النهائية - وليس فيها ما يخالف العقيدة - وبين الفروض والنظريات العلمية التي لم تثبت نهائيا والتي قد تحتوي على مقررات مخالفة لمقررات العقيدة الاسلامية [٣] .

كما أنه من جانب آخر يجب التنبه الى خطورة الربط بين الاشارات الكونية في

---

١ انظر المادة ٤/٥ من توصيات المؤتمر الأول للتعليم الاسلامي بمكة سنة ٩٧هـ .

٢ انظر المادة ٤/٤ من توصيات المؤتمر الأول للتعليم الاسلامي بمكة وانظر غزو في الصميم ص ٢٦٧ .

٣ انظر غزو في الصميم ص ٢٦٧-٢٦٨ .

القرآن الكريم ، وبين الفروض العلمية الحديثة [1] ، إلا ماثبت منها نهائيا على أنه حقيقة علمية ، إذ أن الربط بينهما لا يخدم القرآن في الحقيقة وبثير بلبلة فكرية وعقدية حين يثبت خطأ بعض هذه الفروض والنظريات .

ثم إنه من الأمور الهامة التي يجب أن لا تغيب عن أذهان المهتمين بشئون المناهج وأمور التربية ، أهمية تدريس العلوم الشرعية والانسانية لطلاب العلوم البحتة والتطبيقية إلى جانب المواد الأساسية لهذه التخصصات وقد أثبتت دروس مادة الثقافة الاسلامية الى جانب العلوم البحتة نجاحها في بعض البلاد الاسلامية كالمملكة العربية السعودية .

(٣) إعداد المعلم إعداداً إسلامياً :

يعتبر المعلم ركنا أساسيا من أركان التعليم المنهجي ، بل يعتبر أخطر ركن فيه ، وأيّ تعليم يهتم بتحقيق سياسة تعليمية معينة ، فان عليه أن يختار المعلمين بعناية فائقة أو يعدهم إعداداً مناسباً يتفق والأهداف المطلوب تحقيقها ، وعليه بعد الاعداد أو الاختيار أن يضعهم تحت الملاحظة والمراقبة الدقيقة للتأكد من مدى أهليتهم للمهمة المنوطة بهم .

إن الخطورة تمكن في أن عمل المعلم يعطيه فرصة عظيمة لتكييف طلابه ، فكريا ، وعقديا ، ونفسيا ،وعاطفيا ، وسلوكيا كما يريد ضمن إمكانات التأثير التربوي والتعليمي على الناشئين مع ملاحظة إختلاف الخصائص الفكرية والنفسية والطبيعية والجسدية بين الأفراد [1] .

ثم إن الثابت بداهة وعلمياً أن لكل إنسان مقدار من الخصائص الفطرية واستعداد ما للتكيف بالوسائل التربوية والتعليمية ، وهذه توجد بنسب متفاوتة تختلف اختلافا كبيرا بين الأفراد وعمل المعلم يقدم للمربين أحسن الفرص لتأدية المهمات التربوية في في صناعة الأجيال [2] .

---

١ انظر غزو في الصميم ص ٦٣.
٢ انظرنفس المصدر ص ٦٣-٦٤.

صحيح أن المربين ـ المعلمين ـ ولو اجتمعوا ، لا يستطيعون أن يصبوا الأجيال الناشئة في قوالب متماثلة ، لاختلاف الخصائص بين الأفراد ، لكنهم يستطيعون أن يصبوهم في قوالب متعددة فيما بينها ، ومتفاوتة في صفاتهم ، لكن سماتهم العامة متشابهة ، وهذا أقصى مايمكن أن يحققه المربون .

إن المعلم المؤهل بفطرته ومكتسباته ، للقيام بمهمات التربية والتعليم يستطيع أن يكون كل شئ في العملية التعليمية التربوية :

فلو كانت السياسة التعليمية المقررة والمعلنة هي أحسن أو أسوأ سياسة تعليمية وكانت الخطة الدراسية والمناهج المقررة ملتزمة بهدي السياسة التعليمية ، وكان الكتاب الموضوع المختار أحسن كتاب ملتزم بالمنهاج والخطة الدراسية والسياسة التعليمية ، فان المدرس المؤهل يستطيع أن يجمد تأثير الكتاب والمنهاج والخطة التعليمية ، ويعطي مؤثرات أخرى لها آثار مضادة لأهداف السياسة التعليمية المعلنة إذا كانت له أهداف مضادة [1] .

فالمدرس المؤهل إذا كان ملحدا شيوعيا ، فانه يستطيع أن يخرج طلابا ملاحدة شيوعيين من مدرسة إسلامية في سياستها التعليمية وخطتها الدراسية ومناهجها وكتبها المقررة . إنه بتأثيره الشخصي ، وعلاقاته مع طلابه وجاذبيته ، ومجالسه الخاصة معهم خارج نطاق الفصل الدراسي ، ومايبثه من أفكار وآراء بثا عرضيا داخل قاعة الدرس وخارجه يستطيع أن يحول اتجاهات الطلاب المتأثرين به ، ويدعوهم إلى اعتناق الفكر الذي يؤمن به [2] .

وكذلك يفعل المدرس المؤهل ، ذو الاتجاه القومي أو العلماني أو المستهين بالقيم الدينية والأخلاقية ... الخ .

وفي المقابل يستطيع المدرس الاسلامي ، المؤهل تأهيلا كافيا أن يفعل داخل مدرسة غير اسلامية مايحقق أهدافه المضادة لأهداف المدرسة ، فيؤثر فيها على مجموعة

١ انظر غزو في الصميم ص ٦٤ .
٢ انظر نفس المصدر ونفس المكان .

من الطلبة حتى يكونوا إسلاميين فكرا وعقيدة وسلوكا ، مع أن المفروض بحسب سياستها التعليمية أن يكونوا معادين للاسلام والمسلمين [١] .

ومن أجل ذلك يهتم المربون بتوجيه النصائح والتعليمات المشددة للعناية باختيار المدرسين المؤمنين بأهداف السياسة التعليمية ،والمؤهلين لتحقيقها في الواقع العملي أو انتقاء ذوي الاستعداد للقيام بهذه المهمة وتأهيلهم التأهيل اللائق لأداء الرسالة المنوطة بهم .

إن العالم أجمع يدرك أن المدرس هو العنصر الأساسي في النظام التعليمي ، وهذا يتفق تماما مع نظرة التعليم الاسلامي والذي يجعل للمدرس مكانه اللائق فالعلماء في الاسلام هم ورثة الأنبياء ، وهم الذين يحملون مشعل النور والهداية والاصلاح للفرد والمجتمع عن طريق نشر العلم والمعرفة والتوجيه التربوي [٢] .

فالمدرس في المجتمع المسلم ليس مجرد صاحب مهنة أو وظيفة ، وإنما هو داعية وصاحب رسالة ،ولذلك فان عمله لا يتوقف على حصوله على الشهادات العلمية والمؤهلات الفنية فحسب ،وإنما يعتمد أيضا وفي الدرجة الأولى على إيمانه بعقيدته وسلوكه المتماثل معها ، ولا تقتصر وظيفة المدرس على التدريس وإلقاء المعلومات على طلابه فقط ، وإنما يتجاوز ذلك فيسهم المدرس في توجيه المجتمع وتنشئة الأجيال ووضع اللبنات الصحيحة لمجتمع الغد ، لذلك فلابد من مراعاة هذا الدور الأساسي المناط بالمدرس تحقيقه عند وضع السياسات في مجال التعليم وخاصة عند وضع أسس تعيين المدرسين، وكذلك يجب دعم المدرس بعد التعيين لتمكينه من أداء رسالته الحيوية في خلق وبناء المجتمع المسلم [٣] .

وهناك وسائل عديدة يمكن مراعاتها للوصول الى هذه الغاية منها :

---

١ انظر غزو في الصميم ص ٦٤.
٢ انظرتوصيات اللجنة السادسة للمؤتمرالتعليمي الأول للتعليم الاسلامي المنعقد بمكة المكرمة في سنة ١٣٩٧هـ (ديباجة القرارات).
٣ انظر توصيات اللجنة السادسة للمؤتمر المذكور ـ الحلقة الثانية منها .

(١) تهيئة أماكن تدريب المعلمين تهيئة مميزة لتحقيق الدور المنوط بها ، ومن الأمور التي يمكن أن تساعد معاهد تدريب المعلمين في تحقيق أهدافها مايلي :

أ ـ أن تبذل هذه المعاهد مجهودات هادفة في أوساط المدارس التي تمرها بالطلاب وذلك باجتذاب العناصر المناسبة التي يمكن تشجيعها وحفزها للانخراط في التدريس كمهنة ذات رسالة تترسم خطى الأنبياء [١] .

ب ـ أن تكون معايير اختيار الطلاب على أساس التزامهم بالتعاليم الاسلامية وبقدراتهم العقلية ، ومدى تحصيلهم الدراسي وحالتهم الصحية [٢] .

جـ ـ أن تتخذ جميع المناهج ـ في معاهد اعداد المعلمين ـ الاسلام كأساس لها ـ تتقيد بتعاليمه ومنهجه وأسسه ـ مع استخدام خير ماتقدمه الطرق والمناهج الحديثة في نطاق الاسلام [٣] .

د ـ أن تكون سائر النشاطات والعلاقات والتنظيمات الداخلية في معاهد وكليات اعداد المعلمين مشبعة بالجو الاسلامي [٤] .

(٢) أما الوسائل التي يمكن اتباعها لرفع مستوى المعلمين ، وتمكينهم من أداء السياسة التعليمية الاسلامية فيمكن ذكر بعضها على النحو التالي :

أ ـ أن يعترف المسئولون في الدول الاسلامية بالدور الهام للمعلم كرائد ومرشد للأجيال على مر الزمن ، واستثناء المعلمين من أنظمة الخدمة المدنية في كل دولة ، ومنحهم رواتب مجزية تشعر المعلمين بأهمية الدور الذي يقومون به تجاه بناء لبنات المجتمع الأساسية . فالمعلم هو الأساس في تعليم وتخريج الأطباء والمهندسين وغيرهم من فئات وطبقات المتعلمين ، وبما أن مهمة المعلم هي بناء الانسان الصالح الذي يقوم عليه المجتمع الصالح ، فانه يجب

---

١ انظر توصيات اللجنة السادسة للمؤتمر الاسلامي الأول رقم ١/١٠
٢ انظر التوصيات السابقة رقم ١/٢٠
٣ انظر التوصيات السابقة رقم ١/٤٠
٤ انظر التوصيات السابقة رقم ٢/٤٠

أن يقدم المعلم على الطبيب والمهندس وباقي التخصصات والمهن الفنيـة لأن الطبيب يقوم بالعلاج وكذلك المهندس يقدم خدمة في نفس المستوى ، أمـا المدرس فهو مصدر الوقاية لأمراض الروح والعقل والجسد ،ومهما بالغ المجتمع والدولة في تقدير المعلم فلن يوفوه حقه . أما إهمال المعلم ودوره الذي يجب أن يقوم به فانه ينعكس على المجتمع في شكل أمراض اجتماعية فتاكـة ، ولا أحد من فئات المجتمع الأخرى يستطيع علاج الأمراض الاجتماعية الناشئة عن ضعف التربية والتوجيه أو الانحطاط الخلقي الناتج عن ضعف الوازع الدينـي، والوحيد الذي يستطيع أن يسد هذه الثغرة بكفاءة وجدارة هو المعلم المؤهل تأهيلا إسلاميًا وعلميًا عاليًا ، لذا يجب الاهتمام بالمعلم وإكرامه ووضعـه الموضع اللائق لمهمته ووظيفته ولوضعه الذي يجب أن يكون عليه في المجتمع .

لقد تحطمت اليابان تحطما كاملا في الحرب العالمية الثانية ،ودكت قنابل الحلفاء معالم المدن الرئيسية فيها مثل طوكيو وهيروشيما ونجازاكي ، ثم احتلت الجيـوش الأمريكية أرض اليابان ، وكان أمام اليابان طريقان : طريق المقاومة المباشرة للمستعمر كما حدث في أكثر دول العالم المستعمرة ، وطريق آخر غير مباشر وهو بناء الشعـب الياباني من جديد لمواجهة الوضع الجديد. وقد إختارت الطريق الآخر طريق المقاومـة غير المباشرة [١] .

لقد تجاهلت اليابان وجود الاحتلال الأمريكي تجاهلا تاما ،وركزت على بناء الوطن من جديد ، وزادت من أهمية التعليم حتى أعطت المدرسين مرتبات الوزراء ، ومَنَحَتْهُم صلاحيات وكلاء النيابة ، وكانت النتيجة أن أصبحت اليابان في عقدين من الزمان ، بلـدا من أكثر بلاد العالم تقدما في التعليم . واليابان لا توجد فيها مناجم الحديد ، ولكن الشعب الذي قد تعلم لم يعد يضيع قطعة واحدة من حديد شفرة حلاقة أو مسمار مكسـور.

---

١ انظر وحيد الدين خان – الاسلام والعصر الحديث ص ٥١ – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ طبعة المختار الاسلامي بالقاهرة .

فكل قطعة حديد تأخذ طريقها نحو المصنع لكي تظهر في صورة جديدة نافعة . وساد البناء قدما بطريقة منظمة حتى أصبحت المدن المحطمة من أكبر مراكز الصناعة والتجارة في العالم ،وتقدمت الصناعة والعلم والتكنولوجيا حتى أصبحت منتجات اليابان تنافس المصنوعات الأمريكية في أمريكا نفسها [1] .

إن نموذج اليابان وظروفها مماثلة لنفس الظروف التي مرت وتمر بها كثير من البلدان العربية والاسلامية ، فبينما تمكن اليابانيون من النهوض ، والوقوف على أرض صلبة ، ظل المسلمون عاجزين عن النهوض ، وصارت مجتمعاتهم مجتمعات استهلاكية لكل ماينتجه الشرق والغرب من آلات وأفكار . ان هناك شيئا واحدا يمكن أن يجعل للمسلمين مكانا مرموقا بين الأمم ، وذلك هو أن يهتم المسلمون بالمعلم ، وباعداده ووضعه في المركز اللائق بمهمته ووظيفته ، وإلا نفعل ، يظل الركود والسكون والتأخر والاعتماد على الغير هو الديدن والحال الملازم .

(٤) تعليم المرأة وفق تعاليم الاسلام :

إن بعض البلاد قد أقامت نظما مختلطة للتعليم ، وعلمت المرأة على مناهج موضوعة في الأصل لتناسب طبيعة الرجل واحتياجاته ، متجاهلة طبيعة المرأة ووظيفتها الانسانية والاجتماعية ، وقد ظهرت نتائج تلك النظم في مجتمعاتها من فساد خلقي ، وتفسخ في الأسرة ونقص في رعاية النشئ وتشرد الأجيال الناشئة ،وجنوحها الى الاجرام والشذوذ مما يأباه الاسلام وتنفر منه الفطرة السوية .

ولهذا فان تعليم المرأة يجب أن يحقق مايهدف إليه الاسلام من المحافظة على الفطرة السوية والمحافظة على الاسرة الفاضلة مع الحرص على نشر التعليم بين النساء على أوسع نطاق لأن طلب العلم فريضة على كافة المسلمين رجالا ونساء .

وفيما يلي نذكر بعض الأمور التي يجب مراعاتها عند التخطيط لتعليم النبات [2] :

---

١ انظر وحيد الدين خان ـ المصدر السابق ص ٥٢
٢ انظر توصيات اللجنة السابعة الحلقة الثانية للموءتمر الأول للتعليم الاسلامي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٧هـ . وانظر غزو في الصميم ص ٣١٨-٣١٩ .

(١) إعتبار رسالة المرأة رعاية البيت ومن فيه تحقيقا لقول نبي الهدى صلى الله عليه وسلم "والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها"، ورسالة عبادة لقوله تعالى : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) .

(٢) يجب أن يهدف تعليم المرأة إلى تعلمها لأحكام دينها ، وتربية أولادها، وتثقيفهم على ضوء الاسلام ،ورعاية بيتها وزوجها واطلاعها على مجتمعها بحيث تكون عارفة بتطوراته ، خبيرة باتجاهاته ، وأن تؤدي الرسالة الاجتماعية المنوطة بها في محيطها النسائي مثل التعليم والطب والتمريض والتوجيه الاجتماعي .

(٣) السعي إلى جعل القرآن محور العملية التعليمية بحيث تتلقى العلوم كلها من خلاله ، والعمل على حفظه كله أو جله في المراحل الأولى من دراستها .

(٤) مراعاة طبيعة المرأة في التدريس بحيث يراعى تخصصها بتدريس المواد التربوية والنفسية بالطفل ، وتدريس الثقافة الاسلامية بحيث تكون الآيات والأحاديث والأحكام المتعلقة بالمرأة المسلمة في متناولها ،وتدريس التربية الفنية والنسوية .

(٥) يراعى في تخصيص المرأة في المرحلة الجامعية ، مايناسب رسالتها مثل فروع الاقتصاد والعلوم المنزلية والعلوم الطبيعية والآداب والتربية والعلوم الدينية والطب والخدمة الاجتماعية في محيط المرأة .

(٦) حيث أن الاختلاط لا علاقة له بالتقدم العلمي والتكنولوجي ،ومن خلال شهادات الغربيين أنفسهم [1] ، وبما أن الاسلام يرفض الاختلاط أصلا ، فان من الخير للأمة كافة أن يفصل بين الجنسين في قاعات العلم ، وأماكن العمل ، وأن يكون الفصل من المبادىء الأساسية في جميع مراحل التعليم .

---

١ وقد اتضح من كتابات المهتمين بشئون المرأة في العالم العربي والاسلامي أن الدعوة الى الاختلاط مخطط صهيوني صليبي الغرض الأساسي منها افساد المرأة بصفة عامة وافساد المرأة المسلمة بصفة خاصة ، وعن طريق هذا المخطط استطاع اليهود ادارة شبكات التجسس على رؤساء الدول والسياسيين لارغامهم على تنفيذ مآربهم .

(٧) بالنسبة لنقص المدرسات في المرحلة الجامعية فيمكن التغلب عليه ، بأن يقوم المدرسون في جامعات البنات عن طريق دوائر التلفزيون المغلق ، لسد النقص كما هو مطبق بنجاح في كليات البنات وجامعات السعودية ٠

(٨) ونظرا لاختلاف رسالة المرأة عن رسالة الرجل في الحياة ، ولاختلاف وسائل تحقيقها فان الاشراف على تعليم المرأة يجب أن يكون مستقلا استقلالا كاملا ، وهذا من شأنه زيادة الاهتمام بتعليم البنات وإجراء البحوث والدراسات في هذا المجال الحيوي ٠ وقد ثبت نجاح فصل إدارة التعليم العام عن تعليم البنات في المملكة العربية السعودية ٠

الفصل الثالث

بناء الشخصية السوية من خلال المسجد

المبحث الأول : مفهوم المسجد ومكانته :

١- مفهوم كلمة مسجد في اللغة والشرع :

أولا : المفهوم اللغوي :

يطلق لفظ "مسجد" بالفتح والكسر[١] ، وله في المفهوم اللغوي عدة معان نختار منها مايلي :

أ ـ موضع السجود في الأرض[٢] .

ب ـ بيت الصلاة المتخذ لجماعة المسلمين ، ومحراب الصلاة المتخذ في بيوت المسلمين[٣] .

جـ ـ ندب السجود أي : علامته وأثره الذي يصيب جبهة المسلم[٤] .

د ـ المساجد من بدن الانسان : الأعضاء التي يسجد عليها وهي الجبهة والأنف واليدان والركبتان والقدمان[٥] .

ثانيا : المفهوم الشرعي :

للمسجد مفهومان في الشرع : خاص وعام[٦] .

ففي المفهوم العام يراد بها الأرض كلها[٧] ، ويمكن استنباط شمولية الاسلام وعموم دعوته من هذا المعنى[٨] .أما المفهوم الخاص فيراد به المسجد ذو البناء

---

١ نقل ابن منظور عن ابن الاعرابي (ت ٢٣٠هـ) أنه فرق بين المسجِد والمسجَد في المعنى وقال : المسجِد في الكسر محراب البيوت ـ أي المصلى الذي يتخذه الناس في بيوتهم . والثاني وهو المسجَد بالفتح ، مصلى الجماعات والمساجد جمعها . انظر لسان العرب مج ٢٠/٣ . وذكر الزركشي لغة ثالثة نقلا عن أبي جعفر الصقلي وهي مَسيد بفتح الميم وقال : "حكاه غير واحد، فتحصلنا على ثلاث لغات ، وهذه اللغة الأخيرة هي المشهورة في استعمال أهل السودان خاصة أهل الشمال منه ـ انظر الزركشي ص ٢٦-٢٧.

٢ انظرالزركشي : بدرالدين بن محمد بن عبدالله الزركشي : اعلام المساجد باحكام المساجد ص ٢٦ ، تحقيق أبو وفاء مصطفى المراغي ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٥هـ .

٣ انظر ابن منظور: محمدبن مكرم بن منظور الافريقي، لسان العرب مج٣/٢٠٤ ط دار صادر بيروت ١٣٧٤.

٤ المصدر السابق مج ٢٠٤/٣.

٥ انظر القاموس الفقهي لغة واصطلاحا ، سعدى أبوحبيب ص ١٦٧ ،ط دار الفكر ط أولى ١٤٠٢هـ دمشق .

٦ وهو في هذا يماثل كلمة "العبادة" فان لها مفهوما عاما هو كل عمل صالح يقوم به المسلم ومفهوما خاصا هو الشعائر التعبدية المعروفة بالأركان الخمسة.

٧ ويستثني المواضع التي نهى الشارع الحكيم كراهة الصلاة فيها كالمجزرة والحمام ،والمقبرة وأعطان الابل، والأرض المغصوبة ،وقارعة الطريق(انظر ابن قدامة الحنبلي: عبد الله بن احمد المقدسي، المغني على مختصر الخرقي ج ٦٧/٢-٦٨ ط مكتبة الرياض الحديثة سنة ١٤٠١هـ .

٨ اضافة الى النصوص الصريحة في شمولية الاسلام لكافة أهل الأرض .

المعروف لأداء الفروض الخمسة والجمعات وغير ذلك من الوظائف [1] .

٢- مكانة المسجد في الاسلام :

اختار الله تعالى لبيته هذا الاسم المشتق من السجود دون غيره من أركان الصلاة الأخرى ، للدلالة على أهمية المسجد ، فالسجود أهم أركان الصلاة لأنه رمز للخضوع والاستسلام الكامل لله عز وجل [2] ولهذا أصبح المسجد لعباده المخلصين . وقد نوه الله تعالى في كتابه العزيز بالمسجد ، ورفع قدره ومكانته وعظم شأنه ،وأنزل كثيرا من آيات كتابه فيه ، فكان نعم المكان الذي تلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليوم فيه القرآن، لفظا ومعنى منه صلىالله عليه وسلم .

والمسجد هو أحب مكان الله تعالى في أرضه : "أحب البقاع الى الله مساجدها" [3] الحديث ،لذا اختاره سبحانه بيتا له وأضافه الى نفسه ، وأذن تعالى أن يرفع ويذكرفيه اسمه ، فقال تعالى : (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه..) [4] وذلك بعد أن ضرب الله سبحانه مثل نوره في السموات والأرض بمشكاة فيها مصباح ، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : "لما ضرب الله مثل قلب الموءمن ومافيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقدة من زيت طيب كالقنديل مثلا ، ذكر محلها وهو المساجد، التي هي أحب البقاع الى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوت الله التي يعبد فيها ويوحد" [5].
ومعنى قوله تعالى (أذن الله أن ترفع) أي أمر الله بتعاهد المساجد وتطهيرها من الدنس واللغو والأفعال التي لا تليق بمكانتها وقدرها . وعن قتادة في معنى هذه الآية : "هي

---

١ أضيف كلمة "الجامع" نعتا للمساجد التي تقام فيها الجمعة تمييزا لها عن المساجد الأخرى التي هيئت للصلوات الخمس . وقد كتب أمير الموءمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الى ولاة الأمر وأمراء الأجناد بأن يتخذوا للقبائل مسجدا ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة لذا صار لفظ "الجامع" للمساجد الجامعة . انظر السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج ٢٣٨/٢ ط الحلبي بالقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٢ انظر الزركشي : اعلام المساجد بأحكام المساجد ص ٢٨.

٣ من حديث أخرجه مسلم في صحيحه . صحيح مسلم ج١ ص ٤٦٤ ، كتاب المساجد فصل المساجد.

٤ سورة التوبة جزء الآية ٣٦.

٥ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٢٩٢.

المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها"[١] .

وقد أضاف الحق عز وجل المسجد الى اسمه المعظم المقدس ، تشريفا وتعظيما له ، وذلك في قوله تعالى : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ..)[٢] الآية وأمر الله عز وجل عباده المؤمنين أن يفردوه بالعبادة في مساجده وذلك في قوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا)[٣] وفسر ابن كثير هذه الآية بقوله "يقول الله تعالى آمرا عباده أن يوحدوه في محال عبادته ، ولا يدعى معه أحد، ولا يشرك به"[٤] ونقل عن قتادة قوله : "... كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يوحدوه وحده"[٤] فالمساجد في الآية المقصود بها كل مسجد أسس على التقوى لاقامة شعائر الله فيها واخلاص العبادة فيها لله وحده .

وتعظيما لبيوته حكم الله أن لا يدنسها كافر أومشرك يوجه عبادته فيها لغير الله فقال عز من قائل (ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون)[٦] ، إذْ كيف يدخلون مساجد الله أويعمرونها وقد وصفهم الله تعالى بأنهم رجس ، وبيوت الله مطهرة مقدسة ، والحال أنهم قد شهدوا بكفرهم وشركهم[٧] . والله تعالى وحده تكريما لبيوته يختار عمارها بمشيئته ، وهم الجامعون بين الايمان بالله على الوجه الذي بينه في كتابه ،من توحيده واختصاصه بالعبادة ،والتوكل عليه والايمان باليوم الآخر ، واقامة الصلاة المفروضة ،وأداء الزكاة المستحقة ، وخشية الله تعالى في السر والعلانية : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن

---

١ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٢٩٢.
٢ سورة البقرة الآية ١١٤.
٣ سورة الجن الآية رقم ١٨.
٤،٥ تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٤٣١.
٦ سورة التوبة الآية ١٨.
٧ انظر سيد قطب : في ظلال القرآن مج ٤ ص ١٦١٣.

يكونوا من المهتدين)[1] ففي الآية الكريمة ثناء على عمار بيوته سواء كانت عمارتهم لها ببنائها ورفعها وصيانتها أو باقامة الصلاة وذكر الله فيها ، فكلا المعنيين مقصود بالعمارة [2] .

وكما عظم الله تعالى بيوته ورفع من شأنها ، وشرفها وجعلها أحب البقاع اليه سبحانه ، فقد عظمها رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقضى فيها جل وقته ، اماما ومعلما وداعيا الى الله وقاضيا ، وقائدا ، ومن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيوت الله أنه كان يحن إلى المسجد إذا فارقه لسفر أو غزو ، فاذا عاد كان أول مايدخله المسجد بادئا به فيصلي ركعتين [3] .

ومما يدل على عظمة المسجد وجلال قدره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول عمل قام النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة النبوية الى المدينة بناء مسجد قباء وكان ذلك إعلانا منه صلى الله عليه وسلم بأن المسجد هو الأساس الذي تقوم عليه دعوة الاسلام ومجتمعه ودولته ، وقد شارك رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه في بناء أول مساجد الاسلام وهما مسجد قباء ومسجد المدينة [4] .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن أحب مكان لله تعالى في أرضه المساجد فقال : "أحب البلاد الى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها"[5] وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الملائكة يجتمعون في المساجد ، ويشهدون بعض الصلوات ، فالحفظة منهم يتعاقبون عند صلاتي الفجر والعصر في المساجد [6] .

ولقد كانت المساجد محل عناية ورعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى ذلك شرفا وإجلالا لها ، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم مرة ، نخامة في جدار قبلة

---

١ سورة التوبة الآية ١٧.
٢ انظر ابن حجر : فتح الباري ج ١ ص ٥٤١، وانظر ابن كثير المرجع السابق ج ١ ص ١٥٦.
٣ متفق عليه . انظر صحيح البخاري ج ١ ص ١١٤ كتاب الصلاة ، وصحيح مسلم جـ ١ ص ٤٩٦ كتاب صلاة المسافرين .
٤ انظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١١١-١١٤.
٥ أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٨ .
٦ متفق عليه . انظر صحيح البخاري ج١ص ٥٩ كتاب الأذان ، وصحيح مسلم ج١ص ٤٣٩ كتاب المساجد فصل صلاة الفجر والعصر .

مسجده ، فحكها بيده وغضب على فاعلها [1] . وعاتب صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه حيث لم يخبروه بموت الجارية السوداء التي كانت تَقُمُّ المسجد ، وذهب إلى قبرها وصلى عليها تقديرًا منه صلى الله عليه وسلم لها لخدمتها في المسجد [2] . وهذا يدل على مدى حبه صلى الله عليه وسلم للمسجد . وتكريما للمسجد وإظهارًا لمكانته أثنى صلى الله عليه وسلم على عمّارها ، وشهد لهم بالايمان ، وأمر المؤمنين أن يشهدوا لهم ، فقال "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان" [3] لأن المساجد قلعة الايمان ، ومورد المؤمنين ،فمن أحبها واعتاد التردد عليها فهو مؤمن بشهادة نبي الهدى الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم . ومصداق هذا المعنى ورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله فذكر منهم "...ورجل قلبه معلق بالمساجد" [4] أي يحبها ويحن اليها وتتوق إليها نفسه حتى يدخلها فاذا دخلها اطمأنت نفسه ولا يخرج منها إلا ليعود إليها ثانية .

واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم اهتم الخلفاء الراشدون بالمساجدومنحوها عنايتهم ورعايتهم التامة ، ومن صور اهتمام الخلفاء الراشدين أن الفاروق عمر رضي الله عنه ، أصدر أوامره لولاة الأمصار والأقاليم وأمراء الأجناد بوجوب عمارة المسجد في البلاد المفتوحة ، وفي المدن الجديدة التي تنشأ في أنحاء البلاد الاسلامية [5] . يقول المقريزي : لما افتتح عمر البلدان ، كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرى ، يأمره أن يتخذ مسجدًا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد [6] ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك . وكتب إلى عمرو

---

١ متفق عليه : انظر البخاري ج ١ ص ١٠٦ كتاب الصلاة ، ومسلم ج ٢ ص ٨٨٣ كتاب المساجد
٢ متفق عليه : انظر البخاري ج١ ص ١١٨ كتاب الصلاة ، ومسلم ج٢ ٩٥٦ كتاب الجنائز.
٣ سنن ابن ماجه ج ١ ص ٢٦٣.
٤ متفق عليه : البخاري ج١ ص ١٦٠-١٦١، كتاب الآذان ، ومسلم ج ٢ ص ٧١٥ كتاب الزكاة فصل اخفاء الصدقة .
٥ ولعل الصديق أبابكر رضي الله عنه لم يحتج الى اصدار أوامر مثل ذلك لأن البلاد لم تكن قد فتحت بعد ،ولانشغاله بحروب الردة ، وتجييش الجيوش لجبهتي فارس والروم .
٦ وتعنى المباني التي تتخذ لأداء الفروض الخمسة للصلاة ، ولا تؤدى فيها شعيرة صلاة الجمعة .

ابن العاص وهو على مصر بمثل ذلك ، وكتب إلى أمراء الأجناد بالشام : أن لا تبددوا[١] إلى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ،وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً، ولا تتخذ القبائل مساجد [٢] ، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده [٣].

ويعتبر الأمر الذي أصدره أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وثيقة لعصر الخلافة الراشدة فيما يتعلق بشئون المساجد ، والاهتمام بها وعمارتها ورعايتها ، وتنفيذا لهذا الأمر بنيت المساجد بعد اتمام الفتح في المدن القديمة [٤] ، وكان المسجد من أول مايهتم به قادة الفتح من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اتمام الفتح كما كان تأسيس المسجد نقطة البدء عند انشاء المدن الجديدة كالبصرة والكوفة[٥]، وكان المسجد يختط في وسط المدينة – قبل كل شئ – ومن حوله دار الأمير ثم تأتي باقي المنشئات [٦] .

ثم أصبح سنة البدء بالمساجد والاهتمام به – عند فتح المدن القديمة واختطاط المدن الجديدة – سنة متبعة بعد عصر الخلافة الراشدة ، ومن ذلك أن عقبة بن نافع ، حين اختط مدينة القيروان بشمال افريقيا ، بدأ بالمسجد ، ثم أذن للناس في بناء دار الأمير ثم دور الأجناد ، وبقية المرافق والمنشئآت العامة [٧] .

فالمسجد أمره في الاسلام عظيم ، لذلك كان أمره ملء الفؤاد في كل العصور ، حتى في عصور الانحطاط وضعف المسلمين ، كان للمسجد قدسيته .وما دامت الصلوات تقام في الأرض فان شأن المسجد سيكون عظيما. ونسأل الله أن لايرينا اليوم الذي تهان فيه المساجد .

---

١ أي لاتتفرقوا في القرى والبوادي . انظر الرازي مختار الصحاح ص٤٢.
٢ يعني لاتتخذ القبائل مساجد جامعة ، بل تكتفي بمساجدها التي تؤدي فيها الصلوات الخمس فاذا كان يوم الجمعة انضم سائرهم الى المسجد الجامع في حاضرتهم لأداء صلاة الجمعة.
٣ انظر المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص٣٥٥. والسيوطي حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج٢ ص٢٣٨ ط الحلبي .
٤ انظ البلاذري : فتوح البلدان القسم الأول ص٣٥٥ . والمقريزي المصدر السابق ج ٢ ص٣٤٦.
٥،٦ انظر البلاذري المصدر السابق ص٣٣٩ . وابن الأثير : الكامل ج ٢ ص٥٢٦.
٧ انظر البلاذري المصدر السابق القسم الثاني ص٢٧١.

المبحث الثاني : تعطيل رسالة المسجد وآثاره السلبية :

قام المسجد بأداء رسالته كاملة في عصر النبوة والقرون التالية له بدرجات متفاوتة ، كما كان المسجد يؤدي الوظائف الأخرى المنوطة به ، كاشاعة آصرة المودة والأخوة بين المسلمين ، ورفع الجهل ونشر العلم بين المسلمين ،ورفع ألوية الجهاد، فكان مصدرا لقوة المسلمين حتى تمت بعون الله الفتوحات الاسلامية في شرق البلاد وغربها ، وهيمن المسلمون هيمنة كاملة على باقي الشعوب غير المسلمين ، كما هيمن الاسلام على سائر الأديان ، وكان للمسجد دوره الفعال في جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم ،وشحذ الهمم وحثهم على اعلاء كلمة الله في الأرض .

ولكن مابعد الكمال إلا النقصان ، فقد تقلصت وظائف المسجد تباعًا ، فخرج الحكم والقضاء والتوعية الاسلامية وتجييش الجيوش من نطاق المسجد ، ثم جهل المسلمون رسالة المسجد ، وبدأوا ينظرون إليه باعتباره مكانا للعبادة وأداء الصلوات الخمس والجمعات فحسب . وكما تشبه أبناء المسلمون بالنصارى واليهود ، فقد آلت أوضاع المساجد الى ما صارت اليه الكنائس والمعابد ، وانحسرت فعالية المسجد ، وقل تأثيره على الحياة الاسلامية ، وفقد أهم شئونه ووظائفه حتى جاء وقت في بعض البلاد الاسلامية ، تقفل فيه المساجد بأقفال محكمة بعد أداء فريضة معينة إلى أن يحين وقت الفريضة التالية. وانحسر رواد المساجد حتى انحصر – أو يكاد ينحصر – في الضعفاء والعجزة، أما الشباب والأغنياء والوجهاء ، فلا يرتادونها إلا لماما أو في أيام الجمعات لأداء شعيرة الجمعة وتبع هذا المظهر المشين لوضع المساجد انعدام التصور الصحيح لرسالة المساجد وبالتالي غياب الفهم الصحيح للاسلام ، فكان انحطاط المسلمين في دينهم ودنياهم .

وكان من آثار فقدان المسجد لرسالته أن تسرب الى العالم الاسلامي ضعف عام في كل سبل الحياة العسكرية منها والاقتصادية والاجتماعية ،وكان أسعد الناس بذلك أعداء الاسلام من النصارى واليهود الذين كانوا ومازالوا للاسلام والمسلمين بالمرصاد فاستغلوا فرصة ضعف المسلمين ، فحركوا أحقاد الحروب الصليبية التي انهزموا فيها، فتقاسمت دولهم بلاد المسلمين فيما بينها ، وراحوا يكيدون للاسلام والمسلمين في ديارهم ،

ولكن بقية رسالة المسجد عند المسلمين كانت كافية لتجعل بين أعداء الاسلام والمسلمين فجوة حالت دون وصولهم إلى قلوب عامة المسلمين .

لما تبين أعداء الاسلام من المستعمرين ، أن البون بينهم وبين المسلمين واسع ، وأن هناك حاجزا نفسيا في نفوس المسلمين ، يحول دونهم ودون أهدافهم ، مكروا بالمسلمين عن طريق أبنائهم الذين درسوا في مدارسهم وأكلوا من موائدهم ، وربوا على أعينهم في الحياة ، فأتوا بهوءلاء الأقزام من بني جلدتنا ، وجعلوهم بدلا للمسيحية التي هزمت أمام الاسلام .

ولمّا انتهى عصر الاستعمار ، وعلم المستعمرون أنهم راحلون لا محال ، كادوا بالأمة الاسلامية ، وخططوا قبل رحيلهم ليكون زمام أمور المسلمين في أيدي ربائبهم من أبناء المسلمين الذين يتكلمون بلغتهم ، ويدينون بغير دينهم أو أنهم لا دين لهم أصلا . فالعبرة بالأعمال لا بالأقوال والمظاهر الكاذبة الخداعة . وقد أشار النظام الأساسي للمجلس الأعلى العالمي للمساجد [1] إلى هذا المعنى حيث جاء في مقدمته مايلي : "إن الدعوة العلمانية التي هي أثر من آثار الغزو الفكري في الاسلام ، أثرت تأثيرا كبيرًا على الدور الأساسي الذي كان يقوم به المسجد من قبل ، وأصبح الغالب مكانا للصلاة فقط ، مجردا من معاني الحياة التي أشارت إليها الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ..)" [2] .

تربى العلمانيون من بني جلدتنا على أيدي المستعمر داخل البلاد الاسلامية وخارجها ، وآلت أمور المسلمين من بعد المستعمر - إلى هوءلاء ،فنهجوا نفس نهج سلفهم من المستعمرين في تعطيل رسالة المسجد ، وتجهيل المسلمين بما يجب عليهم حيال المساجد واعادة دورها القيادي في حياة المسلمين ،واهتم هوءلاء بتقليص عدد المساجد

---

١ المجلس الأعلى العالمي للمساجد - فرع من فروع رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، تأسس تنفيذا لقرارات الموءتمر الأول لرسالة المسجد الذي انعقد بمكة سنة ١٣٩٥هـ .

٢ سورة الأنفال الآية ٢٤.

وفي المقابل كانت الفرص سانحة لبناء الكنائس ، وقد ذكر الشيخ محمد الغزالي أنه في إحدى عواصم دولة عربية إسلامية ،كانت توجد أربعا وثلاثون كنيسة ، وتقابلها سبعة مساجد فقط ،ونسبة المسيحيين في تلك الضاحية أقل من عشر عدد المسلمين [١] . وذكر فضيلته أيضا أنه في بلدة عربية إسلامية أخرى ، أراد المسلمون بناء مسجد في ميدان من ميادين العاصمة ، فرفض المسئولون العلمانيون من بني جلدتهم الموافقة على إقامة المسجد في ذلك الميدان بحجة أن مثل ذلك الميدان يجب أن يوضع فيه شيء يمثل قيمة حضارية لا مسجداً .. !! ثم وضعوا في نفس المكان المقترح تمثالا لملك وثني من ملوكهم القدماء !! [٢] .

ومن محاولاتهم لصرف المسلمين عن أداء شعائرهم التعبدية ، وتجهيلهم بوظائف المسجد ، وضعت العراقيل أمام الجمعيات الخيرية التي تسعى لبناء المساجد ، ففي بلد عربي ، حاولت لجنة من لجان الجمعية الوطنية الاهتمام بالمساجد ،وبجمعياتها الخيرية فاوقفتها إدارة الجمعية عند حدها بحجة أنه من العبث أن تضيع اللجنة جهودها ووقتها في الاعتناء بالمساجد لأنه يجب أن تكون لهذه اللجنة اهتمامات أخرى أكثر فائدة من الاعتناء بالمساجد [٣] . وفي بعض البلاد الاسلامية طالب بعض المسلمين باحياء رسالة المسجد وتعيين العلماء للخطابة في المساجد الجامعة ، ليتمكنوا من معالجة مشاكل المسلمين الدينية والدنيوية ، فتصدى لذلك وزير الشئون الدينية لتلك الدولة فكان مما قاله : "إنه يجب إبعاد السياسة عن المساجد ، لأن المساجد أسست للعبادة فقط" [٤] .

ويتبين من عبارة الوزير العلماني أن العلمانيين لا يريدون تعيين العلماء ذوي الغيرة على الاسلام الذين يعالجون مشاكل المسلمين الدينية والدنيوية بعقلية متنورة ومعاصرة ، لأنهم يودون بقاء المساجد كما تركها الاستعمار الصليبي وغيرهم من

---

١ انظر محمد الغزالي كفاح دين ص ١٦٢.
٢ انظر نفس المصدر ص ١٦٧.
٣ انظر مجلة المجتمع الكويتية ص ٢٩ - العدد ٤٦٥ صفر سنة ١٤٠٠هـ - نقلا عن مجلة المجاهد الجزائرية .
٤ انظر مجلة المجتمع نفس العدد ونفس الصفحة .

أعداء الاسلام والمسلمين ، ولضمان استمرار الوضع الذي خلفه الاستعمار في البلاد الاسلامية بالنسبة للمساجد ، حرصت الحكومات العلمانية في البلاد الاسلامية على جعل المساجد تحت إشرافها المباشر ، وهذا يعني أن يخضع أئمة المساجد والوعاظ والعلماء لتوجيهات هؤلاء ورغباتهم ، وتنفيذ سياساتهم ، وأن أيّ إعتراض على أوامرهم يعني إبعاد المعترض، وقد استفحل الأمر ، وطفح الكيل حتى أن المساجد لا تفتح إلا وفق التوجيهات والأوامر، كما تقدم ذكره ، وأنه لا يتحدث أحد في هذه المساجد إلا باذن مسبق مع بيان الموضوع الذي يريد التحدث فيه أو شرحه !!

وصفوة القول أن الأسباب والعوامل التي أدت إلى التجهيل بوظائف المسجد تمخض عنها إهمال المساجد إهمالا تاما ، فيما يتعلق بمستوى الأئمة والوعاظ والعلماء التي ترتبط أعمالهم بالمساجد ، من النواحي المالية والادارية والعلمية ، وتعطيل الوظيفة التي يؤديها المسجد بالنسبة إلى المسلمين أفرادا كانوا أو جماعات ، وقد ترتب على ماتقدم آثار غير محمودة نجملها فيما يلي :

(١) الاهتمام بالمظهر الخارجي للمساجد وزخرفة جدرانه ، وتزيينها بدعوى ترغيب المصلين في الصلاة ، وهذا يخالف أصل الاسلام الذي يهتم بالجوهر والمخبر أكثر من إهتمامه بالمظهر . فالمسجد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبنى باللبن والطوب ، ويسقف بجذوع النخل والجريد ، وكان خلفاؤه الراشدون – رضوان الله عليهم – ينهون عن تزيين المساجد وزخرفتها ، ومما يدل على أن التزيين ليس محببا في الاسلام قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تقوم الساعة حتى يتباهى في المساجد" [١] وقال عليه الصلاة وأتم التسليم : "ماساء عمل قوم الا زخرفوا مساجدهم" [٢] . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه – قال : "إذا حليتم مصاحفكم وزخرفتم مساجدكم فالدمار عليكم" [٣] .

---

١ سنن أبو داود ج ١ ص ١٢٣ كتاب الصلاة .
٢ سنن ابن ماجه ص ٢٤٥ كتاب المساجد والجماعات ، وأخرجه البغوي في شرح السنة ج٢ص ٣٥٠ تحقيق شعيب الارناؤوط – ط بيروت – المكتب الاسلامي ط اولى سنة ١٣٩٠هـ .
٣ محمد جمال الدين القاسمي : محاسن التأويل ج ١١ ص ٤٠٣٦-٤٠٣٧ ط الحلبي القاهرة ط أولى سنة ١٣٧٨هـ تحقيق محمود فؤاد عبد الباقي .

إن دعوى ترغيب المصلين في إتيان المساجد فاسد ، لأن المسلم حين يتوجه إلى المسجد إنما يسعى إليه للصلاة فيه والخضوع والإستسلام لله خالقه ، لا للنظر في نقوش جدران المساجد وزخرفة فرشها ، وليس معنى إنكار زخرفة المساجد وتزيينها ، إهمال المظهر والشكل العام للمسجد ، إنما المقصود من ذلك عدم المباهاة والمبالغة في التزيين ، وتقليد أهل الكتاب في بيعهم وكنائسهم . فالمسجد يجب أن يكون نظيفا ولائقا ، ويجب أن يكون الاهتمام به في الحدود المعقولة ، اما الاسراف فمنهي عنه بصفة عامة ، سواء في المساجد أو غيرها من الأبنية .

(ب) الانفصال بين العبادة والسلوك ، فقد كانت الصلاة موصولة بالحياة العلمية ،وكان العلم يتبعه التطبيق العملي ، حيث كان المسجد يقوم برسالته ، فلما حيل بين المسجد وبين رسالته ، ظهر هذا المرض عند كثير من المسلمين ، فكثرة مظاهر التدين بصفة عامة يصاحبها فساد في الاعتقاد والعمل ، وتكاسل في الأداء واختلاط العمل بالبدع .

(ج) إتخاذ المساجد على قبور الصالحين والملوك ، واتخاذ أيام معينة لزيارة تلك القبور والتبرك بأصحاب القبور التي بنيت عليها المساجد ، وإقامة إحتفالات الموالد عندها ، والتقرب إليها بالذبح عليها أو عندها ، وشد الرحال إليها مخالفين بذلك هدى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومستخفين باقامة ركن الاسلام الأساسي - الصلاة - حيث أنها لا تجوز في المساجد التي على القبور ، فضلا عن أن الصلاة على القبور ، وقصد زيارتها حتى للعبادة ، مدعاة إلى الشرك وفساد العقيدة . وقد جاء أصل نهي البناء على قبور الأنبياء والأولياء ، والاقبال عليها والتضرع عندها ، لأن ذلك من أقرب الأبواب إلى الشرك بالله ، والتوسل إليه بغير ماشرع الله ، وهل أصل عبادة الأصنام الا بسبب ذلك ؟! ومن هنا يتضح سر مقصود النبي صلى الله عليه وسلم بنهيه عن تعظيم القبور ، واتخاذ المساجد عليها والسرج ولعن فاعل ذلك ، وأخبر بشدة غضب الله على فاعليها .

إحياء رسالة المسجد وآثاره الايجابية :

كانت المساجد في عصور إزدهار المسلمين - علميا وحضاريا - رغم بساطتها وعدم التكلف في بنائها ، تقوم بنشاطات مختلفة ، وكانت حركة المجتمع جله تصدر من داخل

المساجد ، مما جعل المسجد موءسسة دينية وعلمية وسياسية واجتماعية بالمفهوم الحديث ، وتمثل لهذا النوع من المساجد بالمسجد النبوي بالمدينة في عهد أمير الموءمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، حيث أن كل قرار وأمر يتعلق بشئون المسلمين في المجتمع الاسلامي كان يصدر من المسجد ٠

ثم تضافرت عوامل وأسباب كثيرة أدت الى تعطيل رسالة المسجد وانزواء مهمة المسجد ، وانحصارها في أداء الفروض الخمسة والجمعات دون غيرها من الأنشطة المتعلقة بحياة المجتمع والمسلمين أجمع ، كما بينت في المبحث السابق ٠ وفي هذا المبحث نحاول إبراز أهم الجوانب التي إذا روعيت وأعطيت العناية الكافية ، يمكن للمسجد أن ينهض من كبوته ، ويوءدي رسالته ووظيفته في بناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم بصورة فعالة وايجابية ٠ ويمكن إبراز ذلك بتجلية موجزة لأهم الأسس التي يجب مراعاتها لاعادة الحياة إلى المسجد :

أ ـ إعداد الائمة والخطباء :

وأقصد باعداد الأئمة والخطباء هنا ، تهيئتهم ، وتعهدهم بالتعليم والتوجيه تارة وبالتدريب والتثقيف وكيفية التأثير على السامعين تارة أخرى ٠ ولأن المسجد يعتبر من الموءسسات الاعلامية الهامة في المجتمع ، فينبغي أن يكون له دوره المتميز وسط الخضم الهائل من الموءسسات الاعلامية الأخرى التي غزت البلاد الاسلامية ، وبدأت تغزو كل فرد وكل أسرة والمجتمع بأسره ٠ وبما أن عصب الاعلام الحديث هم القائمون على تحريك وسائله المختلفة ، فان المسجد باعتباره وسيلة هامة لتغيير سلوك الأفراد والجماعات يجب أن يهتم باعداد القائمين على أمره ونخص بالذكر الامام والخطيب باعتبارهما محور نشاط المسجد ، وأكثر العناصر ارتباطا به من حيث طبيعة العمل والوقت الذي يقضونه بداخله ٠

وهناك ثلاث طرق ـ في اعتقادي ـ صالحة لاعادة الحياة للمسجد عن طريق الأئمة والخطباء نجملها فيما يلي :

(أ) العناية الفائقة عند اختيار الامام والخطيب ، بحيث يراعى فيه الكفاءة العلمية ومطابقة السلوك لعلمه ، وأن يكون سمته ومظهره موافقا لتوجيهات الشارع الكريم وخير الأسوة في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الكفاءة العلمية ، فمما يعرف بداهة ، أن الناس لايستجيبون الا لمن يملك بضاعة جيدة ، ينفق منها حيث يشاء ، ووقت مايشاء ، وكيف ماشاء ، أما من كانت بضاعته مزجاة ، ولا يستطيع أن ينفق حيث يشاء وبالكيفية التي يريدها ،فان الناس تنفض من حوله ، لأنهم في غنى عنه ، ووقتهم الذي ينفقون عنده قد يكون أهم قيمة من المعلومات التي يتلقونها منه ، لذلك فان الكفاءة العلمية شرط أساسي للامام أو الخطيب الناجح .

أما السلوك والسمت فهما المحور والأساس ، ذلك أن العلم الذي لايجد طريقه الى التطبيق عند صاحبه ، علم لا ينفع صاحبه ، وبالأحرى لاينفع غيره ولايجد طريقه إلى الآخرين . والسلوك والسمت هنا يقومان مقام القدوة والأسوة ، فالناس يحتاجون في كل مرة يسمعون فيها علما نافعا ، أن يروا قدوة عملية وتطبيقية لما سمعوه وأكثر الناس مقدرة على ترجمة مايقوله إلى أعمال ليقتدى بهم الناس هم الأئمة والخطباء .

(ب) قد يواجه القائمون على أمر المساجد بعض الصعوبات في إيجاد النوعية التي تدعو إلى الله على بصيرة ، وتوجه الناس إلى الحق بأعمالهم وأفعالهم قبل أقوالهم ويمكن في هذه الحالة اتباع أحد طريقين لتذليل مهمة ايجاد أئمة اكفاء علما وعملا وقولا وسلوكا :

١- الطريق الأول هو إعداد الائمة القائمين على أمر المساجد بتدريبهم وتعهدهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة وتنمية طاقاتهم تنمية سليمة ، ولأهمية التدريب في حياة الأئمة وحساسيته فانه يحتاج الى التركيز على ثلاثة أمور :

- الأمر الأول هو القدوة الحسنة في المدربين فعلى القائمين على أمر التدريب أن يوجهوا المتدربين بسلوكهم قبل أقوالهم ، ولأن فاقد الشئ لا يعطيه

فانه يجب أن تجد هذه الجزئية ، العناية الكافية ، وأيّ تهاون أو تراخي فيه يعني أن التدريب ليس له جدوى ، ومن الأفضل عدم اضاعة الوقت للفريقين : المدربين والمتدربين ٠

- أما الأمر الثاني فيتركز في المنهج الذي يعد لتوجيه المتدربين ٠ إن من الأمور التي يجب إدراكها جيدا ، أن التدريب ليس وسيلة لتلقين المعلومات في مجال العلوم الشرعية ، إنما هو وسيلة إلى إيصال تجارب الآخرين في مجال الدعوة إلى أناس مبتدئين ، أو من حالت ظروفهم دون استيعاب هذه التجارب ، لذلك فانه من المناسب أن يكون المنهج جله أو أكثره حول السيرة النبوية ، وسيرة السلف الصالح من هذه الأمة واستخراج العبر والعظات منها ، ليقتدي بها هؤلاء ويحملونها إلى غيرهم في مساجدهم وبيئاتهم ٠

- أما الأمر الثالث فهو توضيح رسالة المسجد لهؤلاء الأئمة وتوضيح أهمية الثغرة التي يسدونها ، وأنه لا يجب أن ينفذ العدو من قبلهم ، لأنه من المسلم به ، وحسب الاستقراء والواقع أن أكثر الأئمة لا يفهمون أن للمسجد رسالة غير أداء الصلوات المفروضة فيه ٠ ومادام فهم الامام قاصرا في هذا المجال ، وبهذا المستوى فلا يتوقع أن يأتي منه خير يعين على النهوض برسالة المسجد ، ولذلك فان شرح أهداف المسجد وماكان يؤديها من رسالة موضوع هام ينبغي التركيز عليه ، والاطمئنان الى استيعابه من قبل القائمين على هذه الثغور - التي هي المساجد ٠

(ج) إن المساجد هي أهم المؤسسات التي تخدم الاسلام ، لذلك فان القائمين على أمرها يجب أن يكونوا من خيرة المسلمين علما وعملا ، ويقودنا هذا الى القول بأن المسجد يجب أن يكون له روافد تغذية [بصفة] مستمرة ، بالعلماء الربانيين من المعاهد والكليات والجامعات الاسلامية ٠ ولضمان فعالية واستمرار روافد تغذية المسجد

فانه من المستحسن مراعاة أمور يمكن عن طريقها اجتذاب أفضل العناصر لتولي مهام الاشراف على المساجد وهي :

١- تحسين المستوى المادي للأئمة ، بحيث يكون مايتقاضاه الامام أو الخطيب أعلى من رواتب أي فئة من فئات المجتمع العاملة ، سواء كانوا من الأطباء أو المهندسين أو غيرهم من الفئات الأخرى . فالامام كماهو معلوم يتعامل مع فئات المجتمع بأسره ،وهم الأطفال والشباب والكهول والشيوخ . ثم إن مهمته هي صناعة الانسان وبصفة مستمرة ، والاستثمار في مجال صناعة الانسان وتنشئته تنشئة صالحة هو أفضل عائد ومردود . أما الأطباء والمهندسون وباقي الفئات الأخرى فانهم رغم أهمية المهام التي يؤدونها ، فان خدمتهم قاصرة في جزء من هذا المجتمع وأنهم أنفسهم يحتاجون إلى هؤلاء الأئمة لزيادة العلم والعمل خارج نطاق عملهم .

ويعتقد البعض أن الجانب المادي ليس له أهمية ، وأن الامام والخطيب أو العالم الذي يتولى التعليم في المساجد يجب أن يكون زاهدا فيما عند الناس أو ماعند الدولة ،وانه يجب أن يتجرد لله تعالى ولا يأخذ أجرا على عمله في مجال الدعوة الى الله ، ولكن هذه الحجة تنافي الواقع ، حيث أننا نجد خيرة الشباب عقلا وخلقا ودينا وعلما ، يتجهون إلى دراسة العلوم البحتة والطبيعية لا لشيء سوى الحصول على الوضع الاجتماعي والمادي المريح الذي ينتج عن دراسة هذه العلوم بعد التخرج ، وهذا يعني أن الوضع المادي والاجتماعي لهما اعتبارهما في المجتمع وفي توجيه وجهة الدارسين ، فاذا اهتمت الحكومات الاسلامية بالقائمين على أمر المساجد ، ووضعت للعاملين فيها شروطا مادية مجزية لاجتذبت اليها أفضل العناصر علما وعملا وسلوكا ،ولأدت المساجد رسالتها بمستوى رفيع .

٢- إن الروافد المقترحة للمساجد - وهي حلقات العلم في المساجد ، والمعاهد والكليات والجامعات الاسلامية - يجب التنسيق بشأنها مع القائمين على أمر

المساجد ، ويكون ذلك باعداد تقارير دورية مستمرة عن الدارسين ، من حيث المستوى العلمي والخلقي والسلوكي ، منذ بدء المراحل الأولى من الدراسة حتى نهايتها ، ويختار العناصر الصالحة والقوية علما وعملا وسلوكا من بين هوءلاء الدارسين للعمل بالمساجد ، ويساهموا بدورهم في إعادة الحياة إلى المساجد واجتذاب المسلمين إليها لتكون المساجد منارة لكل ضال عن الحق .

(٢) إعادة الحياة العلمية للمسجد :

إن إحياء رسالة المسجد لا يتصور بغير إعادة النشاط العلمي والفكري إلى المسجد كما كان من قبل ، فانسلاخ التربية والتعليم والتوعية من المسجد ، واسنادها إلى موءسسات أخرى أحدث فجوة سحيقة بين التعليم والتربية ، فضلا عن هذا فهناك أسباب أخرى كثيرة تفرض عودة الحياة العلمية للمساجد ومن هذه الأسباب :

١- النظام التعليمي في موءسسات التعليم الحديثة ينتهي دوره بانتهاء سنوات الدراسة النظامية لطلابه ، ثم بعد ذلك يسيح الطالب في الأرض دون هدى وبالطبع فان طلب العلم يجب ألا ينتهي بانتهاء المراحل الدراسية والمعروف واقعا أن الطالب ينتهي من الدراسة النظامية وهو في ريعان شبابه ، وتركه دون توجيه وتعهد ورعاية يعني أن نكله الى نفسه الأمارة بالسوء ، وإلى المجتمع الذي يئن آنينا من هول مايعتمل في داخله من مفاسد وشرور . ثم إن الطالب الذي أنهى دراسته النظامية يحتاج إلى توجيه وتذكير وتوعية مستمرة مادام على قيد الحياة ، وهذه التذكرة لها أهميتها في ضبط نزعاته الشهوانية وعوامل الفساد والافساد المنتشرة من حوله ، فالله تعالى يقول (وذكر فان الذكرى تنفع الموءمنين) [1] والتذكرة والتوعية التي تقوي صلة الموءمن بربه ، إنما مكانهما الأصلي المسجد . فالمسجد إذا أعيد إليه النشاط العلمي والتوجيه الديني السديد ، يستطيع أن يمد المسلمين على الدوام بالذكرى

---

١ سورة الذاريات الآية ٥٥ .

التي تنفعهم في معاشهم ومعادهم ، ويكمل مابدأه التعليم النظامي من تربية وتعليم ، ويسد الفراغ الذي يحدثه ترك التعليم النظامي ٠

٢- كثير من المسلمين يجدون متسعا من الوقت بعد الفراغ من أعمالهم اليومية ، وتعوزهم المقدرة في ملء هذا الوقت بشيء مفيد يعود عليهم نفعه دنيا وأخرى ويضيع هذا الوقت الثمين هدرا بين وسائل الاعلام الحديثة من صحافة واذاعة وتلفزيون وفي الأماكن العامة كالمقاهي والأسواق وشرفات المنازل ، وبين جدران المنازل في لعب الشطرنج ، والنردشير والورق ، ومن المؤلم أنك إذا سألت أحدا من هؤلاء عن سبب إضاعته لوقته بهذه الصورة المشينة يبادرك بالقول ودون حياء ، إنه إنما يفعل ذلك لقتل الوقت ،ولا يعلم أين يقضيه حيث لا يعلم مكانا أو وسيلة غير هذه الوسائل المتيسرة لديه ، ولا يعلم المسكين أنه إنما يقتل نفسه ،وليس وقته ٠ فاذا أعيد للمسجد دوره ورسالته وتكونت حلقات العلماء التي يديرها علماء أجلاء أفذاذ ، فلن تكون لهم حجة بعد ذلك ومن السهل توجيههم إلى المساجد لقضاء أوقاتهم في العبادة وتلقي العلم النافع لهم دنيا وأخرى ٠

٣- إن كثيرا من الناس ، لا يدع لهم نظام التعليم المنهجي الفرصة الكافية للتزود من العلوم الشرعية بالزاد الضروري ، ثم لأسباب كثيرة قد يقرر بعضهم عدم مواصلة التعليم المنهجي الحديث ، وليست هناك جهة يمكن الاعتماد عليها في سد النقص في العلم والمعرفة ولأمور الحياة المعاشية والأخروية، إلا المساجد فاذا أعيد للمسجد مكانته فانه سيسد هذا الفراغ الذي يحدثه عدم مواصلة التعليم ، ويعطى لكل بقدر حاجته ومقدرته سواء كانت الحاجة إلى ذلك في المدن أو في القرى والبوادي ٠

٤- كانت الكتاتيب الملحقة بالمساجد تعطى دفعة قوية للأطفال بتمكينهم من حفظ كتاب الله وحفظ ماتيسر من الأحاديث الشريفة وبعض أبواب الفقه الضرورية ، قبل التحاقه بالمدرسة الحديثة ، فيجمع الطالب بين العلوم الشرعية الضرورية

والعلوم الحديثة ، فلما فقدت المساجد وظيفتها ، اندرست الكتاتيب واندرس معها الاهتمام بالقرآن الكريم ، فاذا أعيد للمسجد دوره الفعال في تنشيط الحركة العلمية داخل أروقته ، فإنه يمكن أن يساعد في تجديد شباب الأمة ، ثم إلى إعادة الحياة إلى الكتاتيب الملحقة بالمساجد فيتعلم الأطفال والكبار القرآن وعلومه واللغة العربية ومايتعلق بها من فنون،فيظهر عن طريقهما النبوغ المبكر ، والعطاء المفقود بسبب جمود التعليم المنهجي الحديث المنقول إلينا دون تعرف من أمم تختلف عن الأمة الاسلامية فيأهدافها ومناهجها ووسائلها .

هـ- كان النبي صلى الله عليه وسلم وبطلب من النساء قد خصص لهنّ يوما يجتمعن فيه بالمسجد ، فيعلمهن العلم النافع مما يتعلق بشئونهن من أمر الدين والدنيا ويذكرهن بالله وبالاستماع الى مايتلى في بيوتهن من آيات بينات ، واستمرت هذه الحالة في كل عصور ازدهار المسلمين ، فلما فقد المسجد وظيفته ، قل ارتياد النساء للمساجد وعز استماعهن للعلماء ، وجف معين العلم لديهن،ففشى وشاع فيهن الجهل بالدين ، وانتشرت بينهن البدع والخرافات والضلالات وأنواع من الشرك القولي والعملي ، وكانت من آثاره العظيمة ، شيوع الجهل في أفراد الأسرة كلها ، بسبب جهل ربة البيت ، ففشت لذلك الأمراض الجسدية والروحية في الأطفال بقدر انتشارها في الأمهات ، وبدت الأسر بعد أن كانت نورا يشع منها النور ، منبعا للخرافات ،والأباطيل ، وحيث أن الاسرة هي اللبنة الأولى والأساسية في المجتمع ، فقد انتقل ظلام الجهل إلى سائرالمجتمع بقدر ذيوعها وانتشارها في أفراد الأسر .

فاذا أعيد للمسجد حياته ووظيفته ورسالته ، رجعت للأسرة حياتها ونورها ، فيرتبط الأطفال منذ نعومة أظفارهم بالمسجد ، فيصانون من الضياع والتشرد، ويحفظون من الأوبئة والأمراض الفتاكة ، فيسلم المجتمع بسلامتهم العقلية والجسمية ، فالنشأة الاسلامية التي تكون على عين القائمين بالمساجد،نشأة

سوية للأب الذي حالت ظروفه دون تلقي الدراسة النظامية وفق التعليم المنهجي، فانه بارتياده للمسجد يرفع عن نفسه الجهل العالق به ، فيتلقى العلم دون عناء وحسب ظروفه واستعداده ومقدرته . أما الأم فان إعادة وظيفة المسجد العلمية يعني بالنسبة إليها عودة حياتها ، وتحولها من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة ، فازالة الجهل والخرافات والضلالات والبدع واحلالها بالعلم الصحيح والذكر وتلاوة القرآن ، وتعليمهن طريقة القراءة الصحيحة للقرآن ، وأحكام دينهن ، كل هذه حياة لها ، ولقلبها ولأسرتها ولمجتمعها الذي تعيش فيه .

فبيوت الله تتميز عن غيرها من الموسسات التعليمية ، بأنها مورد للكبير والصغير ، وللمرأة والرجل ، وللبنت والولد ، ويستفيد من دروسها وحلقات العلم فيها الجميع دون قيد ولا شرط ، ولا عناء ولا تعب . والمسجد بهذا الوضع يمثل أحدث نموذج في العالم لموسسة تحقق فلسفة التعليم المستمر الذي لا يتقيد بقيد ولا شرط ولا رسم ولا تعقيدات تحول بينها وبين الراغبين في الاستفادة مما يلقى فيها من دروس وعبر وعظات ومواعظ .

الفصل الرابع

بناء الشخصية الصالحة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أ - المفهوم الشرعي للمعروف والمنكر :

المطلوب من المسلم أن تكون أفعاله وأقواله وفق الشريعة الاسلامية ، ولهذا أمر الله تعالى أهل العلم بتبليغ الناس أحكام الاسلام وتعليمهم حدود ما أنزل ، كما أمر سبحانه وتعالى من لا يعلم أن يتعلم ، ومن سبل التعلم أن يسأل أهل العلم . ومع هذا فقد يبقى المسلم جاهلا لشرع الله اما لأن تبليغ العلماء لم يصله أو أنه قصر في تعلم مايجب عليه تعلمه ، أو لم يستفت أهل العلم ما أنزل ، ومع هذا يقع في المعصية اتباعا لهواه ، والمعصية في الحالتين منكر ظهر أو معروف هجر ، والمنكر اذا وقع يجب ازالته ، والمعروف اذا هجر ، وجب الاتيان به[١].

وقد استخدم علماء الاسلام المعروف والمنكر للتعبير عن طاعة الله وعصيانه ، والحلال والحرام ، فقال ابن الأثير عن المعروف : "المعروف اسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس ، وكل ماندب اليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات . وهو من الصفات الغالبة ، أي أمر معروف بين الناس اذا رأوه لاينكرونه"[٢] ثم قال رحمه الله في تعريف المنكر : "المنكر ... ضد المعروف ، وكل ماقبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر"[٣] . ويقول ابن جرير الطبري : "أصل المعروف كل ماكان معروفا فعله جميل مستحسن غير مستقبح في أهل الايمان بالله ، وانما سميت طاعة الله معروفا لأنه مما يعرفه أهل الايمان ولا يستنكرون فعله ، وأصل المنكر ما أنكره الله ، ورأوه قبيحا فعله ولذلك سميت معصية الله منكرًا لأن أهل الايمان يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها"[٤] ويقول الامام الشوكاني في معرض وصفه أفراد الأمة الاسلامية : "انهم يأمرون بما هو

---

١ د. عبدالكريم زيدان - أصول الدعوة ص ١٦٤ - الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٦م - من منشورات جمعية الأماني .

٢ النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٣ ص ٨٩ تحت تعريف لفظ (عرف) - المطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣١١هـ .

٣ نفس المرجع ج ٤ ص ١٧٥ - تحت تعريف لفظ (نكر)

٤ جامع البيان في تفسير القرآن ج ٤ ص ٨٢.

معروف في هذه الشريعة ، وينهون عما هو منكر . فالدليل على كون ذلك الشيء معروفا أو منكرا هو الكتاب والسنة" [1] ويقول العلامة الصاوي رحمه الله : "المعروف المراد به ماطلبه الشارع اما على سبيل الوجوب كالصلوات الخمس ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم أو الندب كالنوافل وصدقات التطوع" [2] أما المنكر : "فالمراد به مانهى الشارع اما على سبيل الحرمة كالزنا والسرقة أو على سبيل الكراهة" [3] .

فالمعروف والمنكر لفظان استعملهما الكتاب والسنة واستخدمهما فقهاء الأمة ليدل الأول على العمل الذي تعرفه الشريعة وتقره ، والآخر على العمل الذي تنكره الشريعة الاسلامية وترفضه . وبما أن مدار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما هذان اللفظان ، فانه لا يجوز استخدامهما في غير مراد الله تعالى ورسوله في الكتاب والسنة.

وقد تعارف الفقهاء على تسمية الأمر بالمعروف والنهي بالحسبة [4] وهي : "أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله" [5] وهي نفس مقصد ومدلول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الكتاب والسنة .

ب ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [6] :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعبير قرآني صريح عن مهمة النبوة ، وهو تعبير شامل يدل على الجهد الذي يبذله الأنبياء وخلفاؤهم في سبيل الحق ، فكانت

---

١ ارشاد الفحول ص ٨٤.

٢ حاشية الصاوي على الجلالين ج ١ ص ١٥٢ ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٤٧هـ . وانظر عبدالقادر عودة ـ التشريع الجنائي الاسلامي ج ١ ص ٤٩٧ ـ مطبعة دار نشر الثقافة الاسلامية بالاسكندرية سنة ١٣٦٨هـ ، .

٣ الحسبة لغة : تدل على العد والحساب . ويقال احتسب بكذا اذا اكتفى به ، واحتسب الأجر على الله اي ادخره لديه ، والحسبة اسم من الاحتساب والاحتساب يستعمل في فعل مايحتسب عند الله تعالى . انظر ابن الاثير النهاية في غريب الحديث ج ٢ ص ١٠٥.

٤ الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ الطبعة الأولى ١٣٢٧هـ مطبعة الحلبي القاهرة .

٥ لقد تقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة مدلولهما واحد لذا فانه قد يرد استخدام الحسبة ليدل على الأمر والنهي وبالعكس فيلاحظ ذلك .

٦ انظر جلال الدين العمري : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ١٧ ـ تعريب محمد أحمد ايوب الاصلاحي طبعة شركة الشعاع للنشر بالكويت .

تعاليمهم كلها محتوية على الأمر والنهي ، فهم اما آمرون بالمعروف واما ناهون عن المنكر[1]. ولعظم مكانته جعله القرآن الكريم من أخص خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى : (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ..) [2] وقد وصف الله الأمة الاسلامية بما وصف به رسولها حتى تقوم بعده بما قام به صلى الله عليه وسلم ، قال عز وجل (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [3] . وقد حكى القرآن الكريم وصية لقمان الحكيم لابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على مايصيبه في سبيل ذلك ، دون ذكر شيء من سيرة لقمان وأخلاقه ، استحسانا بهذه الوصية ولنقتدي به وننتهي اليه [4] فقال تعالى (يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) [5] .

وكان المؤمنون من أهل الكتاب قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما صرح بذلك القرآن الكريم (ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ،وأولئك من الصالحين) [6] . فقد كان أهل الكتاب عند نزول القرآن قد تسرب اليهم الفساد ، وخيم عليهم الضلال ، وحادوا عن صراط الله ، ولكن لم تزل طائفة منهم قائمة على سبيل الحق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، لذا أثنى عليها القرآن ، مما يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الشروط اللازمة للقيام على سبيل الحق .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اذن من الأصول العظيمة للاسلام ، ومن ثمّ كانت الحسبة محل عناية الفقهاء والتنويه بشأنها . وكان أئمة الصدر الأول يباشرونها

---

١ سورة الأعراف الآية ١٥٧.
٢ سورة التوبة الآية ٧١.
٣ انظرأبوبكر الجصاص : أحكام القرآن ج ٢ ص ٥٩٢ المطبعة البهية بمصر سنة ١٣٤٧هـ .
٤ سورة لقمان الآية ١٧.
٥
٦ سورة آل عمران الآيتان ١١٣-١١٤.

بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها [1] ، قال ابن خلدون في مقدمته : "أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين أن يعين لذلك من يراه أهلا له ٠٠) [2] .

واظهارا لأهمية هذه الشعيرة حث القرآن على طلب الحسبة بأساليب متنوعة ،فطورا يأمر بها ، وتارة يجعلها وصفا لازما للمؤمنين ، وسببا لخيرية الأمة وأحيانا يجعلها الغاية من التمكين في الأرض والظفر بالسلطان والحكم ، وآنا يجعل تركها سببالاستحقاق اللعنة والعذاب [4] ـ يقول تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [5] ويقول عز وجل : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٠٠٠) [6] . ويقول سبحانه : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ٠٠) [7] . ويقول تعالى في وصف المؤمنين : (الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) [8] . وفي ذم الذين قعدوا عن أداء هذه الفريضة من الأمم السابقة قال عز من قائل : (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون) [9].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لم يزل في كل عصر من العصور مهمة الرسل ومن أجل ذلك ، ولجلالة هذه المهمة ، انتقلت الى أممهم وبالأخص أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي أوجب الله عليها ذلك ، وجعلها وظيفة من وظائفها الأساسية ، وقرن خيريتها بالقيام بواجبها ، قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

---

١ انظر الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ .
٢ مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ فصل الحسبة والسكة ـ طبعة دار احياء التراث العربي بيروت الطبعة الرابعة .
٣ سورة آل عمران الآية ١٠٤.
٤ سورة التوبة الآية ٧١.
٥ سورة آل عمران الآية ١١٠.
٧

٨ سورة المائدة الآية ٧٨-٧٩.

المنكر ، وتوءمنون بالله) [1] . وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول الصاوي [2] رحمه الله في حاشيته : "هذه الأمة لها شبه بالأنبياء من حيث انها مهتدية في نفسها هادية لغيرها" وذكر القرطبي رحمه الله عند تفسير هذه الآية أن أمير الموءمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلى الآية المذكورة في حجة وقال : "يا أيها الناس من سرّه أن يكون من تلك الأمة فليوءد شرط الله منها" [3] . ثم ذكر القرطبي أن المدح لهذه الأمة بأنها خير أمة قائمة ما أقاموا على ما أشارت اليه الآية واتصفوا بها ، فاذا تركوا التغيير،وتواطئوا على المنكر ، زال عنهم اسم المدح ، ولحقهم اسم الذم ،وكان سبيلا لهلاكهم [4] .

وتطرق الرازي رحمه الله الى تعليل خيرية الأمة بتعبير فقهي بديع فقال "انه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له ، يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فها هنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم هذه الطاعات ، أعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله ،فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات" [5] .

والقاعدة التي نستخلصها مما تقدم ذكره ، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله وطاعته ، من الخصائص التي تمتاز بها (خير أمة) ، وبما أن الخيرية لهذه الأمة مقرونة بقيامها بأداء مهام هذه الشعيرة ، فان هذه الشعيرة تعتبر من أخص خصائص الموءمنين التي لا يمكن أن تفارقهم أبدا ، بمعنى أنه كلما تمثل انسان صورة موءمن بهذا الدين كانت هذه الصفة من صفاته البارزة ، ولا يمكن تصور الموءمن بدونها ، والوضع الذي يريد الله تعالى أن يرى الموءمنين فيه لن يوجد الا اذا كانوا قائمين بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالمعيار المطلوب للايمان الكامل ليس أن يطهر الانسان نفسه من المعاصي حسب ، وانما هو السعي – بعد ذلك ومعه لانقاذ البشرية المشرفة على الهلاك ، ويجد في القلب كراهية وتقززا من الكفر والشرك ، والقلب الذي

---

١ سورة آل عمران الآية ١١٠.
٢ حاشية الصاوي على الجلالين ج ١ ص ١٥٣.
٣ الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٢٨.
٤ نفس المرجع ج ٤ ص ١٧٣.
٥ مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٣٧ – المطبعة العامرة الشرقية بمصر طبعة سنة ١٣٠٨هـ .

لا يتألم حين يجد الفساد والمعصية حوله ، قلب فقد بشاشة الايمان وحلاوته [١] . وهذا يعني أن لقب (الخيرية) للأمة المسلمة لا يقتضي التخلق بصفات ذاتية حسب ، بل يستوجب مع ذلك حمل أمانة الرسالة الحقة الى الآخرين والسعي لهدايتهم . فذكر العلاة مقرونة بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل على أن الانسان عليه أن يكمل نفسه بالعبادة والأعمال الصالحة ، ثم يسعى لتكميل الغير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا كانت مهمة الأنبياء ، يقول الامام الفخر الرازي في هذا المعنى "اذا أكملت نفسك بعبادة فكمل غيرك ، فان شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا أنفسهم ويكملوا غيرهم" [٢] . وفي معنى قوله تعالى : "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين" [٣] يقول ابن كثير [٤] رحمه الله في تفسيره : "ينفعون خلق الله ويرشدونهم الى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ، ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علما وعملا ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ، ولهذا قال (وبشر المؤمنين) لأن الايمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به" .

فالآية الكريمة في سورة التوبة تتناول صفات المؤمنين ، وتذكر أن منها مايتصل بأنفسهم ، ومنها مايشير الى تأثيرهم في غيرهم . فالتوبة والعبادة والحمد، والسياحة في سبيل الله ، والركوع والسجود له ، كلها صفات لا تتجاوز تأثيرها ذواتهم، أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيمثل العمل الذي يقومون به لصالح غيرهم وهدايتهم الى سبيل الحق . ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعلق بالغير فانه من أصعب العبادات وأشقها ، لأن من يقوم بهذا العمل يكون قد أكمل نفسه قدر استطاعته، ثم سعى بعد ذلك لتكميل الآخرين .

---

١ انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٢٠-٢١.
٢ المصدر السابق ج ٦ ص ٥٧٨.
٣ سورة التوبة الآية ١١٢.
٤ المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩٢.

ج - حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ولأهمية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تواردت الآيات البينات والأحاديث النبوية وتضافرت لتجعل منها فريضة لازمة لهذه الأمة تأثم كلها اذا عطلتها أو أهملت القيام بواجبها نحوها ، ولا أعلم أن أحدا من العلماء المتقدمين أوالمتأخرين ذهب الى القول بغير هذا الوجوب .

يقول أبوبكر الجصاص في تفسير قوله تعالى (وأمر بالمعروف وأنّه عن المنكر واصبر على ما أصابك ..الآية) : "أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه ، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخبار متواترة عنه فيه ، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه" [1] . وقال ابن حزم [2] "اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منهم" . وقال النووي : "وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الكتاب والسنة واجماع الأمة"[3]. ويرى شيخ الاسلام ابن تيمية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيله من أظهر أحكام الشريعة الاسلامية الظاهرة والمتواترة فان أهملتها الأمة وجب على الدولة محاربتها [4] .

ومن الأحاديث الدالة على وجوب هذه الفريضة ماروت درة بنت أبي لهب أنه قام رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : يارسول الله : أيّ الناس خير ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "خير الناس أقروءهم واتقاهم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم" [5] وعن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا منه فتدعون فلا يستجاب لكم" [6] .

---

١ ابوبكر الجصاص - المرجع السابق ج ٢ ص ٥٩٢.
٢ ابن حزم - الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٧١.
٣ النووي - شرح صحيح مسلم ج ١ ص ٥١.
٤ انظر : التفاوى ج ٤ ص ١٨١.
٥ مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٣٢ - المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٣هـ .
٦ الترمذي - السنن كتاب الفتن - باب ماجاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن الأمور التي لا خلاف بين العلماء عليها أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ، ولكنهم اختلفوا في مرتبتها ونوعيتها ، أفرض عين أم فرض كفاية ؟ [١] فأورد القائلون بأنه فرض عين حججهم الدالة على ذلك ، كما أورد القائلون بأنه فرض كفاية الحجج الدالة على ذلك . والقول الراجح هو قول القائلين بأنه فرض كفاية وهو مذهب جمهور العلماء [٢] ، ويحتاج هذا لمزيد شرح وايضاح نجمل بعضها فيما يلي [٣] :

(١) القول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ـ كما ذهب اليه الجمهور ـ لا يغير في حكم وجوبه ، فلا يختلف في حقيقته عن فرض عين ، فلا يصح ماذهب اليه بعضهم من الاختلاف في حقيقة واجب العين وواجب الكفاية ـ وهذا ماذهب اليه العلامة الآمدي اذ يقول : "لا فرق عند أصحابنا بين واجب العين والواجب على الكفاية من جهة الوجوب لشمول حد الواجب لهما ، خلافا لبعض الناس مصيرا منه الا أن واجب العين لا يسقط بفعل الغير ، بخلاف واجب الكفاية ، وغايته الاختلاف في طريقة الاسقاط وذلك لا يوجب الاختلاف في الحقيقة" [٤] .

(٢) يجب فرض الكفاية على الجماعة كافة بينما يجب فرض العين على كل فرد من أفرادها فلابد للجماعة كافة أن تكون معنية بالقيام بفريضة الكفاية كما يهم كل فرد أداء فريضة العين . لأن الجماعة التي أهملت فرض الكفاية تعمدا أو تهاونا أو تغافلا اثم أفرادها جميعا . نعم ان قام به بعض أفرادها سقط عنهم جميعا ، وأثيب القائمون به . وللاستدلال على القول نورد ماذكره الشيخ عبد العلي الأنصار في

---

١ "فرض العين وفرض الكفاية مشتركان في التعبد والمصلحة . والفرق بينهما أن المقصود في فرض الكفاية تحصيل المصلحة التي تضمنتها ، فمن أيّ شخص حصلت كان هو المطلوب . وفي فرض العين تعبد الأعيان بفعله" . ابن بدران الحنبلي ـ المدخل الى مذهب الامام أحمد بن حنبل ـ ص ١٠٣-١٠٤.

٢ انظر الامام الشاطبي ـ الموافقات في أصول الشريعة ج ١ ص ١٧٦ ومابعده ، وانظر ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٠٣٥ وأبوبكر الجصاص أحكام القرآن ج ٢ ص ٣٥ ومابعده . وانظر عبد القادر عودة التشريع الجنائي ج١ ص ٤٩٥ ـ والامام الرازي مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٢٠ ومابعده .

٣ ولمزيد الشرح والايضاح انظر جلال الدين العمري المصدر السابق ص ٣١-٤٨.

٤ الآمدي : الأحكام في أصول الأحكام ج ١ ص ١٤١-١٤٢ـ مطبعة المعارف بمصر سنة ١٣٣٢هـ .

توضيح حدود الواجب على الكفاية يقول رحمه الله : "الواجب الذي من شأنه أن يثاب الآتون ولا يعاقب التاركون ، اذا أتى به البعض ، وان لم يأت أحد يعاقب الكل"[١].
وهذا القول يدل على أن الجماعة التي تخاف عذاب الله وتريد أن تكون بمنجاة من بطش العزيز الجبار ينبغي لها أن تتبع نظاما يفرض - بصورة دائمة لا تنقطع - قيام هذه الفريضة ووجود أفراد يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في كل زمان ومكان .

(٣) لا يعني القول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية انه اذا قام فرد أو أفراد من الأمة الاسلامية بهذه الفريضة في بقعة من بقاع الأرض تخلت عنها الأمة جمعاء فان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بينما يقتضي القيام بالدعوة والتبليغ في غير المسلمين بجانب إذاهو يتطلب بجانب آخر أداء هذه الشريعة في المسلمين أنفسهم . واذا كان العمل الأول في غاية الصعوبة فان العمل الثاني لا يقل عنه في ذلك ، لأن الأمة الاسلامية ليست فئة قليلة العدد تسكن في بقعة معينة ، انما هي أمة تبلغ تعداد سكانها قرابة ألف مليون نسمة موزعة في شتى أنحاء العالم وتتكلم بجميع اللغات الحية في العالم ، ولها قضايا ومشاكلها التي لا حصر لها - ولا يمكن لذلك أن تقوم جماعة واحدة بهذا الواجب ، بل يجب أن تقوم جماعة في كل بلد بهذا الواجب - كما أرشد القرآن الكريم بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون" [٢] يقول العلامة البيضاوي رحمه الله في تفسير هذه الآية "فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة واهل بلدة جماعة قليلة ليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقه ارشاد القوم وانذارهم" [٣] .

---

١ عبد العلي الانصاري فواتح الرحمن شرح مسلم الثبوت - ج ١ ص ٦٢-٦٣ - طبع مطبعة المعارف بمصر سنة ١٣٣٢هـ مع المستصفى من علم الأصول المطبعة الأمرية بمصر ١٣٢٢هـ .

٢ سورة التوبة الآية ١٢٢ .

٣ أنوار التنزيل وأسرار التأويل تفسير الآية المذكورة - مطبعة أحمد بدلهي ١٢٦٨هـ .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه فرض كفاية عند الجمهور يعتبر فرض عين في مواطن نذكر منها مايلي :

(أ) هو فرض عين على من تنصبه الدولة الاسلامية للقيام به ، وهو ماصطلح على تسميته علماء المسلمين بالمحتسب أما الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من تلقاء نفسه . فقد اصطلحوا على تسميته بالمقطوع [1] .

(ب) اذا كان المعروف في موضع تطمس معالمه والمنكر يقترف فيه ، ولا يعرف ذلك الآ رجل واحد تعين عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول شيخ الاسلام ابن تيمية "وهو فرض على الكفاية ويصير فرضعين على القادر الذي لم يقم به غيره" [2].

(ج) اذا احتاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الى جدال واحتجاج ومناقشة كان فرض عين على من يصلح لذلك ـ يقول ابن العربي المالكي : "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية .... وقد يكون فرض عين اذا عرف المرء من نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدل أو عرف ذلك منه" [3] .

مما سبق ذكره يتضح أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القول بفرضيته على الكفاية ، يتحتم على من يستطيع أداءه وقت الضرورة وليس لهم أن يتشاغلوا عنه جميعا والآ أثموا جميعا ،ولن يفلتوا من عقاب الله المحتم مالم يرجعوا الى أنفسهم وقاموا بأداء حق هذه الفريضة .

(د) الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر وشروطهم :

نقصد بهوءلاء الآمرين الناهين من يفعلون ذلك على جهة الوجوب لا التطوع . لقد تقدم أن المعروف والمنكر هما موضوع الحسبة ، وهذا يعني أن موضوع الحسبة

---

١ انظر : عبدالكريم زيدان ـ أصول الدعوة .

٢ ابن تيمية ـ الحسبة في الاسلام ص٣٧.

٣ أحكام القرآن ج ١ ص ١٢٢ ـ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣١هـ .

لايتعدى كون الحالة اما معروفا هجر وجب الأمر باتيانه ، أو منكرا وجب ازالته وفي كلتا الحالتين لايتعدى الأمر وقوع منكر ما في صورة من الصور ، اما بترك أمر مأمور مأمور به شرعا أو اتيان شئ محظور شرعا ، ويكون الاحتساب في كلتا الحالتين بالنهي عنهما - أي بالنهي عن ايجاد المحظور شرعا أو الكف عنه بعد وجوده أو بالنهي عن ترك الفعل المشروع حتى يوجد - فالعنصر الأساسي لموضوع الحسبة هو المنكر ، والفقهاء عند اطلاق لفظ المنكر انما يريدون به المعصية ، والمعصية في مفهوم الحسبة هي كل فعل فيه مفسدة أو نهت الشريعة عنه وان كانت لا تعتبر معصية في حق فاعله اما لصغر سنه أو لذهاب عقله ، ولهذا اذا زنا المجنون أو هم بفعل الزنا واذا شرب الصبي الخمر كان مافعلاه منكرا يستحق الانكار وان لم يعتبر معصية في حقهما لفوات شرط التكليف وهو العقل والبلوغ . ولهذا فان مقياس المنكر ومعياره انما يعتبر بالكتاب والسنة واجماع الأمة ولا مجال فيه للاستحسان أو الاستنتاج الا ماكان عرفا موافقا لأصول الشريعة [١].

وقد اشترط الفقهاء في المنكر موضوع الاحتساب أن يكون منكرا ظاهرا وقائما في حال الانكار ، ومتفقا بين الفقهاء على اعتباره منكرا [٢] .

والمنكر موضوع واسع وشامل بحيث يشمل جميع تصرفات وأفعال الانسان في الاعتقادات والعبادات ،وفيما يتعلق بالأخلاق والفضائل والحرف والصناعات المختلفة وفي الأطعمة والطرقات والدروب ، وكل أمر متعلق بحق لله خالص ولحق للعباد الا مالا يتوافر فيه شروط الاحتساب كأن يكون المنكر غير ظاهرا أو مختلفا فيه بين الفقهاء أو نحو ذلك .

والاحتساب كما أنه يجب أن يكون في كل حال فانه يكون واجبا على كل انسان يباشر منكرا من المنكرات الظاهرة سواء كان المحتسب عليه اماما للمسلمين أو واحدا من عموم الناس ، وهذا يعني أن الاحتساب يكون على الحاكم وسائر ولاته كما يجري على

---

١ انظر د. عبدالكريم زيدان المصدر السابق ص ١٧٨-١٨٠.
٢ لمزيد التفصيل والشرح انظر د. عبدالكريم زيدان المصدر السابق ص ١٨٠-١٨٤.
٣ المصدر السابق ص ١٧٧-١٧٨.

آحاد الناس ، ويكون على القضاة وأصحاب المهن المختلفة ، ويكون على الآقارب والأبناء والأبوين وعلى غير المسلمين [1] . ثم ان وجوب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يختص بعصر دون عصر ، ولا مجتمع أو قوم دون قوم ، ولا منكر دون منكر مادام منكرا ظاهرا ، فلايجوز التهاون فيه في أيّ حال وفي هذا يقول الامام الغزالي رحمه الله "عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي الوجوب على كل حال" [2] ولكن الفقهاء احتاطوا للأمر ووضعوا شروطا خمسة اضافة الى بعض الآداب العامة ، ليكون المحتسب أهلا للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه الشروط تتفاوت درجتها وأهميتها . وفيما يلي شرح موجز لهذه الشروط ولوازمها [3] :

أولا : أن يكون المحتسب مسلما وهذا شرط واضح لأن الحسبة نصرة للدين فلا يكون من أهل النصرة من هو جاحد لأصل الدين .

ثانيا : العدالة : وقد اختلف الفقهاء في اعتبار العدالة شرطا ، فمنهم من قال بضرورة عدالة المحتسب وجعلوا من مظاهر عدالته أن يعمل بما يعلم ولا يخالف قوله فعله ليكون لاحتسابه التأثير المطلوب واستدلوا بقول شعيب عليه السلام لقومه (وما أريد أن أخالفكم الى أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت) وبالحديث الشريف في الاسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض فقلت له من هوءلاء ياجبريل ؟ قال : هوءلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس وينسون أنفسهم) . أما الذين يرون أن العدالة ليس شرطا ، فقالوا مامن أحد الا ويصدر منه العصيان ، والمعصية تثلم العدالة فكيف يشترط مايتعذر تحققه فيالمسلم وفي تأييد هذا الرأي قال سعيد بن جبير : "اذا كان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر الا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء" [4] ولما سمع مالك بن أنس قوله قال : "صدق،من الذي ليس فيه شيء" [5] . والحق الذي ذهب

---

١ انظر د. عبدالكريم زيدان ص ١٨٥-١٨٩- وانظر السيد جلال الدين العمري ص ١٨٩-١٩٦.
٢ الغزالي - احياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٨١.
٣ انظر د. عبدالكريمزيدان المصدر السابق ص ١٧١-١٧٥ لمزيد الشرح والايضاح .
٤،٥ انظر ابن كثير - تفسيرالقرآن العظيم ج ١ ص ٨٥.

اليه بعض المتقدمين والمعاصرين ممن بحثوا في الموضوع ، أن الراجح عدم اشتراط العدالة [1] ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة مستقلة ولايشترط لأدائها أداء الواجبات الأخرى قبلها ، فكل فريضة من فرائض الشريعة تستوجب أداءها اذا حان وقتها سواء كانت الفروض الأخرى مؤداة أم لا [2] .

ثالثا: الاذن من الامام أو نائبه – وفيه ذهب بعض الفقهاء الى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس للعامة ، وانما يقوم به الوالي أو من كان مأذونا له من جهته . وقصدوا من ذلك تنظيم مهمة القيام بواجب هذه الشعيرة ، ويرون أنه اذا أذن لكل أحد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لم يبق تنسيق في العمل ولا ترتيب وربما يخشى الفساد والخلل وكان مايفسده أكثر مما يصلحه [3] . والحق ان النصوص الواردة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدفع هذا الرأي ، لأن كل مسلم يلزمه تغيير المنكر اذا رآه وقدر على ازالته دون اشتراط اذن من الوالي ، ويؤيد ذلك استمرار السلف على الحسبة دون اذن من الامام فضلا عن أن الحسبة تجري على الامام فكيف يحتاج المحتسب الى اذن منه للانكار عليه [4].

والتوفيق بين الرأيين يكون باشتراط الاذن لبعض أنواع الحسبة وهي التي يجري عليها التعزيز واتخاذ الأعوان واستعمال القوة ، لأن اباحة هذا النوع لكل أحد قد يؤدي الى الفتنة والفوضى ووقوع الاقتتال بين الناس بحجة الحسبة ،وباشتراط الاذن تندفع هذه الأضرار . فالاذن يلزم عند الحاجة لدفع الفتنة ، أما اذا أمن المتطوع الفتنة فيلزمه التغيير وان استلزم ذلك اتخاذ أعوان واستعمال القوة ومباشرة التعزيز ، كلما كان ذلك ضروريا ، ولا يحتمل التأخير حتى يتحصل الاذن .

---

١ ولكن ترجيح عدم اشتراط العدالة لا يعني أن العدالة ليس لها تأثير في بعض أنواع الحسبة ، فالحسبة اذا كانت بالوعظ والارشاد ، فان المقصود يحصل اذا كان المحتسب ورعا تقيا عدلا حيث يكون لوعظه تأثيرا في الناس وقبولا عندهم فيتركون المنكر .

٢ انظر الغزالي – المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ – والجصاص أحكام القرآن ج ٢ ص ١٧٣. ود. عبدالكريم زيدان المصدر السابق ص ١٧٢–١٧٣ – وجلال الدين العمري المصدر السابق ص ١٣٦.

٣ انظر الغزالي احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٨١ – وعبدالقادر عودة التشريع الجنائي ج ١ ص ٥٠١.

٤ انظر الغزالي المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٦–٢٧٧– وانظر د.عبدالكريم زيدان المصدر السابق ص ١٧١–١٧٢.

رابعا : أن يكون مكلفا لأن غير المكلف لايلزمه أمر ولا يجب عليه تكليف وهو يستثنى من جميع الواجبات الشرعية . والمكلف في اصطلاح الفقهاء يقصد به البالغ العاقل، وهذا لا يعني أن لا يجوز لغير البالغ أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وانما يعني أنه اذا أهمله لم يكن آثما ، أما اذا كان مكلفا وقادرا على ازالة المنكر ولم يزله فهو آثم ويدخل في الوعيد ، فالشرط هنا شرط وجوب [١] .

خامسا: القدرة على ازالة المنكر – وتعني أن تغيير المنكر لا يجب الا على من يقدر على ازالته لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان" [٢] وقال أبوبكر الجصاص في معنى هذا الحديث : "أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن انكار المنكر على هذه الوجوه الثلاثة على حسب الامكان ، ودل على أنه اذا لم يستطع بيده فعليه تغييره بلسانه ، ثم اذا لم يمكن ذلك فليس عليه أكثر من انكاره بقلبه" [٣] ووجوه عدم القدرة كثيرة منها العجز الحسي بأن يكون به عاهة أو ضعيف البنية أو العجز العلمي بحيث يجهل المنكرات المتفق عليها والمعروف المتفق عليه ، أو خوف المكروه بأن يخشى الرجل مكروها يصيبه اذا قام بالاحتساب . فالنصيحة لازمة وواجبة على قدر الطاقة ، فان تيقن انه يصاب بأذى اذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ففي الأمر سعة ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها [٤].

مما تقدم يتضح أن العجز حسيا كان أو علميا يسقط واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولايسقط هذا الواجب الا عند اليقين بوقوع ضرر ، أما مجرد الظن الغالب فلا يسقط وجوبه كما ذهب اليه الغزالي رحمه الله في الاحياء [٥] .

والشروط السابقة تندرج تحت باب الرخص لمن ضعفت عزيمته وخشي الاضرار بالنفس

---

١ انظر جلال الدين العمري ص ١٤٤–١٤٦.
٢ صحيح مسلم – كتاب الايمان – باب كون النهي عن المنكر من الايمان .
٣ أبوبكر الجصاص : أحكام القرآن ج ٢ ص ٣٦.
٤ انظر النووي شرح صحيح مسلم ج ١ ص ٥١–٥٤.وانظر احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٨٠.
٥ انظر احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٨١–٢٨٢.

أو بالغير، أما العزيمة والفضل فهو لمن جاهد بنفسه ويده ولسانه وقلبه لا يخاف في الله لومة لائم • ولا شك أن التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الجهر بكلمة الحق واظهاره تحتاج الى عزيمة صادقة [١] ، وأهل العزائم هم أهل الاخلاص وهم أرفع درجة وأعلى مكانة عند الله تعالى وقد ورد في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم : "ألالايمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق اذا علمه ، ألا ان فضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" [٢] • وكون أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، فقد علله الامام الخطابي بقوله : "انما صار ذلك أفضل الجهاد لأن من جاهد العدو كان مترددا بين رجاء وخوف لا يدري هل يغلب أو يغلب ، وصاحب السلطان مقهور في يده ، فهو اذا قال الحق ، وأمر بالمعروف فقد تعرض للتلف ، وأهدف نفسه للهلاك ، فصار ذلك من أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف " [٣] •

وخلاصة القول ان الموءمن من الممكن أن يواجه ظروفا لا يستطيع فيها أن يزيل المنكر بصورة عملية ، ولا يعرب عن انكاره بلسانه ، أما كراهته بالقلب فلا مندوحة عنها ، فانها آخر منازل تغيير المنكر ، وان كان قلبه لا يكره المنكر ولا يشمئز منه فهو دليل أنه قد ذهبت منه حرارة الايمان وبشاشته ولذا جاء في الحديث " ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل" [٤] ومن يكره المعصية ويبغضها في غير رياء ولا تقليد لابد أن يتجنب الذين يقترفونها ، ومحال أن ينكر المرء عمل أحد أشد الانكار دون أن يوءثر ذلك في علاقتهما ، ولذلك يجب مع التغيير بالقلب مجانبة الأشرار • وعلاوة على ذلك فان مما يقتضي ايمان الموءمن انه لا ينبغي له ـ اذا لم يقدر على ازالة المنكر ـ أن يرضى بعجزه هذا بل يتمنى دائما لو قدر على ازالته بيده ، ولا يتعود على الرضى بالمنكر بدافع الاضطرار بل تتطلع همته بصورة مستمرة الى أنه لو قدر على المنكر محاه لا محال •

---

١ انظر جلال الدين العمري : المصدر السابق ص ١٥٢-١٥٣•
٢ أحمد بن حنبل ـ المسند ج ٣ ص ١٩ المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٣هـ •
٣ الخطابي ـ معالم السنن ج ٤ ص ٣٥٠ ـ طبعة المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٥١هـ •
٤ مسلم صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب بيان كون النهي عن المنكر من الايمان •

هـ - آثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأصل في المسلم أن يكون صالحا تقيا ، مستقيما على الفطرة التي فطرالله الناس عليها ، غير أنه لما كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق كان الانحراف عن الدين القيم فيحياة البشر ، ووجد تبعا لذلك - الى جانب الصالح الطالح ، والى جانب الكريم اللئيم ، وبجوار التقي الورع الفاسد الماجن . وكان من منهج الاسلام في في بناء شخصية المسلم أن يسعى لتقويم الاعوجاج الذي يقع للمسلم ، واصلاح الانحراف الذي يحدث في حياته ، بغية اعادة المسلم الى أصله وهو الاستقامة على الجادة . لذا أوجب الله على الصالحين الكرام - تفضلا منه وكرما - أن يبذلوا وسعهم في هذه السبيل ، وأن يتخذوا من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لهذا الاصلاح ، لأنه اذا قصّر الخيرون والصالحون فيأداء هذا الواجب ، عمّت الفواحش والمنكرات ،وتفاقم الشر وهلكت الأمة لذلك فان الأمم التي يكون خيارها أكثر من شرارها ،والفساد منحصر فيها في بعض الجوانب ، تكون مهيأة للرقي والتقدم والبقاء . أما اذا كان الأمر بالعكس ، فغلب شرارها خيارها ، وعم الفساد ، وتفشت السيئة في حياتها ، فان سنة الله فيها أن تتدهور وتتبدد قوتها لتفريطها في سر بقائها ، وقد يطول أمد بقائها ، ولكن مصيرها الى الاضمحلال مهما طال الزمن ، لأن عنصر البقاء فيها منعدم .والى ذلك أشارت الآية الكريمة (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) [1] . وسألت أم المؤمنين زينب بنت جحش النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : "أنهلك وفينا الصالحون ؟ - قال صلى الله عليه وسلم : نعم اذا كثر الخبث " [2] . وهذان النصان يوهمان عند أول نظرة أن عذاب الله بالهلاك ، اذا جاء يعم خيار الأمة وشرارها وصالحها وظالميها ، وقال بذلك بعض العلماء ،ولكن هذا المعنى ليس على هذا القدر من العموم ، بل هناك خصوص وتقييد . فالناس في الأمة منهم من يكون صالحا ، ويكتفي بصلاحه ، فلا يتعدى به الى غيره ، ولا يزعجه سيئات الآخرين ، ومنهم الصالح الذي لايسمح له صلاحه وتقواه بأن ينظر

---

١ سورة الأنفال الآية ٢٥.

٢ البخاري - كتاب الفتن - باب ويل للعرب من شر قد اقترب .
ومسلم - كتاب الفتن واشراط الساعة .

الى السنة تموت والى البدعة تحيا ، وشرا ينشر ويعم ، وخيرا يطوى ، فهو في نشاط دائب ، ومستمر لتدعيم الخير وكسر شوكة الباطل ، هوءلاء هم الصالحون المصلحون الذين يعصمهم الله تعالى كما صرح القرآن الكريم [١] ، يقول الله عز وجل (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجي الموءمنين) [٢] فالله تعالى جلت قدرته يبعث رسله لاصلاح الناس وهدايتهم الى الحق والى صراط مستقيم فيقومون بحمل الأمانة بكل أمانة وقوة وحزم ويسعون لانقاذ قومهم مما ابتلوا به من ضلال وحيرة وفساد وفتنة وظلم وطغيان ، فاذا أصر القوم على المضي في ضلالهم وفسادهم ، أهلكهم الله تعالى ، وينجي الله المهتدين الهادين والصالحين المصلحين منهم من العذاب والهلاك [٣] ، فسنة الله باقية وهي أن الله تعالى لا يعذب الصالحين مع الظالمين الآ اذا أهملوا القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يسعوا لتغيير الوضع بما يوافق شرع الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم : "مامن قوم يعمل فيهم المعاصي ، ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لم يغيروا الآ يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب" [٤] وفي حديث آخر : "ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ،وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكروه ، فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة" [٥] .

يتضح مما تقدم أن الله تعالى يعذب الذين يعملون المعاصي أو الذين لا يغيرون المنكر وهم قادرون على تغييره . أما الذين يقومون بواجبهم من تغيير المنكر في مجتمع فاسد ، فيبدو جليا أنهم يكونون بمنجاة من عذاب الله ، وبذلك قال ابن أبي حمزة والعلامة القرطبي فيما رواه ابن كثير وابن حجر العسقلاني [٦] . ومما يوءكد أن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ينجون من عذاب الله على كل حال-إن شاء الله-، قصة أصحاب السبت ، فقد جعل الله يوم السبت محرما على بني اسرائيل ، وأمرهم أن يخصوه بالعبادة ، ولا يشتغلوا بأمر من أمور الدنيا ، ولكن قرية من قراهم كانت حاضرة

---

١ انظر السيد جلال الدين العمري - المصدر السابق ص ١٠٨.
٢ سورة يونس الآية ١٠٣.
٣ انظر السيد جلال الدين العمري المصدر السابق ص ١٠٩-١١٠.
٤ سنن أبوداود - كتاب الملاحم - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٥ سنن أبو داود - نفس المصدر .
٦ تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٢٥٦ ، وفتح الباري ٤٨/٣.

البحر ، خالفت أم ربها ، وأخذت في اصطياد السمك يوم السبت ، ويفهم من القرآن الكريم أن طائفة من أهل هذه القرية نهتهم عن ذلك ووعظتهم فقالت لها طائفة ثالثة "لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا" [1] وكان جوابهم على الفور"معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون" [2] . والقصة كما ترويها كتب التفسير تدل على أن أهل القرية انقسموا الى ثلاث طوائف : طائفة عصت أمر ربها ، وانتهكت حرمات الله ،وطائفة ثانية وعظتها ونهتها وحاولت منعها ،وطائفة ثالثة لم تعص أمر ربها ولم تسع لردع الظالمين العصاة [3] . ويعقب القرآن الكريم على هذه القصة المتعلقة بهذه الطوائف الثلاثةفيقول (فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عن مانهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين)[4]، قال ابن عباس رضي الله عنهما : "كانوا أثلاثا،ثلث نهوا ، وثلث قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم" [5] وعن عكرمة ابن عباس قال في الآية : "ما أدري أنجا الذين قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أم لا ؟ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة" [6] .

قال ابن كثير "ولكن رجوعه (أي ابن عباس) الى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا" – ويقصد (بهذا) قول ابن عباس بنجاة الذين نهوا وهلاك سائرهم. والقرآن الكريم صرح في الآيتين المذكورتين بأمرين : أولهما أن الطائفة التي عصت وطغت أصابها عذاب أليم وثانيهما أن التي وعظت ونهت عن العصيان أنجاها الله ، فالنجاة، مرهونة بقيام القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاذا أهملوا واجبهم أصابهم مثل مايصيب الآخرين من العذاب والهلاك ثم يبعثون على نياتهم كما تدل على ذلك النصوص التي ذكرناها وشيكا .

١،٢ سورة الأعراف الآية ١٦٤.
٣ انظر ابن كثير المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٦.
٤ سورة الأعراف الآية ١٦٥-١٦٦.
٥ ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٢٥٨.
٦ ابن كثير المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٩.
٧ ابن كثير المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٩.

وفي هذا المعنى يقول العلامة الشوكاني رحمه الله : "فان كل من يتأهل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، معرضا عن ذلك ، غير قائم بحجة الله ، ولا مبلغ لها من عباده فهو شريكهم في جميع مااقترفوه من معاصي الله سبحانه ، مستحق للعقوبة المعجلة والموءجلة قبلهم ، كما صح في قصة أصحاب السبت من أتباع موسى عليه السلام ،فان الله تعالى ضرب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسخط عذابه ، ومسخهم قردة وخنازير ، مع أنهم لم يفعلوا مافعله المعتدون من الذنب ، بل سكتوا عن ابلاغ حجته والقيام بما أمرهم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والحاصل أنه لا فرق بين من فعل المعصية وبين من رضي بها ، ولم يفعلها وبين من لم يرض بها لكن ترك النهي عنها مع عدم وجود مايسقط ذلك عنهم" [1] .

فالصراع بين الحق والباطل دائم مادامت في الوجود حياة ، لذلك فان واجب الموءمنين الصادقين في كل زمان ومكان أن يبذلوا جهدهم لاصلاح ماأفسد المفسدون ويمنعوا بشتى الوسائل المشروعة انتشار المعاصي حتى لا تتسرب من الفساق الى غيرهم فيعم البلاء ثم العقاب . فمن الأمور الظاهرة والبينة أن الذي يعيش في بيئة فاسدة يخشى عليه من السقوط ، ولا ينجيه منه الا قيامه وسعيه الدائب لابطال المفاسد والرذائل المنتشرة في البيئة التي حوله ، ليحل محلها الخير والفضيلة ، وان أيّ تهاون أو قعود عن هذه المهمة يجعله في وضع ضعيف منهزم أمام المنكر الذي أعرض عن السعي لازالته ، ومن الأمور المألوفة كذلك أن القلب لا يثبت على حال واحدة ، فالقلب الذي ينفر من الشرور والرذائل ، يألف مع الزمن تلك الرذائل ويتعودها تدريجيا ، حتى يصل مرتبة تجعله يعايش أولئك وقد يستحسن ماهم فيه من شر ورذيلة . ومصداق ذلك ماذكره النبي صلى الله عليه وسلم من أن بني اسرائيل لما بدت المعاصي والمنكرات تفشو فيهم ، كان الرجال الصالحون منهم ينكرونها ، ولكنهم لما رأوا انكارهم لا يجدي شيئا آثروا جانب السكوت ، ثم أخذوا يجالسونهم ويخالطونهم ، مما أدى الى زوال النفور من المعصية عن قلوبهم ، ولم يبق بعد ذلك من ينكر المنكر ، فانصرفت رحمة الله عنهم ، واستحقوا

---

١ مجموعة الرسائل المنيرية جـ ٢ ص ٢٠٣ ـ(ادارة الطباعة المنيرية بمصر عام ١٣٤٣هـ).

اللعنة . فقد روى أبو داود بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مادخل النقص على بني اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه أن يكون أكيله وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم" زاد ابن كثير : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا" [1] .

وقد بالغ القرآن الكريم في ذم العلماء وأولي الأمر من بني اسرائيل الذين بوأهم الله تعالى مكانة مرموقة بين أممهم ، لكنهم قصروا عن أداء مسئولياتهم ، فكانوا يرون الناس حولهم يعصون الله ، ويعتقدون في غيره ، ولا يفرقون بين الحلال والحرام فلا يفعلون شيئا لتغيير هذا المنكر [2] يقول تعالى ذكره (وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ماكانوا يعملون لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون) [3] . قال الرازي رحمه الله عند تفسير هاتين الآيتين . "ان الله تعالى استبعد من أهل الكتاب أنهم مانهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي ، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه ، لأنه تعالى ذم الفريقين في هذه الآية على لفظ واحد" [4] . وقد أشار الرازي في المصدر نفسه الى أن القرآن الكريم قد ذم تارك النهي عن المنكر بأشد مما ذم مرتكبه ، حيث قال في الأول (يصنعون) بينما اكتفى في الثاني بقوله (يعملون) ، والآيتان هنا وان كانت تتحدث عن بني اسرائيل الا أنهما موعظتان عظيمتان للمسلمين ، فقد روى ابن كثير في تفسيره عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لاترتكبوا ماارتكب اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل" [5] . وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة فساد بني اسرائيل وهلاكهم ، ثم أوصى أمته بقوله : "والذي نفسي بيده لتأمرن

---

١ سنن أبو داود – كتاب الملاحم – باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٢ رواية عن الامام أحمد رحمه الله .
٢ السيد جلال الدين العمري : المصدر السابق ص ١١٥.
٣ سورة المائدة الآيتان ٦٢ و ٦٣.
٤ مفاتيح الغيب ج ٣ ص ١٣٨.
٥ ابن كثير – المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٧– قال وهذا اسناد جيد.

بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسيء ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم" وذكر طائفة من الأحاديث المشهورة في الباب ومن ذلك مارواه عن ابن عميرة عن النبي صلىالله عليه وسلم قال : "اذا عملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرهها وقال مرة فانكرها كان كمن غاب عنها ،ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها" [١] . وحديث أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله : متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟! قال : "اذا ظهر فيكم ماظهر فيالأمم قبلكم . قلنا يارسول الله : وماظهر فيالأمم قبلنا ؟! قال : الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم" قال ابن كثير "قال زيد تفسير معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : والعلم في رذالكم اذا كان العلم في الفساق" [٤] وحديث أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحقرن أحدكم نفسه . قالوا يارسول الله : كيف يحقرن أحدنانفسه ؟ قال : يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله يوم القيامة مامنعك أن تقول في كذا وكذا وكذا ! فيقول خشية الناس . فيقول فاياي كنت أحق أن تخشى" [٥] . وعن أبي سعيد رضي الله عنه أيضا انه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ان الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول مامنعك اذا رأيت المنكر أن تنكره ، فاذا لقن الله عبدا حجته قال : رجوتك وفرقت الناس" [٦] .

من هذا يتبين مدى الأهمية التي يوليها الاسلام لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهي شعيرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بصلاح الفرد والجماعة وفي احيائهاحياة المسلمين ، لأنها من أظهر صفات الموءمنين ، وسمة أساسية من سماتهم ، وهي الوسيلةالى قوتهم وتماسكهم ، والغفلة عنهاأو التهاون فيها يجر عليهم الشقاء والدمار والبلاء والفرقة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الواردة في هذا الأمر .

---

١ سنن أبو داود- كتاب الملاحم - باب الأمربالمعروف والنهي عن المنكر،وانظرابنكثير ص ٨٣.
٢ ابن كثير المصدر السابق ج ٢ ص ٨٤ - وذكر ان الحديث مما انفرد به أبو داود،وانظر ابوداود المصدر السابق
٣،٤ ابن كثير المصدر السابق ج ٢ ص ٨٤ - قال ابن كثير تفرد به ابن ماجة .
٥ ابن كثير المصدر السابق ج ٢ ص ٨٤ - قال ابن كثير تفرد به ابن ماجة .
٦ ابن كثير المصدرالسابق ج ٢ ص ٨٤ - وقال ابن كثير تفرد به ابن ماجة .

الفصـــل الخـــــــــــامس

بنـــــاء الشخصية المؤمنة من خلال الدعوة الى الله

المبحث الأول: من مفهوم الدعوة والعمل الجمــــــاعي:

أ- مفهـــــوم الدعوة الى الله:

ان كلمة الدعوة مصطلح اسلامي ،يشترك فيها المدلول اللغوى ،ومدلولها الاسلامـــي بمعني أن كلا المعنيين اللغــوى والاسلامي يؤديـان الى مفهــوم واحد ٠

فالمعني اللغوى لا يحمل الا معني واحدا ، وهو: أن تميل الشئ اليك بصوت وكــــلام يكون منك ،٠ (١) والاحـــالة هنا مقتصـــرة على شيئـين ،الصوت والكلام ، الذين يخرجان من محدثهما وحين ذاك لا يكون لهذا اللفظ مدلول آخـر ،فحين نقـرأ قوله تعـــــالى: (ومن أحسن قـولا مما دعا الى الله ،وعمل صـالحا ،وقال اننى من المسلمين) نفهم أن الله تعـالى فضل من دعا اليه بـانه أحسن قـولا ممن لم يدع اليه ٠ وقوله تعالى: (ادع الى سبيل ربـك بالحكمة والموعظة الحسنة ٠٠) (٢) يدل على الاحـــالة والتـــرغيب ٠

والذى يقـوم بــأمر الدعوة ويحمل عبـــأهـا ليبلغها الى النـاس هو الذى يطلق عليه الاسلام: الداعي أو الداعية ، والداعي اسم فـاعل من الفعل دعـا يدعو ،أما الداعية فهو بنـــاء اسم الفـــاعل أيضـا مع تـاء يلحـق فى آخـــره ليدل على المبالغة والتكثيـــر واذا أردنـا الجمع قلنا دعـاة والجمع السالم داعـون ،وداعيـــات ٠ (٣)

والواقع أن الدعوة الى الله هى وظيفة الرسل جميعـــا ، ومن أجلها بعثهم الله تعـالى الى النـاس ،فكلهم بلا استثنــاء دعوا أقوامهم ومن ارسلوا اليهم الى الايمـان بـــــالله والعبــــادة له وحده ،والتبـرؤمن عبـــادة سواه ٠ قـال تعالى: (ولقد بعثنا من كل امة رسولا أن اعبـدوا الله واجتنبـوا الطاغـوت ٠) فرسل الله هم الدعاة الى الله ، وقـــــد

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٢٧٩ ومختار الصحاح ص ٢٠٥ -٢٠٦ والقاموس للفيروربادى ج ٤ ص ٣٢٩ ٠

(٢) انظر محمد أحمد الراشد المنطلق ص ٨٦ -٨٧ مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦هـ ومحمدنمر الخطيب مرشد الدعوة ١٩ - ٢٢ دار المغرمة للطباعة والنشر بيـــروت الطبعة الاولى سنة ١٤٠١هـ ٠

(٣) من مقال للاستاذ رشيد الأظمي من مجلة التربية الاسلامية ٥/٤٧١ وانظر المنطلق ص ٧٨٠

(٤) مجموع فتـاوى ابن تيمية مج ١٥ ص ١٦١ ٠

(٥)

(١) أختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها الى الناس ، وبارسال خاتم الانبياء والمرسلين انتقلت مهمة التبليغ الى الأمة الاسلامية وستظل هكذا الى أن تقوم الساعة .

ب- ضرورة العمل الجماعي:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بتربية المؤمنين بنفسه ،ويرعاهم برعاية النبوة الواسعة ،وكان الوحي يتنزل آيات بينات ،وكانت الأحداث تمر تربي وتهذب . واليوم ، وقد انقطع الوحي ،وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بقي كتاب الله ،وسنة نبيه المصدر الرئيسي لكل تربية وبناء ،وكل توجيه وارشاد .

ولكن المهمة تحتاج مع هذا المصدر المصدر ،إلى جهود وطاقات لتقوم بالعمل وتخطط له ،وتدرس أساليبه وأبوابه ،مستمدة من هذا المصدر الرباني ، وتظل الممارسة والعمل والتجربة والمران بابا هاما من أبواب التربية ،ووسيلة من وسائلها ، ومدرسة من مدارس الايمان حتى يكون منهاج الله هو الذى يوجه ، والجهد البشرى المؤمن الصادق هو الذى يحاول ويبذل والميدان بالطبع - مفتوح لكل مؤمن عامل .

إن تعاليم الاسلام انما جاءت لتنشىء ،جماعة ،وامة ترتبط فيما بينها بروابط ، وتخضع لأحكام وقواعد ، تعمل كلها معا فى وقت واحد ،لتدفع المواهب بسهولة ويسر ، وتنمى الطاقات بقوة وثبات ، فالاخوة فى الله ،والاخلاص لله ،ونبذ التحاسد والتظالم ، والتعاون على البر والتقوى ،وجميع ذلك يمثل قواعد تتماسك فى منهاج رباني واحد متكامل يفتح الآفاق لكل موهبة ولكل طاقة .

وكلما صح التطبيق ،وصدقت التربية وجدت النفوس جميعها سبيلها للعمل والبذل، وأخذت كل موهبة مكانها بجدارة وعدل يضم ذلك كله جو السماحة واليسر ،والتعاون والاخلاص . جو جماعة الايمان وامة الاسلام .

فلا بد من عمل جماعي لجمع جهود وطاقات الأفراد العاملين فى مجال الدعوة الى الله - أيا كان موقعهم فى المجتمع - لتحقيق الاخاء والتعاون على البر والتقوى بين أفراد المجتمع من خلال تربية عناصر المجتمع المختلفة . وقد يرد سؤال هام فى هذه الناحية مفاده : هل من شرط الدعوة إلى الله ،أن تكون جماعيا أم تكفى فيها جهود الأفراد الذين لا يجمعهم تنظيم ولا يخضعون لضوابط معينة من أنظمة ولوائح ورؤساء ومرؤسين ؟ ! ! .

(١) انظر عبدالكريم زيدان أصول الدعوه ص ٢٦٨ ط-الثالثة سنة ١٩٧٦م .

ان بعض الناس يفضل العمل الفردى وينتقد العمل الجماعى بصورته التى تتبناه الجماعات الاسلاميه وحجتهم فى ذلك:- (١)

١) أن المسلمين أمة واحدة فلا ينبغى أن نفرقهم الى احزاب وجماعات ويرددون هنا شعار "لاحزبيه فى الاسلام"، ويقولون أن المسلمين جميعا حزب واحد هو "حزب الله" وماعداه، فأحزاب الشيطان. فتفريق الأمة الواحدة الى أحزاب خروج عن هذا المبدأ الاسلامى ووقوع فى صفة من صفات الكفر، حذر فيها القرآن الكريم فى قوله تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، لست منهم فى شئ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون.) (٢) وقوله تعالى:(وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون.) (٣)

٢) وأن المسلمين جميعا إخوان وأنصار لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجماعة إسلاميه، فالذين يسمون "الاخوان المسلمون" أو "جماعة أنصار السنة" أو "جماعة التبليغ" أو "الجماعة الاسلاميه" كأنهم يحتكرون هذه الصفات، ويشعرون من ليس عضوا فى جماعتهم أنه ليس أخا مسلما، ولا ناصرا لسنة رسول الله، ولا منتميا الى جماعة المسلمين. (٤)

٣) وأن واقع هذه الجماعات يشعر بتفشى الروح الحزبية والفرقة فيها، فهم يفرقون فى المعاملة بين من ينتمى الى جماعتهم، ومن لا ينتمى اليها، ويعتبرون كل من ليس معهم فى درجة أدنى، وإن كان بمقياس العلم والعبادة والعمل أفضل وأرقى، وكل جماعة منهم تتعصب لرأى رؤسائها وقادتها المفكرين، وتتعامل مع كل ما يصدر عنهم كأنه نص كتاب أو سنة، ولكنها لا تتورع فى تسفيه آراء المخالفين. (٥)

ويقول الدكتور جعفر شيخ ادريس فى معرض رده على هذه الحجج، "ونقول :

أ- "مما لا شك فيه أن المسلمين "أمة واحدة، وكل عمل يؤدى الى بذر الشقاق والنزاع بينهم

---

(١) انظر د. جعفر شيخ ادريس بحث ضرورة العمل الجماعي - بحث مطبوع على الآلة الكاتبة لم ينشر بعد.

(٢) سورة الانعام الآية ١٥٩.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٢ - ٥٣.

(٤)،(٥) انظر . بحث ضرورة العمل الجماعي - ص ١ .

هو بلا شك عمل مذموم ،فان ثبت أن أى تقسيم للامة الواحدة الى جماعات متميزة بأسمائها وبعض صفاتها ، يؤدى حتما الى هذه النتيجة ،فقد ثبت أن تكوين الجماعات أمر مذموم" .(١)

"ولكننا نجد فى القرآن الكريم أنه لا بأس على هذه الامة الواحدة أن تظل شعوبا وقبائل وأن تتميز فيما بينها بالتقوى ، ونعرف أن خير القرون كان فيه جماعتان متميزتان باسميهما وزعمائهما ، وأنه بعد وفاة الرسول صل الله عليه وسلم ، اجتمعت كل منهما لتناقش أمر الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ثم كان ما كان من مبادرة أبو بكر وعمر وأبى عبيدة الى اعلان أحقية قريش لهذه الخلافة (٢) اذن فما كل تقسيم للامة الى مجموعات متميزة مخالف بالضرورة لمبدأ وحدة الامة ،بل قد يكون عاملا فى تقويتها كما قد يكون تفريغا لها ، وتهوينا لرابطتها ،فالمسألة اذن تعتمد على نوع التقسيم لا على جنس التقسيم" .(٣)

فالتقسيم المذموم هو الذى دلت عليه الآيتان المذكورتان آنفا ، يقول الحافظ ابن كثير فى تفسير معنى آية المؤمنون فى قوله -(وان هذه امتكم أمة واحدة) - أى دينكم يا معشر الأنبياء ،دين واحد ،وملة واحدة ،وهو الدعوة إلى عبادة الله ، لا شريك له ،ولهذا قال :(وانا ربكم فاتقون ...)وقوله :-(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) أى الامم الذين بعث اليهم الأنبياء كل حزب بما لديهم فرحون ،أى يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون .) (٤)

ويقول فى تفسير آية الأنعام :(٥) والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله ، وكان مخالفا له ، فان الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ، ولا افتراق ،فمن اختلف فيه (وكانوا شيعا) أى فرقا كأهل الملل والنحل - وهى الأهواء والضلالات - فالله تعالى قد برأ رسوله مما هم فيه وهذه الآية كقوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ،والذى أوحينا اليك ..)(٦) الآية وف الحديث : (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ،ديننا واحد) (٧)

"فهذا هو الصراط المستقيم ،وهو ما جاءت به الرسل ،من عبادة الله وحده لا شريك له .

---

(١) ضرورة العمل الاسلامي ص ١
(٢) انظر سيرة ابن هشام .
(٣) انظر المصدر السابق ص ١
(٤) ، (٥) ابن كثير تفسير القرآن الكريم - جـ ٢ ص ١٦٧
(٦) سورة الشورى الآية ١٣ (٧) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٧ ص ٦٥

والتمسكبشريعة الرسول الخاتم ،وما خالف ذلك ،فضلالات ،وجهالات وآراء وأهواء والرسل براء منها كما قال تعالى : (لست منهم فى شئ ". (١)

نفهم من هذا التفسير للآيتين آن الامة الواحدة ، هى المستمسكة بالدين الحق الواحد ، فيمكن أن تكون واحدة وهى مقسمة الى شعوب وقبائل وجماعات ،مادامت كل هذه المجموعات مستمسكة بالدين الواحد،ويمكن أن تكون متفرقة مذمومة ،وان لم تكن فيها جماعات كالتى نتحدث عنها اذا اعتقد أفرادها عقائد باطلة مخالفة لذلك الدين الواحد. (٢)

(٢) "وأما التسمي باسماء من شأنها أن تكون صفات لعامة المسلمين ،كالاخوة ونصرة السنة ،فلا يعني حصر هذه الصفات فى الجماعات التى تسميت بها اذا اعتقدت الجماعة المسماه هذا الاعتقاد ، وجعلته مذهبا لها ،والا فان الذى يسمى ابنه عبد الرحمن مثلا لا يعنى أنه وحده عبد الرحمن ومن عداه فعبيد الشيطان" . (٣)

(٣) "وأما تفشى روح الحزبية والفرقة ،فليس أمرا لازما لكل جماعة منظمة ،ولكنه مزلق يمكن أن تقع فيه كما يمكن أن يقع فيه الافراد غير المنخرطين فى سلك تنظيم واحد فالطالب قد يتعصب لرأى استاذه او شيخه ،والمنتمي لمذهب قد يتعصب لرأى امامه واهل البلده او القطر قد يتعصبون لرأى علمائهم ،تعصبا يحملهم على نصرة كل مايقولون وعدم الاستماع لرأى المخالف مهما أيده الدليل . واذن فهذا اشكال لن يحله عدم تكوين الجماعات أو عدم الدخول فيها ،بل يساعد على حله أن يرى المسلم – لا سيما الداعية – على أن لا يقدم بين يدى الله ورسوله ،وأن كل انسان يؤخذ من قوله ،ويترك الا الرسول صلى الله عليه وسلم ،وانه ما من امام من أئمة المسلمين المعروفين الا وقد دعا الناس الى طرح رأيه اذا تبين لهم مخالفته للدليل الشرعي ،واننا ان لم نفعل هذا لا نكون مستمسكين بدين الله ولا دعاة الى الله ، بل معتنقين لاراء الرجال داعين اليها". (٤)

إن الجماعات المنظمة معرضة أكثر من غيرها للوقوع فى هذا المزلق ،ولكن الوقوع فيه

---

(١) ضرورة العمل الجماعى ص ٢

(٢) المصدر السابق ص ٢

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة

ليس بالأمر اللازم لها الذى يدعونا الى مجانبتها،فالمسلك السليم أن نوجه الجماعة وتبصرها لتأخذ حذرها من هذا الخطر،ونبذل فى سبيل ذلك جهدا أكبر فى تربية وتوجيه المنتسبين اليها على تجنبه (١)

ومما تقدم يتبين لنا ان الاعتراضات على تكوين الجماعات ليست بالقوة المفضية الى ترك الدعوة الى الله فى جماعة ،والأخذ برأى من قالوا بتفضيل وتقديم العمل الفردى،وهداية الناس للحق عن طريقه ٠

وفيما يلى نذكر بعض الأسباب التى تدعو الى تكوين مثل هذه الجماعات :

إن العمل الجماعى أمر لايتم واجب الدعوة — فى بعض الحالات — إلا به ،كما لا يتم إلا به واجب النصرة والدفاع عن المسلمين ٠ وعلى هذا دلت السنة النبوية وأكدته تجارب العاملين فى الحقل الأسلامى،وتجارب المسلمين من قبل ،بل وتجارب الأمم من غير المسلمين :

(١) فالرسول صلى الله عليه وسلم ،كان فى الطور المكى من دعوته ،يدعو الناس الى توحيد الله والتصديق بانه رسول الله ،ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتفى منهم بهذا الحد الأدنى الكافى لدخولهم فى الأسلام ،ولو فعل لكان (كالواعظ) ينتقل من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد يشرح للناس رسالته ،ويترك المؤمنين به أفرادا موزعين لا يربط بينهم الا رباط الأنتماء الى الدين الجديد،ولكنه صلى الله عليه وسلم ،كان لا يكتفى منهم باعتناق العقيدة التى تدخلهم فى الاسلام ،بل كان يكون منهم مجتمعا جديدا ،يتآخون فيه ، ويتدارسون ويتربون فيه على القيم التى تقتضيها عقيدة التوحيد،ويشاركون الرسول صلى عليه وسلم فى تحمل اعباء الدعوة ،ويتعلمون فيه الأنضباط ،والسلوك الجماعى ،سيما فى مجابهة المجتمع الجاهلى،يكونون به بذرة القوة التى ستنصر الرسول حتى يتمكن من تبليغ رسالته ودعوته ٠ (٢)

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى أواخر عهده بمكة المكرمة قبل الهجرة — يعرض نفسه

---

(١) انظر بحث ضرورة العمل الجماعي — ص ٢ ٠

(٢) ،، المصدر السابق ص ٣

على القبائل في كل موسم من مواسم الحج - وذلك لما رأى من معادات قريش له ومنعه من تبليغ دعوته للناس ،وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أن دعوته لن يكون لها شأن ،مالم تجدقوة تحميه وتحمى جنده الذين آمنوا بها ، ولذلك فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتفى بدعوة القبائل الى الاسلام ،بل كان يدعوهم أيضا الى أن يكونوا له ولدعوته سندا وقوة تحميه ،وعلى هذا بايعه الرواد الأوائل من الأوس والخزرج بالعقبة فآووا رسول الله والمهاجرين معه ،فولدت بأنفسهم دولة الاسلام الجديدة ،فنالوا بذلك شرف لقب الأنصار[١] .

هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا ينبغى أن يفعل - تأسيا به - كل من يريد اعادة دولة الاسلام أو يسعى فى تكملتها ، كلما غابت عن الوجود أو نقصت من الكمال الواجب . ان العمل لهذا الهدف لا يتحقق الا بعمل جماعي ، فعلى الذين يريدون أن يعود للاسلام مجده ودولته ،أن يسلكوا اليه سبيله ،والا كانوا : (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه ،وما هو ببالغه[٢] .

(٢) اذا كنا متفقين على أنه لا بد من عمل اسلامي على المستوى الفردى ،فلماذا لا يتعاون الأفراد على أداء هذه المهمة ، اذا تبين لهم تعذر أدائها كاملة عليهم ،وهم أفراد متفرقون غير مجتمعين ولا متعاونين ؟! .

ثم ان الدعوة فى هذا العصر لا بد لها من وسائل إعلام حديثة ،مثل الصحف اليومية ، والمجلات الدورية والرسائل والكتب التوضيحية والتثقيفية ،ولا بد مع هذه الوسائل غير المباشرة من تنقل الدعاة والحديث المباشر الى الناس ،ولا بد للدعاة الناشئين من رعاية متصلة بالتعليم والتربية ،وكل هذا وغيره يحتاج الى مال ، وكلما ملك الدعاة الى الله الامكانات المالية اللازمة لتحركها ،وسد متطلباتها ،كلما اتخذت الدعوة من وسائل العصر أوفاها بالغرض . وبما أن الامكانات المالية ليست متوفرة للأفراد ،ولكنهم قادرون على توفيرها اذا تعاونوا ،فلا بد اذن - من تجمع الدعاة فى جماعة ليكونوا عونا لبعضهم فى حمل الرسالة وأداء مهام التبليغ الى الناس[٣] .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٣ .
(٢) انظر ضرورة العمل الاسلامي الجماعي ص ٣
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

ومع المال تحتاج الدعوة الى العلم والرأى ،فكلما التقى الدعاة لقاء منظما ،علم بعضهم بعضا واستخلصوا أحسن ما عندهم من آراء لمراجهة مشكلات الدعوة ،وكلما كان التعاون أدوم وأوثق نظاما ، كلما كان أقدر على توفير المال ،وبث العلم ،واحسان التربية ، واستخلاص أصوب الآراء[1] .

(٣) المفروض فى الجماعات التي تدعو الى المجتمع الاسلامي ،أن تكون نموذجا مصغرا لذلك المجتمع المنشود :

أ- ليرى الناس فى علاقاتها الاجتماعية ، وترتيباتها الادارية ،ومواقفها السياسية ومعالجتها للمشاكل الواقعية ،وسائر تصرفاتها ،صورة حية ،ماثلة أمامهم ،لذلك المجتمع فلا تكون الدعوة اليه أو الحديث عنه كله حديثا نظريا يراه بعض الناس ضرباً من الخيال .

ب- ويرى الدعاة أنفسهم فى نموذج جماعتهم صورة لما يدعون اليه ،فلا تكون تصورهم له بعيداً عما يمكن تحقيقه ،ولا يتصورونه مجتمعا مثاليا ،خاليا من المشاكل البشرية ،وهم يعانون هذه المشاكل فى مجتمعهم المصغر . وبذلك تكون الجماعة ،حقلا للتجارب بالنسبة للمجتمع الاسلامي المنشود ،فما رأوه عيباً فيها سعوا فى اصلاحه وعلاجه قبل أن يستفحل ،وما رأوه حسنا وخيرا ،عملوا على تثبيته واقراره والحث عليه[2] .

(٤) ان المسلم كثيرا ما يجد نفسه فى دولة علمانية ديمقراطية ،فهى ليست اسلامية ولا شيوعية ،ولا ملتزمة بايدولوجية معروفة ،ولكنها تسمح بتكوين كل الاحزاب ،وتعطيها قدرا من حرية العمل ، والدعوة فى اطار قانونها .

يجد المسلم نفسه فى هذه الدولة ،ويرى أن أصحاب الايدولوجيات غير الاسلامية يتكتلون فى جماعات اسموها أحزابا ،أو لم يسموها ، ويرى أن هذا التكتل منهم قوة على التأثير لا توجد فى العدد المشتت الكثير ،فهم بقوة اجتماعهم ومتانة تنظيمهم يؤثرون فى وسائل الاعلام ، واتحادات الطلاب والموظفين ، ونقابات العمال ،وأجهزة الأمن والجيش ،وكثيرا ما يستغلون هذه للوصول الى السلطة ،والتحكم فى رقاب رعايا الدولة ،وفى مقدمتهم الدعاة الى الفكرة الاسلامية[3] .

١- انظر ضرورة العمل الاسلامي الجماعي ص ٤ .
٢- انظر المصدر نفسه نفس الصفحة .
٣- انظر نفس المصدر والصفحة .

فلا يعقل عقلا ، ولا يقبل منطقا أن يظل المسلمون فى مثل هذه الظرف ،ولا يكون لهم تجمع يدفع عنهم كيد الأعداء ، وبطش الحكام ، وحجر الفكر عن الناس ،بحجة أنه لا حزبية فى الاسلام • والايمان يمثل هذا الشعار ،غفلة واضاعة للحق الذى أمروا بنصرته وأى تقاعس من المنتسبين لهذا الدين ، عن دفع الباطل ونصرة الدين ،وهم قادرون على ايجاد القوة التى تجعل لهم المتعة ،يعنى أنهم آثمون جميعا ومالم تقم منهم جماعة بهذه المهمة عمهم الله تعالى بالبلاء والعذاب حتى يقوموا بالواجب[١] •

فالعمل الاسلامى الجماعي اذا ضرورة تقتضيها اتباع منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ، وتفرضها الظروف والواقع الذى يعيشه المسلمون اليوم وسط تيارات مختلفة واهواء مدمرة ،والانصراف عنه الى اسلوب الدعوة الفردية هو تعريض للمسلم للهلاك ،حيث لا يأمن نفسه من الفتن فالمؤمن قوى بالله ،ثابت باذن الله وبنصرة اخوته فى الاسلام له •

١- انظر ضرورة العمل الجماعى الاسلامى ص ٤ .

المبحث الثاني: العمل الجماعي عند السلف

من المقاصد الشرعية المشهورة لدى علماء أصول الفقه ، أن مالا يتم الواجب الا به فهو واجب ، فاذا كانت الدعوة الى الله تعالى واجبة على المسلمين عامة وعلى علمائهم خاصة ، كان حصر العلماء أنفسهم بين الجدران تعطيل لهذه الفريضة . والواجب عليهم أن يخرجوا الى الجموع من الناس ، ويبصروهم للحق ، ويقودونهم فى كل أمر ومرفق يستدعى ذلك ، كما قاد الامام أحمد بن حنبل ، جموع الخير فى معارضة الجهمية ، والمعتزلة الذين أرادوا صرف عقيدة الأمة ، ببدعه خلق القرآن ، ونازع الدولة كلها حين أرادت فرض البدعة بالقوة ، حتى نصرة الله بالمتوكل ، اذ كان المتوكل صحيح العقيدة ، فبدل جهاز الدولة ، وطهره من المبتدعة ، وأخمد فتنتهم[1] .

ان تبليغ دعوة الله تعالى الى الناس ، كانت مهمة الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ولعلمهم بأهمية هذه المهمة ، وأن ذلك آثر عند ربهم ، فقد آثروا تعليم الخلق عن خلوات التعبد ، وكان شغلهم معايشة معاناة الخلق ، وحثهم على كل خير وبر ونهيهم عن كل منكر وإثم ، فكانوا بذلك القدوة والقادة والمرشدين وكذلك كان السلف الصالح من هذه الامة ، كانوا أئمة للعامة ، يتصدون لارشاد كل الناس فيتزايد حب القلوب لهم تدريجيا ، ويرون فيهم القدوة الصحيحة التى لا مطعن فيها ، فيتبعونهم ويمتثلون أمرهم .

وقد عدد الزاهد الشهود بشر بن الحارث الحافي رحمه الله تعالى ، الخصال التى

---

(١) انظر محمد أحمد الراشد: المنطلق ص ١٤٥

(٢) انظر أبو الفرج بن الجوزى صيد الخاطر ص ٤٢ .

امتاز بها أحمدبن حنبل وفضل بها عليه ،وقصر هو عنها،منها:-(أنه نصب إماما للعامة)[1] ووصف الأوزاعي بأنه :(كان رجل عامة)[2] • والمقصود بالعامة هنا جمهور الناس ، القارئ منهم والأمي[3] •

وقد أوضح بعض العلماء شرعية العمل الجماعي في احقاق الحق ،وابطال الباطل ، والدعوة الى دين الله مطلقا ونصرة شريعته ، ولم يقيدهم في ذلك المسميات المختلفة للجماعة ،مثل لفظ (الجماعة) أو (الحزب) أو (كتلة) •• الخ وكانوا يرون أنه اذا كان العمل جماعيا ،فلا بد من أن يكون له قائد أو رئيس ،سواء سمى ذلك القائد زعيما أو مرشدا أو رأس حزب •

ومصداق شرعية العمل الجماعي بهذه الكيفية نجده بوضوح عند شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى • يقول رحمه الله : (••• أما لفظ الزعيم فانه يمثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين • قال تعالى (ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم •)[4] فمن تكفل بأمر طائفة فانه يقال : هو زعيم • فان كان قدتكفل بخير كان محمودا على ذلك ،وان كان شرا كان مذموما على ذلك[5] •

"وأما رأس الحزب فانه رأس الطائفة التى تتحزب أى تصير حزبا • فان كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ،ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون،لهم مالهم وعليهم ما عليهم • وإنْ كانوا قد زادوا فى ذلك ونقصوا ،مثل التعصب لمن دخل فى حزبهم والباطل فهذا من التفرق الذى ذمه الله تعالى ورسوله ،فان الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن التفرقة والاختلاف ،وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ،ونهيا عن التعاون على الاثم والعدوان •"[6]

وهذا النص فتوى ثمين لشرعية العمل الجماعي ،وحجة قوية على من أنكر العمل الجماعي

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج٢ ص ٢٣ •
(٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٤١ •
(٣) انظر محمد أحمد الراشد: المنطلق ص ١٤ •
(٤) سورة يوسف الآية ٧٢
(٥) ابن تيمية ـ الفتاوى ج ١١ ص ٩٥ •
(٦) المصدر السابق نفس الصفحة •

واعتبره بدعة غريبة على أساليب العمل الاسلامى والدعوة الى دين الله تعالى.[1] وفى معنى قوله تعالى:(وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير)[2] ، قال ابن القيم الجوزيه: "فالربيون هنا: الجماعات، باجماع المفسرين، قيل إنه من الربه "بكسر الراء" وهى الجماعه".[3]

وقد فقه الصحابة رضوان الله عليهم وسلف هذه الأمه هذا المعنى عن وعى وادراك، فقاموا بواجب الدعوة الى الله، افرادا وفى جماعات، وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى عن ابن عقيل أن أبا بكر الاقفالى كان اذا نهض لانكار المنكر استتبع معه مشايخ لايأكلون الا من صنعة أيديهم، كأبى بكر الخباز، شيخ صالح أضر(أىصار ضريرا) من اطلاعه على التنور.وتبعه جماعة ما فيهم من يأخذ صدقة، ولايدنس بقبول عطاء -أى هدية من رجال الحكم- صوام النهار، قوام الليل، أرباب بكاء،فاذا تبعه مخلط رده وقال: "متى لقينا الجيش بمخلط انهزم الجيش".[4] وهو وعى وفقه صحيح،لأنه بدون مثل هذه الشروط الدقيقة،فان الجماعة التى تستهدف الاصلاح وتبليغ دعوة الحق،تصبح مأوى للضعفاء،وتفقد صلابتها،وتحرم نعمة نصر الله لفقدان بعض أفرادها لشروط النصر.

وقد تطرق الامام الغزالى-رحمه الله - فى معرض كلامه عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن مدى جواز تكوين جماعة تقوم براجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - وهو جزء أساسى فى الدعوة الى الله - دون اذن من السلطة الشرعية فقال رحمه الله: "قال قائلون:لايستقل آحاد الرعية بذلك،لأنه يؤدى الى تحريك الفتن،وهيجان الفساد وخراب البلاد.وقال آخرون:لايحتاج الى الاذن - وهوالأقيس - لأنه إذا جاز للآحاد، الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر،وأوائل درجاته تجر الى ثوان الى ثوالث وقد ينتهى لامحالة الى تضارب، والتضارب يدعو الى التعاون.فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر

---

(١) انظر محمد أحمد الراشد المنطلق ص (١٤٢) .
(٢) سورة آل عمران الآية رقم (١٤٦) .
(٣) ابن القيم الجوزية - مفتاح السعادة ج ١ ص ١٥٤ .
(٤) أبو الفرج ابن الجوزى تلبيس ابليس ص ١٤٥ .

بالمعروف،ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه ،ونحن نجوز للآحاد أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار،قمعا لأهل الكفر،فكذلك قمع أهل الفساد جائز،لأن الكافر لاباس بقتله ،والمسلم إن قتل فهو شهيد،فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لاباس بقتله ،والمحتسب الحق ان قتل مظلوما فهو شهيد." (١)

وفى موضع آخر من كتاب الاحياء يقول -رحمه الله - فى معرض رده على من قال بعدم الحسبة للآحاد من الرعية قال - رحمه الله :- "فان قيل فى الأمر بالمعروف اثبات سلطنة وولاية ،واحتكام على المحكوم عليه ،ولذلك لم يثبت على المسلم مع كونه حقا، فينبغى أن لا يثبت لآحاد الرعية ، الا بتفويض من الوالى،وصاحب الأمر،فنقول: أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة ،وعز السلطان،والكافر ذليل،فلايستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ،وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ؛ومافيه من عز السلطنة والاحتكام لايحوج الى تفويض، كعز التعليم والتعريف، اذ لاخلاف فى أن التحريم والايجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله ،لا يحتاج الى اذن الوالى ،وفيه عز الارشاد ،وعلى المعرف ذل التجهيل ،وذلك فى من مجرد الدين وكذلك النهى" ، ثم خلص رحمة الله تعالى الى أن: "استمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع باجماعهم على الاستغناء على التفويض ،بل كل من أمر بمعروف ،فان كان الوالى راضيا به فذاك ،وان كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الانكار عليه ،فكيف يحتاج الى اذنه فى الانكار عليه ؟. ويدل على ذلك عادة السلف فى الانكار على الائمة ،كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل: انما الخطبة بعد الصلاة ، فقال مروان: اترك هذا يافلان، فقال أبو سعيد - أى الخدرى:- أما هذا فقد قضى ما عليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ،فان لم يستطع فبقلبه ،وذلك أضعف الايمان . فلقد كانوا فهموا من هذه العموميات دخول السلاطين تحتها فلا يحتاج اذنهم ." (٢)

وهكذا كان فقه السلف رضى الله عنهم عن فقه الدعوة والعمل الجماعي .(٣)

---

(١) احياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٣٣

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ .

(٣) وانظر المنطلق ص ١٤٣ - ١٥٤

نكبتان كبيرتان حدثتا فى تاريخ الاسلام ،أتعبتا عموم المسلمين ،ولمدى أجيال بخلاف نكبات صغيرة محدودة الأثر ، كثيرة .

النكبة الاولي: أحدثها هولاكو ،وبلغت ذروتها باحتلاله بغداد عاصمة الاسلام،وكانت النكبة عظيمة ،ولكنها متساوية مع ما كان عليه المسلمون من ضعف فى العقيدة والاخلاق وعزوف عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،وضعف هيمنة الخلفاء . وقد أصابت الامة ذهول وحيرة من هول النكبة ،ولولا أن قيض الله للمسلمين شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله وبعض تلاميذه الذين عاونوه ،لاستمر الذهول لمدة أطول (١)

كان من آثار شيخ الاسلام ابن تيمية ،أنه أعاد الثقة ،وأوضح للناس فقه العمل والحركة ،وحرك ذوى الهمم ،وكان التصدى للغزو التترى ،وايقافه عند حده ،ولم تتعد آثار ابن تيمية وتلاميذه رحمهم الله أجمعين نطاق الشام ومصر ،اذ استمرت تجزئة العالم الاسلامي إلى دويلات صغيرة متنازعة ضعيفة .(٢)

وبعد قرون من نكبة بغداد ،قامت الدولة العثمانية ،وأعادت الى الأذهان معنى للخلافة أقرب الى سمتها الاول الذى عهدها المسلمون فى أواسط الخلافة العباسية ، واستمرت حتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد - رحمه الله - وكانت فترة جديرة بأن توصف حكمها بأنه حكم اسلامي ،على عيوب كثيرة ،ونقص فى تطبيق بعض الأحكام الشرعية فى آخر عهدها ،وعلى ظلم من بعض الولاة الذين اساء السلاطين اختيارهم أحيانا (٣)

أما النكبة الثانية: فاحتلال الجيوش الانجليزية والفرنسية لبلاد الاسلام فى الحرب العالمية الاولى وقضاؤهم على كل محاولة سعت لتقويم انحراف الحكم العثماني عن الاسلام ،وكان مجئ حزب الاتحاد والترقى ،بانقلابه على السلطان عبد الحميد ،فكان شؤما على الامة حيث كان التحريف فى مناهج التربية والتعليم ،وظهور الحركات القومية ،وبداية لانحراف كلى وكامل عن الاسلام ومنهجه ،وعودة الى جاهلية حديثة تحت حكم الجيوش الاستعمارية أو المماليك(٤)

(١) انظر المنطلق ص ١٥٥
(٢) المصدر السابق ص ١٥٦
(٣) المصدر السابق ص ١٧٧
(٤) انظر شكرى نديم - حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨- والمنطق ص ١٥٨ .

وحين أذهلت المخلصين ، الانحراف الضخم عن قيم الاسلام ،بدأت محاولات واعية وجادة الى اعادة الحكم الى سمت اسلامى شرعي واضح على نحو ما كان سابقا (١) ولكن الحرب العالمية الاولى عاجلتهم ،وبانتهاء الحرب انتهت تلك الهمة ،ودفنت الحركة فى مهدها تاركة عموم المسلمين فى ذهول وحيرة •

كان الاسلام بحاجة الى من يعرف الناس طريق العودة الصحيح اليه وبفقه أصول العمل الجماعي ويجمع الناس حوله ،لأن الاسلام يكره التبعية ،ولا يقر أن يحتبس فى القلوب بينما تشيع فى حياة الناس أخلاط من الجاهلية الحديثة والاسلام •

كان الموقف يحتاج الى رجال أقوياء ،يتقدمون الصفوف ،بخطى ثابتة وواعية ويوجهون المسيرة توجيها سديدا ،فكان أن مَنَّ الله على المسلمين بالشهيد حسن البنا الرجل القرآني الفذ - الذى جمع حوله مجموعة الرجال الأفذاذ ،بالاسماعيلية سنة ١٩٢٨م ،واخرج منهم قعوة آمرة وناهية ومؤمنة بالله ،وداعية الى الحق الذى ارسل الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم • ثم كانت حركة الدعوة المنتظمة التى بدأها الاستاذ أبو الاعلى المودودى رحمه الله • فى الهند سنة ١٩٣٨م ،ثم انتقل منها الى باكستان عند بداية اقامة دولة باكستان المسلمة •

فكان اتباع هذين الزعيمين الاسلاميين ،والمرشدين الفذين ،روادا لطلائع حركة اسلامية جماعية فريدة ،عمت معظم أنحاء العالم الاسلامي - وكانت صورة عملية لأصول فقه العمل الجماعي الاسلامي فى العصر الحديث •

وكانت نقطة البداية لهذا العمل الاسلامي الطليعى ،هى نفس نقطة البداية فى أول عهد رسالة الاسلام ،حيث بدأت بايجاد وتربية مجموعة مؤمنة •

---

(١) أول محاولة كانت فى العراق على يد محمد فاضل داغستاني ،وكان من كبار العسكريين وبعض اعيان بغداد من آل الخطيب • وبدأوا يعملون تحت اسم (الحزب الاسلامي) لمناهضة حركة الاتحاديين وكان ذلك فى عام ١٩١٣م ثم بادرتهم الحرب العالمية الاولى ،وفيها مات البطل الداغستاني الذى كان يقود المتطوعين غير النظاميين ضد الانجليز ،وبموت الرجل ماتت تلك الهمة العالية التى كانت أملا ينير الدرب للمخلصين• انظر المنطلق ص ١٥٨ نقلا عن البغداديون ومجالسهم لابراهيم الدريبي •

وصادقة ،تدين بأن الله تعالى واحد،لا شريك له ،وأن محمدا عبدالله ورسوله ،ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ، ويطبقون ذلك فى واقع حياتهم ، ثم يحاولون السعى بهذا الدين فى الأرض لهداية البشرية الضالة ،ويوجدون لهذه الدعوة بقعة من الأرض لا تدين أهلها الا لله الواحد القهار ،فكان لا بدمن طليعة تتقدم الموكب وتعزم على المضى فى الطريق ،مهما كان الطريق شائكا وطويلا[١] .

ثم إنه من سنن الدعوات أن تجتمع الثلاثة باعتبارها أقل الجمع ، ثم يصبحون عشرة والعشرة يصبحون مائة ،والمائة تصبح ألفا ،والألف يصبح اثنا عشر ألفا[٢] .

"واسلوب الطلائع فى محاولة البعث الاسلامي لتحقيق المنهج الاسلامي ،هو أن تؤمن جماعة من البشر ،ايمانا كاملا بذلك المنهج ،وتستقيم عليها قدر طاقتها ،وتجتهد لتطبيقه فى قلوب الآخرين وفى حياتهم كذلك "[٣] . ثم أنه لا بد "من البعث الاسلامي مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تسلم القيادة ،فمحاولة البعث الاسلامي هى الخطوة الاولى التى لا يمكن تخطيها"[٤] .

وهذه الطلائع يجب أن تتميز عن غيرها من الأفراد الدعاة ،وذلك بسلوكطريق الدعوة التى تجتمع على أساس طاعة أمير ، وتلح فى التربية ،و صقل الأفراد لتتبين المعادن الطيبة ،فتجعلها فى المقدمة ،لتخطط وتعدل اعوجاج الصفوة ،ولتغيير الواقع الذى حوله واستبداله بواقع اسلامي ،سواء فى الحكم أو نظم الحياة الاجتماعية .

وفى هذا المعنى يقول الامام المودودى رحمه الله : "إن إقامة الامامة الصالحة فى أرض الله لها أهمية جوهرية ،وخطورة بالغة فى نظام الاسلام ،فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ،لا ينتهى عمله إلا ببذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته فى قالب الإسلام

---

(١) انظر سيد قطب . فى ظلال القرآن ج ١٠ ص ١٩٧ .
(٢) انظر سيد قطب معالم فى الطريق ص ١١٨ .
(٣) سيد قطب . هذا الدين ص ٧ .
(٤) معالم فى الطريق ص ٧ .

ثم إذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الاسمى الا بالمساعى الجماعيه لم يكن بد من أن تكون لها غاية فى الحياة الا اقامة نظام الحق وادارة شئونه بغاية من الاهتمام والعناية ولعمر الحق انه لو لم يكن على وجه الأرض الا رجل واحد مؤمن لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظام باطل..بل الحق أنه لايكون أمامه الا طريق واحدوهو أن يدعو الناس كافة الى منهاج الحياة التى يرضى به الرب عز وجل فان لم يجد لدعوته أحدا فان قيامه على الصراط المستقيم،واستمراره فى دعوة الناس حتى يلقى ربه،خير له ألف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ويهتف بنعرات تهش لها،وتفرح بها الدنيا المتسكعة فى بيداء الضلالة والغواية.[١]

وقد غفل الناس عن هذه الحقيقة ـ حقيقة العمل الجماعى المنظم ـ وظنوا أنهم عن طريق الخطب والمواعظ، وصيحات المنابر،وقرارات المؤتمرات الرسميه والشعبية يمكنهم أن يعيدوا للاسلام مجده ولكن هيهات ..أن يعود للدين مجده دون تجميع وتربية وصقل وتعهد لجنود الاسلام الذين يقع عليهم عبء حمل اللواء وتقدم صفوف الجهاد والمجاهدين.

وعن هذا يقول الداعية الاسلامى "شكيب أرسلان" فى نص رسالة ثمينة كتبها سنة ١٩٣١م يخاطب فيها أحد أبناء فلسطين ونشرت بمجلة المسلمين صورتها.قال رحمه الله: "تأتينى كتب كثيرة من المغرب ومصر وسوريا والعراق ونفس فلسطين بلدكم،مقترحا عقد مؤتمر اسلامى أوانتخاب خليفة،وما أشبه ذلك ويكون جوابى دائما:يجب أن نؤسس من تحت يجب أن نربى الفرد أولا.." ثم يتابع: "أما أن نعقد مؤتمرا مجموعاً من ضعفاء ليس لهم ارادة مستقلة وهم لايقدرون أن ينفذوا قرارا فما فائدة ذلك؟؟ أتريد أن نجمع أصفاراً"[٢]

---

(١) أبو على المودودى"الأسس الأخلاقيه للحركة الاسلاميه" ص ١٨

(٢) مجلة المسلمون عدد ٢ ص ٣٦٣ والمنطلق ص ١٧١ ـ ١٧٢.

انها رسالة تكشف عن قمة الوعى ،وعن خبرة ميدانية ،ولكن أصحاب شكيب كانوا أقصر هممـا ،فلم يستطع الرجل ترجمة ذلك فى الواقع . وأمثال الذين خاطبهم شكيب كثيرون الآن ،نجدهم على المنابر يوم الجمعة ،وفى الاحتفالات والمناسبات العامة ينادون ،ويصيحون ولكن هيهات . أني لهم أن يجمعوا الشتات الذى استمع اليهم ،ومن منهم الذى يسهر ليله ،ويجوب نهاره أرجاء الأرض ليجلس هؤلاء واولئك ،ويحدثهم عن جمع الصف ،وتوحيد الكلمة ،ولم الشتات . انه التأسيس من القاعدة كما يقوم شكيب ارسلان ،وليس اجتماع القادة فى المؤتمرات .[1]

يجب على الدعاة الابتدار ،والخروج إلى عمل جماعي يعيد من ضل الى نور الهدية والتنادى الى التجمع أولا ،ثم وضع الخطة التى تسير فى فلكه جهود الأفراد . والجهد مهما كان ضئيلا ،فانه اذا جاء فى حينه المناسب ،فانه يكمل جهود الآخرين . والدعوة لها متطلبات واحتياجات ،تكمل بعضها البعض والجهود المبذولة فى جماعة تقوى بعضها البعض ..

---

(١) المنطلق ص ١٧٢ .

المبحث الثالث : شروط الدعوه لدين الله :

إن مسئولية التبليغ العام ،أو واجب الشهادة على الناس سوف لاتتحقق بوجود مجموعة من الناس وكذلك لاتتحقق بتلك التدابير الاجرائيه التى لاتكون ناجعة فحسب بل قد تعود بالضرر الفادح على أهداف الدعوة وبما أن ذلك هو آداء مسئولية الرسالة ذات الدقه القصوى والخطورة البالغة ،فلابد أن تؤدى على وجوه وبشروط أمر الله بآدائها مع توفرها ،وقد أداها الانبياء والمرسلون – عليهم صلوات الله وسلامه – بتلك الشروط نفسها وفيما يلى الاشارة الى بعض تلك الشروط التى لابد منها للقيام بهذا الواجب العظيم.

الشرط الأول:

أن نؤمن بصدق واخلاص بالدين الحق الذى تدعو اليه ،فان الانبياء الكرام كانوا يؤمنون أولا وقبل كل شيء بالحق الذى أنزل عليهم.(آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون.)(١)

وكل ما كان يتنافى مع طبيعة الحق سواء أكان دين الآباء والأجداد ،أو العصبية القوميه والقبلية أو المصالح الشخصية أو الجماعيه ،قد وضعوا أنفسهم فى طليعة المتنازلين عنها والاخطار والأهوال التى اعترضت طريق الحق والعدل،كانوا هم المواجهين لها والخائضين فيها والراكبين عليها صارخين (أنا أول المؤمنين) و (أنا أول المسلمين) ولم يكونوا يربؤون بأنفسهم عن تلك الأخطار ،ويقولون للناس ، ان نجاتكم يتوقف على الارتماء فيها(٢)

الشرط الثاني:

أن يشهد باللسان الحق الذى آمن به القلب ،فالذى آمن بحق ويستطيع أن يبينه ولا يبين ،فهو كالشيطان الأخرس ،وسوف يعود عليه ذنب اخفاء الحق الذى عاد على اليهود (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتو الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمونه) (٣)

ولا يجوز النظر – فى هذا الصدد – إلى المصالح إلا للحق ،فلا يشهد إلا به ولا يدعو إلا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٢) أنظر أمين أحسن اصلاحي : منهج الدعوة الى الله (ص ٢٤) تعريب سعيد الأعظمى الندوى ونور عالم الندوى ط دار نشر الكتاب الاسلامي الكويت .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٧ .

اليه الا مخاطبا صحيحا ،وعلى منهج صحيح ،وفى موطن مناسب ،حتى يكون غرس الدعوة شجرا باسقا مثمرا ،واذا راح أحد يخفى الحق أو يتجافى عن الصدع بالحق،نظرا الى المصالح الشخصية ،فلا يجوز له ذلك الا فى بعض الأوضاع الاستثنائية ،مثلا اذا كان هناك خطر يحيق به ،ويخاف أن يخسر فيه حياته اذا صرخ بالحق ،وهو يرى انقاذ نفسه من هذه التهلكة فى صالح الدعوة ،ومصلحة خدمة الحق ،فان كان أحد يمتنع عن الصدع بالحق بدون امتثال هذا الخطر ،فهو عار عن الغيرة ،وفاقد للحمية ان لم يكن منافقا مخادعا.[1]

الشرط الثالث :

ان ترافق الشهادة باللسان الشهادة بالعمل ،فالشهادة التى لم يعززها العمل لا تقع لدى الاسلام من الاعتبار فى شئ ،فقد كان يختلف الى الرسول صلى الله عليه وسلم كثير من الناس ويشهدون بانه صلى الله عليه وسلم لرسول الله ،مؤكدين شهادتهم بالحق ،ولكن الله سبحانه وتعالى رفض شهادتهم هذه ،واعتبرهم كاذبين منافقين فقال : (والله يشهد انهم لكاذبون)[2] وقد وضع الله أمامهم لتقرير هذه الحقيقة والدلالة على كونهم مخادعين فى أعمالهم واقوالهم وتلك دلالة صريحة على معاداتهم للاسلام والمسلمين ،ومن الطبيعي أن من يؤمن بمبدا حق ،ويدعو الآخرين اليه ، فلا بد أن تكون تحركاته متوافقة مع ذلك المبدا مؤكدا حقيقته ، والا كان موقفه محاكيا لموقف علماء اليهود الذين ندد بهم القرآن الكريم فقال: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم .)[3]

ومن هنا يتضح أن كل فرد أو جماعة اذا كانت تعمل على خلاف ما تدعو اليه ،فكأنها توفر الدلائل على بطلان دعوتها ،وتردها بنفسها ،وبما أن الدليل العملي أقوى من الدليل القولى ،فيكون موقف تلك الجماعة العملى المضاد لدعوتها دليلا آكد وأقوى يغنى من ردها وابطالها عن كل دليل آخر[4]

فاذا كان المسلمون يشهدون بدين الله ،فلابد أن يكونوا يؤمنون به ،ويدعون اليه ، وأن يطبقوه على الحياة الفردية والاجتماعية تطبيقا عمليا شاملا ،وأما بدون ذلك

(١) انظر: منهج الدعوة الى الله . ص ٢٥ .
(٢) سورة المنافقون الآية رقم ١ .
(٣) سورة البقرة الآية رقم
(٤) انظر المصدر السابق ص ٢٥ - ٢٦ .

فلا تتحقق الشهادة التى كلفوا هم بأدائها ،لأن شهادة اللسان التىلا يصاحبها بيان عملى تكون حجة على صاحبه ،والله سبحانه وتعالى ذم أهل الكتاب فى الآية السابقة لأنهم كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ،وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ،فالدعوة الى الخير واجبعلى العلماء ،ولكن الواجب والأولى أن يفعله هو أولا و لا يتخلف عن من أمرهم بفعله ،كما قال شعيب عليه السلام (١): (وما أريد أ ن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه . ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ،وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه انيب) (٢)

أما المواطن التى يجوز فيها التقاضى العملي عن بعض أوامر الدين ،فقد بينها القرآن الكريم مع الدلالة على الحل الناجح لها ،فمثلا ،اذا صدر من أحد عمل ينكره الاسلام بضغط الشهوات أو العواطف الخبيثة ،فيمكنه أن يعالجه بالتوبة ، ومثلا: اذا أكره أحد على المنكر ،والانحراف عن قوانين الاسلام ،فعليه السعى للخلاص من ذلك الموقف الحرج ، فان تقاعس هذا عن توبة وذلك عن السعى للخلاص ،واصبحا يخضعان لما يصنعان ،ويدينان بحالة الاضطرار الاستثنائية التى اضطر اليها ،ويؤمنان بها كعقيدة ومبدأ ،فانهما بذلك قد نحيا بأنفسهما عن الحق الى الباطل .

الشرط الرابع:

أن يكون ايمانهم بهذا الحق فوق جميع العصبيات ،والانحيازات القومية والوطنية والحزبية ،حتى لا ينحرف بهمعن الحق شنآن قوم ، ولا يحول بين الحق الذى يدعون اليه عاطفية النصرة أو التحمس لا مة دون امة ، وليكونوا عادلين منصفين صرحاء تجاه الأعداء والمعارضين كما أمر القرآن الكريم بذلك . قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ،ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ،أعدلوا هو أقرب للتقوى(٣) وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (٤) فالله تعالى قدرة يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا بالقسط أو بالعدل فلا يعدلوا عنه يمينا .

---

(١) انظر ابن كثير تفسير القرآن الكريم ج ١ ص ٨٥
(٢) سورة هود آية ٨٨
(٣) سورة المائدة الآية ٨
(٤) سورة النساء الآية ١٣٥ .

ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ،ولا يصرفهم عنه صادق ،وان يكونوا فى ذات أنفسهم متعاونين متناصرين متعاضدين[١].

الشرط الخامس:

أن يكون الايمان بالله والشهادة بالحق ،بجميع أجزائه ونواحيه ،وعلى ما نزل من الله ،فلا يبعثن خوف الملامة أو المخالفة على النقص منه ،وكل ما يأتى فى نطاق الشهادة الفردية ،فليشهد به الأفراد فى حياتهم الفردية ،فليأت بالصلاة كل فرد ،وليصم كل واحد ،وليؤد الزكاة كل من ملك النصاب ، وليحج كل من ملك زادا وراحلة واستطاع الى البيت سبيلا ، وليعش كل فرد من أبناء الاسلام ، حياة البر والتقوى والصدق والعفاف ،وكل مالا تتم الشهادة الا به فى الحياة الاجتماعية ،فعلى الأفراد أن يبذلوا المحاولات على انشاء الحياة الاجتماعية ،فمثلا ،النظام الاجتماعى للاقتصاد والمعاشرة وادارة شئون الدولة ،والقيام بمهامها ،كل ذلك وامثاله لا يستطيعه الأفراد على الانفراد ولكى يصهر كل ذلك فى بوتقة الاسلام ويصبغ بصبغة الله ،يحتاج المسلمون الى القوة الجماعيه ولذلك فالضرورة الأولية بهذا الشأن ايجاد جماعة صالحة ،وتجب الشهادة بالحق الذى نزل من الله بعد أن تنشأ تلك الجماعة فى جميع الحياة الاجتماعية كذلك.[٢]

الشرط السادس:

أن تكون الشهادة بدين الله بتضحية النفس، اذا مست الحاجة الى ذلك،وهى أعلى مراتب الشهادة ،ولذلك فالذين جاهدوا لاعلاء كلمة الله ،وشهدوا بالحق الذين آمنوا به حتى تحت السيوف،ولاشك أن مسئولية الشهادة على الناس التى وضعت فى عنق هذه الأمة ،سيكون القائمون بها فى عدد لايحصيهم الا الله ،وكل يجدون جزاءهم الأوفى لدى ربهم ، الا الذين بذلوا فى هذا السبيل مهجهم وأرواحهم هم المستحقون أن يكرموا بلقب(الشهداء) الشريف،لأن الذى بذل وضحى بأكبر وأعظم ماعنده لنصرة الحق أحق الناس لأن يكون أدى الشهادة والذمة التى عليه.[٣]

---

١) أنظر:تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٥٦٥

٢) أنظر: منهج الدعوة الى الله – المصدر السابق ص ٢٧

٣) المصدر السابق ص ٢٨

ومما تقدم يتضح أن مسئولية الدعوة والتبليغ لدين الله الذى جاء به جبريل – عليه السلام – من عند الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسند الى أمته باذن ربه ،لكى نقوم بها حتى قيام الساعة ،وقد اشترط الله لهذا التبليغ أن يكون القيام بها بالقلب، واللسان،وبالعمل،وبكل أجزاء الدين دون تفريق ونقص وزيادة ودون خوف لومة لائم ،وبلا محاباه ومراعاةوبتضحية المال والنفس اذا دعت الضرورة الى ذلك.

المبحث الرابع : القواعد التي تحكم سير الجماعة :

لاتستطيع دعوة جماعية أن تؤتى أكلها مالم تساندها برامج تربوية منهجية تدريجيه تسعى الى ترسيخ الدعوة فى القلوب،وتعمق جذورها فى النفوس،وأى جماعة تدعو الى دين الله دون التركيز على المنهج التربوى التدريجى تكون شأنها شأن الجسد الذى لاروح فيه ولاشىء أشبه بالدعوة الى دين الله من عمل الفلاح،فكما أن الفلاح لايغنيه أن يلقى البذرة فى الأرض ويجلس فى عقر داره مستريحا مكتوف اليدين،فكذلك لايغنى الداعى الى الله أن يلقى المواعظ،ويزرع نصائح فى أناس،وينام قرير العينين هادى البال،مطمئن الحال،بل يجب أن يحرص على دعوته التى زرعها ،حرص الفلاح المخلص على البذور التى ألقاها فى الحقول،فيسهر على صيانتها ،وثباتها فى الأرض،وامتداد جذورها فى باطنها ،ويعنى بسقيها فى الوقت المناسب وبالحفاظ عليها من حدثان النصول وغوائل الطقوس ،ومن الحشائش الشيطانية التى تنبت عفواً والتى تمتص غذائها اذا لم تقتلع ، وتنق الارض منها ومن معدة الاعداء : ومن طيور الجو وحيوانات الارض التى ربما ترتادها اذا لم يسهر عليها ، وعلى ذلك فيواصل الفلاح جهده ليل نهار الى مدة لابأس بها ،وتضحى براحته فى النهار وبهدوئه فى الليل ويتابع التفكير وراء ما بذره فى الارض ،وفى انمائه وتعهده بكل ما يلزم فيجنى ثمرات جهده يانعه حلوة . (١)

وهكذا ،فالداعى فى سبيل الله لا يستطيع أن يجعل دعوته تخضر وتثمر حتى يبذل جهودا مضنية على التربية لمدة طويلة بجانب المحاولات المكثفة التى يبذلها فى سبيل غرس الدعوة وزرع كلمة الحق ،والا فتكون دعوته صوتا فى واد ونفخا فى رماد، وتذهب ضياعا كبذرة ألقاها الفلاح ونام عنها ،وتركها عرضة لضربات الطقوس ،ونهب الطيور واصابات السائمة (٢)

وفيما يلى محاولة لعرض المبادئ التربوية الجماعية التى يهدى اليها التأمل فى المنهج التربوى لدى الأنبياء الكرام عليهم أتم الصلاة والتسليم ،والتى يمكن بالسير بهداه لتحقيق أهداف الدعوة الجماعية وهى اعادة منهاج النبوة إلى حياة الناس :

---

(١) انظر منهج الدعوة الى الله ص ٩٧- ٩٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٩٨ .

أولا : أن يتفادى الدعاة الى الله - بكل حيلة - التهور والتسرع فى التعليم والتبليغ .

وباستقراء سير الدعاة والدعوة ،يتبين أن الداعي فى كل أدوار التاريخ قد طلب اليه التسرع والمعاجلة من جهتين(١):

أ- اولئك الذين تعرفوا بالحق حديثا ،وخالطت بشاشته قلوبهم ،فذلك يثير فيهم حماسا زائدا نحوه ، وحبا أكيدا جامحا يجعل البرنامج التدريجي للتربية يشق عليهم ،ويؤدى بهم الرغبة الملحة فى الحق الى أنهم لا يقدرون بالدقة قوتهم للاساعة ،ومدى جوعهم ،ولا يربعون على الضعفاء من أعضاء الجماعة ،فيتابعون الالحاح على أكثر فأكثر .

ب-اولئك الذين يقفون فى وجه الدعوة ،ولكن لا يجدون منفذا يتسربون منه الى الطعن فى الحق والنيل من الدعوة ،فيستعجلون الداعي أن يضع برنامجه أمامهم بجميع أجزائه وانما يريدون بذلك أن يوهموا الناس-اذا لم يلب الداعي طلبهم - أن الدعوة مبهمة مجهولة ،لا تهدف الى غاية ولا ترمى الى هدف ،ولا تسير نحومنزل ،ولا تحمل برنامجا دقيقا واضحايمكن الوصول الى الهدف ،أو يخلقوا نقطة ضعف - اذا أجاب الداعى ارادتهم- ويستغلوها لتزهيد الناس فى الدعوة .

ثم ان الداعى مملوء - بالطبيعة - بحماس زائد لنشر الدعوة ،يجعله لا يصبر ، ولا يترقب ،ولا يستخدم المرحلية والتدريج والتنسيق ،اذا لم تفارقه الحكمة الالهية ، ويحالفه التوفيق وترشده الفراسة الدعوية التى أودعها الله فيه ،فربما ينتهى بالداعي الى أن يجانب الاعتدال ويفارق التوازن ،فيضر بنفسه الدعوة ،ويجر عوائق فى سبيل التربية الجماعية ،وقد يستعصى على الداعي أن يتداركه بشئ من الحيل ،فيجد الشيطان مدخلا الى الجماعة الاسلامية ،فيعشعش ويبيض ويفرخ ،ويحدث فتنة عامة لا يسلم منها الا القلة التى تتداركهم رحمة الله ،وأوضح مثال لذلكنجده فى تاريخ بنى اسرائيل :-

---

(١) انظر منهج الدعوة الى الله (ص ٩٧ - ١٠٢)

يخرج موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام الى سيناء ،فيدعوه الله الى الطور ليمنحه الأحكام والشرائع ، ويحدد لذلك يوما من الأيام ،لكن موسى بما أنه مسير بالحنين الى لقيا الله ،والاطلاع على أحكامه التى سوف يتشرف بتلقيها ،وبالحاح من القوم ألقى وقودا من الشوق الذى يكنه هو نحو الاجتماع بذات الله جل وعلا سبق الى الطور اليوم الذى حدد له ،وقد كانت العاطفة نبيلة ،والمشاعر طيبة ،والنية صالحة مخلصة ،والحنين والشوق فى مثل هذه المناسبات ـ اذا كانت تتعلق بالبشر ـ مما تستحسنه العقول ،ويحبذه العقل والمنطق ،فكيف بهما اذا كانت تتعلق بذات الله تبارك وتعالى .. ولكن القضية لها جانب آخر لا يستحسن لدى الحكمة والتعقل العملى وقد خفى على موسى عليه السلام بفعل الشوق الجامح... وقد كان الله تبارك وتعالى يريد ـ من خلال تحديده يوم اللقاء والاعطاء ـ أن يستغل موسى عليه السلام هذه الفرصة لتربية قومه ،وتهيئته لتلقى الأحكام الالهية ،وتأهيله لتطبيقها عمليا ،عن طريق ترسيخ الامور المبدئية المسبقة فى نفوسهم ،حتى يستطيعوا الحفاظ على عقيدتهم ،ودينهم فى أحرج وقت ،ويواجهوا المحن بجدارة وأهلية وقوة .(١)

لكن التطلع المسرف الى تلقى الأحكام الالهية حال بَيْنَهُ ـ عليه السلام ـ وبين اعادة الاهتمام بجانب التربية ،مما أفاد المتربصين والأعداء ،وانتهزوا الفرصة ،فرصة غياب موسى عليه السلام والضعف العقيدى ،والخواء الروحى لدى القوم ،فوقع عدد وجيه منهم فى عبادة العجل ،وقد أرجع سبحانه وتعالى ذلك الى ما صنعه سيدنا موسى من المبادرة الى الطور ،والتعجل الى تلقى الأحكام ،والتسرع فى الحضور قبل الموعد ،وقد كان كل ذلك فى سبيل الدعوة نفسها ،وصالح الحق ذاته(٢). يقول القرآن الكريم:

(وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟! قال: هم أولاء على أثرى ،وعجلت اليك ربى لترضى ،قال : فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى .(٣)

الأمر الذى يدل على أنه ان كان من مسئوليته الداعي ،أن يعرف الناس بأحكام الله فبجانب ذلك يجب عليه أن لا يفرط فى جانب تربيتهم ،حتى تتمثل الأحكام فى تفكيرهم

---

(١) انظر منهج الدعوة الى الله (ص ١٠٠) وانظر تفسير القرآن العظيم ج ٣ص ١٦١
(٢) ، المصدر السابق (ص ١٠٠)وانظر من ظلال القرآن مج ١٣ ص ٩١ ـ٩٢) تفسير سورة طه
(٣) سورة طه الآيات (٨٤ ـ ٨٥)

وأعمالهم وسلوكهم ،ولا يمكنهم أن يتحللوا منها مهما اشتدت الفتن وعمت البلايا والمحن.
أما الداعي الذى أخذ يحجز نفسه حب مد الدعوة أخذا دفعه الى الاهمال فى الصبر والأناة اللذين لابد منهما لأحكام التربية فهو كالفاتح المتسرع الذى يدوخ بلدا بعد بلد ، ويوغل فى منطقة اثر اخرى دون أن يحكم سلطته فى واحدة منها ،فتأتى النتيجة وخيمة وتثور الثورة ضده فى كل منطقة يتجاوزها ،وتنتشر انتشار النار فى الهشيم (١).

ثم ان الولوع بالحق يقتضى أن يظمأ الداعى الى نشره وتبليغه ظمأ العطشان الى الماء بل أكثر منه ،وأنه لا يقر له قرار ،ولا يهدأ له بال ،ويعال صبرا ،فيتسرع فى الأمر ويأخذ بالعجلة ،ويضرب التأنى والتمهل عرض الحائط ،ففى الوقت تتطلب مصلحة التربية الجماعية ،وتقدير الحق تقديرا دقيقا ،أن يتماسك الداعي وأن لا يفلته الزمام ، وأنْ يأخذ بالاقتصاد المشفوع بالأناة والصبر والترقب .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم فعلا يتعجل بنزول الوحى بفعل التطلع الى معرفة الأحكام حتى يرضى رغبته العلمية ويشبع طلب القوم ،فنهاه الله عن ذلك ،مؤكدا أن القرآن سيستمر فى النزول هكذا منجما تتخلل نزوله فترات تمكن من تربية القوم وتثبيت القلوب ،وترسخ فى النفوس ما ينزل من أحكام وشرائع وتؤهلهم لتحمل المزيد منها - قال عز وجل:
(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليه وحيه ،وقل رب زدنى علما ،ولقد عهدنا الى آدم من قبل ،فنسى ولم نجد له عزما .) (٢)

وقد أكدت الآية الكريمة فى ختامها على أهمية التربية ،وضغطت على التفادى من التعجل ، ووضعت الاصبع على العوامل التى تبعث على التسرع فى الامور ودلت على أنها خضوع الانسان طبيعيا لرغباته ومطامعه ،ومن ثم تتأكد أهمية ايقاظ الشعور فى نفسه بالمسئولية التى تناط به ،وذلك عن طريق التربية المكثفة المتواصلة ،حتى يستطيع الصمود فى وجه الأعاصير والزلازل التى تهدد وتضاد العقيدة والايمان .

---

(١) انظر منهج الدعوة الى الله - ص ١٠١ .
(٢) سورة طه الآيات ١١٤ - ١١٥ .

ولذات المصلحة كان القرآن الكريم ينزل منجما ،فكان الأعداء ينتقدون ويقولون: ان كان هذا كتاب الله ،فلماذا تتخلل نزوله وقفات ،ولماذا لا ينزل دفعة واحدة ،لأن الله يحيط الحاضر والمستقبل علما ،فليس في حاجة الى التفكير والتجزئة أو الاختيار أو مراعاة مصلحة ما ،فماذا يمنعه من انزاله في مرة واحدة ؟! إذاً فانه من عند محمد - صلى الله عليه وسلم- يطلع به على الناس في كمية يقدر على اعدادها بعد اعمال التأمل والامعان والتجربة والتفكير الطويل (١) .

وكان طبعا يتأثر به المسلمون والنبي - صلى الله عليه وسلم- لكن الله العليم الحكيم لم يعبأ بهذا أو ذاك ، بل أكد أن هذا النزول المنجم يقع في حسابكم ،وتتطلبه مصلحة التربية تربية الجماعة المسلمة ،لكى تتأهل لاساغة الشرائع الالهية كلها ،بتدريب نفسها وتوطينها على الأحكام المنزلة مرحليا ،فاذا ذهبتم تستعجلون بالنزول فربما يبقى في المجتمع ضعف ،فينهض (سامرى) ويستغله لارضاء أهوائه (٢) .

وفعلا نجد الصحابة رضى الله عنهم من بعد النبى صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم باحسان والأجيال المتلاحقة من السلف الصالحين ،يراعون في تلقيهم للدين وتعلمه وتبليغه تلك المرحلية التى نزل بها القرآن ،يقول الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : (كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن) .

ثانيا: الاعتبار بالنوعية والكيفية قبل الكمية :-

ومن المبادئ الأساسية لضمان سلامة الجماعة الاسلامية أن يضع الداعية في اعتباره النوعية والكيفية قبل الكمية .. ويحترز دائما أن يتملكه الحرص على (الغنم الضالة) إلى حد يشغله عن (غنم القطيع) . فيرتاد المزارع والغابات في البحث عن الاولى . فتموت الثانية جائعة ،أو تتسلل الى مرابضها (ذئاب) فتجعلها لقمة سائغة .

---

(١) انظر منهج الدعوة الى الله ص ٩٩ - ١٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

ولا شك أن ما يوجد فى الداعي من الحرص على (الأجانب) أكثر من (الأقارب) والانشغال بالأولين عن الآخرين ،إنما يأتى عن نية صالحة وعاطفة نبيلة ،وحماس بالغ للحق ،وشغف متناه بالدعوة ،لكنه يجر ضررا فادحا ،حيث ينكبت به الشعور ،بواجب التربية أو يتقلل ويتخفف ،وذلك لأن الداعية يروح يعنى بمد الدعوة فى المنكرين والمتمردين ظنا منه أن هؤلاء الذين دخلوا فى حظيرة الاسلام قد استكملوا الايمان واستوفوا كل شىء الا التربية يمكن أن يأخذوا بهم فى أى فرصة اخرى(١).

وقد أمر القرآن الكريم - تجنيبا من هذا الخطأ المطرد الفادح - بالتزام العناية باولئك الذين تشرفوا بالاسلام ،وينتظرون التربية والتزكية ،وأن لا يطغى الحرص على (الأجانب المستغنين) طغيانا يؤدى الى فوت حقوق (المستحقين الأولين) .

قال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهة ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا (٢)) وقال جل وعلا : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فانت له تصدى) .(٣)

هذه الآيات الكريمات تركز على أن لا يضيع الداعية الوقت اللازم - الذى يجب عليه أن يصرفه فى تربية اولئك الذين قبلوا الدعوة مهما كانوا مغمورين مطمورين ، لا يتميزون بشأن ولا مكان - فى متابعة الذين يتمتعون بالمنصب والجاه والمكانة وعسى أن ينفعوا الدعوة الذين قبلوها واحتضنوها ،ولكنهم مغرورون بالفعل بعظمتهم مزهوون بمكانتهم ونقودهم ،فيشمئزون من الحق .

---

(١) انظر منهج الدعوة الى الله ص ١٠٢ - ١٠٣ .
(٢) سورة الكهف الآية ٣٨ .
(٣) سورة عبس الآيات (١ - ٥) .

ثالثــا : المسارعة الى سد أبـواب الانحراف قبل استفحالهـا :

وعلى الدعاة أن يكونـوا على حذر من أن يعم عدوى الانحراف والخروج فى المجتمع المسلم على المبـادئ التى تقوم عليه الجماعة المسلمة ،فان رأى القادة والمربـون فى الجماعة أمارات ظهـور مثل هذه الفتنة فالواجب أن يقضوا على عواملها قبل أن يتم لها الأمـر ،ويتفاقم شـرها ،وتخضر دوحتهـا ،ولا يحولن بينهم وبين القيام بهـذه المسئولية شئ ما من المصالح الذاتية ،أو المجاملة أو لومة لائم أو خوف من أحـد أو حب لأحـد ،لأن تقصيرا فى هذا الجانب يقضى الى ما آل أمر موسى عليه السلام ،حيـث استبد قطـاع عريـض منهم الذى أدنـى بالذى هو خيـر ،فصاروا يعبدون العجل بدل الاله الأحـد الصمد ،ولقمع مثل هذه الفتنة العميـاء ،يتحتم أن يكـون المسئولون عن الجمـاعة شجعـانـا متماسكى القلـوب ،متجرئين بل قسـاة القلـوب الى حد ما .. فمعلوم أن موسى عليه السلام حينما رجع من الطـور ،وقد علم بظهـور فتنة الشـرك فى قومه ، انهال باللـوم والتأنيب الشديد ـ أولا وقبل كل شئ ـ على من كانت اليهم مسئولية السهر على القـوم فى فترة غيابه عليه السلام ،والذين عمت البلية من أجل مجاملتهم وحملهم ثم أمر بالمجرمين الذين ارتكبوا هذه الجريمة النكـراء مباشرة أن يقتلوا على أيدى اناس كانوا يتصلـون بهم عن طريق الرحم والأصرة القوية القريبة وباللحم والدم ، حتى يتضح للناس أن الذيـن يثيـرون مثل هذه الفتنة فى صفوف الجماعة سوف لا يجدون رحمة وحنـانـا حتى من بنى جنسهم وقبيلتهم ونسبهم أيضا ،وأخيرا عمد الى الصنم الذى صنعه السامرى فجعله جزاذا تـذرره الرياح فى مكان سحيـق ،حتى لا يبقـى أثـر ولا عين له فى المجتمع المسلم ،أما السامرى الذى تولى كِبْرَ هذه الجريمة الكبرى فعاقبه عقـابـا صار نكـالا للعـالمين (١)

وتفـاديا بالجماعة من هذه المفاسد أوجب الاسلام أنه اذا وجد انحراف عن المبـادئ الجماعية فى أفراد ،فعلى أعضاء الجماعة كلهم أن يبذلوا العناية على ايقاف الشـر واصلاح الفسـاد ،وأن يأخذوا بأيدى الأشـرار عن الافساد الى الاصلاح والخيـر فان أهملوا وتركوا الأشرار وشأنهم وقالوا: مالنا ولهم ونحن فى واد وهم فى واد فسوف يحدق بهم الشر أخيرا ،ويذوقون وبال ما صنعه السفهاء منهم ،ثم يقع فريسته الصالحـون والطالحـون فى الجمـاعة على السـواء .

(١) انظر منهج الدعوة الى الله ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

فهذا نعمان بن بشير رضى الله عنه يروى عن عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى فيقوم: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيهما كمثل قوم استهموا على سفينة ،فصار بعضهم أعلاها ،وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ،فقالوا : لو أنا حرقنا فى نصيبنا حرقا ،ولم نؤذ من فوقنا ،فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ،وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا). (١)

وقد حذر القرآن من هذه الأخطاء قائلا : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ،واعلموا أن الله شديد العقاب). (٢)

وستختلف مناهج القيام بهذه المسئولية باختلاف الظروف وأوضاع الجماعة والمراحل التى تمر بها ،ولكن أعضاءها سوف لا يتحللون من المسئولية – ان هم قعدوا عنها – فى أى حال من الأحوال .

رابعا: الربط بين فئات الجماعة ربطا محكما يكون محوره مركز الدعوة الأصيل:

على الجماعة أن يكونوا فى مراحل الدعوة الاولى – على اتصال مباشر الى الحد الممكن بمركز الدعوة الأصيل ،وليعمل الداعي على توفير الوسائل لذلك ،فان الجماعة – هى فى مرحلة الحضانة والتكوين – فى أشد الحاجة الى اتصالها المباشر بالمركز الدعوى الأول ،لكى تتلقى التربية الصحيحة خالصة من الشوائب والأكدار ،ومغبة الاهمال فى هذا الجانب وخيمة جدا ،حيث لا تملك الجماعة – اذا – ان تنجب – الا استثنائيا وفى عدد ضئيل أفرادا يتمتعون من التماسك الأخلاقى والفكرى ،والارادى بما يؤهلهم أن يصهروا نفوسهم فى البوتقة الدعوية ،ويصهروا الآخرين فيها ،بل كثيرا ،ما ينشأ أفراد (يتزعزعون) بضربة واحدة من القُبُول أو الدَّبُور ،وأمثال هؤلاء لا يحملون من قوة الذكاء والأهلية الفكرية ما يملكون به أن يحدثوا فى القلوب شعورا صحيحا بالدعوة ،ولا من نزاهة السيرة ،وطهارة الأخلاق وسمو النفس ما يتمكنون به من أن يواجهوا المحن فى كل أنواعها وأشكالها ، وبابتسامة عريضة ،ويستمروا فى الدعوة ،والعمل عليها فى الأوضاع المواتية والمناوئة معا (٣)

---

(١) رواه البخاري ج ٥ ص ٩٤ من الشركة والترمذى برقم ٢١٧٤ كتاب الفتن
(٢) سورة الأنفال الآية ٣٥ .
(٣) انظر منهج الدعوة الى الله ص ١٠٦ .

ومثل هذه الدعوة المسكينة تستطيع أن تصول وتجول مادامت تسهر عليها شخصية قوية ،وما ان غابت حتى يغيب بغير رجعة لا تسمع لها همسا وربما كانت الحكمة في الهجرة التى قام بها الجيل الأول من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، أن يتسنى للجماعة المسلمة أن تتمتع بصحبة النبى ومعاشرته ومخالطته فى حرية واطلاق حتى ليستطيع الاسلام والايمان أن يعملا عملهما فى القلوب والنفوس بكل احكام واتقان ،وفى بيئة صالحة مواتية ،فان كانت هنك صعوبة تمنع الأفراد جميعا من الاتصال بالمنطلق الدعوى الأصيل ،فلا أقل من أن تتجه اليه فرق مؤلفة من الأفراد الأذكياء ،حتى يقوموا بعملية الاصلاح والدعوة فى القوم بعدما يصدرون عنه ،وهم أشد تشبعا بروح الدعوة وقوة العمل [(١)].

وفى هذا المعنى يقول رب العزة : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ،ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .) [(٢)].

خامسا : الفراسة ودقة الملاحظة فى تمييز مواطن الضعف الفكرى والاعتقادى فى الجماعة .

ومن الامور الهامة التى يجب أن لا تفوت على الداعية ،معرفة وملاحظة أخطاء الجماعة وزلاتها لدى المحن ،حتى ليستطيع أن يدلها على أخطائها بعد عودة الامور الى نصابها ونهاية الامتحان ،وأن يضع الاصبع على جوانب الضعف الاعتقادى التى تدل عليها هذه الأخطاء الفكرية ،ولا بد من أن يعمم الخطاب – لدى التنديد بالأخطاء والدلالة على الأسباب – ولا يحدد تحديد ،ولا يسمى المخطئين ،لأن ذلك يؤدى الى شعورهم بالهوان والذل والضآلة فيتنبه فى نفوسهم روح التمادى ،واللجاجة ،فاذا جرب على اناس من الجماعة أنهم تعودوا الخروج على مبادىء الجماعة ،وأنهم جعلوا الانحراف شعارا ودثارا ،ولا يكادون يفيقون من غيهم ، فيدلهم على خطئهم مباشرة ، وليترك طريق المجاملة والكناية ،والاشارة ، والابهام ،وسيكون هذا الاخطار بمثابة تنبيه نهائى ،اذا لم يعودوا الى الرشد بعد، فعلى الجماعة المسلمة أن تعزله ،وتقطعه عنها كعضو فاسد تحتم قطعه [(٣)].

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٢ .

(٣) انظر منهج الدعوة الى الله ص ١٠٧ – ١٠٨ .

المبحث الخامس: مسئولة الداعية ووظيفتـــه:

ان الانبياء - عليهم السلام - لا يملكون أن يزرعوا الهداية فى قلوب النـــاس كما لايملك الشيطان أن يزرع الضلال فى النفوس البشرية بخيار من عنده ،وجل مايملكه كـل منهما - الداعية الى الحق،والداعية الى الضلال - أن يدعو الخلق الى طريقه ،أما اختيار الضلالة أو الهداية ،فان ذلك يتوقف كليا على رغبة المرء نفسه ،وعلى توفيق الله وحده ،وقد قرر الله فى ذلك التيسير والتوفيق قاعدة يهدى من طبقها من عباده ممن يتصفون بالطبـع المستقيم والحرص على الرشد والصواب الى الدرب النبوى،والطريق المرض لديه ،وييســر السلوك على طريق الشيطان لمن أشربوا الزنع رأولعوا بالغواية،[1] وتلك هى الحقيقة التى جلاها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى الآيات التالية:

قال تعالى: (انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) (٢)

وقال جل وعلا: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٣)

وقال سبحانه: (ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل وما لهم من ناصرين) (٤)

وقال عز من قائل(كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم) (٥)

وكذلك يؤكد الله تعالى لابليس: (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ،الا من اتبعك مـن الغاوين.) (٦)

وقد حكى القرآن الكريم اعتراف ابليس بما يلى:

(وما كان لى عليكم من سلطان،الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) (٧)

---

١) أنظر: منهج الدعوة الى الله ص١٠٩

٢) سورة القصص الآية ٥٦

٣) سورة يوسف الآية ١٠٣

٤) سورة النحل الآية ٣٧

٥) سورة ابراهيم الآية ١

٦) سورة الحجر الآية ٤٢

٧) سورة ابراهيم الآية ٢٢

ومن أجل هذه الحقيقة الكبرى لايفكر الداعي ولاينبغي له أن يفكر في أن النـــاس هل يستمعون لدعوته أم لا؟؟.ولايهمه - ولاينبغي أن يهمه - أن الزمان هل يوافق دعوتـــه أم يعارضها،انه يقرر في نفسه لنفسه تجاه ومغبة الدعوة ايجابا أو سلبا- ان هذا الأمـر يتعلق بذات الله تعالى وحده لذلك عليه الا يفكر في شئ سوى التفكير في السئولية التـي تعود عليه نحو الدعوة والى الغاية التي يؤمن بحقيقتها وصدقها،ويراها عائدة الـــى البشرية كله بالخير والصلاح،واذن فانه لايعنيه أمر الناس في القبول أو الجحود،وأن الله سيظهره في أرضه بين قومه أم لا؟؟.(١)

وقد حكى القرآن الكريم رد الذين قيل لهم،لم تعرضون الدعوة على أناس قد تحقق من مواقفهم أنهم لايؤمنون أبدا.حيث قالوا:(معذرة إلى رَبِّكُم،ولعلهم يتقون)- فهذا الرد يلقى ضوءً ساطعا على نوعية مسئولية الداعي ويحدد موقفه من الذين لايؤمنون تحديدًا واضحا.

قال تعالى:(واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا:معذرة الى رَبكم ولعلهم يتقون.)(٢)

أما تأييد الله ونصرته له،فكفاه اقتناعا أن ألهمه الخير وجعله أمينه وراعيــــه ومبلغه للناس،وذلك ضمان قوي لظهور الدعوة التي كلف ابلاغها ولامتدادها وانتشارها ونفوذها الى القلوب والنفوس،فسيكون الدعم الالهي حليفه وتأييد الله قرينه مهما نهض يقوم بهـــا بها الناس،ويدعو الخلق الى الصراط المستقيم، ولايجوز للداعي أن يسئ الظن بالعــــادل الشفيق الرؤوف أن يقلده مسئولية،ويرى أنه سبحانه تاركه وحده في الميدان دون نصير أو معين فوعد الله حق بأنه ناصر من ينصره.لذلك على الداعية أن يشعر أن نصر الله حليفه،ويد اللــه

---

١) أنظر: منهج الدعوة الى الله ص ١١٠

٢) سورة الاعراف الآية ١٦٤

شريكه، ويتأكد فى قرارة نفسه بذلك، وهذه الثقة فى نصرة الله هى التى تأخذ بيديه وتزيل عن نفسه هموم اعراض المعرضين، وتمنحه القوة على ازالة العراقيل التى توضع فى طريقه، ويتأكد فى نفسه أنه سوف يصل الى غايته عاجلا أو آجلا.

وتلك الثقة هى التى تتمثل فى الآية الكريمة من سورة ابراهيم:

(وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما أذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون.) (١)

وربما يخطئ الداعية فى تحديد مسئولية الدعوة، وتقديرها تقديرا دقيقا، فيظن أن عمله لاينتهى بمجرد تبليغ الدعوة الى الناس بأمانة واخلاص، بل عليه أن يجعل الناس يتقلبونها ويعملون بمقتضياتها ومتطلباتها، وهذا الخطأ فى تقدير المسئولية يؤدى الى نتيجتين وخيمتين:

أحداهما:

أنه ينزع — تفاديا من عرض الدعوة خالصة غير مخدوشة — الى أن يسالم المعتقدات والأفكار الباطلة لدى المعاندين. والثانية: أنه يقع فريسة الاضطرابات والتعقدات الهائلة من آجل توسيع مسئوليته أكثر من اللازم، وتقلده عملا كان فى غنى عنه تماما (٢)، وانقاذا من التورط فى أمثال هذه الأخطاء، يعطى القرآن توجيهات عريضة كالآتى:

قال تعالى: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون) (٣)

وقال جل وعلا: (اتبع ما اوحى اليك من ربك لا اله الا هو، واعرض عن المشركين، ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظا، وما أنت عليهم بوكيل.) (٤) وقال تعالى: (انما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (٥) وقال سبحانه (طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، الا تذكره لمن يخشى.) (٦)

---

(١) سورة ابراهيم الآية ١٢ .
(٢) انظر منهج الدعوة الى الله ص ١١١ — ١١٢
(٣) سورة الأنعام الآية ٦٩ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٦، ١٠٧ .
(٥) سورة الرعد الآية ٤٠ .
(٦) سورة طه الآية (١، ٣) .

والذين قعدوا فى عقر دارهم اليوم نظرا الى سيطرة الطاغوت سيطرة شاملة ، ولا يرون عند ظنهم امكانا ما ،لزرع دعوة الحق ،وانشغلوا بالدعوة الباطلة من أجل اليأس من انتشار الدعوة الصادقة ، ان هؤلاء واولئك قد وقعوا فى هذا الخطأ الذى تقدم ذكره ، انهم لو تبينوا أن مسئوليتهم تنحصر فى (البلاغ) ـ أما الأخذ أو الرد من الناس أو امتداد الدعوة أو عدمه لا يتصل بنفسه وانما يتعلق بذات الله وحدها ـ لما وقعوا فى هذه الورطة من (الامكان و(عدم الامكان) ، ولما تقلدوا مسئولية القيام بالباطل ،وتفاديا من الحق ، بل اقتصروا على القيام بالدعوة الى الحق ، واعتمدوا على الله ليظهرها اليوم أو غدا لأنه حق ولا يرضى الا الحق .[1] لكنهم لما أثقلوا ظهورهم بأنفسهم بمسئولية تختص بذات الله ،فلما نأوا بهذا الحمل الثقيل ،وعلموا أنهم لا يقدرون على المضى به ، اضطروا أن يعلنوا على الأقل لأنفسهم أنه مهما كان النظام الذى جاء به الاسلام خيرا وصحيحا فانه لا يمكن اقامته فى هذا العصر على النطاق الواسع المطلوب ،ليحكم حياة الناس العامة كما كان عند الأسلاف الأماجد ،لذلك فلا بد اذا من التخلى عن بعض أوامره ونواهيه والأخذ برفق بأحكام الاسلام ،أو الاتجاه الى نظام آخر غير اسلامى ،وهذا ما حدث ويحدث لبعض الدعاة الى الله .

لذلك فلا بد للداعية أن يدرك مسئوليته ويعرف مكانته الدعوية معرفة دقيقة ،يأمن على نفسه التراجع واليأس والقعود عن الواجب أو النزوع الى الدعوة الى الباطل مكان الحق ،وكل ما يحتاج اليه بعد ذلك أن يراقب نفسه من الاندفاع الى الاهمال أو ما يشبه (اللامبالاة) ،ظنا منه أن مسئوليته تتحدد فى نطاق البلاغ فقط،ولا يجب عليه شئ وراء ذلك ،ومن أجل التفادى من الوقوع فريسة الاهمال والتساهل ،يجب عليه أن يضع نصب عينيه دائما تلك المسئوليات المترامية الأطراف التى تعود عليه بصفته داعية: والتى اذا قصر فيها ،فسيؤاخذ عند الله ،لأنه لم يؤد حق البلاغ المطلوب منه كما يجب .

---

(١) منهج الدعوة الى الله ص ١١٢ – ١١٣ .

أما الأنبياء الكرام - عليهم الصلاة والسلام - فانهم يبلغون فى الشعور بالمسئولية الى أنهم كانوا يتقلبون على مثل الجمر ،ويهجرون راحتهم لا يبالون بالنصيب اللازم من الراحة والاستجمام ،وكان يبدو من انهماكهم البالغ فى شئون الدعوة كأنهم مسئولون عن ايمان الناس ،وكفرهم ،وقد نهاهم الله عز وجل عن ذلك الانهماك الزائد باسلوب يفيض بالحب والشفقة ،وقد تقدمت بعض الآيات الكريمات فى هذا المعنى فى السطور الماضية - وهذا الانهماك هو الذى يجب أن يأخذه الدعاة فى كل زمان ومكان بمثابة شعار لهم ،ودثار ،متفادين من الافراط والتفريط.

المبحث السادس: منهج بناء الأفراد والجماعة :-

ان أول مراحل العمل الاسلامي الجماعي ،بعد الدعوة الى الله ،وفتح القلوب على الايمان الحق ،هو بناء الانسان وتكوينه ليقوم المؤمن الملتزم بعقيدة ومنهاج ، الصادر عن ايمان ودين ،ولتكوين الجماعة المؤمنة ،والامة المؤمنة ،لتمضى فى الطريق الى الله ،دون توقف أو انحراف .

وهذه المرحلة ،هى من أهم مراحل العمل الاسلامي . وكل عمل يلى ذلك يكون مبنيا عليها مرتبطا بها،ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى هذا الأمر قيمته وقدره وأولاه جهده وعنايته ،فكان الصحابة الأبرار والتلاميذ الأخيار .[1]

ولا بد من وضع بعض القواعد والاسس لهذه المرحلة ،نوضحها على أساس من منهاج الله الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس أجمعين ،وليبينه لهم ،ولتختتم به الرسالات السماوية :-

١- أن يكون القرآن والسنة أساس التكوين والبناء :

" عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ،فقال يا رسول الله : انى أصبت كتابا حسنا ،من بعض أهل الكتاب. قال فغضب وقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده ،لقد جئتكم بها بيضاء نقية ،لا تسألوهم عن شئ فيحدثوكم بحق ،فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه . والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه الا أن يتبعنى . "[2] .

" وأتى عمر بن الخطاب رجل فقال: يا أمير المؤمنين ، انا لما فتحنا المدائن أصبت فيه كلام معجب . قال : أمن كتاب الله؟ قال: لا ،فدعا بالدرة وجعل يقرأ (الر . تلك آيات الكتاب المبين . انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن – وان كنت من قبله لمن الغافلين .)[3] ثم قال: انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل ،حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم . "[4] .

---

(١) انظر عدنان النحوى دور المنهاج الرباني فى الدعوة الاسلامية ص ٧٥ مكتبة الاعتصام – الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ – القاهرة .

(٢) اخرجه ابن عبدالبر القرطبى فى جامع بيان العلم وفضله ص ٢٩٥ .

(٣) سورة يوسف الآيات (١ - ٣) .

(٤) شرح ابن أبى جديد ج٣ ص ١٢٢ – وانظر دور المنهاج الربانى فى الدعوة الاسلامية ص ٧٥ . وانظر ابن عبدالبر القرطبى أثر مشابه له مع عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ص ٨٣ .

فبهذا الحديث حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ،وللمؤمنين جميعا مصدرا واحدا يأخذونه هو منهاج الله .وكان هذا ورسول الله بينهم يتابع عملية البناء والتكوين للفرد والجماعة . وكان منهاج الله المصدر الصافي الذى يأخذون عنه تصوراتهم ،والأوامر والنواهي . وما قصه عمر رضي الله عنه مع الرجل الا مصداقا للحال الذى كان عليه المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،اضافة الى هذا فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم الآيات العشر لا يتركونها حتى يعوها علما وعملا .

ويتضح أهمية هذه القاعدة ،وخطورتها عندما نتابع التاريخ الاسلامي ،وعند دراسة واقع المسلمين اليوم .

لقد أخذ أئمة المسلمين كأبى حنيفة(١) ومالك(٢) والشافعي(٣) وابن حنبل(٤) وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ،دينهم عن هذا المنهاج أصلا ،والتزموه وبذلوا جهودهم البشرية فى فهمه وتطبيقه . فكانت مؤلفاتهم وفتاويهم .وفى حدود منتصف القرن الرابع الهجرى بدأ كثيرون من العلماء يأخذون عن هذه الكتب ،ويرضون أنفسهم على التقليد ،فكان بداية الوهن و فتور الهمة ،ومن ذلك التاريخ ،وبتدريج بدأ المسلمون يبتعدون من المعين الصافي ،والأخذ منه مباشرة(٥). فبلغ بهم الحال الى اختلافات واسعة وشقاق كبير ممتد حتى أثر عند بعضهم القول بأن كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا ،فهو مؤول أو منسوخ .(٦)

وظلت هذه الصورة تتكرر فى حياة المسلمين الى يومنا هذا ،فيلتزم فريق من الناس كتبا فقهية معينة ،يأخذون عنها دينهم ،على وهن وضعف صلة بكتاب الله وسنة نبيه ، فاضطربت التصورات ،واختلطت المناهج ،وسهل على الأعداء أن يلجوا منافذ واسعة بين المسلمين .

ان جميع الكتب البشرية لو ضمت الى بعضها ،لا يمكن أن يأتى بمنهاج متكامل كما هو الحال بالنسبة للمنهاج الرباني ،بل سيظل فيها النقص والاختلاف والتضارب ،وستبقى تصوراتهم مجزأة متقطعة ،لا يجمعها شمول ولا يربطها تناسق ،شأنها شأن البشر حيث النقص

---

(١) ولد عام ٨٠هـ بالكوفة وتوفى ببغداد عام ١٥٠هـ . (٢) ولد عام ٩٣هـ وتوفى بالمدينة عام ١٧٩هـ
(٣) ولد بغزة سنة ١٥٠هـ وتوفى بمصر عام ٢٠٤هـ . (٤) ولد ببغداد عام ١٦٤هـ وتوفى بها ٢٤١هـ .
(٥) انظر دور المنهاج الرباني فى الدعوة الاسلامية ص ٧٦ .
(٦) نسب هذا القول الى أبو الحسن الكرخ وهو من علماء الحنفية ـ رحمه الله . انظر المصدر السابق ص ٧٦ .

والجهل ،والتصور ،والمحدودية فى التصـــــور ٠

أما كتاب الله حين يعرض حكما من أحكامه فى العبادات أو غيرها فيعرضه مـــن خلال منهاج متكامل ،يعرضه وهو مرتبط بهذا المنهاج لا ينفك عنه ،فحين يدرس المؤمـــن سورة المائدة مثلا ،يجد أن آيــة الوضوء تليها مباشرة آيات تربطها بمنهاج الله ربطا قويا متماسكا مثل قوله تعالى: (واذكروا نعمة الله عليكم ،وميثاقه الذى واثقكم بــه اذ قلتم سمعنا ،وأطعنا ،واتقوا الله انه عليم عليم بذات الصدور ٠) (١)

وتختم آيات الأحكــام فى القرآن بالترغيب أو الترهيب ،وتربط بالايمان والعقيدة ربطا محكما ٠ وتتوالى الآ يـــات فى السورة الواحدة ،قبل وبعد آيات الأحكام ،لتعطـــى الصورة الكاملة والمنهاج الواضح ٠ وترتبط السياسة والاجتماع والأحكام والتاريخ ربطـا منسقا ربانيا ،كما تعلم السورة أحكام العبادات تحدد للمؤمـن كذلك موقفه من النــاس والحياة ،من المنافقين والكافرين ،أو تجمع صف المؤمنين أو تذكر باليوم الآخـــر ، وتعطى ظلال الايمان ،كل ذلك فى منهاج رباني منسجم ومتكـامل ،فتتفتح القلوب وترق النفوس فتظهر آثاره سلوكا قويما ،وخلقـا عظيمـــا ٠ (٢)

ومنهاج الله يصنع فى بناء النفوس ما لا يصنعه ســواه ٠

أ- فهو يصلح النفوس ،ويقومها ،ويعـالج أمراضها ،ويحد من أهوائها فهو شفـــاء لما فم القلـوب والصدور ٠ يقول رب العزة : (وننزل من القرآن ما هو شفـاء ورحمـــة للمؤمنـــين) (٣)

ب- ويغذى الايمان وينميه ٠ يقول الله تعالى : (انما المؤمنين الذين اذا ذكـــر الله وجلت قلوبهم ،واذا تليت عليهم آياته زادهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلـــون) (٤)

ج- ويعطى التصورات الصادقة السليمة للكون والحياة والانسان ،دون أن تختلط بـأى تصورات بشــــرية ٠ قال تعالى: (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) (٥)

---

(١) سورة المائدة الآية ٧ ٠
(٢) دور المنهاج الرباني فى الدعوة الاسلامية ص ٧٦ - ٧٧ ٠
(٣) سورة الاسراء الآية ٨٣ ٠
(٤) سورة الأنفال الآية ٣ ٠
(٥) سورة الاسراء الآية ٩ ٠

د- وكتاب الله تعالى يسعى الى تضييق دائرة الخلاف بين المؤمنين فى مجال مباح لا يعقبه شقاق، ولا تعصف به الضلالات. قال سبحانه: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا، واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، واولئك لهم عذاب عظيم.)[1]

هـ- تميز النفوس المؤمنة عن غيرها، حيث تستبشر النفوس المؤمنة وتخبت وترتد نفوس المنافقين والكافرين. قال جل وعلا: (واذا ما انزلت سورة، فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا. فأما الذين آمنوا فزادهم ايمانا وهم يستبشرون. وأما الذين فى قلوبهم مرض، فزادتهم رجسا الى رجسهم، وماتوا وهم كافرون.)[2]

ومما تقدم يتضح جليا أن العقيدة الصافية، والتصورات والاساليب والوسائل من التربية والبناء تؤخذ مباشرة من منهاج الله، ثم يضاف اليها التجارب البشرية من خلال الممارسة لتزيدها عمقا، ويزيدها العمل والتطبيق اتساعا.

ومما يدل على أن الجهد البشرى من غير ارتباط بهذا المنهج الرباني، لا يعطى ثمرة، ما نجده عبر التاريخ، فالمسلمين كلما كانوا على صلة بكتاب الله، قويت شوكتهم وأثمرت الجهود البشرية، وكلما انحرفوا عن هذا المعين، اضطربت مواقفهم، وكلت عزائمهم، وحصروا أنفسهم فى نطاق أنفسهم لا يقدمون شيئا بل يؤخرونه. وواقع المسلمين اليوم فى مجال السياسة والاقتصاد وكل مناحي الحياة دليلا قاطعا على أنهم بدون السير فى ركاب منهج الله فلن تكون لهم شوكة ولا منعة واذا علم ذلك وجب عليهم الرجوع الى المنهج الرباني فى كتاب الله وسنة رسوله، ليبنوا النفوس بناء متكاملا ومتوازنا.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٥

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٥.

(٢) أن يؤخذ منهاج الله أخذا متكاملا عن فهم وتدبر ،لتؤخذ منه الأحكام وترد اليه الأمور عند الاختلاف :

لقد ظهر بين المؤمنين بالله ورسوله أمران فى طريقة تعاملهم مع كتاب الله ومنهاجه :(١)

أ- فمنهم من كان يكتفى بتلاوة هذا القرآن ،تلاوة تبرك وعادة . وحين يعرض له أمر يأخذ عنهم الحكم والأمر ،وهو قادر أن يعود به الى دين الله لو بذل الجهد لذلك ولكن الهمة قصرت ،والصورة اضطربت ،فظن أن ما عند هؤلاء الأولياء أيسر وأدنى مأخذا .

وأمر الله واضح بين يقول الله تعالى:

(اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ،ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون)(٢)

ب- وفريق آخر أخذ آية من هنا وآية من هناك ،وحديثا من هنا وحديثا من هناك وانطلق يغشى المجالس ،ويدعوويحكم وينقض . فاذا عرض له الأمر فى طريق الدعوة رده الى تصوراته البشرية أو الى أفكاره المضطربة المجزأة أو الى أهوائه وأمزجته ، أو الى ضغط الظروف وصعوبة الموقف .

فبالاضافة الى ما يتولد لدى هؤلاء من اضطراب ،واختلاط فى التصورات ،والى ما ينتج بينهم من مدارس ومذاهب متناحرة ،والى ما يبرز بينهم من أولياء ،فان العمل الاسلامى كله يضطرب عند ذلك ،وتتعدد مساربه ومداخله ،وتفتح ثغرات وتنهار حصون(٣)

وقد أمر الله تعالى برد الامور الى قرآنه وسنة نبيه ،ويرد الامور جميعها ، كبيرها وصغيرها كان الخطاب للمؤمنين . قال سبحانه:

(يا أيها الذين آمنوا ،أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الأمر منكم ،فان تنازعتم فى شيءفردوه الى الله والى الرسول ،ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .(٤)

---

(١) دور المنهاج الرباني فى الدعوة الاسلامية ص ٧٨ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٨ .
(٤) سورة النساء الآية ٥٩ .

والمؤمن الفرد يعرض له من أمور حياته ما يحتاج الى رده الى منهاج الله ،والجماعة المؤمنة تحتاج الى هذا أيضا . فقد يعرض الأمر للمؤمن فعليه أن يحدد هو موقفه ونهجه ،ويتحمل هو مسئولية عمله ،فلا يفيده أن يتبع هذا وذاك عن غير بينة وهو قادر على الفهم والتدبير ،والأخذ والمتابعة ،الا أن تهبط به رغباته ،وتقعد به أهواؤه ، فيرفع العلل والاعذار ،ويحتمى وراء رقيق الستار .(١)

فالمؤمن الفرد مسئول عن تطبيق منهاج الله فى مجالاته وحدوده ،وفى امور هو مسئول عنها محاسب عليها بين يدى العزيز الجبار . ولذلك حمل القرآن الكريم على الاتباع والمتبوعين الذى حادوا عن منهج الله . قال تعالى:

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ،يحبونهم كحب الله ،والذين آمنوا أشد حبا لله . ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ،أن القوة جميعا وان الله شديد العذاب . اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين ،ورأوا العذاب ،وتقطعت بهم العذاب .)(٢)

والمؤمن الفرد لا يستطيع أن يساهم فى مجال الدعوة الى الله أو أن ينزل ميدانها وهو مضطرب التصورات ،ضعيف الجانب ،قليل الزاد . لذلك وجب على الداعية العامل العودة الى المنهاج الرباني ، ليعى ويتدبر ويساهم فى تقوية بنيان الدعوة ،ويربأ بنفسه أن يكون امعة وتابعا ذليلا . وليعلم الدعاة جميعهم أن التقصير فى الأمر خطير على كيان الجماعة ،ليس على المدى القريب ،انما على المدى البعيد عندما تبرز فى حياة الامة المسلمة أجيال لا تتحرك الا بالأمر أو الاشارة ،فتكون الجماعة كلها معرضة للتفتت والخوار والضعف ،لأنها فى تلك الحالة تكون أقرب الى القطيع الذى يسوقه طفل دون الحلم ، وجماعة هذه حالها معرضة للسير فى ركاب كل ناعق مهما كان منحرفا أو ضالا لأنها لا تستطيع أن ترد القائمين عليها الى الجادة والحق المبين .

---

(١) دور المنهاج الرباني فى الدعوة الاسلامية ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) الاتصال المستمر بكتاب الله بدراسة معانيه وتدبر آياته :

وليس الأخذ من المنهاج الرباني وفهمه وتدبر معانيه محصورا بفترة زمنية محددة أو بمرحلة معينة من عمر الانسان ،ينتهي بانتهاء تلك الفترة الزمنية ،أو تلك المرحلة من عمر الانسان ، انما يجب أن يظل المؤمن العامل الذى يريد أن ينهض بدعوته أن يكون على صلة دائمة بكتاب الله ، والسنة المطهرة المبينة لكتاب الله .

انه يمكن للانسان ،أن ينتهي من أى كتاب في سنة أو في سنين محددة ،ويستوعب مافيه ثم ينقطع صلته به ،ولا يؤثر ذلك في حياته أو سلوكه . أما منهاج الله ـ قرآنا وسنة ـ فهو منهاج حياة ،تتجدد فيه المعاني ،وتمتد فيه الظلال . وكلما عاود المؤمن تدبر كتاب الله ،وسنة نبيه ،زاد فهمه ،ونما ايمانه ،واتسعت آفاقه ،وخاصة حين يوافق ذلك الجهد والعمل والدعوة والجهاد .

والقرآن هو كتاب الله ،جاء معجزا للبشر ،مفصلا ،كاملا ،حقا ،وجاءت السنة المطهرة مبينة لذلك كله . فلا يستطيع المؤمن أن يدع تدبرها ،والتفكر فيهما . ولو اكتفى بدراسة مرحلية ثم انقطع بعد ذلك ،تفلت منه هذا المنهاج وضاقت عليه معانيه ،وضمر ايمانه لضمور معينه ،وتوقفت حركته لانقطاع الوقود ،ولربما انحرف بنفسه ،وبمن معه ، الى غير الطريق الذى يهدف اليه المنهاج الرباني .

ان المنهاج الرباني ،منهاج حياة ،والحياة تتجدد أحداثها ،وتتغير أحوالها ،لذلك فان المؤمن العامل بحاجة مستمرة الى تحديد مواقف وتحديد رأى ،تجاه الأحداث المتجددة والأحوال المتغيرة ،وليس له أن يضمن سلامة تلك المواقف والآراء . الا بسلامة المعين الذى يستقى منه ،فاذا انقطعت الصلة ، انقطع المعين ،فليس له بعد الا الهلاك .

(٤) بذل الجهد الممكن لفهم منهاج الله:

ان اعتماد منهاج الله فى البناء والتكوين على النحو المتقدم ،يهدف الى أن يأخذ المؤمن تصوراته ،وعقيدته صافية ،نقية ،خالية من الشوائب . ولا يستطيع أى مصدر أن يقدم هذا الصفاء الا منهاج الله . وقد أنزل الله هذا المنهج ليقدم للناس هذه التصورات النابعة من العقيدة الصافية ،وليبين لهم النهج والاسلوب ،وليحدد الأوامر والنواهى ،وليقرر التكاليف . أنزله من السماء بهذه السفاية ،وليؤدى هذه المهمة ولا يعقل تعطيل هذه المهمة مهما تكن الاعذار والعلل (١)

قد يدعى البعض صعوبة فى الفهم من كتاب الله ،ومشقة فى الأخذ عنه ، وهذا العذر وغيره وارد حيث ضعفت اللغة العربية عن الكثيرين من أبناء الاسلام ،اما للعجمة فى اللسان واما لضعف المناهج المفضية الى تقوية اللغة ، ولكن هذا العذر وغيره من الأعذار لا يمكن أن توجد لها متسعا فى دين الله ،الا أن تكون اعذارا مؤقتة ،حتى ينهض المؤمن الى لغة دينه والى كل ما يحول بينه وبين تعلم أصول دينه ،فهى اذن يجب أن تكون اعذارا طارئة وليست أصيلة (٢)

فالأخذ من منهاج الله يحتاج الى جهد مهما كان هذا المنهاج سهلا وميسرا ،فهو ليس صحيفة تقرأ أول مجلة دورية تتداول للمرور عليها أوقات الاسترخاء والراحة ،ولكنه دين وعقيدة ،فالأخذ منه يحتاج الى جد لا هزل ،الى همة عالية لا استرخاء وقعود ،والى نهوض اليه وبه ،لا خمول وقعود عنه (٣)

وقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،يبنى الجماعة المؤمنة قرابة عشرين عاما بجهد متواصل ودأب كريم ،وظل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ،يأخذون عنه بهمة ونشاط عاليين وظهرت عبقريتهم فى فترة وجيزة من عمر الانسان قل أن تجود الزمان بأمثالهم .

وبهذا المنهاج وحدة ،وببذل الجهد المستمر كل قدر سعته وطاقته للأخذ من معينه الصافى ،يتم البناء والتكوين ،وتتضح المعالم للمجتمع المنشود .

---

(١) دور المنهاج الربانى فى الدعوة الاسلامية ص ٨٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٨١ .

وبدون هذا الجهد يكون الاسترخاء ،وتمتد الدعوة والسكون وفتور الهمم ،ويأخذ عند ذلك الناس من دينهم عرضا هينا ،وتكاليف ناعمة ،ومظاهر لينة . ويصبح المسلمون غرضا لكل غار ،وفريسة لكل معتد ،ونهبا لكل ضال ولكل ضلالة جديدة .(١)

ولقد كان هذا حال بنى اسرائيل حين وهنت عزائمهم عن حمل الكتاب قال تعالى: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ،يأخذون عرض هذا الأدنى ،ويقولون سيغفر لنا ، وان يأتيهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق ،ودرسوا ما فيه ،والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)(٢)

وأما الذين كانوا يجدون ،ويعملون ،ويأخذون التكاليف كلها من الكتاب ،يتمسكون به ،فكان لهم وصف آخر : قال تعالى: (والذين يمسكون بالكتاب ،وأقاموا الصلاة ، انا لا نضيع أجر المصلحين .)(٣)

ومن هنا كان ربط الايمان بالعمل فى كتاب الله :((الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)(٤) تعبيرات يكادان يكونان متلازمين . ومن هنا كان تأكيد القرآن على كلمة العمل ،وهو كناية على بذل الجهد الممكن فى مجال العبادة أو تحصيل العلم .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) .

والممارسة والعمل فى ميدان الدعوة ،تفتح منهاج الله للمؤمن العامل ويزداد فهمه ويتضح سبيله ،مادام متقيدا بأوامر الله ،متدبرا لمنهاج الله ،ومتفكرا فيه . وتصبح حينئذ دراسة منهاج الله وتدبره بحثا عن حلول ،وتقصيا الاجابات ،وتعرفا على مواقف وتحديدا لاتجاه ،فتصبح الدراسة والتدبر جهدا له غايته وأهدافه ،ييسرهُ الايمان وتباركه التقوى وتدفعه الطاقات والمواهب والهمم العالية تحقيقا لقوله تعالى:

(ان الذين آمنوا وعملوا ،الذين يهديهم ربهم بايمانهم)(٥) وقوله سبحانه:

(واتقوا الله ويعلمكم الله)(٦)

---

(١) دور المنهاج الرباني فى الدعوة الى الله ص ٨١ – ٨٢ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٩ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٠ .
(٤) سورة العصر الآية ٣ .
(٥) سورة يونس الآية ٩ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٥) البنـاء بالحـركة والتطبيـق:

إذا كانت دراسة هذا المنهاج ضرورية فى عملية البناء والتكوين ،فان دراسته تهدف بطبيعة الحال الى حسن تطبيقه والالتزام به فهو ليس نظرية تدرس فى قاعات الدرس فحسب ،بل هو منهاج انزل ليطبق فى الواقع البشرى على أساس من الايمان والتقوى .

وعند تطبيق منهاج الله فى واقع بشرى نشعر عندئذ بضرورة وعلى هذا المنهاج وعيا متكاملا ،كما نشعر بضرورة فهم الواقع الذى سيطبق فيه أو فهم القضية التى سترد اليه ،ونذكر قول الله سبحانه وتعالى:-
(ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا).(١)

ومنهاج الله متسع لكل مشكلات الانسان مهما تجددت أو اتسعت . ولا يضيق بها ولا يقصر عنها . ولكن جهد الانسان قد يضيق ،وعزيمته قد يقصر ،وحيث تتجدد أحداث الحياة ، وتتسع مشكلات الانسان على مدى طويل ممتد حتى قيام الساعة ،يجب أن تتجدد كذلك العزيمة ،ويمتد الجهد ،ويتوالى العمل فى حركة دائبة ونشاط مستمر فى ميدان الدعوة حتى تظل القدرة متوفرة على مجابهة الأحداث وردها الى دين الله ومن هنا نتبين طبيعة الحركة فى هذا الدين ،مما يفرض على أمة الاسلام ودعاتها أن يتسعوا لهذا الاتساع ،ويمتدوا لهذا الامتداد . (٢)

ولم تكن تكاليف هذا الدين محصورة لزمن من الأزمنة أو فترة من الفترات ،ولكنه دين للانسان وتكاليف لجميع العصور . وحين قال الله تعالى:
(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) (٣) ـ فقد صور لنا هذا الامتداد الطويل فى حرب الكافرين للاسلام . فأنزل هذا الدين ليجابه هذه الأحداث بهمة متجددة وحركة دائبة واستعداد مستمر .

---

(١) سورة الأسراء الآية ٣٦ .
(٢) دور المنهاج الرباني فى الدعوة الاسلامية ص ٨٢ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

فعند دراسة المنهاج الالهـــي،تتعمق هذه الدراسة ،ويزداد الفهم وهى تدور فـــى ميدان العمل ، وساحة الدعوة حيـــث تتكشف المعاني وتتضح الصورة على نحو لايتيسر للمؤمن المعتزل فى مسجده أو مكان عبادته ،المبتعد عن ميدان العمل والحركة والدعوة .

وهكذا بدأت الدعوة حين بدأت فى مكة المكـــرمة فى أول عهدها . وحى يتنزل علـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وجنود مؤمنون عاملون يتلقون الوحى السماوى فيدرسونه ويطبقونه فى الحال فى ساحة العمل وميدان الجهـــاد . وهكذا استمرت فى حياة الرســـول صلى الله عليه وسلم فى المدينة مع أصحابه البـــررة من المهـــاجرين والأنصـــار. وهكذا يحب الدعـــاة الذين يسعون لاعادة منهاج النبوة ،ليستمر الركب على منوال وطريق سلف هذه الامة الأطهـــــار .

(٦) الرعـــاية المستمرة لضمـــان النمو والاستمرار والتوالد والامتداد:

ان طبيعة هذا الدين فى الحـــركة والامتداد مع الحيـــاة تفرض أن تظل مدرسة الاسلام تقدم أفواجـــا على صورة نامية مستمـــرة ،أفواجـــا من المؤمنين العاملين الذيـــن صنعهم المنهـــاج الربـــاني ،وبنتهم الرســـالة السمـــــاوية .

وكأنما كل جيل يقـــدم جيلا جديد . وكل فوج يبنى فوجـــا جديدا .. وظلت حيـــاة الرسول صلى الله عليه وسلم تدفع أفواجا رائعة من هذا النمط من الأجيال دون توقـــف أو تعطـــل . واستمر هذا الأمر على شئ من القوة فى حيـــاة أبى بكر وعمر رض الله عنهما ثم تلت الفتن التى أعقبت عهد الشيخين ،فعطلت هذه الرفقات من الجيل القرآني ،وأخذت تفـــتر شيئا فشيئا حتى وقفت أو كـــادت .

فطبيعة الحـــركة والاستمـــرار فى هذا الديـــن تفـــرض أن تظل مدرسة الاســـلام تمـــارس البنـــاء والتكـــوين حـــتى تتجدد الأجيـــال على منهـــاج الله ،وتمضـــى

الدعوة فى طريقها الطريل . ففى حياة رسول الامة والقرون التاليةلها كانت الأفواج من جيل القرآن تتجدد وتتوالد ،ثم انحسرت لانحسار الأخذ من المنهاج الرباني فى الأزمنة الاخرى ،وتقلصت تلك الأفواج الى أعداد محددة تزيد متنقص فى نطاق ضيق ،من مجتمعات أقرب الى الركود منها الى الحركة والنمو والتجدد.

وكانت فترات الركود هذه ،هى التى مهدت لمآل المسلمين اليوم من تفلت وشتات وتمزق وضياع بعد أن جف معين العطاء وانقطع سبيل البناء والتكوين .

وحيث أن رسالة الاسلام ماضية ،الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،فانه من الضرورى أن تظل مدرسة الايمان تمد ميدان الدعوة بجنود القرآن ، امدادا مستمرا لا يتوقف . ولهذا فان مهمة الدعوة الاسلامية ليست مهمة جيل بعينه أو عصر بذاته ،ولكنها مهمة حياة تمتد بامتدادها وتتسع باتساعها . ويجب أن تظل الدعوة ماضية فى مهمتها فى الشدة والرخاء والمحنة والنعيم ،تتقيد فى كل عصر بكتاب الله وسنة نبيه ،لتبنى ويكوّن ويصنع ويقدم النماذج الخيرة باستمرار ودون توقف .

هذه مجمل القواعد والاسس فى تصور عملية البناء والتكوين للدعاة العاملين فى الدعوة الى الله .

وأساس ذلك كله أن يقوم البناء على منهاج الله قرآنا وسنة وأن تظل الجهود البشرية فى الفهم والتطبيق تساعد وتعين وتقدم تجربة وخبرة وتعطى رادا ونماذج .

وشتان بين مؤمن صنعه منهاج الله متكاملا ،وبين مؤمن تعلم آيات معدودات ثم دفع نفسه الى أمانة كبرى ومسئولية عظمى .

ثبت المراجع

أولا : القرآن الكريم وعلومه :

١ القرآن الكريم

٢ ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي ت ٥٩٧هـ) :
زاد المسير في علم التفسير ٩ أجزاء ط : المكتب الاسلامي بدمشق الطبعة الأولى سنة ١٣٨٥هـ .

٣ الجصاص : أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي :
أحكام القرآن، المطبعة البهية المصرية القاهرة سنة ١٣٤٧هـ .

٤ البيضاوي : القاضي ناصر الدين عبد الله البيضاوي :
أنوار التنزيل وأسرار التنزيل ط : مطبعة أحمدي بدلهي سنة ١٢٦٨هـ .

٥ دراز : محمد عبد الله (الدكتور) :
النبأ العظيم ط : دار القلم بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ .

٦ الرازي : فخر الدين محمد :
مفاتيح الغيب المطبعة العامرية المصرية بمصر سنة ١٣٠٨هـ .

٧ سيد قطب ابراهيم :
في ظلال القرآن ٦ مج ط : دار الشروق بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٧هـ .

٨ الصاوي : الشيخ أحمد :
حاشية الصاوي على الجلالين المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٤٧هـ .

٩ الطبري : محمد بن جرير ت ٣١٠هـ .
جامع البيان في تفسير القرآن ط : دار المعارف بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٨هـ .

١٠ القرطبي : (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٦٨هـ) :
الجامع لأحكام القرآن ط : دار الكتاب العربي بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٣٨٧هـ .

١١ عبد الرحمن بن ناصر السعدي :
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ط : المطبعة السلفية القاهرة (د.ت).

١٢ عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ :

تفسير القرآن العظيم ٤ مج ط : دار المعرفة بيروت سنة ١٣٨٨هـ .

١٣ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ت ١٣٩٣هـ :

أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن وتتمته للشيخ عطية محمد سالم ٩ مج ط : دار المدني بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ .

ثانيا : الحديث الشريف :

١٤ ابن الأثير الجزري : المبارك بن محمد الشيباني ت ٦٠٦هـ :

جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ١١ مج ط : مطبعة الفلاح بدمشق الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩هـ ، بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

١٥ أحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١هـ :

المسند ط : المكتب الاسلامي بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ .

١٦ البخاري : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي ت ٢٥٦هـ :

الجامع الصحيح ٤ مج ط : دار الفكر بيروت طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول .

١٧ الأدب المفرد ط : المطبعة السلفية القاهرة الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩هـ .

١٨ الترمذي : (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي ت ٢٧٩هـ) :

الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي ٥ مج ط : الحلبي القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

١٩ ابن حجر : أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢هـ :

فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٣ مج ط : المكتبة السلفية بالقاهرة د.ت تحقيق وتصحيح ومراجعة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ومحب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي .

٢٠ ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري ثم القرطبي ت ٤٦٣هـ :

جامع بيان العلم وفضله ط : دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٣٩٥هـ مراجعة وتصحيح عبد الرحمن حسن محمود .

٢١ أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥هـ :
سنن أبوداود ط : دار احياء السنة النبوية بالقاهرة تحقيق محمد محـي الدين عبدالحميد .

٢٢ ابن رجب الحنبلي : عبدالرحمن بن شهاب أحمد البغدادي ت ٧٩٥هـ :
جامع العلوم والحكم في شرح الأربعين النووية الناشر : مكتبة الرسالة الحديثة عمان (د.ت) .

٢٣ دراز : محمد عبدالله – دكتور :
المختار في كنوز السنة المحمدية شرح أربعين حديثا في أصول الدين ط : الشئون الدينية بدولة قطر .

٢٤ مسلم بن الحجاج القشيري ت ٢٦١هـ :
الجامع الصحيح ٤ مج ط : دار الآفاق الجديدة – بيروت .

٢٥ النووي : أبو زكريا يحي بن شرف الشافعي ت ٦٧٦هـ :
المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج ٩ مج ط : دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧هـ .

ثالثا : كتب السيرة النبوية والتراجم والطبقات :

٢٦ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن العام بن خليفة السعـدي الخزرجي ت ٦٦٨هـ) :
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ط : دار مكتبة الحياة بيروت سنة ١٩٦٥م شـرح وتعليق دكتور نزار رضا .

٢٧ ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي) :
مناقب الامام أحمد ط : دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م .

٢٨ سعيد حوى :
الرسول – الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٤هـ بيروت (د.ت) .

٢٩ سليمان الندوي :
الرسالة المحمدية – الطبعة الثانية دمشق (د.ت) .

٣٠ ابن القيم (أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ت ٧٥١هـ) :
زاد المعاد في هدى خير العباد ٥ مج ط : موءسسة الرسالة بيروت ومكتبة المنار بالكويت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ ـ تحقيق شعيب وعبدالقادر الارناوءوط •

٣١ ابن هشام : عبدالملك بن هشام الحميري ت ٢١٨هـ :
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ٤ مج ط : دار الفكر بيروت(د•ت) تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد •

رابعا : كتب العقائد :

٣٢ ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد :
الفصل في الملل والأهواء والنحل ط : دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٥م•

٣٣ أبو بكر جابر الجزائري :
عقيدة الموءمن ط : دار الشروق جدة الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ •

٣٤ ابن أبي شيبة : أبي بكر عبدالله بن محمد ت ٢٣٥هـ :
كتاب الايمان ط : المطبعة العمومية بدمشق بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني•

٣٥ حافظ أحمد حكمي :
معارج القبول بشرح سلم الوصول الى علم الأصول في التوحيد ط : المطبعة السلفية بمصر (د•ت) •

٣٦ حسن البنا :
كتاب العقائد (ضمن مجموعة رسائل) ط : موءسسة الرسالة ـ بيروت •

٣٧ شرح العقيدة الطحاوية ط : المكتب الاسلامي بيروت الطبعة الأولى بتحقيق جماعة من العلماء وخرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني •

٣٨ عبدالحميد السائح :
عقيدة المسلم ومايتصل بها ط : وزارة الأوقاف والشئون الدينية بعمان الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨م •

٣٩ عبدالله عزام :
العقيدة وأثرها في بناء الجيل ط : دار الاعتصام بالقاهرة (د•ت) •

٤٠ محمد بيصار (دكتور) :

العقيدة والأخلاق وأثرهما في الفرد والمجتمع – الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٣هـ(د٠ت)٠

٤١ محمد سعيد رمضان البوطي :

كبرى اليقينات الكونية ط : دارافكر بيروت الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ ٠

٤٢ محمد المبارك :

نظام الاسلام – العقيدة والعبادة ط : دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٣هـ ٠

خامسا : كتب الأحكام :

٤٣ ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني) :

العبودية في الاسلام ط : المطبعة السلفية – القاهرة الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٨هـ ٠

٤٤ الزرقاني :

شرح الزرقاني على موطأ مالك ط : مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة سنة ١٩٣٦م ٠

٤٥ الذهبي : شمس الدين أبي عبدالله الذهبي :

الكبائر ط : مطبعة الرياض الحديثة سنة ١٣٩١هـ ٠

٤٦ الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد :

احياء علوم الدين ط : دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٣٤هـ ٠

٤٧ محمد عبده (دكتور) :

العبادة في الاسلام ط : مكتبة الفلاح بالكويت الطبعة الثابتة ٠

٤٨ يوسف القرضاوي (دكتور) :

العبادة فيالاسلام ط : موءسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨م ٠

سادسا : كتب أصول الفقه :

٤٩ الآمدي : سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد الآمدي :

الاحكام في أصول الأحكام ط : مطبعة المعارف بمصر سنة ١٣٣٢هـ ٠

٥٠ التلمساني : أبوعبدالله أحمد المالكي :

مفتاح الوصول الى علم الأصول ط : تونس سنة ١٣٤٦ (د٠ت) ٠

٥١ الشاطبي : أبي اسحاق ابراهيم بن موسى :

الموافقات في أصول الشريعة ط : المكتبة التجارية الكبرى بمصر وبهامشه شــرح الشيخ عبدالله دراز ٠

٥٢ الشوكاني : محمد بن علي :

ارشاد الفحول الى تحقيق الحق على علم الأصول ط : الحلبي القاهرة سنة ١٣٥٦هـ ٠

٥٣ عبدالقادر شيبة محمد :

اقناع العقول بروضة الأصول الطبعة الأولى سنة ١٣٨٥هـ (د٠ت) ٠

٥٤ عبدالوهاب خلاف :

علم أصول الفقه ط : دار القلم الكويت سنة ١٩٧٢م – الطبعة العاشرة ٠

٥٥ الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد :

المستصفى في علم الأصول ط : دار التراث العربي بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤هـ ٠

سابعا : كتب علم مصطلح الحديث :

٥٦ أكرم ضياء العمري (الدكتور) :

بحوث في تاريخ السنة المشرفة ط : مطبعة الارشاد بغداد سنة ١٣٨٧هـ ٠

٥٧ ابن رجب : أبو الفرج عبدالرحمن بن رجب الحنبلي :

علل جامع الترمذي ط : دار الفكر بدمشق تحقيق نورالدين عتر (د٠ت) ٠

٥٨ السيوطي : جلال الدين :

تدريب الراوي شرح تقريب النووي ط : الحلبي بمصر – الطبعة الأولى ٠

٥٩ ابن كثير : عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي :

الباحث الحديث في اختصار علوم الحديث ط : دار الفكر بيروت (د٠ت) ٠

٦٠ محمد الصباغ (الدكتور) :

الحديث النبوي : مصطلحه وبلاغته ، كتبه ط : المكتب الاسلامي بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ ٠

٦١ محمود الطحان (الدكتور) :

أصول التخريج ودراسة الأسانيد ط : دار القرآن الكريم بيروت الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ ٠

٦٢ تيسير مصطلح الحديث ط : مطبعة المدينة بالرياض الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ .

٦٣ نورالدين عتر (الدكتور) :

منهج النقد في علوم الحديث ط : دارالفكر بدمشق الطبعة الثالثة .

ثامنا : كتب اللغة :

٦٤ الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٦هـ) :

مختار الصحاح ط : الأميرية ببولاق - الطبعة الثانية سنة ١٣٥٥هـ تحقيق محمودخاطر.

٦٥ الزبيدي : محمد مرتضى اليمني (ت ١٢٠٥هـ) :

تاج العروس في جواهر القاموس ط : دار صادر بيروت سنة ١٣٨٦هـ .

٦٦ ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي الافريقي المصري :

لسان العرب المحيط ط : دار صادر بيروت سنة ١٣٧٤هـ .

تاسعا : كتب الثقافة العامة :

٦٧ أحمد شلبي (الدكتور)

تاريخ التربية في الاسلام ط : مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٦٨ أحمد علي الملا :

أثر العلماء في الحضارة الغربية ط : دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١م .

٦٩ د. أحمد فؤاد الأهواني :

التربية في الاسلام ط : دار المعارف بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م .

٧٠ أحمد عبدالغفور عطار :

بروتوكولات صهيون : الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ مكة المكرمة (د.ت) .

٧١ د. أحمد أحمد غلوش :

الدعوة في عصر النبوة ط : مطبعة المدني الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م .

٧٢ أمين أحسن اصلاحي :

منهج الدعوة الى الله ط : دار نشر الكتاب الاسلامي تعريب سعيد الأعظمي الندوي.

٧٣ بدران أبو العينين بدران :
الزواج والطلاق في الاسلام ط : موءسسة الكتاب بالاسكندرية (د٠ت) ٠

٧٤ حقوق الأولاد في الشريعة الاسلامية ط : موءسسة شباب الجامعة بالاسكندرية الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م ٠

٧٥ ابن تيمية : أحمد بن عبدالحليم الحراني :
الحسبة ومسئولية الحكومة الاسلامية ط : دارالشعب بالقاهرة بتحقيق صلاح عزام (د٠ ت) ٠

٧٦ الرد على المنطقيين ط : بمباي سنة ١٩٤٧ (د٠ت) ٠

٧٧ د٠ جعفر شيخ ادريس :
منهج العمل الاسلامي ط : دار البحوث العلمية بالكويت سنة ١٩٧٩م ٠

٧٨ جلال الدين العمري :
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ط : شركة الشعاع للنشر بالكويت تعريف محمد اجمل ايوب اصلاحي ٠

٧٩ د٠ جلال محمد عبدالحميد موسى :
منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية ط دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م ٠

٨٠ ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي :
تلبيس ابليس ط : دار الوعي بيروت تحقيق خير الدين علي ٠

٨١ أبو الحسن علي الندوي :
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط : دارالأنصار بالقاهرة الطبعة العاشرة سنة ١٣٩٣هـ ٠

٨٢ الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة ط : دار القلم بالكويت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤هـ ٠

٨٣ حسين محمد يوسف :
أهداف الأسرة في الاسلام والتيارات المضادة ط : دار الاعتصام بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢م ٠

٨٤ حسني ناتان :

الماركسية في الفلسفة ط : دارالنشر للجميع بغداد (د٠ت) ٠

٨٥ ابن‌خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي :

مقدمة ابن خلدون ط : دار احياء التراث العربي – بيروت الطبعةالرابعة (د٠ ت) ٠

٨٦ دراز : محمد عبدالله :

دستور الأخلاق في القرآن ط : موءسسة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٧٣م ٠

٨٧ الذهبي : شمس الدين أبي عبدالله :

كتاب الكبائر ط : مكتبة الرياض الحديثة بالرياض سنة ١٣٩١هـ ٠

٨٨ د٠ رمزي نعناعه :

تنظيم الاسلام للمجتمع في نظام الأسرة والعقوبات ط : دار القلم الكويت سنة ١٣٩٧هـ ٠

٨٩ د٠ زغلول راغب النجار :

أزمة التعليم المعاصر ط : مطبعة الفلاح بالكويت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ ٠

٩٠ د٠ سعاد ابراهيم صالح :

علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية ط : تهامة بجدة الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ٠

٩١ سيد قطب ابراهيم :

معالم في الطريق ط : دار الشروق (د٠ت) ٠

٩٢ السيوطي : جلال الدين :

صون المنطق والكلام عن فتى المنطق والكلام الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦م القاهرة بتحقيق علي سامي النشار ٠

٩٣ حسن الحاضرة في اخبار مصر : ط الحلبي القاهرة (د٠ت) ٠

٩٤ الشاطبي : أبي اسحاق ابراهيم بن موسى :

الاعتصام ط : المطبعة التجارية بمصر (د٠ت) ٠

٩٥ الشوكاني : محمد بن علي :

مجموعة الرسائل المنيرية ط : المطابع الأميرية بمصر سنة ١٣٤٣هـ ٠

٩٦ د٠ عبدالكريم زيدان :

أصول الدعوة من منشورات جمعية الأماني الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٦م ٠

٩٧ عبدالرحمن حنبكه الميداني :
عزوف العميم ط : دار القلم بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ ٠
٩٨ صراع الملاحدة حتى العظم ط : دارالقلم بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٤هـ ٠
٩٩ الأخلاق الاسلامية وأسسها ط : دارالقلم بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م ٠
١٠٠ د٠ عجيل جاسم النشمي :
معالم في التربية الاسلامية ط : مكتبة المنار الاسلامية بالكويت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م ٠
١٠١ عدنان النحوي :
دور المنهاج الرباني في الدعوة الاسلامية ط : مكتبة الاعتصام بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ ٠
١٠٢ عفيف عبدالفتاح طباره :
روح الدين الاسلامي ط : دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر (د٠ت) ٠
١٠٣ روح الصلاة في الاسلام ط : دار العلم للملايين الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٤هـ ٠
١٠٤ العقاد : عباس محمود :
التفكير فريضة اسلامية ط : دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ ٠
ضمن مجموعة بحوث علمية مج ٥ ٠
١٠٥ د٠ عمر فروخ وخالدي :
التبشير والاستعمار ط : المكتبة العصرية بيروت الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٣م ٠
١٠٦ د٠ علي جريشه ومحمد شريف الزئبق :
أساليب الغزو الفكري في العالم الاسلامي ط : دار الاعتصام بالقاهرة الطبعة الأولى ٠
١٠٧ د٠ علي سامي النشار :
مناهج البحث عن مفكري
١٠٨ محب الدين الخطيب ومساعد اليافي :
الغارة على العالم الاسلامي ط : الدار السعودية للنشر بجدة الطبعة الثانية ١٣٩٧٨هـ ٠

١٠٩ محمد أحمد الراشد

المنطلق ط : موءسسة الرسالة الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦هـ ٠

١١٠ محمد أبو زهرة :

الأحوال الشخصية ط : دار الفكر العربي بالقاهرة الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٧هـ ٠

١١١ وحيد الدين خان

الاسلام يتحدى ط : دار البحوث العلمية الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م تعريب ظفر الاسلام خان مراجعة وتحقيق د٠ عبد الصبور شاهين ٠

١١٢ الاسلام والعصر الحديث ط : دار المختار الاسلامي القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م٠

١١٣ د٠ وحيد زين العابدين :

الاسلام والطفل ط : مكتبة المنار الاسلامية بالكويت ٠

١١٤ د٠محمد علي جوزو :

مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ط : مطبعة الملايين ببيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م ٠

١١٥ محمد سعيد القحطاني :

الولاء والبراء في الاسلام ط : دار طيبة بالرياض الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ ٠

١١٦ محمد شديد :

منهج التربية في القرآن ط : موءسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ ٠

١١٧ د٠ محمد نبيل عناشم

المبادىء التربوية في الاسلام ط : مكتبة الفلاح بالكويت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ بحث ضمن دراسات في الثقافة الاسلامية ٠

١١٨ د٠ محمد طه بدوي :

علم أصول السياسة ، دراسة منهجية ط :مكتبة المصري الحديثة للطباعة والنشر باسكندرية الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٧م ٠

١١٩ د٠ محمد غلاب :

علم الأخلاق ط : المطبعة الأهلية الحديثة بالقاهرة (د٠ ت) ٠

١٢٠ د٠ محمد مهران :

علم المنطق ، ط : دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٨م ٠

١٢١ ابن مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه :
تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ط : المطبعة المصرية القاهرة الطبعة الأولى(د٠ت)٠
١٢٢ مصطفى عبد الرازق :
تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية طبع بالقاهرة سنة ١٣٦٣هـ (د٠ت) ٠
١٢٣ د٠ مقداد يالجن :
التربية الأخلاقية ط : مطبعة الخانجي بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م ٠
١٢٤ الاتجاه الأخلاقي في الاسلام ط : مطبعة الخانجي بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م ٠
١٢٥ المودودي : أبو الأعلى :
نظام الحياة في الاسلام ط : موءسسة الرسالة - بيروت ٠
١٢٦ الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية ط : دار الجهاد بالقاهرة سنة ١٩٧٧م ٠
١٢٧ مبادىء الاسلام ط : موءسسة الرسالة ١٣٩٧هـ - بيروت ٠
١٢٨ الهضيبي : حسين اسماعيل :
دعاة لا قضاة ط : دار الطباعة والنشر الاسلامية الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ ٠

عاشرا : البحوث العلمية والدوريات :

١٢٩ بحوث الموءتمر الأول لرسالة المسجد في الاسلام المنعقد بمكة المكرمة في رمضان سنة ١٣٩٥هـ ط : دار عكاظ بجدة الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ ٠
١٣٠ بحوث وتوصيات الموءتمر الأول للتعليم الاسلامي بمكة المنعقد بمكة المكرمة في ربيع الثاني سنة ١٣٩٧هـ بدعوة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ٠
١٣١ بحث عن ضرورة العمل الجماعي للدكتور جعفر شيخ ادريس مطبوع بالآلة الكاتبة ٠
١٣٢ مجلة الوعي الاسلامي عدد يونيه سنة ١٩٦٩م تصدر عن وزارة الشئون الاسلامية بالكويت ٠
١٣٣ المجتمع مجلة اسلامية أسبوعية تصدر عن جمعية الاصلاح الاجتماعي بالكويت عدد ٣٨٨ ربيع الأول سنة ١٣٩٨هـ وعدد ٤٤١ جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ وعدد ٤٥٩ محرم سنة ١٤٠٠هـ والعدد ٤٣٩ جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ وعدد ٤٦٥ صفر سنة ١٤٠٠هـ ٠

١٣٤ المسلم المعاصر العدد الثالث عشر محرم ، صفر ربيع الأول سنة ١٣٩٨هـ ٠

١٣٥ هذه سبيلي – تصدر عن المعهد العالي للدعوة الاسلامية بالرياض – العدد الثالث للسنة الثالثة سنة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م ٠

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة عامة	
الباب الأول	
المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة	١ – ٤٩
الفصل الأول	
منهج البحث العلمي في الاسلام	
المبحث الأول : منهج القرآن في توجيه البحث عن الحقيقة	١
أ – أهمية العقل وعناية القرآن به	١
ب – توجيه القرآن العقل الى الكون	٣
جـ – ظاهرة الحياة النباتية وتوجيه العقل اليها	٦
د – توجيه القرآن العقل الى أصل الانسان ومراحل تطوره	٩
هـ – توجيه القرآن العقل لاستخدام الحواس	١٥
المبحث الثاني : منهج المسلمين في التحقق من النبأ	١٩
أ – الاهتمام برواية الحديث	١٩
ب – منهجهم في تحقيق الأخبار	٢٣
المبحث الثالث : منهج المسلمين في الاستدلال	٣٤
أ – منهجهم لتحقيق الادعاء	٣٤
ب – أصول منهجهم في الاستدلال	٣٨
جـ – منهجهم في البحث في مجال العلوم الطبيعية	٤٥
الفصل الثاني	
منهج البحث العلمي في الغرب	٥٠ – ٧٤
المبحث الأول : نشأة منهج البحث العلمي	٥٠
أ – تطور علم المنطق التقليدي	٥٠
ب – نشأة المنهج الاستقرائي	٥٢

الموضوع — الصفحة

المبحث الثاني : قواعد منهج البحث العلمي ٥٦

المبحث الثالث : تقويم منهج البحث العلمي الغربي بميزان الاسلام ٦٠

أ ــ الايمان بالغيب ونظرتهم اليه ٦٠

ب ــ ادعاء تعارض حقائق العلم والدين ٦٥

ج ــ أصل النظرية الاستقرائية لبيكون ٧٠-٧١

د ــ الادعاء بأن المنهج التجريبي من وضع الفكر الغربي ٧٢

الباب الثاني

قواعد بناء الشخصية المسلمة

الفصل الأول

القاعدة الايمانية ٧٥-١٣٣

المبحث الأول : أهمية البدء بالعقيدة الاسلامية ٧٥

المبحث الثاني : الايمان : معناه وحقيقته ٧٩

أ ــ معنى الايمان ٧٩

ب ــ حقيقة الايمان ٨١

المبحث الثاني : عناصر أركان الايمان ٩٥

١ــ معرفة الله تعالى وتوحيده ٩٧

٢ــ الايمان بالواسطة ١١٣

٣ــ الايمان باليوم الآخر ١١٨

المبحث الثالث : أثر الايمان في بناء المسلم ١٢٩

١ــ آثار الاقرار بلا اله الا الله ١٢٩

٢ــ أثر الولاء والبراء لله ولرسوله وللموءمنين ١٣١

٣ــ أثر الأخوة في الله ١٣٩

٤ــ أثر الايمان في أداء فريضة الجهاد ١٤٤

الفصل الثاني

القاعدة التعبدية ١٤٩ــ١٩٥

المبحث الأول : أهمية العبادة في الاسلام ١٤٩

الموضوع	الصفحة

المبحث الثاني : مفهوم العبادة في الاسلام ١٥١

المبحث الثالث : أسس العبادة الصحيحة ١٧٢

أ ـ أن تكون عملا صالحا ١٧٢

ب ـ أن تكون خالصة لله ١٧٣

جـ ـ أن تكون وفق ماشرع ١٧٥

المبحث الرابع : الوظائف الأساسية للعبادة ١٨٤

أ ـ العبادة تزكية للروح ١٨٥

ب ـ التوازن بين مطالب الروح والبدن ١٨٧

جـ ـ تقويم للأخلاق ١٩٢

الفصل الثالث

القاعدة الخلقية ١٩٦ــ٢٢٨

المبحث الأول : مفهوم الأخلاق ، وأهميتها في بناء لمسلم ١٩٦

أ ـ مفهوم الأخلاق في الاسلام ١٩٦

ب ـ أهمية الأخلاق في الاسلام ٢٠١

المبحث الثاني : خصائص الأخلاق الاسلامية ٢٠٢

أ ـ الشمول ٢٠٣

ب ـ مبدأ الالزام ٢٠٦

جـ ـ التطابق بين الغاية والوسيلة ٢٠٩

المبحث الثالث : اكتساب الأخلاق وتقويمها ووسائل تحصيلها ٢١٤

أ ـ الأخلاق فطرة أو اكتساب ؟ ٢١٤

ب ـ وسائل اكتساب الأخلاق ٢١٧

جـ ـ منهج تقويم الأخلاق ٢١٩

١ـ الاهتمام بترسيخ معاني العقيدة في النفس ٢١٩

٢ـ اتخاذ القدوة الحسنة ٢٢٢

٣ـ العلم بحقائق الأخلاق ٢٢٦

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث

وسائل بناء الشخصية المسلمة —٢٢٩

الفصل الأول

بناء الشخصية السوية من خلال الأسرة ٢٢٩—٢٦٨

المبحث الأول : المفهوم الشرعي للزواج في الاسلام ٢٢٩

المبحث الثاني : أهداف الزواج في الاسلام ٢٣٣

١ـ الهدف الاجتماعي ٢٣٣

٢ـ الهدف الخلقي ٢٣٥

٣ـ الهدف الروحي ٢٣٥

المبحث الثالث : الحقوق الشرعية للأبناء : ٢٣٩

١ـ حق النسب ٢٤٠

٢ـ حق الرضاع ٢٤٣

٣ـ حق الحضانة ٢٤٦

٤ـ حق النفقة ٢٤٩

٥ـ حق الصغير في الرعاية المالية ٢٥٧

المبحث الرابع : مسئولية البيت في التربية ٢٥٧

١ـ قبل الولادة ٢٥٧

٢ بعد الولادة ٢٦٠

الفصل الثاني

بناء الشخصية السوية من خلال التربية الاسلامية ٢٦٩—٣٠٤

المبحث الأول : مفهوم التربية الاسلامية وأهدافها وفلسفتها ٢٦٩

١ـ مفهوم التربية ٢٦٩

٢ـ أهدافها ٢٧٠

٣ـ فلسفتها ٢٧١

المبحث الثاني : أثر المدرسة الاسلامية في التربية والتعليم ٢٧٥

الموضوع | الصفحة

المبحث الثالث : مزالق التعليم المنهجي في العالم الاسلامي ٢٨٢
أ - مزالق السياسة التعليمية ٢٨٢
ب - مزالق المناهج الدراسية ٢٨٧
ج - مزالق الكتاب ٢٨٨
د - مزالق المعلم ٢٩٠
المبحث الرابع : طرق العلاج ....
١- تعميق المفهوم الاسلامي للتربية ٢٩٣
٢- صياغة المناهج وفق تعاليم الاسلام ٢٩٥
٣- اعداد المعلم اعداد اسلاميا ٣٠٠
٤- تعليم المرأة وفق تعاليم الاسلام ٣٠٥

الفصل الثالث

بناء الشخصية السوية من خلال المسجد

المبحث الأول : مفهوم المسجد ومكانته ٣٠٨
١- مفهوم المسجد ٣٠٨
٢- مكان المسجد في الاسلام ٣٠٩
المبحث الثاني : تعطيل رسالة المسجد وآثاره ٣١٤
المبحث الثالث : احياء رسالة المسجد وآثاره ٣١٨
أ - اعداد الأئمة والخطباء ٣١٩
ب - اعادة الحياة العلمية للمسجد ٣٢٣

الفصل الرابع

بناء الشخصية الصالحة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٢٧--٣٤٧
أ - المفهوم الشرعي للمعروف والمنكر ٣٢٧
ب - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٢٨
ج - حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٣٣
د - الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ٣٣٦
هـ - آثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر............................ ٣٤٢

الموضوع		الصفحة
الفصل الخامس		
بناء الشخصية المؤمنة		٣٤٨-٣٩٧
المبحث الأول :	أ ـ مفهوم الدعوة الى الله	٣٤٨
	ب ـ ضرورة العمل الجماعي	٣٤٩
المبحث الثاني :	أ ـ العمل الجماعي عند السلف	٣٥٧
	ب ـ العمل الجماعي ومفهومه الحديث	٣٦١
المبحث الثالث :	شروط الدعوة لدين الله	٣٦٦
المبحث الرابع :	القواعد التي تحكم سير الجماعة	٣٧١
المبحث الخامس :	مسئولية الداعية ووظيفته	٣٨١
المبحث السادس :	منهج بناء الأفراد والجماعة	٣٨٦
فهرس الموضوعات		٣٩٨

